# شرح

# فضل الإسلام

لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان
للنشر والتوزيع

# شرح
# فضل الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٤٢ – ٢٠٢١

دار الفرقان للنشر والتوزيع - ١٤٤٢/٢٠٢١
ردمك : ٣-٥٧-٦١٦-٩٩٣١-٩٧٨
الإيداع القانوني: السداسي الأول، ٢٠٢١

**Dar** Al-furquan Edition. 2021
ISBN: 978-9931-616-57-3
Dépôt Légal: 1er semestre. 2021

ISBN 978-9931-616-57-3

دار الفرقان للنشر والتوزيع
جوال: ٠٥٥٦٩٦٥٨١٠ (٠) ٢١٣ ٠٠
dar.alfurquan@gmail.com

# شرح

# فضل الإسلام


تصنيف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرحها

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري



دار الفرقان للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

# مُقدِّمَةُ المُعْتَنِي

الحمد لله الَّذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ

﴿نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [سورة النور: ٤٠]»(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ»(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» (ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ..»(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُّنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختصِر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك، ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»(١).

وقد كتب رحمه الله العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة «**فضل الإسلام**»(٢)، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في

---

(١) «الدَّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٢) قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «وله كتاب (**فضل الإسلام**) يشتمل على اثني عشر بابًا، فيها آيات وأحاديث وآثار، بلغ عدد الأحاديث والآثار ثمانية وأربعين معزوة إلى مصادرها، وبعض الآثار لا يعزوها إلى مصدر، وقد علَّق رحمه الله فيه على حديث الثلاثة الذين أرادوا التبتل والانقطاع للعبادة، وقال النَّبيُّ ﷺ في آخره: «فمن رغب عن سنتي فليس منِّي»، بقوله (ص: ١٠): (فتأمَّل! إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسمي فعله رغوبًا عن السنة، فما ظنُّك بغير هذا من البدع، وما ظنُّك بغير الصحابة؟!)» «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص١٥).

إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حَفِظَهُ اللهُ إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا(١).

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله وسلم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله
أبو عبد العزيز منير الجزائري
abou-abdelaziz@hotmail.fr

(١) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

# مقدمة الشارح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن نِعَم الله ﷻ على عباده كثيرةٌ لا تحصى وعديدةٌ لا تُستقصى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

وإن أجلّ نعَم الله ﴿تبارك وتعالى﴾ على عباده هدايته لهم إلى دينه الحنيف الذي ارتضاه ﴿تبارك وتعالى﴾ لعباده دينا، كما قال ﴿سبحانه وتعالى﴾: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. فالإسلام أعظم منّة وأكبر عطية أنعم بها ﴿تبارك وتعالى﴾ على عباده، ومَن منَّ الله عليه بالإسلام فليعرف نعمة الله العظيمة عليه بهذا الدين، وليعرف فضل هذا الدين ومكانته؛ فضل الإسلام، وحقيقة الإسلام، وما هي الأمور التي تنافي الإسلام أو تنافي كماله الواجب، يتعلم ذلك ليزداد استمساكًا ومحافظةً على هذا الدين وعنايةً به.

وبين أيدينا كتابٌ نافع جداً في بيان فضل الإسلام لإمامٍ وعلَمٍ نفع الله ﷻ به في مؤلفاته وكتبه القيمة التي انتشرت في أنحاء العالم؛ بيانـًا للدين وبيانـًا للتوحيد وبيانـًا للإسلام الذي شرعه الله ﷻ لعباده، وهو الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له.

وبين أيدينا كتابٌ له عظيم عنوانه: «فضل الإسلام»؛ وحقيقةً؛ عندما تقرأ عن فضل الإسلام تستفيد فوائد عديدة، أهمها ما يلي:

- **أولا**: أن تستشعر وتستحضر نعمة الله ﷻ عليك بهذا الدين الذي هو أعظم النعم وأجلّ المنن؛ فيوجِد عندك هذا الاستحضار شكراً لله ﷻ على هذه النعمة العظيمة، ومن شكر الله ﷻ على هذه النعمة العمل بالإسلام كما قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ:١٣]؛ العمل بهذا الإسلام والمحافظة عليه والاستمساك به والبُعد عن الأمور التي تُنقصه أو تُضعفه كل ذلك من شكر الله ﷻ على هذه النعمة.

- **الأمر الثاني** في دراستك وقراءتك عن فضل الإسلام؛ أن هذا سبب من الأسباب المعينة لك على الثبات على هذا الدين والمحافظة عليه والعناية به.

- **الأمر الثالث**: أن معرفة فضائل الإسلام تزيد المسلم في إسلامه قوةً وفعلاً لأوامر هذا الدين وبُعداً عما حرمه الله ﷻ على عباده، لأن معرفة الفضائل توجِد في العبد الرغبة في الزيادة من هذا الدين والعناية به.

- **الأمر الرابع**: أن معرفة فضائل الإسلام توجِد عند العاقل زهداً في البدع

والمحدثات والأمور التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان؛ لأنها ليست من الإسلام، وهذه الفضائل مختصة بالإسلام الذي بعث الله ﷻ به رسله ورضيه لعباده كما مر معنا قول الله ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾، فهو الدين الذي رضيه الله ﷻ لعباده.

- **الأمر الخامس**: أن واقع الناس الآن - بسبب كثرة الفتن والصوارف والصواد - فيه ضعفٌ في الاستمساك بهذا الدين، وضعفٌ في العناية به عقيدةً وعبادةً وخُلُقا؛ فكان الناس بحاجة إلى أن تُبيَّن لهم فضائل الإسلام ليعودوا من النقص إلى التمام، ومن الضعف إلى القوة.

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا عنوانه «فضل الإسلام»، وقد ضمّنه مؤلفه رحمه الله فوائد عظيمة تتعلق بالإسلام؛ بياناً لفضله، وإيضاحاً لحقيقته، وتحذيراً من الأمور المخالفة له، ونبدأ مستعينين بالله ﷻ في قراءة هذا الكتاب والوقوف على فوائده.

وأشير إلى أمر لابد من الإشارة إليه وهو: أن طريقة هذا المصنِّف - أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتبه كلها: أنه يجمع الآيات والأحاديث الواردة في الباب ولا يزيد على ذلك، ولهذا سنرى هذا الكتاب لا تجد فيه كلاماً للمصنف في الغالب وإنما تجد فيه آيات وأحاديث؛ فهو رحمه الله جمع لك الآيات والأحاديث التي تتعلق بهذا الموضوع ولم يزد على ذلك، بخلاف كتب أهل البدع فإنهم يجمعون للناس فيها آراءهم وتصوراتهم

وعصارات أفكارهم، أما هذا المصنِّف وأئمة السلف وعلماء السنة في القديم والحديث فطريقتهم جمع الآيات من كلام الله ﷻ والأحاديث في سنة النبي ﷺ وتبويبها وترتيبها، وربما علّق بعضهم عليها بما يقتضيه المقام من إيضاحٍ وبيان يستفيد منه القارئ بإذن الله تعالى.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

## المتن

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في رسالته «فضل الإسلام»:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين.

باب فضل الإسلام

وقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

## الشرح

قال المصنِّف رحمه الله: (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين)؛ فبدأ هذا المؤلِّف القيِّم بالبسملة مقتديًا بكتاب الله عز وجل، ومقتديًا بسنة لنبي عليه الصلاة والسلام وطريقته في مراسلاته ومكاتباته؛ فكان صلى الله عليه وسلم يبدأ بالبسملة.

وقول من يكتب: «بسم الله» أي: بسم الله أكتب، والباء في البسملة باء الاستعانة؛ فالمبسمِل هو في الحقيقة مستعينٌ بالله جل وعلا طالبٌ عونه متيمِّنٌ بذكر اسم ربه تبارك وتعالى في أول عمله وبداية عمله؛ ولهذا تُشرع البسملة في بداية الأعمال؛ بداية الأكل، وبداية الشرب، وعند دخول المنزل، وعند الخروج منه لأي مصلحة من المصالح، وعند قراءة القرآن، وفي أول الصلاة، فتشرع البسملة في أوائل الأعمال تيمنًا وتبركًا بذكر اسم الله عز وجل وطلبًا لمدِّه وعونه وتوفيقه سبحانه وتعالى؛ لأن الباء في «بسم الله» باء الاستعانة، ومن يكتب ويبدأ كتابته بـ «بسم الله» فتقدير

قوله هذا: أي: بسم الله أكتب، فالجار والمجرور متعلقٌ بمحذوف تقديره: أكتب، وإن كان المبسمِل قارئًا فالتقدير: باسم الله أقرأ، داخلاً: بسم الله أدخل، بسم الله أخرج، ويُحذف متعلق الجار والمجرور للعلم به.

قال: (**بسم الله الرحمن الرحيم**)؛ ذكر ثلاثة أسماء حسنى لله ﷻ:

«**الله**»: وهو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين»(١).

و «**الرحمن الرحيم**»: اسمان دالان على ثبوت الرحمة صفةً لله ﷻ؛ و«**الرحمن**»: دالٌ على الرحمة التي هي الصفة القائمة بالله، و«**الرحيم**» دالٌ على تعلقها بالمرحومين كما قال ﷻ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾[الأحزاب:٤٣]، ولا يوجد [كان رحمانًا بالمؤمنين].

قال: (**وبه نستعين**)؛ به: أي بالله ﷻ، نستعين: أي نطلب العون.

وطلب العون من الله في كل عمل ديني ودنيوي أمرٌ لابد منه؛ لأن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله؛ فلابد من طلب العون والذل بين يدي الله تبارك وتعالى والاستعانة به وحده ﷻ؛ لأن الأمور كلها بيده سبحانه فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يستطيع الإنسان أن يقرأ كتابًا إلا إذا أعانه الله، ولا يستطيع أن يحضر درسًا إلا إذا أعانه الله، ولا يستطيع أن يعمل بذكرى أو موعظة إلا إذا أعانه الله، ولا يستطيع أن يؤدي صلاةً إلا إذا أعانه الله، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡلَا

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٢٣).

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]، فالأمور كلها بتوفيق الله ﷻ وعونه؛ ففي «سنن أبي داود» و«سنن النسائي» وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا وَقَالَ: يَا مُعَاذٍ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذٍ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1]، وفي ﴿سورة الفاتحة﴾: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فالاستعانة - وهي طلب العون - عبادة عظيمة لابد منها في كل شؤون الإنسان وأموره ومصالحه الدينية والدنيوية؛ يطلب عون الله تبارك وتعالى ومدَّه سبحانه وتعالى وتوفيقه[2].

قال: (**بابٌ فضل الإسلام**)؛ أي: هذا باب معقود لبيان فضل الإسلام، و«**فضل**» هنا مفرد مضاف، والقاعدة في المفرد إذا أضيف أنه يعُم، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى:١١] أي نِعَم ربك.

«فضل الإسلام» أي: فضائل الإسلام، فالمفرد إذا أضيف يعُم، والإسلام له فضائل لا تحصى؛ بل أن كل خير يناله العبد في دنياه وأخراه هو ثمرة من ثمار

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

(٢) ومن جميل ما نقل الإمام ابن القيم رحمه الله عن شيخه شيخ الإسلام رحمه الله: «وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء» «مدارج السالكين» (١/ ٥٤).

الإسلام ونتيجة من نتائجه، وكل شر يناله العبد في دنياه وأخراه فسببه تضييع الإسلام.

دين الإسلام سبب العز والرفعة والتمكين والأمن والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وتضييعه هو سبب الحرمان والخسران في الدنيا والآخرة، ففضائل الإسلام لا تعد ولا تحصى، وهذا الباب عقده المصنف ليبين شيئاً من فضائل الإسلام وفضائل هذا الدين العظيم.

ومعرفة فضائل الإسلام مفيدة للمسلم ولطالب العلم؛ لأنها -كما تقدم- تحرك في القلب شكر المنعِم، وتعين على الثبات، وتكون سبباً للزيادة من هذا الدين والمحافظة عليه، وسبباً للبُعد عن الأمور الصادّة عنه والصارفة عنه وهي كثيرة؛ فمعرفة فضائل الإسلام والعناية بها مفيدة جداً للمسلم، خاصةً في مثل هذا الزمن الذي راجت فيه الدعوات الباطلة للرذيلة من جهة، وللضلالات بأنواعها من جهة أخرى؛ فاحتاج المسلم أن يقف على فضائل دينه لتكون هذه المعرفة لفضائل الدين سبباً لزيادة الاستمساك به والمحافظة عليه والثبات عليه والبُعد عن الأمور المخالفة له؛ وإن بُهرِجت وزُيِّنت وكثرت دعاياتها فلا يغتر بها المسلم، لا يغتر بها العاقل، بل يقف على دينه وعلى فضائله ويستمسك به إلى أن يتوفاه الله ﷻ وهو على ذلك، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران:١٠٢].

قال: (**بابٌ فضل الإسلام**)؛ والإسلام الذي ألّف المصنف هذا الكتاب لبيان

فضله هو دين الله ﷻ الذي رضيه لعباده، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]؛ فالإسلام هو دين الله الذي رضيه تبارك وتعالى لعباده واختاره لهم وأمَرهم به، ولا يقبل لهم ديناً سواه.

والإسلام: هو الاستسلام لله جل وعلا، وقد قال مصنف هذا الكتاب في تعريفٍ له قيّم للإسلام: «هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله»[(١)]؛ هذا هو الإسلام، الإسلام: أن تكون مستسلماً؛ أي: منقاداً مطيعاً ممتثلاً، ما يأمرك الله تبارك وتعالى به تطيعه فيه وتمتثل أمره ﷻ وتنقاد؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَصَلَّى صَلاَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَهُوَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ»[(٢)]، وقال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[(٣)].

وأعظم ما يجب في هذا الباب: الاستسلام لله بالتوحيد؛ بأن تكون عبداً موحداً، أمَرك الله بالتوحيد والإخلاص وخلقك لذلك؛ فالواجب أن يستسلم العبد لذلك.

---

(١) «ثلاثة الأصول» (ص٦).

(٢) رواه البخاري (٣٩٣).

(٣) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤١).

وانظر أروع مثلٍ في تحقيق الاستسلام للملِك العلَّام ﷻ في قول إمام الحنفاء، وانظر ما جاء قبله من تمهيد وتوطئة لذلك بقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢]؛ ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ﴾؛ لاحظ هذا الانقياد الفوري والطواعية السريعة والاستجابة بلا تردد ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ﴾: أي انقدتُ وأنا عبدٌ مطيعٌ منقاد مستسلم لله رب العالمين ﴿أَسۡلَمۡتُ﴾: أي انقدتُ.

فالإسلام هو دين الله ﷻ وهو يعني: الانقياد لله ﷻ بالتوحيد والإخلاص، والبراءة من الشرك والبعد عنه، والامتثال لله ﷻ بطاعته ﷻ؛ بأن يكون المسلم عبداً مطيعاً لربه ﷻ فيما يأمره وفيما ينهاه؛ يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي.

وعندما نتأمل في نصوص القرآن والسنة التي ورد فيها ذكر الإسلام نجد أن للإسلام في النصوص إطلاقين:

١- تارة يطلق الإسلام منفرداً.

٢- وتارة يطلق الإسلام مضموماً إلى الإيمان.

▪ والإسلام عندما يأتي في النصوص مفرداً فإنه يشمل الدين كله، فقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا﴾ [آل عمران:٨٥] وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ونحوها من الآيات؛ المراد بالإسلام هنا: الدين كله؛ عقائده وعباداته وأخلاقه كل ذلك

داخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، فالإسلام عند الإطلاق المراد به الدين كله بعقائده وأعماله وأخلاقه، المراد به الدين كله عقيدة وشريعة؛ هذا عند الإفراد.

- الإطلاق الثاني: يأتي الإسلام مضموماً إلى الإيمان ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، في الحديث قال سعد للنبي ﷺ: «مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ!! فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا»، فقال النبي ﷺ: (أَوْ مُسْلِمًا)[١] وأعاد سعد وأعاد النبي ﷺ، فيأتي في بعض النصوص ذكر الإسلام مضموماً إلى الإيمان، ففي هذه الحالة يراد بالإسلام: أعمال الدين الظاهرة، ويراد بالإيمان: عقائد الدين الباطنة كما جاء ذلك في حديث جبريل المشهور قال: (أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ»)؛ ففسَّر الإسلام بالأقوال والأعمال الظاهرة، ثم قال: (أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ؟ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)[٢]؛ ففسر الإيمان بالعقائد الباطنة التي في القلب؛ وهي الإيمان بالله، والإيمان

---

(١) رواه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

(٢) رواه مسلم (٨).

بالملائكة، والإيمان بالكتب، والإيمان بالرسل، الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

فأصبح يراد بالإسلام والإيمان حال اجتماعهما - كما في النصوص التي أشرت إلى جملة منها - يراد بالإسلام: جنس الأقوال والأعمال، ويراد بالإيمان: جنس التصديق والإقرار؛ فكل ما كان عملاً أو قولاً فهو من الإسلام، وكل ما كان تصديقاً وإقراراً بالقلب فهو من الإيمان.

وهذا مبني على قاعدة ليست مختصة بهذين الاسمين فقط؛ بل تتناول كثير من الأسماء الشرعية، والقاعدة هي قول أهل العلم: «إن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسمياتٍ متعددةٍ عند إفراده وإطلاقه؛ فإذا قُرِن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دالٌ على باقيها»، هذه القاعدة تشمل: الإسلام والإيمان، والبر والتقوى، والكفر والشرك، والفقير والمسكين، وأسماء شرعية كثيرة جداً يعبِّر بعض أهل العلم عن هذا النوع من الأسماء بقولهم: «إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت»؛ إذا اجتمعت أي في الذكر - ذُكرت في نص واحد - افترقت في المعنى، وإذا افترقت في الذكر: أي ذُكر كل واحد منها مفرداً اجتمعت في المعنى، وهذا كما قدمت يتناول الإسلام والإيمان ويتناول أيضا أسماء شرعية كثيرة جداً.

وعلى ضوء ما تقدم لو قيل لنا: من المسلم ومن المؤمن؟ وهذا سؤال مهم، قد مر معنا قول الله ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ الآية

واضحة أن رتبة الإيمان رتبة أعلى من الإسلام، ولهذا لما قال هؤلاء الأعراب آمنا وهم لم يصِلوا إلى هذه الرتبة -رتبة الإيمان- قال: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؛ يعني ما زلتم في رتبة الإسلام ولم تصِلوا إلى رتبة الإيمان بعد، والدين رُتَب ومراتب؛ ومراتبه ثلاث جاءت في حديث جبريل، ذكر الإسلام، ثم ذكر الإيمان، ثم ذكر الإحسان وقال في تعريفه: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، ثم ختم الحديث بقوله: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»؛ فديننا مراتب ثلاثة: الإحسان، والإيمان، والإسلام.

رتبة الإحسان هي أعلى رتب الدين، ورتبة الإيمان أقل منها، ورتبة الإسلام أق، وليس وراء الإسلام إلا الكفر.

أحد العلماء المتقدمين ضرب مثالاً جميلاً لتوضيح هذه الرتب الثلاث؛ فوضع ثلاث دوائر كل دائرة في داخل الأخرى، دائرة صغيرة، ويحيط بها دائرة أكبر، ويحيط بها دائرة ثالثة أكبر، فقال عن الدائرة الصغيرة هذه الإحسان، والدائرة الأوسع منها قال هذه الإيمان، والدائرة الأوسع قال هذه الإسلام، فإذا دخل الإنسان في دائرة الدين أول ما يبدأ بالدخول يكون دخوله في أول رتب الدين وهي الإسلام.

وما هو الإسلام الذي هو أول رتب الدين؟ أن يستسلم؛ ينطق بالشهادتين ويمتثل ما تقتضيه الشهادتان من طاعة وامتثال لله فهذا مسلم، يفعل شعائر الدين الظاهرة مع عنايته بالإسلام وفهمه له وتحققه القلبي بهذا الدين وملأ قلبه

بعقائده ينتقل من رتبة الإسلام إلى الإيمان، وهي رتبة أعلى، وهي عمارة القلب وملأه بحقائق الإيمان، وقد قال ﷺ عن عمار بن ياسر رضي الله عنه: «إِنَّ عَمَّاراً مُلِيَ إِيمَاناً إِلَى مُشَاشِهِ»(١) يعني إلى أطراف قدميه، مُلأ من الداخل إيمانا، هل يُسوَّى بين من امتلأ قلبه إيمانًا وبين من هو مسلم يعبد الله ولكنه على حرف - على طرف-!! ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾ [الحج: ١١]، أقل فتنة تبعده عن دينه!!.

فإذاً المسلم: هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه ، لأن الأعمال الظاهرة بدون شيء من الإيمان يصحح هذا الإسلام لا تُقبل؛ لأن الإيمان الباطن أساس لقبول العمل الظاهر، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾[الإسراء:١٩]، ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النحل: ٩٧].

فإذاً المسلم هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه، والمؤمن هو الذي عُمِر قلبه بحقائق الإيمان، وهذا ما جاء الإشارة إليه في قوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾: يعني يتغلغل ويتمكن في القلب، وللسلف من الصحابة والتابعين ومن اتبعهم بإحسان أقوال كثيرة أيضًا

---

(١) رواه ابن ماجه (١٤٧)، والنسائي (٥٠٠٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٠٧).

في تقرير ذلك، منها: قول عمير بن حبيب الخطمي رضي الله عنه: «الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: فما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا ربنا وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه»(١).

فحتى يتغلغل الإيمان في القلب ويتمكن في القلب ويرسخ في القلب ينتقل الإنسان إلى رتبة الإيمان، وهي الرتبة الأعلى.

ومن نرى فيه خيراً من أهل هذا الدين نحكم عليه بالإسلام، لأن حُكمنا عليه بالإسلام حُكم بالظاهر - بما ظهر لنا منه - فنقول مسلم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣]، أما الباطن فأمره لا يعلمه إلا رب العالمين سبحانه وتعالى، فلا يزكي الإنسان نفسه بذلك ولا يزكي غيره، وإنما يجاهد نفسه على تحقيق الإيمان وتقويته والبحث عن الأسباب التي تزيده وتقوِّيه، والبعد عن الأسباب التي تضعفه وتنقصه وتوهِّيه.

ثم أعلى من ذلك رتبة الإحسان؛ وهي أعلى رتب الدين، وإذا تصوّرت هذه على ضوء المثال الذي ذُكر؛ تعلم من خلال هذا المثال أن كل محسن مؤمنٌ مسلم، لأن الذي يصبح في الدائرة الصغرى تحيط به الدوائر الأخرى، ولا يصل إلى الإحسان إلا من خلالها، فكل محسن مؤمن مسلم، وكل مؤمن مسلم.

ثم إذا أردنا أن نعكس نقول: ليس كل مسلمٍ مؤمناً ولا محسنًا، وليس كل مؤمن محسنا، وهذا واضح في الآية؛ رب العالمين قال: ﴿۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٦٢٤).

﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ أي: لم تصِلوا بعد إلى رتبة الإيمان، مازلتم في رتبة الإسلام، فليس كل مسلمٍ مؤمنًا، يعني ليس كل من دخل الإسلام بلغ رتبة الإيمان هذه الرتبة العالية، متى يبلغها؟ إذا تمكن الإيمان من قلبه، فإذا تمكن الإيمان وتمكنت عقائد الإيمان الصحيحة من قلبه ورُزق الإيمان في قلبه يبلغ حينئذ رتبة الإيمان، كثير من الناس تجده يحدَّث عن الإسلام وعن أعمال الإسلام ويراها أعمال جميلة وطيّبة فينطق بالشهادتين ويسلِم ويبدأ يصلي ويصوم ولكن حقائق الإيمان الباطنة ليست متمكنة في قلبه!! فهو في رتبة الإسلام، وإذا دخل الإيمان وتمكن من قلبه يصل إلى رتبة الإيمان، ثم إذا بلغ حاله في عبادة الله والتقرب إليه الرتبة التي جاء بيانها في قوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» فهذه رتبة الإحسان.

والإحسان له ركن واحد وهو «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»: أي أن يكون الإنسان في عبادته لله تبارك وتعالى بهذه الصفة العظيمة.

إذاً الإسلام: هو الاستسلام لله تبارك وتعالى والانقياد لأمره، وهو يشمل الدين كله عند إفراد الإسلام وإطلاقه، ويكون مختصًا بأعمال الإسلام الظاهرة عند ضمِّه للإيمان وقرنه معه في النص الواحد.

قال المؤلف رحمه الله: (**باب فضل الإسلام وقول الله تعالى:** ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾).

هذه الآية عظيمة جداً في بيان قيمة هذا الدين ومكانته من جهة، وبيان تمامه

وكماله من جهة أخرى وأنه لا نقص فيه؛ دين الإسلام دين تام كامل لا نقص فيه[1].

قوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ لأن شرائع الدين وأوامره جاءت تبعًا، لم يؤمر بها الناس كلها في زمن النبي ﷺ دفعة واحدة؛ وإنما جاءت تتنزّل بالتدريج، يأتي أمر ثم يأتي آخر ثم يأتي آخر إلى أن كمُل الدين، جاءت فرائض الإسلام وواجباته واحداً تلو الآخر وأحيانًا يكون بين فريضة وفريضة ليس شهر ولا شهرين ربما سنة أو سنتين، فجاءت فرائض الإسلام وواجبات الإسلام واحداً تلو الآخر إلى أن كمل الدين؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لم ينزل بعدها حلال ولا حرام وتوفي بعدها النبي بقرابة ثمانين يومًا ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، لماذا؟ لأن بنزول هذه الآية كمُل الدين.

وهذه الآية الواجب على كل مسلم أن يشتد فرحه بها وأن تعظم في قلبه - والقرآن كله عظيم - لأنها آية تخبرك وتدلّك أن الدين الذي أكرمك الله به دين كامل، لم يمت ﷺ حتى أنزل الله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فهو دين كامل لا

---

(١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف» «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٦).

نقص فيه؛ كامل في عقائده، كامل في عباداته، كامل في أخلاقه ومعاملاته، كامل من كل وجه، دين كمّله من أنزله وهو رب العالمين ﷻ؛ ولهذا جاء في «الصحيحين» عن طارق بن شهاب قال: (جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا - عرفوا قيمة الآية - قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ؟ قَالَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»[(١)]؛ نزلت هذه الآية في هذا اليوم العظيم المبارك الذي هو سيد الأيام على الإطلاق؛ فيوم عرفة سيد أيام السنة، ويوم الجمعة سيد أيام الأسبوع، خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ عرفة، وقد قال عليه الصلاة والسلام مبيّنا هذه الخيرية: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[(٢)].

وتأمل هذه اللطيفة: كان عليه السلام في خير الأيام يُكثِر من خير الكلام، لأن خير الكلام: لا إله إلا الله، وخير الأيام: يوم عرفة؛ فناسب غاية المناسبة الإكثار من خير الكلام في خير الأيام، ليس في الكلام خير من لا إله إلا الله، وليس في الأيام

(١) رواه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٨٣٧).

خير من يوم عرفة؛ فكان في غاية المناسبة الإكثار من خير الكلام في خير الأيام.

فالشاهد: أن يوم عرفة خير أيام السنة، ويوم الجمعة خير أيام الأسبوع، ويوم الجمعة يوم عيد، فيقول عمر: «إِنِي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»؛ أما الساعة: قال: «عَشِيَّةَ عَرَفَةَ»، وأما اليوم: قال «فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»، فهي نزلت في هذا الوقت المبارك العظيم، ثم مات النبي ﷺ بعدها بثمانين يومًا تقريبًا ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام، إذاً الواجب على أهل الإسلام أن يعرفوا هذه الآية ومكانتها التي تدلهم على فضل الإسلام.

من أعظم فضائل الإسلام: أنه دينٌ كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وإذا عرفت أن دين الإسلام كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه فعليك أن تعرف أن كل بدعة فهي ضلالة كما قال ذلك رسول الله ﷺ، بل لم يقل ذلك مرة واحدة ولا مرتين ولا ثلاث ولا عشر، كان إذا خطب الناس قال: «أما بعد، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١) لم يستثنِ ﷺ بل عمّم وأطلق: «وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

**سؤال: لماذا كل بدعة ضلالة؟**

**الجواب**: لأن الدين كامل، ومن يقول: في البدع بدعة ليست ضلالة بل هي

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

حسنة؛ فإن هذا يعني أن في الدين أمور حسنة مات نبينا ﷺ ولم يبيّنها وهذا أمر خطير؛ ولهذا قال إمام دار الهجرة؛ الإمام مالك بن أنس رحمه الله، قال كلمة عظيمة جداً: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ فما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا»[1] ولن يكون دينا إلى أن تقوم الساعة، الدين هو الدين الذي مات النبي ﷺ وترك الناس عليه، وما سوى ذلك محدثات وأمور مردودة على فاعلها؛ ولهذا قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]، قال: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[3]، قال: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»[4] فالدين هو ما كان عليه رسول الله ﷺ.

قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؛ اليوم: هو يوم عرفة؛ في يوم عرفة والنبي ﷺ واقف في عرفة نزلت: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؛ ففي يوم عرفة الدين كمُل بحلاله وحرامه وفرائضه وواجباته وأوامره.

ولهذا بعد يوم عرفة عاش النبي ﷺ فترة ليست بطويلة لم ينزل فيها حلال ولا حرام، لأن الدين كمُل في ذلك اليوم.

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٢٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) رواه البخاري (٦٣١).

(٤) رواه مسلم (١٢٩٧).

﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ تمت النعمة بكمال الدين؛ وهذا فيه فائدة لك: أن تمام النعمة عليك بحسب حظك من الدين؛ فكلما كان حظك من الدين أعظم كان نصيبك من النعمة أوفر.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾؛ وهذه فضيلة من فضائل هذا الدين، وهو أنه دين رضيه الله ﷻ لعباده، بل لا يرضى ديناً سواه، ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥] يعني من ابتغى لنفسه ديناً غير هذا الدين الذي بُعث به النبي ﷺ فلن يُقبل منه، وليس فقط لا يقبل منه ثم يكون الأمر لا له ولا عليه!! لا؛ ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

إذاً قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ في هذه الآية ثلاثة فضائل للإسلام:

١) **الفضيلة الأولى**: أنه دين كامل لا نقص فيه.

٢) **الفضيلة الثانية**: أن تمام النعمة على العبد لا تكون إلا به.

٣) **الفضيلة الثالثة**: أنه الدين الذي رضيه ﷻ لعباده.

ولهذا بدأ المصنف رحمه الله بهذه الآية العظيمة؛ لما اشتملت عليه من بيان فضائل هذا الدين وكمالاته، وأنه سبب النعم والسلامة من النقم؛ النعم بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وكذلك البعد من النقم، كل ذلك لا يكون إلا بالمحافظة على هذا الدين والعناية به عقيدةً وعبادةً وخُلقاً وسلوكا.

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ الآية [يونس:١٠٤].

## الشرح

ثم ثنّى بهذه الآية العظيمة وهي أيضًا تبين مكانة هذا الدين وعِظم شأنه؛ بقوة حُججه وبراهينه وأنه دين واضح؛ براهينه واضحات، دلائله جليات، وما سواه أديان باطلة قائمة على الخرافة وعلى الوهم وعلى الظنون الفاسدة والأفكار الكاسدة، أما دين الإسلام فهو دينٌ عظيم، دينٌ قائم على البراهين الواضحة والحجج البيّنة والدلائل الساطعة الشاهدة بصدقه وأنه الدين الحق وأنه ليس دينٌ حقٌ سواه، ولهذا جاء بهذه الآية مبينًا ذلك في فضل الإسلام ومكانته.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: أي يا رسول الله يا نبي الله قل للناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾؛ يعني إن كان عندكم شك أو ارتياب في أن الدين الذي أنا عليه هو الدين الحق، إن كانت قلوبكم مرتابة منه وتظنون أن الدين الذي أنتم عليه هو الدين الحق؛ فإنني أقول لكم: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾.

**وتأمل هنا**: تأمل بيان كمال هذا الدين وبطلان ما سواه بهذه الكلمة التي أُمِر النبي ﷺ أن يقولها لكل مرتاب شاك مقبِل على عبادة الأوثان والأصنام تاركٍ

عبادة الرب العظيم الخالق لهذه الأكوان المتصرف في المخلوقات خلقًا ورزقًا وإحياءً وإماتةً وتدبيراً، فيقول: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن كل من يُعبد من دون الله فعبادته من دون الله لم يقم عليها أي دليل، وليس عليها أي برهان، وليس فيها أي أثارة من علم، كل عبادة من دون الله عبادة ليست قائمة على دليل، ولهذا قال عليه السلام كما أخبر الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [النجم:١٩-٢٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى فيما ذكره عن يوسف عليه السلام: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

ولهذا كل تعبّدٍ بغير الإسلام وكل عبادة على غير الإسلام فهي على غير برهان وعلى غير حجة؛ بل قائمة على الخرافة، وعلى الباطل، وعلى الفكر القاصر والتصورات الضعيفة القاصرة.

﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن كل من تعبدونه من دون الله عبادته من دون الله ليست قائمة على أي برهان، هاتوا دليلاً واحداً يبين صحة عبادة هذه الأشياء، هل هذه الأشياء التي تعبدونها تملك لكم ضراً أو نفعا!! عطاءً أو منعا!! خفضًا أو رفعا!! هل تملك شيئًا من ذلك؟ هل بيدها إحياء!! هل بيدها

إماتة!! هل بيدها تصرف؟؟ هل.. هل؟؟، القرآن جاء بأسئلة كثيرة في هذا الباب تبين فساد عبادات هؤلاء القائمة على الشرك وعلى الخرافة ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأن كل ما يُعبد من دون الله فعبادته قائمة على الباطل.

﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾؛ هذا برهان واحد من آلاف البراهين، خذوا برهانًا واحداً ودليلاً واحداً على صحة هذا الدين وهو الإخلاص لله ﷻ وإفراده ﷻ وحده بالعبادة: ﴿ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾؛ من الذي يتوفاكم؟ موتكم بيد من؟ ليس بيد أحدٍ إلا رب العالمين ﷻ.

﴿ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ هذا برهان واحد من مئات وآلاف البراهين الدالة على وجوب إخلاص الدين لله والاستسلام لله رب العالمين؛ الذي بيده أزمّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض، ولهذا ساق لهم دليلاً واحداً وأبان أنهم ليس عندهم أي دليل ليس عندهم أي برهان، فهذا مما يبين فضل دين الإسلام ومكانته؛ أنه الدين الذي قامت عليه البراهين الظاهرات والحجج الجليات الواضحات، وأما ما سواه من الأديان والعقائد فهي عقائد ليست قائمة على دليل: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾.

ومما سبق نستفيد فائدة عظيمة بل قاعدة مهمة وهي: أن الأديان الموجودة على وجه الأرض بين الناس ويعتقدونها ويدينون بها هي على قسمين:

❁ **القسم الأول**: دين نازل ممن خلق هذا الكون وأوجده: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]؛ دين نازل نزل من الله ﷻ، وانظر في تمام هذا التنزل للدين ونزوله من رب العالمين أن خُتم بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ قال عمر رضي الله عنه: «وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ» فهو دين نازل، نزل تِباعـًا، تنزل من رب العالمين إلى أن كمُل وأنزل الله ﷻ مخبراً بكماله وتمامه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وهذا الدين النازل من رب العالمين وحده هو الدين الحق، وما سواه من الأديان التي على وجه الأرض كلها باطلة، لماذا؟ لأنها أديان نابتة في الأرض ما أنزل الله بها من سلطان، والسلطان: هو الحجة، وسميت الحجة سلطانا: لأنها تتسلط على القلب ولا يستطيع أن ينفك عنها؛ خانقة وماسكة بالإنسان، قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله بها من حجة.

**القسم الثاني**: ولهذا مما سبق نستفيد قاعدة في الباب وهي: أن كل دين لم ينزِّل الله ﷻ به من سلطان فهو دين نابت في الأرض؛ يعني اخترعه الناس بعقولهم، بأفكارهم، بآرائهم، بتجاربهم، إلى غير ذلك، وكل دين نابت فهو دين باطل؛ لأن الله ﷻ لا يرضى أي دين مهما استحسنه الناس ومهما استجودوه ومهما عظموه، فهو ﷻ لا يقبل من الأديان إلا الدين الذي نزل منه.

**سؤال: ما هي الأمارة التي يُعرف بها الدين النازل من غيره؟**

**الجواب**: أمارة الدين النازل: قال الله قال رسوله ﷺ، فإذا وُجد الدليل من كلام الله أو كلام رسوله عليه السلام فهذا دليل على أنه دين نزل من رب العالمين، لكن لو قال لك شخص: (نريد أن نفعل كذا نتقرب إلى الله بهذا لأني جربت أنا وشيوخي جربوا مثلا) تقول: هذا ليس دليلا.

أو قال: (نريد نعتقد كذا لأن في تصوري وفي خيالي وفي فكري..) وبدأ يسوق لك عقليات وخيالات، تقول هذا لا يبنى عليه دين، الدين لا يبنى إلا على شيء نازل من رب العالمين، وما لم ينزل من رب العالمين فهو باطل مهما استحسنه صاحبه ومهما استجوده ومهما رآه جميلا؛ فالله عز وجل لا يقبل من الأديان من الأعمال من العقائد إلا ما كان نازلاً منه، ولهذا قال عليه السلام: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].**

## الشرح

ثم ختم الآيات بهذه الآية الكريمة في بيان فضل الإسلام؛ قال: (وقول الله

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ ناداهم باسم الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقد قيل في تفسيره هذه الآية: إن المراد بهؤلاء من آمن من أهل الكتاب[1]، وقيل: إن المراد عموم من آمن، وهو الأقرب والأظهر[2].

ولهذا قيل في معنى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾: أي من آمن من أهل الكتاب يؤتهم نصيبين وافرين من رحمته؛ نصيبٌ على إيمانهم بالأنبياء، ثم نصيبٌ على إيمانهم بخاتم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، وقيل المراد: عموم أهل الإيمان، وإيتاء الكفلين من رحمته؛ قيل: على التقوى وعلى الإيمان المأمور بهما في الآية، وقيل: على فعل الأوامر واجتناب النواهي، وهو ما يقتضيه الجمع بين التقوى والإيمان في النص الواحد؛ فالتقوى: اتقاء المحرمات، والإيمان: العقائد الصحيحة وفعل الأوامر والطاعات، وهذا حال اجتماع الإيمان والتقوى في النص الواحد، أما إذا ذُكر كل واحد منهما مفرداً شمِل معنى الآخر على ما بُيِّن في القاعدة المتقدمة.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ ناداهم باسم الإيمان وأمرهم بمقتضيات هذا الإيمان؛ تقوى الله والإيمان برسوله، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾: اتقوا الله وذلك بتحقيق تقواه ﷻ بأن تجعلوا بينكم وبين ما تخشونه من عقاب الله وسخطه وقاية تقي من ذلك، وآمنوا برسوله وأنه رسولٌ حق

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١).

(٢) انظر: «تفسير السعدي» (ص ٨٤٣).

مرسل من رب العالمين، وهذا الإيمان يقتضي طاعته ﷺ فيما يأمر به ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ وهذه حقيقة الإسلام، حقيقة الإسلام: تقوى الله والإيمان بالرسول انقياداً وامتثالاً وطاعةً لله سبحانه وتعالى؛ تقوى الله: بتحقيق توحيده وإخلاص الدين له، والإيمان بالرسول ﷺ: بطاعته وامتثال أوامره عليه السلام واجتناب نواهيه.

**أما الفضائل ما هي؟**

قال: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ هذه فضائل للإسلام:

١) **الفضيلة الأولى**: قال: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ أي نصيبين وافرين وحظين عظيمين من رحمته سبحانه وتعالى التي كتبها لأهل الإيمان وأهل الإسلام.

٢) **الفضيلة الثانية**: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: أن استمساك العبد بالإسلام وطاعته لرسوله ﷺ وإيمانه بما جاء به الرسول عليه السلام ومعرفته بذلك هو في الحقيقة نور يضيء له طريقه ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر:٢٢]، فمن كان عنده الإسلام فعنده نور يضيء له الطريق في الظلمات؛ ولهذا أيضا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فالإسلام نور وضياء يعرف به صاحبه الحق من الباطل والهدى من الضلال،

يعرف به الطريق الذي يوصله إلى رضا الله ﷻ وجنات النعيم، قال: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا النور.

٣) **الفضيلة الثالثة:** ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ أي: يغفر لكم ذنوبكم، والمغفرة: هي العفو والصفح والستر، وقد قال عليه السلام: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»[1] فالإسلام وتحقيقه أعظم ما تمحى به الخطايا وتُكفّر به السيئات.

قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ خُتمت هذه الآية بهذين الاسمين لتعلقهما بالمعنى الذي ورد في الآية، فالمعنى الذي ورد في الآية الدعوة للإسلام وتحقيق تقوى الله وطاعة رسوله عليه السلام وبيان ما يترتب على ذلك من الآثار والعوائد ومنها: إيتاء الله ﷻ لمن كان كذلك كفلين من رحمته، ويجعل له نورًا يمشي به، ويغفر له؛ وهذا كله من آثار هذين الاسمين العظيمين «الغفور الرحيم»، فالله ﷻ إذا أراد بعبده خيراً ورحمةً ومغفرةً وفّقه لهذه الأعمال وجعله من أهلها فينال بذلك رحمة الله ﷻ ومغفرته.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وفي «الصحيح» عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ؛ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى نِصْفِ**

(١) رواه مسلم (١٢١).

النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ، فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً!! قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[1]].

## الشرح

أورد المصنف هنا هذا الحديث العظيم في بيان فضل الإسلام وأنه أفضل دين أنزله الله ﷻ على عباده وختم به الأديان ببعثة محمد ﷺ، هذا الدين العظيم الذي هو آخر الأديان المنزّلة من الله ﷻ على عباده، وقد شاء ﷻ أن يكون هذا الدين الذي هو آخر الأديان المنزّلة وخاتمتها أعظم دين بأحكامه وأعماله وما جاء فيه من أوامر ونواهي وفضائل وأجور مضاعفة، وهذا فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء.

والآية التي ختم بها المصنف رحمه الله فضل الإسلام يليها قول الله ﷻ: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الحديد: ٢٩]، فالفضل بيد الله ﷻ والله ﷻ يؤتي الفضل من يشاء؛ فالأمور بتدبيره ﷻ، وهو الذي يحكم بين العباد: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]،

---

(١) رواه البخاري (٢٢٦٨).

فالفضل فضله ﷻ، ولهذا خص هذا الدين العظيم دين الإسلام بأن جعله متميزاً عن غيره من الأديان المنزّلة بأحكامه، وأجوره المضاعفة، وفضائله العظيمة، وخيراته العميمة.

وفُضِّل هذا الدين بالقرآن الكريم الذي هو أعظم كتابٍ أنزل الله ﷻ على أعظم رسول ﷺ؛ ولهذا فإن هذا الفضل الذي ناله أهل الإسلام بهذا الدين الذي خُتمت به الرسالات المنزّلة والأديان المنزّلة يرجع إلى فضل الكتاب الذي نُزّل عليهم؛ وهو القرآن الكريم أفضل كتاب أنزله الله ﷻ.

بل جاءه ملَك يبشره بهذه السورة العظيمة (سورة الفاتحة) كما جاء في «الصحيح» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ – أي جبريل – فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ – جبريل – هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ – ثم جاء هذا الملك الذي نزل إلى الأرض أول مرة من ذاك الباب الذي فُتح من السماء لأول مرة وجاء إلى النبي ﷺ – فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ؛ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[1].

فهذه بعض فضائل وخصائص وميزات خص الله بها كتابه العظيم القران الكريم الذي خَتم به الكتب المنزلة.

(١) رواه مسلم (٨٠٦).

وجاءت الأجور مضاعفة تضعيفًا لم تكن عليه في الأديان التي قبلنا التي أنزلها الله ﷻ، وجاءت الأمور فيها من التيسير والتخفيف ما لم يكن أيضا في الأديان التي قبلنا، وفي الدعاء في القران الكريم في الآيات التي في خواتيم ﴿سورة البقرة﴾ وقد أوتيها النبي ﷺ ولم يؤتها نبي قبله يقول الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ هذا من الخصائص والفضائل التي منَّ الله ﷻ على أمة محمد ﷺ بها.

كان بعض من قبلنا توبته لا تُقبل منه إلا أن يقتل نفسه توبةً إلى الله ﷻ، وحُمِّلوا من الأمور أموراً خُففت عن أمة محمد ﷺ ورُفعت عنهم منًّا من الله ﷻ وفضلا، ولهذا قال ﷻ في أوصاف هذا النبي: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف:١٥٧]، هذا كله من فضل الله ﷻ بهذا الدين الإسلامي؛ الدين العظيم الذي بعث الله ﷻ به رسوله ونبيه محمداً ﷺ.

ومما تميز به هذا الدين – دين الإسلام – خاتمة الأديان المنزلة: أن الأجور فيه مضاعفة والعمل فيه قليل؛ الصلاة التي أُمرنا بها مخففة عن خمسين صلاة، ولما أسري بالنبي ﷺ إلى السماء وكان يتردد بين رب العالمين وموسى ﷺ ففُرضت الصلاة أول ما فرضت خمسين صلاة في اليوم والليلة، ونزل بها ﷺ مستجيبًا، فلقيه موسى ﷺ وقال: إن أمتك لا تطيق ذلك فسأل الله التخفيف، وأخذ ﷺ في سؤال التخفيف، وكلما نزل بتخفيف آخر قال موسى ﷺ: إن أمتك

لا تطيق ذلك فخُفِّفت الصلاة إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، «فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ»[١].

فهذا من تخفيف الله ومنّه ﷻ على هذه الأمة أمة الإسلام، أمة محمد ﷺ، فالعمل الذي طُلب من أهل الإسلام قليل والأجور التي أثيبوا بها كثيرة جدا، والأديان التي قبلنا العمل أكثر والأجر عليه أقل، دون أن يظلم ﷻ أهل تلك الأديان، لكنه تفضل على أمة محمد - ﷺ - بأجور مضاعفة، ولهذا في الحديث الذي سيأتي معنا الآن شرحه وبيان معناه لما غضبت اليهود والنصارى قال رب العالمين: (**هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**) فالأمم التي قبلنا لم يُنقصوا شيئًا من أجورهم، ولكن الله ﷻ خص أمة الإسلام بأجور مضاعفة لم تكن للأمم التي قبلنا.

فلله ﷻ الحمد أولاً وأخراً، وله ﷻ الشكر ظاهراً وباطنًا على هذه المنة العظيمة التي نسأله ﷻ أن يوزعنا شكرها وتحقيق القيام بهذا الدين على الوجه الذي يرضيه عنا.

قال: (**وفي «الصحيح» عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ**)؛ أهل الكتابين المراد بهم: اليهود والنصارى؛ اليهود: الكتاب الذي أنزل عليهم التوراة، والنصارى: الكتاب الذي أنزل عليهم الإنجيل، فهم أهل كتابين أي لكل منهما كتاب؛ اليهود كتابهم التوراة، والنصارى كتابهم

---

(١) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)

الإنجيل.

ونبينا ﷺ يضرب هنا مثلاً لحال هذه الأمة مقارنةً بحال اليهود والنصارى في الأجور والثواب والجزاء على الأعمال، ومحصَّلة هذا المثل: بيان أن الأجر لأمة الإسلام أجراً مضاعفاً وزائداً على الأجور التي كانت لمن قبلنا، والعمل الذي لأمة الإسلام أقل من عملهم؛ فالعمل أقل والأجر أكثر، وأولئك كان العمل عندهم أكثر والأجر أقل؛ دون أن يُنقصوا شيئا، ولكنه تفضّل ﷻ على أمة الإسلام بالتضعيف في الأجور والثواب.

وهذا مثل ضربه النبي ﷺ ليوضح هذا الأمر، وهو الأجر على العمل لأمة الإسلام مقارنًا بالأجر على العمل لليهود والنصارى أهل الكتابين.

والأمثال لها شأن في توضيح الأمور وتبيينها وجعْل الأمر المعنوي بمنزلة الأمر المحسوس المعايَن المشاهَد؛ فالأمثال يُقصد بها توضيح المعاني وتجليتها بحيث ترى الأمر المعنوي أمامك شيئًا محسوسًا بالمثال الذي ضُرب له، ولهذا كثرت الأمثال في القرآن، ففي القرآن ما يزيد على الأربعين مثل، وكثرت الأمثال في الكتاب والسنة حتى أنها لكثرتها بعض العلماء أفردوها بالتصنيف.

ففيها توضيح لحقائق الدين وأصول الإيمان وفضائل الدين، والمثل يكون به الأمر المعنوي بمثابة ومنزلة الأمر المحسوس.

ففي هذا الحديث سيبين النبي ﷺ الأجر الذي لأمة الإسلام مقارنًا بالأجر

الذي لأهل الكتابين؛ مع كثرة العمل عندهم وقلة العمل عند أمة الإسلام!!

واستمع إلى هذا المثل:

قال ﷺ: (**مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ**) أي: أستأجر عمّالاً يعملون عنده بأجر وبمقابل، وهؤلاء الأجراء كما هو في الحديث لهم ثلاثة أوقات، (**فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ**) من غدوة: من الفجر، إلى نصف النهار: إلى صلاة الظهر أو قريباً منها، وهذا وقت طويل: (**مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟**) وقت العمل طويل والأجر عليه قيراط واحد، وقيل في القيراط: إنه من أجزاء الدينار.

(**عَلَى قِيرَاطٍ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ**) يعني في هذا الوقت من غدوة إلى نصف النهار والأجرة قيراط.

(**ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟**) وهذا وقتٌ طويل إلا أنه أقصر من الوقت الذي قبله، فالوقت الذي من غدوة إلى نصف النهار أطول من الوقت الذي من نصف النهار إلى صلاة العصر (**فَعَمِلَتْ النَّصَارَى**).

(**ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟**) من صلاة العصر إلى غروب الشمس هذا الوقت أقل من الوقت الذي هو من غدوة إلى نصف النهار، ومن الوقت الذي هو من نصف النهار إلى العصر، فالوقت أقل والأجر مضاعف؛ أولئك الوقت أطول وأمة الإسلام الوقت أقل، وأولئك

الأجر قيراط وأمة الإسلام الأجر قيراطان؛ يعني ضعف الذي يؤتاه أولئك، يعني الأجر الذي يؤتاه أولئك مدبولاً، القيراط معه قيراط آخر.

قال ﷺ: (**فَأَنْتُمْ هُمْ**) يعني أنتم يا أمة الإسلام هؤلاء الذين عملهم من العصر إلى غروب الشمس وأجرهم قيراطان، مشيراً ﷺ بهذا المثل - وعرفنا أن الأمثلة يؤتى بها للتوضيح والبيان؛ إذ ليس وقت العمل لأمة الإسلام محصوراً في هذا الوقت، ولا أيضا وقت العمل للنصارى محصوراً في الوقت المشار إليه في الحديث، ولا وقت العمل لليهود محصوراً في الوقت المشار إليه في الحديث؛ وإنما هذا مثال للتوضيح والبيان – فقال: (**فَأَنْتُمْ هُمْ**) أي: أنتم الأمة التي خُصت ومُيّزت بعمل أقل وأجر مضاعف، فهذه فضيلة لأمة الإسلام دل عليها هذا الحديث؛ أن عملها أقل وأجرها مضاعف على الأمم التي قبلنا.

(**فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً!!**)؛ العمل الذي عملناه أكثر والأجر الذي أوتيناه أقل!!

(**قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟**)؛ يعني هل الأجور التي لكم نُقِص منها شيء أم أخذتموها وافية؟ والجواب أنهم أخذوا أجورهم وافية لا نقص فيها.

(**قَالُوا لَا**) يعني لم نُنقص شيئا من أجورنا.

(**قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**): فإذا أعطى أولئك أجورهم وافية لم يظلمهم، وإذا خص أمة الإسلام بمزيد أجر ومضاعفة ثواب فهذا فضله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، والله سبحانه وتعالى قال في الآية التي مرت معنا

مختومةً بها سورة الحديد: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد:٢٩]، فهذا من فضل الله.

والواجب على أمة الإسلام أن يستشعروا هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة التي منّ بها عليهم ربهم ﷻ، وأن يذكروا منة الله ﷻ عليهم بالإسلام فإنها أعظم المنن، ورب العالمين ﷻ يحب من أمة الإسلام أن يذكروا هذه النعمة، بل جاء في «صحيح مسلم» من حديث معاوية بن أبي سفيان ؓ قال: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ؟» يعني لماذا هذا الجلوس ما المقصد منه؟ قَالُوا: «جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا» يعني نذكر منة الله علينا بالإسلام والهداية لهذا الدين والنعمة التي أنعم الله علينا بها بهذا الدين، وإنقاذ الله ﷻ لنا من الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء، فجلسوا في المسجد يذكرون نعمة الإسلام. قال رسول الله ﷺ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» يستحلفهم بالله؛ آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ يعني ما جلستم إلا لهذا الأمر لا لأمر آخر؟ قَالُوا: «وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ» والله ما جلسنا إلا لتذكر هذا الأمر ومذاكرة هذا الأمر، فقال ﷺ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ» يعني لم أطلب منكم الحلف لأنني أتهمكم على الكذب، ليس هذا الغرض وليس هذا السبب؛ إذًا ما هو السبب؟ قال: «وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ

فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ ﷻ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ»[(١)].

فهذا الحديث العظيم وهو في «صحيح مسلم» يفيد أن الله ﷻ يحب من عباده أن يجلسوا لتعلّم الإسلام وفضائل الإسلام ومكانة الإسلام ونعمة الله ﷻ على عباده بالإسلام؛ ولهذا جاء جبريل إلى النبي ﷺ يخبره بأن الله يباهي ملائكته بهؤلاء الذين جلسوا في المسجد لمذاكرة الإسلام وفضائل الإسلام ومنة الله ﷻ عليهم بالإسلام.

وهذا من فضله ﷻ على عباده وعظيم منّه عليهم؛ مع أنه سبحانه غني عن العباد وغني عن جلوسهم لطاعته وذكره وعبادته؛ فهو ﷻ لا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تضره معصية من عصى؛ فمن الخير للمسلم أن يتذكر نعمة الله ﷻ عليه بالإسلام ومنة الله عليه بهذا الدين، وأن يحرص على تحقيق شكر هذه النعمة؛ فشكر الله على الإسلام: أن تعمل بالإسلام ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ:١٣]، وأن تحرص على تعلّم الإسلام ومعرفته ومعرفة أركانه وواجباته ومعرفة فضائله، والنبي ﷺ شرح الإسلام وبيّنه ووضحه؛ فتُقبل على سنة النبي ﷺ؛ تتعلم هذا الدين العظيم وتجاهد نفسك على القيام به كما أمرك الله ﷻ.

◆◆◆◆◆

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وفيه أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَضَلَّ اللهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا؛ فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(١).

## الشرح

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث؛ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (أَضَلَّ اللهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا)؛ أضل عن الجمعة من كان قبلنا ومنّ الله سبحانه وتعالى على أمة الإسلام بمعرفة هذا اليوم، ومعرفة قدره، ومعرفة عظيم الثواب الذي أعده الله تبارك وتعالى لعباده في هذا اليوم العظيم.

ويوم الجمعة له خصائص عجيبة وميّزات عظيمة وفضائل كبيرة، وقد أطال في عدِّها وبيانها وتفصيلها العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» في المجلد الأول منه(٢)؛ فقد تكلم كلاماً بديعاً وعظيماً في خصائص وفضائل يوم الجمعة،

(١) رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٦).

(٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فَصْلٌ: (خَوَاصّ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَهِيَ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُون).
وَكَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ تَعْظِيمُ هَذَا الْيَوْمِ وَتَشْرِيفُهُ وَتَخْصِيصُهُ بِعِبَادَاتٍ يَخْتَصّ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ» «زاد المعاد» (١/ ٣٦٣).

وقد عدَّد من خصائصه وفضائله ما يزيد على الثلاثين، مما يبين مكانة هـذا اليـوم وعظيم فضل الله ﷻ على عباده به، فهذا اليوم العظيم المبارك الذي هو خير أيـام الأسبوع وأفضلها أضل الله ﷻ عنه -كما جاء في الحديث- من كان قبلنا وهـدى أمة الإسلام إليه.

قال: (**فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ**)؛ فهذه منة الله ﷻ أن هدى أمة الإسلام لهذا اليوم العظيم وعرّفهم بفضائله وخصائصه وميّزاته، ولهذا فإن ليوم الجمعة عند أهل الإسلام شأن، وله مكانه، وفيه فريضة عظيمة دعا ﷻ إليها أمة الإسلام في كتابه في ﴿سورة الجمعة﴾؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة:٩]، دعاهم إلى هذه الفريضة العظيمة التي في يوم الجمعة؛ فيجتمع الناس ويغدون ويذهبون إلى المسجد في هذا اليوم المبارك وأجورهم وثوابهم عند الله ﷻ في هذا اليوم بقدر تبكيرهم؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»[(١)].

---

(١) رواه البخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠).

أجورهم متفاوتة في هذا اليوم بقدر تبكيرهم ودنوهم من الإمام وطمأنينتهم في هذا اليوم، وحرصهم على سماع الخير والعلم الذي يلقى في هذا اليوم في خطبة الجمعة التي كان لها شأن عظيم عند نبينا ﷺ؛ حيث كان كل جمعة يخطب الناس، وكان في خطبته كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، وكان يقول: (أما بعد، فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كلام اللهِ، وخير الْهُدَى هُدَى رسول الله ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)[١].

وقد جاء في هذا اليوم وفي حضور هذه الصلاة والتبكير لها أجور عظيمة جداً، ولا يهولك عظم الأجر عندما تسمع به ولكن تأمل في عظمة المعطي والمانّ ﷻ على أمة الإسلام، وقد جاء في الحديث: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ؛ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ)[٢]؛ فهذه فضائل لهذا اليوم العظيم المبارك.

وجاء في الحديث أن في يوم الجمعة ساعة تُعرف عند أهل العلم بساعة الإجابة لا يوافقها عبدٌ يسأل الله ﷻ إلا أعطاه الله ما سأل.

وهذا اليوم له فضائل وخصائص عظيمة يحسن مطالعتها في كتاب «زاد المعاد» للإمام ابن القيم رحمه الله.

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

قال: (فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؛ يبين ذلك ﷺ بقوله: (نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؛ نحن الآخِرون لأن أمة محمد ﷺ أخر الأمم، ورسالة النبي ﷺ خاتمة الرسالات، وهو ﷺ خاتم النبيين؛ فقال: (نَحْنُ الْآخِرُونَ) يعني خُتمت بنا الأمم، (وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) لأن أمة الإسلام مقدمة على الأمم التي قبلها، فهم جاءوا آخِراً ولكنهم يأتون مقدمين يوم القيامة، ولعله ينطبق هنا قول الشاعر:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِك المُدَلّلِ
تَمْشِي رُوَيْداً وَتَجِيء في الأَوّلِ

أمة الإسلام؛ عمل قليل وأجر مضاعف، وتأتي هذه الأمة العظيمة مقدَّمةً على الأمم السابقة؛ سابقةً عليها بالأجر والثواب والجزاء عند الله تبارك وتعالى.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وفيه تعليقًا عن النبي ﷺ أنه قال: (أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ)(١) انتهى.**

## الشرح

قال: (**وفيه تعليقا عن النبي ﷺ**)، فيه: أي في «صحيح البخاري»، والإمام

---

(١) علقه البخاري في (كتاب الإيمان؛ باب: الدين يسر) ووصله في «الأدب المفرد» (٢٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٢٠).

البخاري رحمه الله أورد هذا الحديث في «صحيحه» معلقا في ترجمة باب، لأنه ليس على شرطه في «الصحيح»، ولكنه خرّجه بإسناده في كتاب «الأدب المفرد»، وخرّجه غيره من أهل العلم، وهو حديثٌ حسن الإسناد.

قال ﷺ: «**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»؛ وهذا الحديث فيه ذِكْر ثلاثة فضائل للإسلام:

**الفضيلة الأولى**: أنه أحب الأديان إلى الله تبارك وتعالى.

**والفضيلة الثانية**: في قوله: (**الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**)؛ فهو دين حنيف ودين سمح.

و«**الحنيفية**»: هي البعد عن الشرك والإقبال على التوحيد، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠]، فالحنيف: هو المائل عن الشرك إلى التوحيد.

فدين الإسلام هو دينٌ حنيف ليس فيه خرافات، وليس فيه ضلالات، وليس فيه ترّهات وأوهام؛ وإنما هو دينٌ قائم على صحة المعتقد وسلامة الدين وحُسن الصلة برب العالمين بالإقبال عليه سبحانه وتعالى وحده خضوعًا وتذللاً ورغبًا ورهبًا؛ فهو دينٌ مائل عن الضلالات، متجافٍ عن الأباطيل والخزعبلات، قائم على الحق والهدى والإقبال على الله تبارك وتعالى بصدق وإخلاص.

و«السمحة»: هذه أيضا من فضائل هذا الدين العظيمة أنه دين السماحة ودين اليسر، وما جعل الله سبحانه وتعالى في هذا الدين على العباد من حرج؛ أعماله أعمال ميسَّرة لا عنَت فيها ولا مشقة، وقد قال ﷺ في حديث صحيح: (إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ،

وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا»[١]؛ وصف ﷺ هذا الدين بأنه يسر؛ يُسر في عقائده لأن عقائده عقائد صحيحة واضحة بيّنة، ليست عقائد قائمة على الخرافة أو على الضلال، بل هي عقائد سليمة توافق الفطر وتقبلها العقول السليمة، وأعماله أعمال ميسرة في فرائضه وواجباته ومستحباته: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[٢] أمور ميسرة يسرها رب العالمين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٣]، فهو دين السماحة ودين يسر وليس فيه مشقة وليس فيه عنت، قد قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨]؛ فهو دين سمح، دين ميسر، دين سهل فيه هذه الصفات العظيمة التي تدل على كماله ورفعته.

◈◈◈◈◈

(١) رواه البخاري (٣٩).

(٢) رواه البخاري (١١١٧).

(٣) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكَر الرحمن ففاضت عيناه من خشيت الله فتمسه النار، وليس من عبدٍ على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبِس ورقها فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة»[(١)].

## الشرح

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الأثر العظيم عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه وفيه توضيح لحقيقة الإسلام، وفيه أيضا ذِكر فضائل عظيمة جداً لمن يحافظ على الإسلام كما أمِر بذلك ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود:١١٢]، فثمة فضائل عظيمة جداً ينالها من حافظ على الإسلام كما أمره الله سبحانه وتعالى بالمحافظة عليه، بخلاف حال كثير من الناس الذين يعملون أعمالاً يظنونها من الإسلام، ويظنونها من دين الله، ويظنونها من شرعه سبحانه وتعالى وهي بخلاف ذلك، ولهذا جاء في حديثٍ صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٢)]: أي مردود على صاحبه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٥٢٦)، وأبو داود في «الزهد» (١٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٢).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

غير مقبول منه.

فأبي بن كعب ﵁ وأرضاه في هذا الأثر العظيم يبين لنا حقيقة الإسلام وما يترتب على قيام العبد بهذه الحقيقة كما أمِر وعلى الوجه الذي أُمر به؛ فيقول: (**عليكم بالسبيل والسنة**)؛ السبيل والسنة هو الإسلام، لأن الإسلام هو سبيل الله الذي دعا عباده إلى سلوكه على وفق السنة وما جاء به رسول الله، ولعل مما يبين لنا هذا المعنى ذلك المثل العظيم الذي ضربه النبي ﵊ لبيان الدين وبيان الإسلام وحقيقة الإسلام.

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ﷻ وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[(١)].

فقال ﷺ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ» يعني جداران وتأمل المثل جيداً؛ صراط مستقيم، ومبني على جنبتي الصراط المستقيم سوران: أي جداران (فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ) وأنت تمشي مع هذا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٤٨).

الصراط على يمينك جدار وعلى يسارك جدار، وفي الجدار أبواب تمر على يمينك وعلى يسارك، (وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ) يعني الأبواب ليس لها أقفال وإنما كل باب عليه ستارة (وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا) يعني انتبه ولا تلف عنه لا يمين ولا شمال، (وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ) تدخل، لا تفتح باب الحرام على نفسك، لأنك إن فتحت باب الحرام على نفسك دخلت في الحرام، فاجعل الباب الذي بينك وبين الحرام مغلق لا تفتحه فإنك أن فتحه تلجه، (وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى) لأن لك في طريق الإسلام حدود لا تخرج عنها ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣] فلك حدود لا تتعداها، (وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ) هذه أبواب تُخرج الإنسان عن الطريق المستقيم إلى حيث الحرام.

ولاحظ هنا ملاحظة عجيبة: أن الطريق الحرام ما يحتاج من داخله إلى وقت لأن عليه باب والباب عليه ستارة، ومن أراد أن يدخل من بابٍ عليه ستارة هل يحتاج إلى وقت عند الدخول؟ هل يحتاج إلى أن يقف ويعالج يد الباب ليفتح الباب أو يفتح القفل ثم يفتح ويدخل؟! الباب الذي عليه ستاره وأنت على هيئتك تمشي تلمس الستارة بكتفك وإذا بك داخل بدون ما يأخذ منك وقتاً أو جهداً، (وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ

وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ في قلب كل مسلم) ولهذا سبحان الله!! المسلم الذي هو ماضٍ على الطريق المستقيم إذا بدأت نفسه تدخل في معصية يجد في صدره حزة ووخزة؛ هذا واعظ الله ﷻ في قلب كل مسلم، لكن هذا الواعظ يتبلد عند الإنسان إذا تعمق في الحرام ومضى فيه فيصبح -والعياذ بالله- يمضي في الحرام ولا يحس، لأنه تعطل عنده هذا الإحساس وتبلد عنده هذا الواعظ.

فهذا مثل عظيم جداً ضربه النبي ﷺ للإسلام.

إذاً قول أبيّ رضي الله عنه: (**عليكم بالسبيل**) أي: عليكم بهذا الصراط الذي هو الإسلام.

(**والسنة**) أي: أسلكوا هذا الصراط المستقيم على ضوء السنة التي بُعث بها نبينا ﷺ. فليس لك أن تعمل متقربا إلى الله ﷻ بما شئت من الأعمال قائلاً أريد أن أسلك السبيل الموصل إلى الله ﷻ بأعمال أخترعها، ليس لك ذلك؛ (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)[1] أي: مردود على صاحبه، فعليك أن تسلك هذا السبيل على وفق سنة النبي الكريم ﷺ. قال: (**عليكم بالسبيل والسنة**) ثم انظر الأجر.

«**فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكَر الرحمن**» ثم قال رضي الله عنه: «**ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار**) لا تمسه النار[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) جاء مصداق هذا في الحديث:

=

انتبه لهذا القيد العجيب، القيد العظيم الذي نبه عليه أبيّ رضي الله عنه، قال: «**ما من عبد على سبيلٍ وسنة**» لكن الذي على ضلالة وبدعة وعلى هوىً وخرافة؛ لو فاضت عيناه بالدموع فهو على خطر عظيم من هذه البدعة التي هو عليها ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤] هو على خطر عظيم.

ولهذا ينبغي أن يكون العبد - وهذا تنبيه عظيم مبارك من أبي رضي الله عنه- ينبغي أن يكون العبد في خشوعه وبكائه وخشيته وإقباله على الله على السنة، لا أن يجلس الإنسان خاشعًا باكيًا ولكنه على ضلالة وبدعة، البدعة لا توصلك إلى الله ولا تقربك من الله، البدعة تبعد الإنسان عن الله ولا تقربه من الله، ولهذا لابد مع خشية الإنسان وخشوعه وبكائه ورقة قلبه من إقبال على الله بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، أرأيتم لو أن رجلاً جلس عند قبر خاشعًا باكيًا متذللاً دموعه تنهمر لا تقف ويبكي بكاءً متواصلاً وهو على هذه الحال قائمًا وعاكفًا عند القبر مناجيًا صاحب القبر طالبًا متوسلا؛ هل هذا العمل والبكاء والخشوع يدنيه من الله أو يبعده من الله سبحانه وتعالى؟ يبعده من الله ما يقربه منه، لا يقرب من الله سبحانه وتعالى إلا العمل الصالح الخالص ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

---

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ» رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٢٢٩).

[الكهف:١١٠].

ولهذا نبه هذا الصحابي الجليل على هذا القيد المهم؛ الخشوع ورقة القلب والدموع أمر طيب لكن على سبيل وسنه، أما إذا كانت هذه الدموع وذاك الخشوع على غير سبيل وسنه فالله لا يقبل من العمل إلا الخالص الموافق للسنة.

ولهذا قال العلماء: لا يُقبل العمل إلا بشرطين؛ الشرط الأول: الإخلاص، والشرط الثاني: المتابعة.

ولعل في قول أبي بن كعب: **(عليكم بالسبيل والسنة)** إشارة إلى هذين الشرطين؛ فالسبيل: هو الإسلام، وهو الاستسلام لله على وجه الإخلاص، والسنة: هي الاتباع والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

والله سبحانه وتعالى لا يقبل العمل إلا إذا كان بهذا الوصف: خالصًا لله موافقًا لسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في معنى الآية: «أي: أخلَصُه وأصوَبُه»، قيل: يا أبا علي وما أخلَصُهُ وأَصْوَبُه قال: «إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولَم يكن صوابًا لَم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لَم يُقبَل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالصُ ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة»(١).

أي: على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال أبيّ: **(وليس من عبد على سبيلٍ وسنَّة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من**

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه« الإخلاص والنية» (ص:٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

**خشية الله)** لاحظ أيضـًا القيد مرة ثانية أعاده؛ ليس من عبد على سبيل وسـنة ذكـر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله **(إلا كان مثله)** انظـر الثـواب **(كمثل شـجرة يبس ورقها)** يعني جفت وأصبح فيها ورقٌ يابس **(فبينمـا هـي كـذلك إذ أصـابتها ريح)** يعني جاء هواء **فتحاتَّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها)**؛ هذا مثال.

وهذا المثال الذي ذكره أبيّ جاء ذِكره في السنة؛ جاء في السـنة أَنَّ النبي ﷺ مَـرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ فَقَالَ: «إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللهِ وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَـرُ لَتُسَـاقِطُ مِـنْ ذُنُـوبِ الْعَبْـدِ كَمَـا تَسَـاقَطَ وَرَقُ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ»[1]، والصحابة يرون الورق يتحات، فيقول عليه السلام هذا مثل لمن يكثُر ذكره لله تسبيحـًا وتحميداً وتهليلا.

ولاحظ هنا؛ ذكر الله بما شرع يحصل به تحات الـذنوب، أما ذكـر الله بالبـدع والأهـواء والخرافـات والطقـوس التـي مـا أنـزل الله سبحانه وتعالى بهـا مـن سـلطان هـذه لا يتحات بها الذنوب؛ بل يُخشى على العبد فيها من الإثم ومن العقوبـة، فالأعمـال التي يتحات بها الذنوب كما يتحات ورق الأشجار هو التقـرب إلـى الله بالأذكـار المشروعة والعبادات التي أمر الله تبارك وتعالى عباده بها.

ثم ختم هذا الأثر أبيّ بقوله: **(وإن اقتصاداً في سـبيل وسـنة خيـر مـن اجتهـادٍ في خلاف سبيل وسنة)**؛ الاقتصاد: هو التوسط والاعتدال.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٠١).

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا»[(١)] القصد: هو التوسط؛ لا غلو ولا جفاء، لا إفراط ولا تفريط، لا تزيد عن المأمور ولا تنقص عنه، التوسط هو أن تلزم السبيل والسنة، حتى وإن قلّ العمل فالعبرة ليست بالكم ولكنها بالكيف؛ أن يكون العمل موافق للسنة، فأن تقتصد في عمل على سبيلٍ وسنة خيرٌ لك من أن تجتهد في عمل ليس على سبيل ولا على سنة.

اضرب لك مثالًا: لو أنك صليت في ليلة ركعتين بعد صلاة العشاء أو قرب صلاة الفجر وختمتها بركعة الوتر واستغفرت الله سبحانه وتعالى من ذنبك، هذا الذي كان منك هذه الليلة، هذا العمل اسمه «اقتصاد في سنة»، لأنه عمل مسنون مأمور به، عليه عند الله تبارك وتعالى ثواب جزيل: **(اقتصاد في سنة خير من اجتهاد بدعة)**، هذا خير لك من أن تحيي الليلة كاملة في بدعة ما أنزل الله بها من سلطان مثل بدعة المولد أو بدعة الاحتفال بليلة الإسراء أو غير ذلك، لو جلست تلك الليلة مَن صلى ركعتين بدون هذه الأعمال التي ما شرعها الله خيرٌ منك؛ لأن الله شرع لك في الليل صلاة الليل، وشرع لك في الليل أن تستغفر ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، فأن تعمل في الليل الأعمال التي شُرعت ولو كان العمل الذي قمت به قليل خير لك من أن تجتهد ليلة كاملة في عمل ليس على سبيل ولا سنة.

وهذا مثال قس عليه بقية الأمور والأعمال، وهي قاعدة عظيمة احفظها من هذا الصحابي الجليل، ليست هذه القاعدة من أي أحد؛ وإنما هي من صحابي

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣).

عرف الحق وعرف الهدى ولزم النبي ﷺ أعطاك هذه القاعدة الذهبية: «**اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة**»؛ فإذا كان العمل ليس عليه دليل من السنة دعك منه ابتعد عنه وإن حثك عليه الناس وإن رغّبوك فيه، ابتعد عنه، وعليك بالعمل الذي هو على السنة ولو كان قليلا، فإذا كنت مبتلى في بلدك بمثل هذه الاحتفالات؛ إذا احتفل الناس توجه إلى بيتك وصل ما كتب لك الله من صلاة وحافظ على ما تصلي عليه في لياليك واستغفر الله ونام فأنت على خير، لأن اقتصادك هذا وعملك هذا على سنة، هو في عمل صالح أمرَك الله به ورغّبك النبي ﷺ وجاءت فيه أحاديث كثيرة جداً عن النبي ﷺ، وألّف العلماء فيه مؤلفات كثيرة في فضل قيام الليل وثواب قيام الليل، فعليك بهذا العمل الصالح الذي فيه فضائل، ودعك من هذه الأعمال التي يقوم بها الناس ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، مثل اجتماعهم على إنشاد القصائد واجتماعهم على الأراجيز وربما اجتماع بعضهم على الطبول وعلى أعمال مثل هذه الأعمال ويعدّونها من صالح عملهم، وهي ليست من السنة، ومن يقول إنها من السنة يأتي بالدليل، السنة بيِّنة ومحفوظة وكتبها معروفة ومشهورة وليس فيها دعوة إلى مثل هذه الأعمال.

فالواجب على المسلمين عمومًا أن يتقوا الله ﷻ وأن يحافظوا على دينهم على هذا النهج المبارك الذي رسمه النبي ﷺ وسار عليه الصحابة من بعده، ولا يفتح الإنسان لنفسه في هذا المقام مبررات، لا تُقبل منك المبررات مهما كانت

إذا لم يقم على عملك دليل من سنة النبي ﷺ، فلنحفظ هذه الوصية المباركة «**عليكم بالسبيل والسنة**»، ثم ختم هذه الوصية بقوله: «**وإن اقتصادًا في سبيل وسنه خير من اجتهاد في اختلاف سبيل وسنة**».

وأتوجه إلى من بيده أزمة الأمور ومن بيده مقاليد السموات والأرض، أتوجه إلى الهادي ﷻ أن يجعلنا وإياكم كذلك، نسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا وإياكم على السبيل والسنة، وأن يعيذنا جميعا من الضلالة والبدعة، اللهم اجعلنا أجمعين على السبيل والسنة وأبعدنا يا الله عن الضلالة والبدعة.

## المتن

**قال المؤلف** رحمه الله:

**وعن أبي الدرداء** رضي الله عنه **قال: «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم، ولمثقال ذرة مع تقوى ويقين أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين»**[(١)].

## الشرح

لا إله إلا الله!! تأمل هذا الأثر العجيب عن الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه، وتأمل هذا الأثر جيدا ينفعك الله ﷻ به، حتى قال ابن القيم رحمه الله في كتابه

(١) رواه أحمد في «الزهد» (٧٣٨)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٢١١).

«الفوائد» عن هذا الأثر: «وهذا من جواهر الكلام وأدلة على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير رضي الله عنهم »[(١)]؛ كلام نفيس جداً، كلام جواهر، كلام كما يقولون يُكتب بماء الذهب، من أنفس الكلام يقوله هذا الصحابي الجليل فتأمله.

يقول: (**يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم**) نوم وإفطار؛ نوم في الليل وإفطار في النهار، «**ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم**»؛ يعني أن يكون الإنسان ينام ويفطر ولكنه ماض على السنة على الجادة على هدي النبي ﷺ مجانِب للبدع والضلالات، هذا خير من أن يعمل أعمالاً مثل الجبال ليست على سنَّة، لأن تلك الأعمال التي مثل الجبال على غير السنة لا يقبلها الله، لأن النبي ﷺ جزَم فقال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٢)]، طيب هل أيضا الأمر كفاف لا له ولا عليه؟! ترد أعماله ولا له ولا عليه! أم أنه يأثم بتلك البدع والإعراض عن سنة النبي عليه الصلاة والسلام؟! ولهذا يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: (**ياحبذا نوم الأكياس**)؛ يعني كون الإنسان ينام في الليل أفضل وخير من شخص يحيي الليل من أوله إلى آخره على غير سنة، هذا يصلي العشاء وينام من أول الليل وإذا أذّن الفجر قام وصلى وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ»[(٣)]، فهذا صلى العشاء مع جماعة

---

(١) «الفوائد» (ص١٤١).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) رواه مسلم (٦٥٦).

وصلى الفجر مع جماعة، والآخر أحيا الليل في بدع وخرافات وربما لم يصِل وقت صلاة الفجر إلا وهو متعب ومكدود ونام عن صلاة الفجر، فيقول أبو الدرداء ﵁: (**ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم**)؛ أيضا يفطرون وصيامهم قليل لكنهم لا يمارسون أعمالاً مبتدعة وأموراً محدثة ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان.

قال: (**كيف يُغبنون سهر الحمقى وصومهم**)؛ الحمقى: يشير بذلك ﵁ إلى من يسهر على بدع وأيضا يصوم على ضلالة، ليس كل صوم يُقبل، أليس قال النبي ﵊ عن أولئك النفر الذين أتوا إلى بيت النبي ﷺ وسألوا عن عبادته فكأنهم تقالّوها؛ فقال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا أقوم ولا أرقد، وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، فسمع النبي ﷺ بذلك فقال: «لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١)، هؤلاء عندهم صيام وعندهم قيام ولكنها على غير السنة، وفي أمثالهم قال ﵊: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»، ولهذا قال: (**يغبنون سهر الحمقى وصومهم**) الحمقى: الذي يكون سهرهم على غير سنة، وصيامهم على غير سنة، وعبادتهم على غير سنة؛ هذا نوع من الحماقة لأنه تضييع الأوقات وإهدار للجهود من غير طائل، بل يأتي وهو يأثم بإعراضه عن السنة وإقباله على البدع والخرافات والضلالات التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان.

قال ﵁ مبيّناً: (**ولمثقال ذرة**) يعني عمل قليل يسير جداً (**ولمثقال ذرة من برّ**

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

**مع تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين)؛** قارن! مثقال ذرة ويقابلها جبال، والذرة أفضل من الجبال، لأن هذه الذرة وهي العمل القليل كانت من بِر، والبر: هو الأمر الذي شرعه الله ﷻ مع تقوى ويقين، ولاحظ صفات العمل الذي هو قليل ولكنه مقبول وأجره مضاعف: أن يكون من بر؛ أي: من أمور البر التي شرعها الله ﷻ وأمر عباده بها، واقرأ على سبيل المثال في ذلك آية البر في ﴿سورة البقرة﴾ قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

فأن يكون العمل من بِر: أي من عملٍ بَرٍّ مشروعٍ أمَر الله به، وأن يكون مع تقوى ويقين: تقوى لله ﷻ بأن يقع منك خالصاً لا تبتغي به إلا وجه الله، ويقين بثواب الله وجزائه وما أعدّه الله ﷻ لعباده المتقين **(أعظم وأفضل وأرجح)** وكل واحدة من هذه الكلمات الثلاث تُغني عن الأخرى، لكن من باب التأكيد، لو قال أعظم كانت كافية؛ لكنه أراد أن يؤكد هذه الحقيقة قال: **(أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين)؛** ويشير بالمغترين الذين تمضي أوقاتهم في ممارسات مُحْدثة وأعمال مبتدعة لم يكن عليها هدي النبي الكريم

صلوات الله وسلامه عليه(١).

---

(١) وللإمام ابن القيم ﵀ تفصيل بديع حول تفاضل الأعمال مع ذكر أمثلة وردت في أحاديث نبوية؛ فقال ﵀: «فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل وطاشت لأجله السجلات: لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات انفردت بطاقته بالثقل والرزانة وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك وذكر من هو معرض عنك غافل ساه مشغول بغيرك قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك وإيثاره عليك هل يكون ذكرهما واحدا؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة أو عبداك أو زوجتاك عندك سواء؟ وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره ويعالج سكرات الموت فهذا أمر آخر وإيمان آخر ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة وجعل من أهلها وقريب من هذا، ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خفها ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكورا فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي **الذي إذا وضع منه**
=

فكرر رعاك الله تأمل هذا الأثر وتأمل بدايته العجيبة **(يا حبذا)** يقول أبو الدرداء ﷺ، والذي كان عليه أبو الدرداء والصحابة الأخيار ومن اتبعهم بإحسان هو الاجتهاد في التقرب إلى الله ﷻ بالسنن والأعمال المشروعة التي أمر الله ﷻ بها عباده ودعوة الناس إلى ذلك[(١)].

## المتن

**قال المؤلف ﷺ:**

## باب وجوب الدخول في الإسلام

**وقول الله تعالى:** ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥]، **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩]، **وقول الله تعالى:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] **الآية. قال مجاهد: «السبل: البدع والشبهات»**[(٢)].

---

مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبا، والله المستعان» «مدارج السالكين» (١/ ٣٣١).

(١) قال العلامة ابن باز ﷺ في شرحه لهذا الموضع وكأنه لخص ما ورد في هذا الباب: «فالواجب على جميع المكلفين التمسك بالإسلام والاجتهاد في طاعة الله تعالى، هذا هو طريق النجاة وهذا هو طريق السعادة، فالاقتصاد في الإسلام والسير عليه بالقليل خير من الاجتهاد الكثير على غير إسلام وسنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله» «شرح فضل الإسلام» (ص٧).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٢٢).

## الشَّرح

قال المصنف رحمه الله: **(باب وجوب الدخول في الإسلام)**؛ هذا بابٌ عظيم ينبغي على كل مسلم أن يتنبه له وأن يعرِف أمر الله سبحانه وتعالى له بذلك؛ الدخول في الإسلام، وذلك بالتزامه بالإسلام؛ أحكام الإسلام، وشرائع الإسلام، وما في الإسلام من أوامر ونواهٍ؛ فيكون منقاداً مستسلماً متَّبِعاً مطيعاً، فهذا أمرٌ مطلوب، والله عز وجل أمَر أهل الإيمان بذلك، أمرهم بالدخول في الإسلام وذلك بالتزام أحكامه وتفاصيله وشرائعه كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة: ٢١٠] والمراد: ﴿فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ أي: الإسلام(١)؛ شرائعه وأحكامه وأوامره ونواهيه وتفاصيله ﴿كَآفَّةً﴾: لا تتركوا منه شيئا، جاهدوا أنفسكم على التزام أحكامه، والتقيد به، والانقياد التام لما جاء في الإسلام من أوامر ونواه وفرائض وواجبات.

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾: أي لا تتركوا منه شيئا، بل حافظوا على الإسلام واستمسكوا به، ولا يمكن أن يدخل أحدٌ في السِّلم كافة إلا إذا تخلى عن هوى نفسه، فالنفس تبحث عن حظوظٍ وعن أمورٍ وعن شهواتٍ قد تصرِف العبد عن هذا الدخول وعن هذه المحافظة على الإسلام، وأعظم ما يصرف عن

---

(١) انظر على سبيل المثال: «تفسير ابن جرير» (٤/ ٢٥١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٣٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٦٥).

هذا الدخول الشيطان الرجيم - أعاذنا الله منه - ولهذا قال ﷻ في هذا السياق: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ لأن الشيطان يريد نقل الإنسان عن الإسلام عبر طرقٍ يأخذ الإنسان فيها بخطواتٍ تدريجية بالترك والتخلي عن الإسلام، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ فأفاد هذا السياق العظيم لمن أراد الدخول في الإسلام -شرائعه وتفاصيله- أن يتخلى عن هواه وأن يحذر أشد الحذر من الشيطان الرجيم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾؛ ليست المسألة أمرًا اختياري تأخذ وتدَع حسب هوى النفس ورغبتها، فما راق للنفس أخذه، وما لم يرُق لها تركه، ليس هكذا شأن المسلم؛ بل المسلم مستسلمٌ لله منقادٌ لله إذا أمره ائتمر وإذا نهاه انتهى، فإذا كان يعصي في المأمور ويرتكب المحظور فهذا من نقص إسلامه ولم يتحقق له إسلامه، وهو مطلوبٌ منه أن يجاهد نفسه على الدخول في الإسلام كافة بالمحافظة عليه والعناية به والبُعد عن كل أمر يُنقِصه أو يُخِلُّ به.

وبهذا يُعلم أن انشغال الإنسان بغير الإسلام الذي هو شرع الله ودينه حتى ولو كان على وجه التقرب إلى الله ﷻ وإرادة ثوابه لا يُقبل من الإنسان، فلا يُقبل من الإنسان إلا الإسلام الذي هو شرع الله ودينه ﷻ وما أمَر به عباده؛ ولهذا قال المصنف ﵀: (**بابٌ وجوب الدخول في الإسلام**)؛ أي: بالالتزام به كما شرع الله وكما أمر الله وكما بلّغت رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، فالإسلام هو

دين الله ﷻ الذي بلّغته رسله، فلا يقبل الله ﷻ دينـًا سـواه، ولا يقبل عمـلاً إلا ما جاء من طريق الرسل الذين خُتموا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه.

وأورد المؤلف ﵀ نصوصـًا تبين مدلول هذه الترجمة؛ فذكر أولاً قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ﴾ أي: غيـر هـذا الـدين الـذي شـرعه الله ﷻ لعبـاده وأمرهم به وبعث به رسله عليهم صلوات الله وسلامه ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ لا يقبل الله ﷻ دينـًا ولا عملاً ولا طاعةً ولا قربةً إلا ما كان إسلامًا بعث به رسله ودعا إليه عباده، فليس باب العبادة والتقرب إلى الله ﷻ مفتوحـًا للإنسان يعبد الله بما شاء ويتقرب إلى الله بما شاء؛ بل عبادة الله ﷻ إنما تكون بما أذِن وبما شرع وبما أمر ﷻ عباده به، ولهذا في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا﴾ تحذير من مخالفة الإسلام والرغبة عنه وعن أعماله وعن أوامره إلى خرافات باطلة أو ضلالات زائفة أو أهواءٍ منحرفة أو تجارب مدّعاة أو نحو ذلك من الأبواب التي صارت منزلقـًا لكثير من الناس في التخلي عن الإسلام والدخول في أعمالٍ ليست منه ولم يشرعها ﷻ لعباده.

قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ لاحظ هنا قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ في هذا السياق ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا﴾: يعني من طلَب لنفسه دينًا وشرعًا وأحكامًا يلتزمها ويحافظ عليها وربما يتقرب إلى الله بها فكل هؤلاء لا يقبل الله ﷻ منهم؛ إلا إذا كان دينهم هو الإسلام، لو تقرب الإنسان إلى الله ﷻ

الليل والنهار وأطال القيام والعبادة والعمل على غير الإسلام فكل ذلك لا يُقبل، ولهذا سيذكر المصنف قريبًا قول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)؛ فقوله: «فَهُوَ رَدٌّ» هو بمعنى قوله: ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾، «فَهُوَ رَدٌّ»: أي مردود على صاحبه غير مقبول منه، فالله ﷻ لا يقبل من العبد إلا ما كان إسلامًا بَعَث الله به رسله وأنزل به كتبه وشرعه لعباده وأذِن لهم به، أما ما سوى ذلك فلا يقبله الله ﷻ، قال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد وهو عدم القبول؛ بل أنه يكون خاسراً معاقبًا آثمًا يلحقه الخزي والعقاب لتركه للإسلام الذي شرعه رب العالمين وأمر ﷻ عباده به قال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

أيضا تأمل هنا قوله: ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ ﴾؛ وهذا فيه تنبيه أن أعمال الإسلام التي يقوم بها العبد في هذه الحياة المقصود بها الآخرة وليس المقصود بها الدنيا، وهذه ملاحظه مهمة، الصلاة والصيام والحج هذه أعمالٌ للآخرة ولهذا قال الله في آيةٍ أخرى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩]، هذه شروط السعي المشكور عند الله: أن يريد به صاحبه الآخرة، وأن يسعى لها سعيها.

وقد ذم الله ﷻ من أراد بعمل الآخرة الدنيا في آيات عديدة في القرآن؛ كقوله

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

ﷻ في الآيـة التـي قبـل هـذه الآيـة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسـراء:١٨]، وقـال ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هـود:١٥]، فـذم ﷻ مـن أراد بعمـل الآخرة الدنيا؛ فيصلي لأجل الدنيا، أو يصوم لأجل الدنيا، ويتصدق لأجل الدنيا، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ لأن الآخرة هي ميدان الثواب والجزاء على العمل الذي كان في الدنيا، ولهذا جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه وعن الصحابة أجمعين قال: «ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتْ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ - يعني للدنيا بنون؛ لا همّ لهم إلا الدنيا، وللآخرة بنون همّهم الآخرة - فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»(١).

ولهذا فإن من فوائد هذه الآية: أن تكون الآخرة نصب عيني الإنسان في أعماله وفي طاعاته، وأن يتذكر دائماً أنه سيقف بين يدي الله ﷻ في يوم الدين؛ يوم الجزاء والحساب، فيجازيه ربه ويحاسبه على ما قدّم من الأعمال، وفي ذلك اليوم تتجلى الأمور وتنكشف الحقائق ويُبعثر ما في الصدور ويجازى الناس على أعمالهم، فتكون مصيبة الإنسان عظيمة إذا كان قدّم في هذه الحياة الدنيا قربات كثيرة وأعمال عديدة ولكنه يأتي يوم القيامة خاسراً لكون تلك الأعمال وتلك القربات على غير الإسلام؛ فوجب على العاقل أن يتنبه لهذا الأمر وأن

(١) انظر: «صحيح البخاري»: (باب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ).

يجاهد نفسه في أن تكون طاعاته وأعماله وقرباته قائمة ومبنية على الإسلام الذي هو دين الله ﷻ.

وكل خروجٍ عن الإسلام وعن تعاليمه فهو مردودٌ على صاحبه، والمصيبة في هذا الباب في كثير من الناس عظيمة؛ إذ إنَّ عدداً منهم تجده يمارس أموراً تُخرج من الإسلام وتنقل الإنسان من حظيرة الدين وهو يظن نفسه متقربًا إلى رب العالمين بأعظم القربات، ومن أعظم الأمثلة على ذلك: حال من يعكف عند القبور باكيًا خاشعًا متذللاً منكسراً طامعًا راجيًا يجعل المقبورين وسائط بينه وبين الله ﷻ، حاله كحال من قال الله ﷻ عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وقوله الله ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيتخذ الوسائط بينه وبين الله ﷻ منددًا مسويًا عادلاً غير رب العالمين به ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، وستكون ندامة هؤلاء عظمى لأن الله ﷻ أخبر عن حال من يسوّون غير الله به في ذلهم وخضوعهم وانكسارهم وخشوعهم وتذللهم ورجائهم ورغبهم ورهبهم؛ ذكر عن ندامتهم فيما ذكره سبحانه في قوله: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]، بل بلغ الحال بكثير من الناس أنه في صلاته لا يخشع ولا يذل ولا ينكسر، وعند المقبورين يخشع ويذل وينكسر ويرغب ويرهب ويرجو ويطمع، أين حقيقة الإسلام هنا؟! أين الدين هنا الذي شرعه الله ﷻ لعباده؟!

ولهذا يجب على الإنسان أن يتأمل هذا الأمر وأن ينتبه له ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وكذلك من يمضي في عباداته وأعماله على بدع ما أنزل الله بها من سلطان، وضلالات ليس عليها حجة ولا برهان؛ متقربًا إلى الله ﷻ به فكل ذلك لا يقبله الله، وقد أعلن ذلك صريحًا رسول الله ﷺ عندما قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه.

ثم ذكر المصنف ﵀ بعد هذه الآية آية أخرى في المعنى نفسه؛ وهي قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾؛ وهذه الآية بمعنى الآية التي قبلها.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: فالدين الذي يرضاه الله ويقبله من أهله وأصحابه ويثيب عليه ويشكر صاحبه هو الإسلام الذي شرعه الله ﷻ لعباده وأمرهم به وبعث به رسله وأنزل به كتبه، هذا هو الدين.

وكل دين سوى الإسلام فهو ضلال؛ مهما وضع له صاحبه من المبررات ومهما التمس له من الأعذار فكل دينٍ سوى الإسلام ضلال، وكل تقربٍ إلى الله ﷻ بغير إسلام فهو بُعدٌ عن الله وليس تقرب، وكل سيرٍ إلى الجنة وطلبٍ لها بغير الإسلام هو في الحقيقة بُعد عنها، فكل طريق إلى الجنة مسدود إلا من طريق الإسلام الذي هو دين الله ﷻ الذي بعث به رسله وختمهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

ثم أورد في تبيين هذا المعنى والتأكيد عليه قول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾؛ وهذه الآية ساقها المصنف في هذا الموضع ليبين بها أن الإسلام الذي هو دين الله ﷻ الذي لا يقبل دينًا سواه هو الصراط المستقيم والسبيل القويم الموصل إلى رضوان الله ﷻ، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ فالإسلام هو صراط الله المستقيم، ما هو الصراط المستقيم؟ أحد الصحابة سُئل عن ذلك، سئل عن الصراط المستقيم فتأمل الجواب:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أتى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو قائم يقص على أصحابه فقال: يا أبا عبد الرحمن ما الصراط المستقيم؟ قال: «تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة..»[1].

والله ﷻ ذكر الصراط هنا قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ وأمر عباده؛ بل أوجب عليهم أن يدعوه دعاءً متكرراً بالهداية إلى هذا الصراط في ﴿سورة الفاتحة﴾ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾، فقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ هذا دعاء يتكرر منك كل يوم وليلة سبع عشرة مرة في الصلاة المفروضة، فهو أوجب الدعاء وأعظمه وأهمّه، بل ليس في الأدعية أعظم من هذه الدعوة، هي أكمل الأدعية وأعظمها

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٢/ ٢٣٠)، وابن وضاح في «ما جاء في البدع» (ص٧٤)، وانظر: «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٧٧).

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾؛ لأن العبد إذا هُدي إلى الصراط المستقيم سعد في دنياه وأخراه، ونال الفلاح، وسلِم من الخسران.

قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ يقول العلماء رحمهم الله: إن صراط الله المستقيم متصفٌ بصفات ثلاث عظيمة:

١) **الصفة الأولى**: الاستقامة؛ طريق مستقيم ليس فيه اعوجاج وليس فيه انحراف وليس فيه التواء، بل هو موصلٌ إلى الحق بطريق مستقيم غير مائل ولا معوَج.

والاستقامة تعني: القرب؛ لأن الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الموصل إلى المقصود بأقرب طريق، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ فإذاً من صفاته الاستقامة.

٢) **الصفة الثانية**: اليُسر؛ طريقٌ يسير ليس طريقًا وعراً أو صعبًا أو شاقًا بل هو طريق سهل، وقد قال ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ»[(١)]، والله ﷻ قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨] فهو دين يسر، الطريق المستقيم طريق ميسّر ليس معسَّر، ليس صعبًا، ليس حزْنا، ليس وعِرا؛ بل طريق سهلة ميسرة.

٣) **الصفة الثالثة**: السعة؛ الصراط المستقيم واسع، لو دخل الناس من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها في هذا الصراط المستقيم يسعهم، طريق واسع ليس طريقًا ضيقًا لا يكفي إلا لواحد أو لعشرة أو لعشرين أو لمئة أو

(١) رواه البخاري (٣٩).

لمئتين أو ألف أو ألفين؛ طريق واسع يسع الناس كلهم من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لو دخلوا كلهم في هذا الصراط لوسعهم.

فإذاً الصراط المستقيم متصف بالاستقامة والسهولة والسعة، وهو دين الله ﷻ الذي أمر ﷻ عباده به.

وقد بيّن نبينا ﷺ هذا الصراط بمثل؛ فكان الصحابة حوله، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»[1]؛ بمعنى أن الإنسان وهو ماضٍ في طريق الله وفي صراط الله المستقيم سيمُرّ مرات كثيرة وأحايين عديدة على يمينه وعلى شماله على سُبل تُخرج الإنسان من صراط الله المستقيم. والخروج عن صراط الله المستقيم يكون من أحد طريقين:

١) **إما طريق الشبهة** التي تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم إلى حيث البدعة والضلالة.

٢) **أو طريق الشهوة** التي تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم إلى حيث المحرمات والموبقات.

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١١٧٤)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، والطيالسي في «مسنده» (٢٤٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٧)، وحسن الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦٦).

والشيطان - كما جاء في بعض الآثار في كلام أهل العلم - يشام القلوب؛ يعني ينظر إلى ميل القلب؛ إذا وجد القلب ميالاً للشهوات رغّبه فيها وحثّه عليها وزيّنها له، وإذا وجده منصرفاً عن الشهوات غير مقبلٍ عليها جعله يتشدد في دينه ويغلو في دينه إلى أن يخرج عن الدين بغلو يفضي إلى البدعة وإلى الضلالة وربما إلى الشرك بالله تبارك وتعالى[1].

فيُخرج الإنسان عن الطريق المستقيم إما عن طريق الشبهة بفساد العلم، أو عن طريق الشهوة بفساد العمل؛ الشهوة فساد في العمل، والشبهة فساد في العلم.

وضياع الإنسان بفساد علمه أو فساد عمله، وصلاح الإنسان واستقامته بصلاح علمه وصلاح عمله، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾؛ فالمنعَم عليهم: من صلح فيهم العلم والعمل، اجتمع فيهم العلم النافع والعمل الصالح.

والمغضوب عليهم: من عنده علم وليس عنده عمل.

والضالون: من عندهم عمل وليس عندهم علم.

---

(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«**وللشيطان فيه نزغتان:**

إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر.

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي والقليل منهم جدا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه» «إغاثة اللهفان» (١/ ١١٦).

ولا يكون الإنسان منعَمًا عليه من أهل صراط الله المستقيم إلا إذا جمع بين العلم والعمل؛ علم يهديه وعمل صالح يرقِّيه إلى الله ﷻ ويبلغ به أعالي الدرجات ورفيع الرتب.

وأيضا فإن النبي ﷺ ذكر مثالاً آخر عجيباً عظيماً في بيان صراط الله المستقيم -سبق الإشارة إليه وأعيده تأكيداً عليه وتنبيها على أهميته- قال ﷺ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(١).

ولاحظ الآن الصراط محفوف على جنبتيه بسورين جدارين، وفي الجدارين أبواب، حذّك وأنت تمشي على هذا الصراط ألا تخرج عن هذين السورين بحيث تمشي مستقيماً وعلى يمينك السورين، لا تخرج خارج الأسوار.

ولاحظ هنا ملاحظة بديعة في المعنى الذي ترجم له المصنف: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾؛ لا تخرج إلى حيث الأهواء أو حيث البدع أو حيث الضلالات

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٤٨).

أو حيث المحرمات، بل حافظ على إسلامك بأن تكون داخل هذه الأسوار ماشيا في طريقك المستقيم، لا تخرج خارج السور إلى حيث الشهوة، ولا تخرج أيضا إلى خارج السور إلى حيث الشبهة والضلالة.

قال: «الصراط المستقيم: الإسلام، والسوران: حدود الله»، وحدود الله ﷻ أمِرْنا ألا نتعداها، وحدود الله أيضا أمِرنا ألا ننتهكها، لأن حدود الله تارةً يُراد بها القربات والدين نفسه الذي أمِرنا بامتثاله، وتارة يراد بها المحرمات، ولهذا يأتي في هذا المعنى ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩].

﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾: أي المحرمات، ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾: أي الطريق المستقيم الذي أمِرتم بسلوكه والتزامه والسير عليه.

قال: «والداعي الذي يدعوا من أول الصراط: كتاب الله» ماذا يقول كتاب الله؟ (يا عباد الله ادخلوا الصراط ولا تعوجوا) كتاب الله ﷻ يأمرنا بهذا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

قال: (والداعي الذي يدعي من جوف الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم) هذا الواعظ يقول: (يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحته تلجه)؛ وهذا والله منة عظيمة من الله ﷻ على المسلم أن جعل في قلبه واعظًا، جعل في قلبه منبّها، تجد المسلم المستقيم إذا جنحت به نفسه يومًا من الأيام إلى أمرٍ محرم أحس في قلبه وخزة ألم، عدم ارتياح، ولهذا النبي ﷺ أشار إلى هذا المعنى بقوله: (دَعْ مَا يَرِيبُكَ) يعني تجد في قلبك ريبة، انقبا، تجد وحشة، تجد ضيقة صدر، تجد

عدم انبساط؛ «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»(١)، فالحرام إذا دخله الإنسان الذي هو على الاستقامة وعلى المحافظة وعلى الدين قلبه ينقبض، هذا واعظ كأنه يقول لك: «لا تفتح الباب فإنك إن فتحته تلجه».

ثم إذا مضى الإنسان في الحرام واستمر في الحرام يتبلد عنده هذا الواعظ بل يتعطل، ويصبح المعروف عنده منكراً والمنكر عنده معروفًا، وتنقلب الموازين عنده رأسًا على عقب؛ وهذه المصيبة - والعياذ بالله -، وهو معنى قوله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤].

فالذنب إذا وقع من العبد نُكت في القلب نكتة سوداء، فإذا أذنب مرة ثانية نُكت نكتة سوداء إلى أن يغطي الران على القلب ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فيصبح وحالته هذه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً -والعياذ بالله-.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾؛ وحَّد الصراط وعدّد السبل: لأن صراط الله ﷻ الموصل إلى رضوانه وجنات النعيم واحد، والسبل ليست سبيلاً واحد بل هي سبل كثيرة وعلى كل سبيل منها شيطان يدعوا إليه.

فقوله: (**وجوب الدخول في الإسلام**) يبينه ويوضحه هذه الآيات التي ساقها المصنف، وأن الدخول في الإسلام لا يكون إلا بسلوك صراط الله المستقيم والمضيّ عليه والثبات عليه إلى أن يلقى العبد ربه وهو على هذا الصراط. وهذا

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٧٧).

لا يتحقق للعبد إلا بأمرين:

▪ **الأمر الأول**: الإلحاح على الله ﷻ بالسؤال، وأعظم دعاء في هذا دعاء الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾، وكذلك سؤال الله الثبات: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ)[1] صح هذا الدعاء عن نبينا ﷺ، وصح عنه ﷺ أنه كان يكثر أن يقول في دعائه (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[2]، (يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ)[3]، والله ﷻ يقول: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

▪ **الأمر الثاني**: مجاهدة النفس؛ قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩]، يجاهد نفسه على سلوك هذا الصراط ومعرفته والعمل به والمحافظة عليه والبعد عن نواقصه ونواقضه، يجاهد نفسه على الثبات على ذلك إلى أن يلقى الله ﷻ، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

لما ذكر الآية ختمها بهذا النقل عن مجاهد؛ **(قال مجاهد)** ومجاهد من علماء

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧١١٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٣٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

(٣) رواه مسلم (١٧).

التابعين: (**السبل: البدع والشبهات**)؛ السبل في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: لا تتبعوا البدع، ولا تتبعوا الشبهات التي تخرجك عن الصراط المستقيم وتبعدك عنه، بل إن من عجيب أمر هذه الشُّبه أنها تُخرج الإنسان من الصراط المستقيم وتشعِره في الوقت نفسه أنه ماضٍ عليه ثابت عليه!! أعظم ما يكون في خطورة الشبهة أنها تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم وتشعِره في الوقت نفسه أنه ثابت على الصراط، ولهذا صاحب البدعة هل يُقِرّ أنه على بدعة مثل صاحب المعصية؟! صاحب المعصية إذا نهيته عن معصيته رأساً يقول لك: (ادع الله أن يهديني أنا مخطئ، أنا مقصر، أنا مذنب)، أما صاحب البدعة إذا نُهي عن بدعته يغضب ويدافع ويحامي عن البدعة لأنه يرى أن هذا العمل هو دين الله، وهذا معنى قول النبي ﷺ في الحديث: «إن الله احتجر التوبة عن صاحب البدعة حتى يدع بدعته»[1]، لأن صاحب البدعة يرى أن بدعته حقاً، ويرى السنة باطلاً وضلالاً -والعياذ بالله-، ولهذا تجده يدافع عن البدعة وينصرها ويحميها؛ هذه حاله مع البدع، لماذا؟ لأنه يرى أنها حق.

فهذه مصيبة حال أهل البدع والشبهات؛ أنهم يخرجون عن صراط الله المستقيم ويظنون أنهم على هذا الصراط، والصراط المستقيم أمارته واضحة لا خفاء فيها وهي: أن يُبنى على الدليل؛ على قال الله قال رسوله. لكن لو قال

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٥٦)، والضياء في «المختارة» (٢٠٥٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٩٩).

قائل: (إننا نعمل هذه الأعمال لأنها مجربة عندنا وعند شيوخنا)؛ هذا ليس من صراط الله المستقيم، أو يقول: (هذا ذوقي)، أو يقول الآخر: (هذا ما هوَته نفسي) أو نحوه؛ هذه ليست أمارات وعلامات على الصراط المستقيم، علامة الصراط المستقيم: أن يبنى على قال الله قال رسوله ﷺ.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[(١)] أخرجاه، وفي لفظ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٢)].**

## الشرح

ثم بدأ المصنف رحمه الله بسوق الأحاديث الدالة على هذه الترجمة، وبدأ بهذا الحديث العظيم الذي عدّه غير واحدٍ من أهل العلم من جملة أحاديث عليها مدار الدين، فالدين يدور على أحاديث؛ منها: حديث «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[(٣)]، وحديث «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٤)]، وحديث: «إِنَّ الْحَلَالَ

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٤) رواه مسلم (١٧١٨).

بَيِّنٌ»[١]، فهناك جملة من الأحاديث عليها مدار الدين[٢].

وبهذه المناسبة أوصي الجميع بوصية نافعة وهي: أن يُعتنى بالأربعين النووية التي جمعها الإمام النووي رحمه الله، لأنه رحمه الله عندما قصَد جمع هذه الأحاديث أراد أن يجمع الأحاديث التي عليها مدار الدين؛ فالدين يدور على أحاديث جامعة، وبقية الأحاديث التي هي بالآلاف ترجع إلى هذه الأحاديث، لأن هذه أصول الدين وجوامعه، فكتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى هذا الكتاب العظيم كتاب ينبغي أن يُعتنى به.

وكم هو جميل بالأب في بيته والمدرس في مدرسته والمربي في مجاله أن يُعنوا بهذه الأربعين؛ يحفظها الأبناء وتُشرح لهم وتبيّن وتوضح فهذا فيه خير عظيم ونفع عميم، أربعون حديثاً لا يأخذ حفظها وقتاً، من حفظه بطيء جداً يكفيه في حفظها شهر واحد، ويُعتنى بسماع شرح هذه الأربعين أو قراءة شرحها فيما كتبه أهل العلم رحمهم الله، ففي هذا نفعٌ عظيم لكل مسلم.

قال: **(وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) أخرجاه)**: أي البخاري ومسلم.

**(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا)**؛ «أمرنا»: أي ديننا الذي بُعث به عليه الصلاة والسلام.

«أحدث»: أي أنشئ واخترع وأوجد في ديننا.

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص٩).

«مَا لَيْسَ مِنْهُ»: أي أمراً ليس من الدين.

وهذا فيه تعريف البدعة؛ لو قيل لك ما هي البدعة؟ وقلت: البدعة هي أن يُحدِث في الدين ما ليس منه، أو أن يعمل عملاً ليس عليه أمر النبي ﷺ كما في الرواية الأخرى؛ أن يعمل عملاً يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى ليس عليه أمر النبي ﷺ؛ فهذا فيه توضيح للبدعة وتحذيرٌ منها.

قال: (**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَـٰذَا**): أي هذا الذي بُعث به ﷺ وترك الصحابة عليه وتلقاه الصحابة منه رضي الله عنهم وصلوات الله وسلامه عليه وبلّغوه لمن بعدهم، ومن بعدهم بلغوه لمن بعدهم؛ هذا هو دين الله، دين الله هو: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

(**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا**) أي: من أنشأ واخترع في ديننا هذا (**مَا لَيْسَ مِنْهُ**) أي: أعمالاً ليست من الدين (**فَهُوَ رَدٌّ**) أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه، وهذا فيه أن البدع كلها مردودة، حتى وأن حسُن قصد صاحبها، ولا يكفي صحة القصد لقبول العمل، بل لابد من سلامة العمل وموافقته للسنة.

قد مر معنا في هذا المعنى قول الفضيل بن عياض رحمه الله: «أي: أخلَصُه وأصوَبُه»، قيل: يا أبا علي وما أخلَصُهُ وأَصْوَبُه قال: «إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولَم يكن صوابًا لَم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لَم يُقبَل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالصُ ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة»(١).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص:٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

فالله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان موافقًا لسنة النبي ﷺ، أما إذا خالف السنة فإنه يُردّ، حتى وإن كان قصد صاحبه طيبًا وحسنا؛ يرد على صاحبه ولا يقبله الله ﷻ منه، وهذا أمر ينبغي أن نتنبه له، وأضرب لكم مثالاً جميلاً جاء في السنة:

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «ضَحَّى خَالٌ لِي يُقَالُ لَهُ أَبُو بُرْدَةَ قَبْلَ الصَّلاَةِ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ»، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلاَةِ فَإِنَّمَا يَذْبَحُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ذَبَحَ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَقَدْ تَمَّ نُسُكُهُ وَأَصَابَ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ»[1].

فأراد يوم عيد الأضحى أن يذبح أضحيته قبل الصلاة وكان قصده الذي أراده قصداً طيبًا - هكذا جاءت الفكرة عنده - قال: أذبحها قبل الصلاة حتى لا نقضي من الصلاة إلا وهي جاهزة ومطبوخة، لأني لو ذبحتها بعد الصلاة يتأخر إعدادها إلى وقت طويل، لكن أذبحها قبل الصلاة وأجهزها بحيث لا ينصرف الناس من الصلاة إلا وهي جاهزة لهم.

فهذا القصد قصدٌ طيّب، وقَصَد خيراً لم يقصد شرا، فلما بلغ النبي ﷺ عمله وهو قد ذبح فعلاً قبل الصلاة قال له: (شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ) يعني ليست أضحية، لأن الأضحية لها وقت معين؛ وقتها بعد الصلاة، فذبحك لها قبل الصلاة مع أنه ذبحها متقربًا بها إلى الله طالبًا بها ثوابه معجلاً في الخير مريداً الإحسان كل هذه لم تشفع، قال ﷺ: (شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ) يعني ليست أضحية، إذا كنت تريد أن

(١) رواه البخاري (٥٥٥٦)، ومسلم (١٩٦١).

تضحي فالأضحية وقتها بعد الصلاة؛ فلا يكفي في العمل طيب قصد الإنسان أو حسن قصده بل لابد أن يجاهد نفسه في أن يقع العمل موافقا لسنة النبي صلوات الله وسلامه عليه.

قال: **(وفي لفظ)** وهذا اللفظ لمسلم: **(مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)**؛ هنا هذا اللفظ فيه فائدة زائدة على اللفظ الأول وهي: أنه قد يظن الإنسان أن الأمر المبتدع إذا لم يكن هو الذي أحدثه فلا شيء عليه؛ فتأتي هذه الرواية دافعة هذا الوهم الذي قد يظنه بعض الناس، قال: **(مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)** أي: سواء كان هذا الأمر المحدَث المبتدع أحدثه الإنسان أو أُحْدِث له؛ لا فرق، سواء أحدثه الإنسان أو أحدثه له أشياخه من أهل الضلال والبدع لا فرق في ذلك، الكل مردودٌ عليه؛ مردود على من أحدَث، ومردود على من عمل بالمحدَث، كل هؤلاء مردود عليهم عملهم، ولا يقبل الله ﷻ من العمل إلا ما كان صوابًا، ولا صواب إلا ما كان على سنة الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قيل وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»**[١].

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠).

الشَّرح

قال: (وللبخاري عن أبي هريرة ﵁ **قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»**) أي: إلا من قال أنا لا أريد أن أدخل الجنة، هذا أمر مستغرب، من الذي يُعرض عليه دخول الجنة؛ يقال له ادخل الجنة؛ ويقول: (أنا لا أريد الجنة أنا أريد النار، الجنة ليس لي فيها خاطر، وليس لي رغبة فيها أنا رغبتي في النار، أفضّل أن أكون في النار لا أرغب الجنة)!! هل أحد بهذه الصفة؟ لا أحد يكون كذلك.

ولهذا قالوا: (**ومن يأبى يا رسول الله؟!**) من هو هذا الذي تعرض عليه الجنة ويقال له: أدخل الجنة ويقول: أنا لا رغبة لي فيها ولا أريدها!! فقال النبي ﵊ مبيّناً: (**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**)؛ والله عندما نقرأ هذا الحديث وأمثاله نرى فيه جلياً نصح نبينا ﵊ لأمته بالأساليب النافعة المؤثرة التي تأخذ القلوب مأخذاً عجيباً، يعني هنا لما أراد أن يبين هذه الحقيقة لو أنه قال: (من عصاني لا يدخل الجنة) ألا تدل هذه الجملة تدل على المقصود؟ تدل عليه؛ لكن من كمال نصحه وبيانه وشده للقلوب وحرصه على الناس ينوّع الأساليب في أحاديثه ﷺ، فجاء هنا قال: (**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**): أي إلا من رفض أن يدخل، فأوجد تساؤلاً في قلوبهم (**من يأبى؟**) من ذا الذي تعرض عليه الجنة ويعرض عليه دخولها ويقول أنا لا أريد! قال: (**من أطاعني دخل الجنة**): أطاع الرسول عليه الصلاة السلام بامتثال أمره واجتناب نهيه، وهو

ﷺ والرسل قبله إنما أرسلوا ليطاعوا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، ولهذا قال: «**من أطاعني دخل الجنة**»؛ فالجنة سلعة غالية ولا سبيل إلى دخولها إلا بطاعة الرسول؛ وإلا كما قال بعض أهل العلم: «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرَّسول ﷺ!!»(١)، وكيف أيضًا يرام دخول الجنة وبلوغ هذا التمام في المنة بغير إتباع السنة -سنة النبي الكريم ﷺ - فهذا أمر لا يكون، وهذا بيّن في قوله: «**من أطاعني دخل الجنة**»؛ الجنة لها مفتاح ومفتاحها طاعة الرسول ﷺ واتباعه والسير على منهاجه ﷺ .

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، فلا يكون هذا إلا بطاعة الرسول ﷺ.

«**ومن عصاني فقد أبى**»: أبى أن يدخل الجنة، الذي يعصي الرسول كأنه يقول: أنا لا أريد الجنة؛ لأن عصيان الرسول ﷺ يوصل إلى النار ولا يوصل إلى الجنة؛ لا يوصل إلى الجنة إلا طاعة الرسول الكريم ﷺ بامتثال أمره واجتناب نهيه.

لاحظ العموم الذي جاء في أول الحديث؛ قال: (**كل أمتي يدخلون الجنة**) هذا عام، لكن هذا العموم ليس على إطلاقه، ولهذا لما كان ليس على إطلاقه لم

(١) «شرح العقيدة الطّحاويّة» (١/ ١٨).

يتركه النبي ﷺ مطلقا وإنما قيّده قال: (**إلا من أبى**)، فالعام إذا كان يحتاج إلى تقييد فإن مقتضى نصح الناصح صلوات الله وسلامه عليه ألا يتركه على إطلاقه.

**وهنا تستفيد فائدة**: قول النبي ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، هل هذا العموم على إطلاقه أو مقيد يُستثنى منه شيء؟ هل يُستثنى منه شيء بحيث نقول: هناك بدع ليست ضلالة بدع حسنة؟ هل هذا العموم على إطلاقه؟ لو كان هذا العام ليس على إطلاقه لقيّده الناصح ﷺ، كان يكرر كل جمعة: «كل بدعة ضلالة»، فلو كان هذا العام ليس على إطلاقه لقيّده كما قال هنا: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»؛ فهذا يفيدنا أن مقتضى النصح - وهو الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه- ألا يترك الأمور العامة على إطلاقها إذا كانت مقيدة كما هو واضح هنا؛ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ يا رسول الله» إلى آخر الحديث.

فإذاً قوله: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» هذا عام على إطلاقه، ولو كان من البدع ما ليس ضلالة لبيَّن النبي ﷺ؛ لقال: كل بدعة ضلالة إلا ما كان من البدع مثلا كذا وكذا فهو حسن، لكنه أبقاه على إطلاقه، فكل بدعة ضلالة، فلا يسوغ لأحدٍ أن يأتي ويقول بعد هذا العموم المطلق أن هناك بدع حسنة.

فهذا فيه خطورة جداً نبّه عليها الإمام مالك بن أنس رحمه الله عندما قال: « مَن ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمداً خان الرسالة؛ لأنَّ الله

يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فما لَم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»[١]، ولن يكون دينًا إلى أن تقوم الساعة، فالدين هو ما جاء به الرسول ﷺ، «وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ».

وهذه فائدة ذِكرها مناسب ولاسيما مع قربنا من قول نبينا ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[٢]؛ فكل محدث في الدين مردود، لا يستثنى من ذلك شيء؛ كل محدث في الدين وكل عمل يُتقرب به إلى الله ليس من دين الله فهو مردود على صاحبه لعموم قول نبينا ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

ولما فتح بعض الناس لأنفسهم بابًا تحت البدعة الحسنة دخلوا في ضلالات كثيرة وبُعدٍ عن سنة النبي ﷺ، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: «من استحسن فقد شرَع»[٣]، من يأتي بأمور في الدين يستحسنها فهذا يشرع في الدين ما لم يأذن به الله؛ لأنه لو كان من الشرع لأمر به الرسول ﷺ، أليس كلنا نعتقد أنه ﷺ ما ترك خيراً إلا ودل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه؟ إذاً ما الحاجة إلى البدع؟! يقول ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»[٤]، ونبينا ﷺ بلّغ البلاغ المبين ونصح ﷺ، وما ترك

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٢٨).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) انظر: «المستصفى» (ص١٧١)، و«الاعتصام» (٢/ ٦٣٧)، وقال الشافعي رحمه الله: «وإنما الاستحسان تلذذ» «الرسالة» (ص٥٠٧)، و«الأم» (٧/ ٢٩٤).

(٤) رواه مسلم (١٨٤٤).

خيراً إلا دل الأمة عليه، ولا شراً إلا حذرها منه؛ فجزاه الله عن أمته خير الجزاء وصلى الله عليه وملائكته وأنبيائه ورسله والصالحون من عباده.

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ»(١) رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «قوله: (سنة الجاهلية (يندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيدة، أي في شخص دون شخص، كتابية أو وثنية أو غيرهما، من كل مخالفة لما جاء به المرسلون»(٢).

## الشرح

قال المصنف رحمه الله وغفر له: وفي «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ»؛ أولاً: هنا فيه إثبات هذه الصفة لله سبحانه وتعالى أنه يبغض كما أنه سبحانه وتعالى يحب، قال في القرآن: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤] أي: أهل الإيمان وأهل الاستقامة أهل الصلاح؛ فهو يحبهم وهم كذلك يحبونه، و ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، و ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ

(١) رواه البخاري (٦٨٨٢).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٧٩).

﴿صَفًّا﴾ [الصف:٤]، جاء ذكر محبته ﷻ لعباده، وجاء أيضاً إثبات البغض في القرآن ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٣]، والمقت: شدة البغض، فالله ﷻ يحب ويبغض.

والعاقل عندما يعرف هاتين الصفتين يجتهد غاية الاجتهاد في معرفة ما يحبه الله ﷻ ليفعله، ومعرفة ما يبغضه الله ﷻ ليجتنبه ويتركه، وهذا كما نبّه أهل العلم فيه الثمرة العظيمة التي ينالها من آمن بصفات الله ﷻ وأسمائه، أما من يعطلون أسماء الله وصفاته أو يتأولونها على غير مرادها ويحرفونها عن معناها ومدلولها فإن هؤلاء يقطعون على أنفسهم وعلى غيرهم الآثار المباركة والعوائد الحميدة التي تنال بالإيمان بأسماء الله ﷻ وصفاته.

كم للإيمان بهذه الصفة وغيرها من الصفات من الأثر العظيم على العبد!! المسلم عندما يقرأ هذا الحديث (**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ**) يحذر من هذه الصفات غاية الحذر، لأنها صفات قبيحة ذميمة يبغضها رب العالمين ﷻ، وهذا الحذر، وهذا الحذر وهذا الخوف الذي ينشأ عند من يثبت لله ﷻ صفاته لا يتحقق لمعطلة الصفات ممن يحرفونها عن وجهها ويصرفونها عن معناها ومدلولها.

والواجب على المسلم أن يكون في هدا الباب على جادة أهل السنة؛ إمرار صفات الله ﷻ كما جاءت والإيمان بها كما وردت دون تحريف أو تعطيل ودون تكييف أو تمثيل.

قال: (**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ**)؛ ذِكر الرقم هو من حُسن التعليم وحسن

البيان، فإذا عرفت أن أبغض الناس إلى الله ﷻ ثلاثة فإن ذِكر الرقم يعينك على ضبط المسألة وإتقانها.

ولم يقل: (أبغض الناس إلى الله من فعل كذا ومن فعل كذا ومن فعل كذا)؛ وإنما ذكر الرقم من أجل أن تُضبَط، وتكون مضبوطة عند المسلم.

قال: (**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)؛ هذه ثلاثة خصال أو ثلاثة صفات أو ثلاثة أعمال أهلها هم أبغض الناس إلى الله ﷻ؛ «**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**»، وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ كلها تُعَدُّ من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، كل هذا من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ببعثة النبيين عليهم صلوات الله وسلامه؛ فالأنبياء يبعثهم الله ﷻ لإصلاح الأرض، وهداية الخلق، ودعوة الناس إلى الخير والفضيلة، وتحذيرهم من الشر والرذيلة؛ فمن الإفساد بل من أعظم الإفساد في الأرض فعل هذه الأمور، وخُصّت هذه الأمور الثلاثة بالذكر لأنها أشد أنواع الإفساد وأخطره.

**والإفساد في الأرض على نوعين:**

- إفسادٌ في الأرض يتعلق بدنيا الناس وحياتهم.
- إفساد في الأرض يتعلق بدين الناس وعبادتهم.

وأخطر شيء من أنواع الإفساد في الأرض مما هو متعلقٌ بدنيا الناس وحياتهم: قتل النفوس المعصومة وإراقة الدماء المحرمة وإزهاق الأرواح؛ ولهذا ذُكر هذا الأمر مضموماً إلى الشرك الذي هو أعظم الذنوب ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفرقان:٦٨]، وهذا النوع من الإفساد الذي يتعلق بدنيا الناس وحياتهم ذكره النبي ﷺ هنا بقوله: «**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**»؛ مطَّلب: يعني يبتغي ويريد ويسعى في إراقة دم مسلم بغير حق.

والحق لا يحدده هوى الإنسان ومبتغاه، وإنما يحدده شرع الله ﷻ، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(١)، فإراقة الدم بغير حق من أعظم الجرم وأكبر الذنب.

قال: (**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)؛ ليهريق دمه: أي يريق دمه ويقتله بغياً وظلماً وعدوانا، وقد جاء في الحديث: «يأتي المقتول متعلقا رأسه بإحدى يديه متلببا قالته بيده الأخرى يشخب أو داجه دما حتى يأتي به العرش فيقول المقتول لله: رب هذا قتلني فيقول الله ﷻ للقاتل: تعست ويذهب به إلى الناس»(٢)، فهذا نوع من الفساد خطير جداً وهو يتعلق بدنيا الناس وحياتهم.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢١٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» =

**والنوع الثاني من الفساد**: فساد يتعلق بدين الناس وعبادتهم، وهذا القسم على نوعين:

١- نوعٌ يتعلق بمحل العبادة ومكانها.

٢- ونوعٌ يتعلق بالعبادة نفسها والعمل نفسه.

وقد ذكر ﷺ هذين النوعين من الفساد فقال: (**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)؛ قوله: (**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**) هذا فساد يتعلق بمحل العبادة ومكانها.

قوله: (**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**) هذا فساد يتعلق بمحل العبادة ومكانها؛ والحرم الذي فيه بيت الله وهو قبلة المسلمين، ومهوى أفئدة المؤمنين، وفيه يطوف الطائفون متقربين لرب العالمين له حرمة ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، فهذا فساد يتعلق بموضع العبادة ومحلها؛ بل يتعلق بأشرف مواضعها وأفضل محالِّها، وقد جاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام أنها بمائة ألف صلاة، وليس هناك مكان في الدنيا يوازي هذا المكان في هذه الفضيلة العظيمة؛ ولا حتى المسجد النبوي، لأن الصلاة في مسجد النبي ﷺ بألف صلاة[1]، والصلاة في المسجد الحرام تزيد عنه بمائة ضعف[1]، فإذاً

(٢٤٤٧).

(١) كما جاء في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» رواه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).

أعظم ما يكون فساداً في الأرض يتعلق بالدين ويتعلق بمحل العبادة: الإلحاد في الحرم.

ولتلاحظ هنا: أن في كل عمل من هذه الأعمال يُذكَر أشنعه؛ فالإلحاد في الحرم هو أعظم وأشنع أنواع الإلحاد في مواضع العبادة وأماكنها؛ قال: (**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**) يعني أن يصل به الحال ويبلغ به الأمر إلى درجة أن أشرف أماكن العبادة وأعلاها شأناً وأرفعها مقاماً ومكانةً يلحِد فيه، ومن يقع منه الإلحاد في أشرف محالّ العبادة وأعظمها فإن وقوع الإلحاد منه في أماكن العبادة التي هي دون هذا المكان من باب أولى، فهذا يبين لنا شناعة حال وسوء فِعال من يلحد في الحرم، أي من يبلغ به الحال في تجاوزه وتعديه وظلمه وبغيه إلى درجة أنه لا يعرف للمكان فضله وشرفه ومنزلته وقدره، والله ﷻ يختار من البقاع ما يشاء ومن الأزمنة ما يشاء؛ حرّم مكة وحرّم الأشهر الحُرم، حرّم أمكنةً وحرّم أزمنة، وما يحرّمه الله ﷻ يجب على المسلم ألا يكون فيه من أهل ظلمٍ أو تعدٍّ أو تجاوزٍ أو طغيانٍ، لأن الظلم والتعدي في كل وقت شنيع، وفي الزمان الفاضل أشنع، وفي المكان الفاضل أشنع، وإذا اجتمع شرف زمانٍ وشرف مكانٍ وسوء فعالٍ فهذا - والعياذ بالله- من شر ما يكون وأفسد ما يكون.

(١) كما جاء في الحديث: عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ» رواه ابن ماجه (١٤٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١١٥٥).

قال: (**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)؛ الحرم المراد به: مكة التي حرمها الله ﷻ، وقد جاء في الحديث: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ»(١)، والمراد بتحريم إبراهيم مكة: أي إظهاره حرمتها؛ وإلا فالذي يحرم الله رب العالمين، والمراد بتحريم النبي ﷺ للمدينة: أي إظهار حرمتها ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور:٥٤]. فهي بلدٌ حرام حرّمها الله ﷻ، وقد أكد وذكَّر عليه السلام في حجة الوداع بحرمة البلد، وكان أهل الجاهلية يعرفون حرمته، قال: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قالوا: بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام، فقال: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**»(٢).

والإلحاد أصله في اللغة: الميل والعدول؛ يقال ألحد السهمُ عن الرمية: أي مال ولم يُصِب الهدف، ومنه تسمية اللحد في القبر لحداً لأنه يميل عن الاستقامة إلى جهة القبلة، والإلحاد دركات.

والملحِد في الدين: هو من يكفر برب العالمين ويجعل مكان تعظيم الله وإجلاله والخضوع له ﷻ الجحد والعناد والإنكار، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:١٨٠]، إما بتعطيلها، أو جحدها، أو إنكارها، أو تشبيه أسماء الله وصفاته بخلقه، أو غير

---

(١) رواه البخاري (٢١٢٩)، مسلم (١٣٦٠).

(٢) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

ذلك من أنواع الإلحاد.

في قوله (**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)؛ حدّد النوع المراد بالإلحاد (ملحد في الحرم): أي يفعل الإلحاد ويمارس الإلحاد في الحرم، والمراد بالإلحاد هنا: الذنوب العظام والجرائم، فِفعْلها في كل وقت وفي كل زمان حرام، ولكن فعلها في الحرم أشد جرمًا وأعظم إثمًا وأكبر خطيئةً؛ لما قام في قلب فاعلها من عدم الاحترام للبلد الحرام الذي حرّمه الله ﷻ.

قال: (**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)؛ هذا أعظم الإفساد فيما يتعلق بمحل العبادة.

**والنوع الثاني من الإفساد**: إفساد يتعلق بالعمل والعبادة نفسها.

قال: (**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)؛ **مُبْتَغٍ**: أي مريدٍ وطالبٍ، **فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**: أي يبحث ويطلب ويريد سنة الجاهلية؛ فيسعى في إقامتها ونشرها والدعوة إليها والترويج لها؛ فهذا إفساد، وأيُّ إفساد أعظم من هذا؟! الله ﷻ أصلح الأرض ببعثة المرسلين ثم يأتي من يأتي لينشر بين الناس سنة الجاهلية التي أبطلها الرسول الكريم ﷺ!!

ولكي يظهر لك شناعة هذا الإفساد وعظم هذا الجرم؛ تأمل في الجهد العظيم والجهاد الكبير الذي أمدّ الله ﷻ به رسولنا ﷺ ومن كان معه من الصحابة الكرام في إظهار هذا الدين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح:٢٨]، فكان منه ﷺ ومن صحابته جهود عظيمة وتضحيات وبذل في نشر هذا الدين، وقد بُعث ﷺ في حال ساء فيه وضع البشرية سوءًا عظيمًا وخيّم في أرجاء الأرض الظلام، قد جاء في الحديث أن

النبي ﷺ قال: «**وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»(١) يعني إلا قلة ونوادر، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قلائل جداً، وإلا فالأرض كلها استحكمت بالظلام وخيّم الباطل في أرجائها وضرب بأطنابه في جنباتها؛، فشاع الظلام، وانتشر الباطل، وعمّت الخرافات، والتبس الدين عند الناس فلا يعرفون حقاً ولا يُنكرون منكرا؛ يراق الدم ولا يدري صاحبه بما أريق دمه، يكفي في هذا جاهليةً عند أولئك إراقة دماء الإناث، وهذا شاع فيهم ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير:٨-٩]، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل:٥٨-٥٩]؛ جاهلية جهلاء، حتى ذكر أهل العلم في هذا الباب أن من جاهلية أولئك في هذا الأمر ومما امتلأت به قلوبهم من ظلام وكراهية وبغضاء للأنثى: أن بعضهم كان لا يتحمل أن تبقى له أنثى على وجه الأرض ولا دقيقة واحدة، حتى ذكروا في كتب التاريخ أن بعضهم إذا اقترب وقت وضع زوجته يحفر حفرة عميقة بجنبها وتطلق زوجته وتلد بجنب الحفرة، وأول ما يخرج المولود ينظر فيه الوالد؛ إن كان أنثى ما يبقى ولا لحظة واحدة، من رحم الأم إلى الحفرة مباشرة، مجرد ما يخرج من رحم الأم رأسا إلى الحفرة في نفس الوقت، ربما لا يُسمع له صراخ فيرميه في الحفرة ويهيل عليه التراب، من مِثل هذه المآسي شيء كثير.

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

أنكحة الجاهلية، عدّدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنواعًا من الأنكحة؛ فساد في الأعراض، إراقة في الدماء، انتهاب للأموال.

أما عن باب العبادة والإخلاص لرب العالمين فهذا لا وجود له؛ بل ليس إلا الوثنية والتنديد والتعلق بالتراب وبالأحجار والقبور والأشجار وتسوية هذه الأشياء بالرب العظيم والخالق الجليل، قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧ -٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، يحب حجراً مثل حبه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا إله إلا الله! حجر لا يعطي ولا يمنع ولا يخفض ولا يرفع ولا يملك لنفسه حولاً ولا قوة فيحبه حبًا مساويا لرب العالمين!! ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ انشغلوا بالإقبال على الحجارة وعلى الأشجار يعبدونها ويتبركون بها ويطلبون منها المدد والعون والشفاء والعافية، وكان لهم في هذا الباب غرائب وعجائب.

كان بعض من أسلم يحكي شيء من هذه الغرائب: «كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَعْبُدُ حَجَرًا، فَسَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: يَا أَهْلَ الرِّحَالِ، إِنَّ رَبَّكُمْ قَدْ هَلَكَ فَالْتَمِسُوا رَبًّا، قَالَ: فَخَرَجْنَا عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ نَطْلُبُ إِذَا نَحْنُ بِمُنَادٍ يُنَادِي: إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا رَبَّكُمْ، أَوْ شَبَهَهُ، قَالَ: فَجِئْنَا، فَإِذَا حَجَرٌ، فَنَحَرْنَا عَلَيْهِ الْحُمُرَ»(١).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٦١٥).

وجدوا حجر آخر، ففرحوا وأقبلوا عليه يعبدونه جاهلية جهلاء!! أنقذنا الله ﷻ من هذه الجاهلية ببعثة محمد ﷺ، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران:١٦٤]، فهذه منّة عظيمة منّ الله ﷻ بها على البشرية ببعثة محمد ﷺ؛ حيث خلّص الله ﷻ بها الناس من هذه الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء.

ولما بدأ ﷺ بالدعوة أوذي ﷺ أذىً عظيماً، وحمل عليه أهل مكة حملة شنيعة، وآذوه أذىً بالغاً، وطردوه، ورمَوه، ووضعوا عليه الأذى وفي طريقه، وكالوا له أنواع السباب والشتائم، ووصفوه بشنائع الصفات؛ وصفوه بالسحر والجنون إلى غير ذلك، وهو ﷺ صابر مجاهد حتى كتب الله ﷻ لدينه الظهور ولِما جاء به التمكين؛ مكّن له ولدينه.

وانظر -رعاك الله- وتأمل في موقف عجيب يتعلق بهذا الباب:

عندما حج ﷺ حجة الوداع وفي يوم عرفة أشرف الأيام وأعظمها وخيرها؛ لما وقف ﷺ في ذلك اليوم وخطب الناس ماذا قال في خطبته مما يتعلق بموضوعنا هذا؟!، وتأمل أن مقولته لهذه المقالة في البلد الذي كان إلى وقتٍ قريب مخيّمة فيه الجاهلية أعظم تخييم ويحارِب أهله الحق أشد محاربة، فماذا قال ﷺ في هذا الموضع وفي تلك الخطبة!، انظر عزة الإسلام وتمكين الله ﷻ

له، قال ﷺ: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ**»[1]، أين وضع ﷺ كل جاهلية؟ تحت قدميه في مكة؛ التي خيمت فيها الجاهلية وأظلم فيها الأمر وحورب فيها الحق وعودي أهله، أعز الله ﷻ دينه وكتب له الظهور وقال ﷺ: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ**».

هنا لابد أن تنظر متأملاً: النبي ﷺ وضع الجاهلية أين!! تحت القدمين، فكيف يليق بإنسان يدَّعي أنه متبعٌ للرسول ﷺ ثم يسعى ليسُنّ في الناس سنة الجاهلية!!

مرة ثانية؛ نبينا ﷺ بذل جهداً مُضنياً وجهاداً عظيماً ونصحاً بالغاً ودعوةً متواصلة لإبطال الجاهلية بعون من الله ومد إلى أن وصل إلى هذا الموقف العظيم، الموقف الذي ظهرت فيه عزة الإسلام والتمكين للدين فقال ﷺ: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ**»، فكيف يليق بمن يدَّعي اتباع الرسول ﷺ ثم في الوقت نفسه يسن في الإسلام سنة الجاهلية!!

وبهذا يتبين خطورة هذا الأمر وأنه أبغض الأعمال إلى الله ﷻ؛ (**مُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**) يعني بعد أن بذل النبي ﷺ تلك الجهود الضخمة العظيمة لإبطال الجاهلية وهدمها وإلغائها ووضْعها تحت القدمين ثم يأتي أناس ليسنّوا في الإسلام سنة الجاهلية!! هذا جرمٌ عظيم للغاية وذنبٌ كبير جداً؛ أن يأتي إنسان ويسعى ليسن في الإسلام سنة الجاهلية فيبوء بإثمٍ عظيم؛ لماذا؟ لأنه

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

يهدم، لأنه يفسد، لأنه يُضِل بعد أن أُصلحت الأرض ببعثة نبينا الكريم ﷺ ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

من ينادي لتعظيم الأوثان والتعلق بغير الله والتعلق بالحروز وغيرها مما هو صرفٌ للقلوب عن التعلق بالله ﷻ هذا من أعظم ما يكون في سن سنّة الجاهلية في الإسلام، وكذلك من يدعو إلى أنواع الخرافات التي كان عليها أهل الجاهلية والضلالات التي كانوا عليها فقد سن في الإسلام سنة الجاهلية.

وسنة الجاهلية: الطرائق والأعمال التي كان عليها أهل الجاهلية وقد حاربها النبي ﷺ.

وهنا يتبين لنا حاجة الإنسان أن يعرف ولو معرفةً مجملة بما كان عليه أهل الجاهلية ليحذر منه، قال عمر رضي الله عنه: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ»(١)، لأنه تُدخل عليه الجاهلية من حيث لا يشعر، ويُدخل عليه فسادها من حيث لا يدري، ولهذا يحتاج الإنسان أن يكون على معرفة من خلال ما ورد في النصوص والأدلة بأمور الجاهلية ليحذر منها، وقد نصح مؤلف هذا الكتاب المسلمين نصحًا بالغًا بتأليفه مصنفًا قيّمًا وكتابا عظيمًا نافعًا أسماه: «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها»؛ كتاب من أعظم ما يكون عدّد فيه مسائل الجاهلية وخصالها، وشُرح هذا الكتاب وطُبع

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠١)، و«الفوائد» (ص ١٠٩).

طبعات كثيرة[١].

وقراءة المسلم مثل هذا الكتاب ولو مرة في حياته يفيده فائدة عظيمة؛ لأنه يعرف هذه الخصال من أجل أن يتقيها ويحذرها ويحذِّر منه.

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فيعرفها ليحذر منها، «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!»[٢]، يقول حذيفة رضي الله عنه: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»[٣]، فكتاب «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له كتاب من أعظم ما يكون وأنفع ما يكون؛ لأنه عدّد فيه رحمه الله مسائل الجاهلية وخصالهم وأعمالهم التي جاء الإسلام بهدمها وإبطالها، التي وضعها نبينا عليه الصلاة والسلام تحت قدميه عندما خطب الناس في حجة الوداع.

ولعل هنا من المناسب الإشارة إلى فائدة تتعلق بمن وفقه الله للحج: فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وضع في حجة الوداع أمور الجاهلية كلها تحت قدميه؛ فمن أكرمه الله سبحانه وتعالى بالحج ومنّ عليه بذلك فليكن متباعدا ومجانِبا غاية المجانبة وحذرا غاية

---

(١) وقد صدر ولله الحمد شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله لهذا الكتاب.

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

(٣) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

الحذر من الجاهلية وخصالها وأعمالها التي وضعها نبينا وقدوتنا صلوات الله وسلامه عليه تحت قدميه عندما حج حجته المعروفة بحجة الوداع، وكانت وصاياه ﷺ وصايا مودع، ومن المعلوم أن وصية المودع لها شأن خاص «كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ»(١)، فمن أكرمه الله ﷻ بالحج ليستشعر هذا الأمر وليكن على حذر بالغ وحيْطة شديدة من أمور الجاهلية، ويعينه على تحقيق هذا المرام وتحقيق هذا المطلَب الاستفادة من هذا الكتاب الذي أشرتُ إليه؛ كتاب «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» تقرأ الكتاب وتعرف هذه الخصال وتلك الأعمال التي كان عليها أولئك وتجتهد وتجاهد نفسك في البعد عنها والحذر من الوقوع فيها مستمداً من الله ﷻ وحده العون والتوفيق.

إذاً قوله هنا: (**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**) هذا يتعلق بالفساد في العمل، و(**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**) الفساد في محل العمل، (**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**) متعلق بفساد الدنيا.

وكل هذه الثلاث أعظم وأشنع فساد يُعدّ في بابه وأشنع فساد يُعدّ في بابه؛ فأعظم فساد يتعلق بمحل العبادة: الفساد في الحرم، وأعظم فساد يتعلق بالعبادة والعمل: أن يُبتغى فيها سنة الجاهلية، وأعظم فساد يتعلق بحياة الناس: إراقة دماءهم بغير حق، فجمع النبي ﷺ هذه الخصال الثلاث في الذكر.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

ثم أتبع المصنف ﵀ هذا الحديث بنقلٍ عظيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية من كتابٍ له أيضا يتعلق بهذا الباب؛ وهو كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» وهو كتاب عظيمٌ جداً في بابه، جمع فيه مصنفه ﵀ من أنواع الأدلة والبراهين في باب التحذير من التشبّه بأصحاب الجحيم، أصحاب الضلال، أصحاب الباطل، أصحاب الكفر.

والحاجة ماسة ولاسيما في زماننا إلى قراءة هذا الكتاب الذي كثر في الناس التشبه بأعداء الدين، وقد بسط شيخ الإسلام ﵀ في اقتضاء الصراط المستقيم ما يتعلق بالتشبه وأنواعه وأسبابه، والدلائل من الكتاب والسنة على خطورة هذا الأمر والتحذير منه، وجمَع من ذلك ما لا تجده في مؤلَّف آخر والله أعلم.

فهذان كتابان عليك بهما:

- «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية ﵀.
- «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﵀.

قال: **(قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: قوله «سنة الجاهلية» يندرج فيه كل جاهليةٍ مطلقة أو مقيدة أي: في شخص دون شخص كتابيةٍ أو وثنيةٍ أو غيرهما من كل مخالفة لما جاء به المرسلون)**.

أورد المصنف ﵀ هذه الكلمة لشيخ الإسلام لأن فيها بيان للمراد بسنة

الجاهلية، وهذا البيان يُحتاج إليه حتى لا يظن ظان أن المراد بسنة الجاهلية أمر معيّن مخصوص أو عمل معيّن، فأراد أن ينبّه أن سنة الجاهلية كل أمر كان عليه الجاهلية مما جاء الإسلام بهدمه ومخالفته.

وخرج من هذا الكلام بضابط؛ أن الجاهلية: كل أمر مخالف لما جاء به المرسلون، لأن المرسلون جاءوا بالحق: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]، فالجاهلية: كل أمر خالف ما عليه المرسلون؛ سواء في باب العلم أو في باب القول أو في باب العمل، حتى لو أن إنساناً فعل أموراً هي من خصال الجاهلية وهو عالِم بأنها محرمة عالم بدليل تحريمها فِعله هذا يُعدّ جاهلية؛ فالجاهلية: هي مخالفة ما جاء به المرسلون؛ سواء في العلم أو القول أو العمل.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله له شرْح لهذا الحديث: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ**» في كتابه: «اقتضاء الصراط المستقيم» في صفحات تبلغ الأربع أو الخمس صفحات، وذكر فيه فوائد ولطائف مهمة جداً ينبغي على طالب العلم أن يقف عليها.

من خلال هذا التعريف يتبين لنا أنّ من ابتغى في الإسلام شيئًا من أعمال اليهود أو أعمال النصارى أو أعمال الوثنيين أو أعمال أيًا من المنحرفين عن الحق والدين كل أولئك من المبتغين في الإسلام سنة الجاهلية، فلا تُحصر الجاهلية بما كان عليه المشركون في مكة، ولا تُقيَّد الجاهلية بعملٍ واحد من

أعمالهم؛ بل سنة الجاهلية: كل أمر يخالف ما جاء به المرسلون.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وفي الصحيح عن حذيفة رضي الله عنه قال: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»**(١).

## الشرح

ثم أورد هذا الحديث قال: (**وفي الصحيح عن حذيفة رضي الله عنه قال: يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)؛ خص في هذه الوصية بالذكر القرّاء، مع أن هذه الوصية في حق كل مسلم، ولكنه خص القراء الذين لهم عناية بالقرآن وحفظ له وعناية بإتقانه وضبطه لأنهم أصبحوا موضع قدوة للناس ومحل نظر لهم، فقال محذِّراً وموصياً للقرّاء: (**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا**) أي: الزموا الاستقامة.

والاستقامة: هي معرفة الحق والثبوت عليه ولزومه، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود:١١٢]، ولا يمكن للإنسان أن يستقيم كما أمِر إلا أن يعرف أولاً بم أمِر؟ ثم يحافظ عليه؛ فيعرف المأمور ويحافظ عليه محافظة تامة إلى أن يلقى الله، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف:١٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٢).

﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

فالاستقامة: هي معرفة الحق ولزوم الحق.

وهذا فيه تنبيه من حذيفة رضي الله عنه إلى أن قارئ القرآن يحتاج مع قراءته للقرآن وحفظه له إلى أمرين لابد منهما؛ **الأول**: معرفة معاني القرآن ودلالاته.

**والثاني**: العمل بالقرآن.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال العلماء: تلاوة القرآن حق التلاوة بأمور ثلاثة: بالحفظ، والفهم، والعمل.

والعمل نفسه يسمى تلاوة؛ ليست تلاوة القرآن مجرد إتقان حروف القرآن فقط؛ بل تلاوة القرآن: بالحفظ والفهم والعمل بالقرآن.

وبعض الناس قد ينشغل بالقراءة وتنميقها وتحسينها عن الغاية التي أنزل لها القرآن وهو العمل كما نبّه على هذا المعنى الفضيل بن عياض رحمه الله بقوله: «إنما أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملا»(١)، وأما العمل بالقرآن فهذا لا يُهتم به، وقد قال الحسن البصري رحمه الله عن جماعة القراء في زمانه: «ما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما

---

(١) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (٣٤).

قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «أي: أصبح حظ كثير من الناس مجرد قراءة حروف القرآن، لا الفهم له، ولا العمل به»«التبيان شرح أخلاق حملة القرآن» (ص١٢٩).

أسقط منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، ما ترى القرآن له من خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس واحد، والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء»[(١)].

فقال ﷺ: يقول أحدهم: قرأت القرآن كله فما أسقِط منه حرفا -يعني قراءة متقنة مجوّدة مضبوطة-، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى عليه القرآن في خُلق ولا عمل، - ثم قال الحسن- لا والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة، وإذا كان الناس مثل هذا فلا كثر الله في الناس مثل هؤلاء؛ هكذا قال الحسن في زمانه!!

فالقرَّاء لهم اعتبار خاص ولهم وضع خاص، فخصّهم حذيفة رضي الله عنه بهذه الوصية العظيمة قال: **(يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا)** يعني الزموا الاستقامة، والله يقول: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، ويقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

**(اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبقًا بَعِيدًا)**؛ لأن القارئ للقرآن تميّز عن غيره بأمر، وهو: قراءته القرآن، وعنايته به، وحفظه له، ومحافظته عليه، وإكثاره من تلاوته، ومراجعة معانيه ودلالاته، وكتاب الله ﷻ كتاب يهدي للتي هي أقوم.

---

(١) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (٣٢).

(فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا)؛ لأن سبْق من كان هذا شأنه سبْقٌ بعيد؛ لأن لديه علمٌ واسع وفهمٌ كبير ومعرفة بكتاب الله ﷻ كتاب الهداية.

قال: (فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا)؛ إذا كان قارئ القرآن حافظ القرآن ضابط القرآن يميل يمين وشمال وينحرف هنا وهناك فهذا أخطر ما يكون، لأن القرآن سيأتي يوم القيامة حجةً عليه كما قال ﷺ: (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)(١)، قال ﷺ: (إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)(٢) رواهما مسلم في «صحيحه».

فالخطورة فيما يتعلق بأهل القرآن أشد ولهذا خصهم حذيفة رضي الله عنه بهذه الوصية: (يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا).

وإيراد المصنف رحمه الله لهذا الأثر عن حذيفة رضي الله عنه في (باب الدخول في الإسلام) لأن فيه بيان حقيقة الإسلام؛ وهي: الاستقامة على دين الله سبحانه وتعالى بدون التواء لا يمين ولا شمال وبدون روغان، هذا هو الإسلام، **فحقيقة الإسلام**: الاستقامة على دين الله كما أُمر العبد دون أن ينحرف عنه لا ذات اليمين ولا ذات الشمال؛ وهذا الأمر مطلوبٌ من كل مسلم؛ ليس مطلوب من القراء فقط؛ مطلوب من كل مسلم، لكن حذيفة رضي الله عنه خص القراء بالذكر لأنهم في موضع القدوة،

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) رواه مسلم (٨١٧).

والمسؤولية في حقهم أعظم بما آتاهم الله ﷻ من الحفظ والقراءة والمعرفة بكلامه ﷻ، فكان الأمر في حقهم أعظم ولهذا خصهم بالذكر، وإلا فإن الاستقامة وعدم الانحراف ذات اليمين وذات الشمال أمر مطلوب من كل مسلم.

فالمصنف رحمه الله أورد هذا الأثر في: (**باب الدخول في الإسلام**) لأن فيه بيان حقيقة الدخول في الإسلام، وأن حقيقة الدخول في الإسلام: الاستقامة على دين الله كما أُمِر العبد دون أن يميل عنه ذات اليمين ولا ذات الشمال؛ لا إلى بدع محدثات، ولا إلى سننٍ جاهلية، ولا إلى غير ذلك من أنواع الضلالات.

المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**«وروى عن محمد بن وضاح عن حذيفة: أنه كان يدخل المسجد فيقف على الحِلَق فيقول؛ فذكره»**(١).

الشرح

(**وعن محمد بن وضاح**)؛ محمد بن وضاح رحمه الله له كتاب مطبوع في «البدع والنهي عنها» وهو من علماء المالكية(٢)، وكتابه هذا قيم ونافع جداً في التحذير

(١) «البدع والنهي عنها» (١٢).

(٢) قال الإمام الذهبي رحمه الله: «ابن وضاح **الامام الحافظ، محدث الأندلس**..، أبو عبد الله، محمد ابن وضاح بن بزيع المرواني، مولى صاحب الأندلس عبدالرحمن بن معاوية الداخل.

=

من البدع وبيان خطورتها على الناس.

فأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أعني محمد بن وضاح في كتابه البدع والنهي عنها- **(أنه)** الضمير هنا يعود إلى حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **(كان يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول: «فذكره»)**؛ يقف على الحِلق التي فيها يجتمع الطلبة لقراءة القرآن وحفظه، فكان يوصيهم بهذه الوصية.

وكم هو عظيم جداً أن ينشأ من يحفظ القرآن على رعاية الاستقامة والعناية بها، لا أن ينشأ قارئ القرآن مع حروفٍ لا يحرص على فهم معناها فضلاً عن أن يعتني بالعمل بما تقتضيه.

وهذا جانب فرّط فيه الناس كثيراً، فاتجهوا إلى حفظ حروف القرآن مع إهمال بشكل كبير لفهم المعاني والعمل بما يدل عليه القرآن الكريم، ونشأ عن ذلك أن يخرج الطالب وهو يظن في نفسه أنه من أهل القرآن لأنه جوده وأتقن قراءته؛ فيظن في نفسه أنه من أهل القرآن بمجرد هذا الحفظ وهذا الإتقان، ولكنه مفرِّط في جانب كان محل اهتمام الصحابة واهتمام السلف رحمهم الله؛ وهو الفهم ومن ثم العمل، فجمعوا بين العلم والعمل في قراءتهم لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

فيجلس الطالب في الحلْقة عند أستاذه ويحفظ عل سبيل المثال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل

---

ولد سنة تسع وتسعين ومئة... توفي ابن وضاح في المحرم، سنة سبع وثمانين ومئتين» «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٤٥).

لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، ويكتب له المعلِّم مئة من مئة لأنه أتقن الحفظ وأتقن المخارج وأتقن التجويد؛ ويكون في البيت عاقا لوالديه، ومن أسوأ ما يكون معاملةً في البيت مع والديه، ويأخذ درجة كاملة في هذه الآية وهو في الحقيقة صفر!! إذا كان عاقا لوالديه ويحفظ هذه الآية فهذه الآية حجة عليه ليست حجة له؛ فهو لم يأخذ مئة، أخذ فيها صفر إذا كان بهذه الصفة، وقل مثل ذلك في بقية آي القرآن.

فيحتاج الطلبة في الحلَق إلى أن يربَّوا على العمل بالقرآن؛ إذا حفظ أمثال هذه الآيات ينبَّه ويذكّر ويقال له اتق الله وانتبه؛ هذا رب العالمين يأمرك بكذا، يروى أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال اعهد إلي، فقال: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُهُ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ»[(١)]، تربية على العمل وعلى الامتثال وعلى الطاعة والاستجابة.

يقرأ الطالب في الحلقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ [الحجرات:١٢]، وبمجرد ما تنتهي الحلقة يلتفت إلى زميله ويغتاب، وهو للتوّ قرأ الآية وللتو حفظها وللتو سمّعها لشيخه وأستاذه!! وقُل مثل هذا كثير؛ فيحتاج إلى هذه الوصية.

فإذا كان حذيفة رضي الله عنه يتتبع الحلق في زمانه يوصي بهذا الأمر فكم هي حاجة

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وسعيد بن منصور في «سننه» (١/ ١٨٥).

الناس في مثل هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن وكثرت فيه الصواد والصوارف عن دين الله ﷻ!!.

## المتن

**قال المؤلف ﵀:**

**وقال أنبأنا سفيان بن عيينة عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود ﵁-: «ليس عامٌ إلا والذي بعده أشر منه، لا أقول عامٌ أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أميرٌ خير من أمير؛ لكن ذهاب علمائكم وخياركم ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم؛ فيُهدم الإسلام ويثلم»**[١].

## الشرح

ثم ختم ﵀ هذا الباب بهذا الأثر عن عبد الله بن مسعود ﵁ أنه قال: (**ليس عامٌ إلا والذي بعده شرٌ منه**)؛ هذه الكلمة صدرت من ابن مسعود ﵁ على وجه التحذير، والتأكيد التام على المحافظة على الإسلام والدخول فيه، والباب (باب الدخول في الإسلام)؛ فأراد المصنف ﵀ أن ينبه بإيراده لهذا الأثر إلى أن الناس مع مضي الأيام والأوقات الشر يزداد ويكثر، فيحتاج المسلم حتى يكون من أهل هذا الدين وأهل الثبات فيه واللازمين للدخول فيه كما أمر الله ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ يحتاج إلى جهاد ومجاهدة ومواصلة في العلم وطلبه

---

(١) رواه ابن ضاح في «البدع والمنهي عنها» (٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٥١).

وتحصيله، والبعد عن الآفات التي تصرف الناس عن الحق والهدى؛ لأجل هذا أورد المصنف رحمه الله هذا الأثر في خاتمة هذا الباب، لأن ابن مسعود أراد التحذير بقوله «**ليس عام إلا والذي بعده شر منه**»؛ أي: انتبهوا واحذروا وعليكم بالمحافظة على الإسلام والرعاية له والعناية به والحرص على تعلّمه والتفقه فيه والحذر من نواقضه ونواقصه.

ثم نبّه ابن مسعود رضي الله عنه أنه لا يعني بـ «شرٍّ منه» فيما يتعلق بالدنيا؛ (**لا أقول عام أمطر من عام**)؛ يعني ليس المراد بـ «شر منه»: أي: بقلة المطر أو قلة الأرزاق أو حصول الجدب، (**لا أقول عام أمطر من عام ولا عام أخصب من عام**) لا أعني بقولي شر منه فيما يتعلق بالأمطار والخصب والأرزاق.

(**ولا أمير خير من أمير**) أيضًا لا أعني هذا الأمر؛ إذًا ماذا؟!

قال: (**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**) يعني الشر يكون: بقلة العلماء وقلة الأخيار؛ قلة العلماء الذين يبينون للناس دين الله سبحانه وتعالى، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويصلحون ما أفسد الناس.

وقلة الأخيار الذين هم على الاستقامة وعلى المحافظة وعلى طاعة الله سبحانه وتعالى، فيكونون في مجتمعاتهم قدوات للآخرين، إذا شرد الإنسان إلى بعض المعاصي ورأى هؤلاء كانوا له قدوة.

قال: (**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)؛ وإذا ذهب العلماء والأخيار ظهر الفساد وبرز حمَلته، لأن حملة الفساد لا يبرزون إلا إذا عُدِم أو قلّ حملة الحق.

وهذا فيه تنبيه إلى أن وجود حملة الحق ودعاته مزِّق للباطل ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]، وأهل الباطل لا يجرؤون في نشره إلا إذا ضعف حملة الحق عن حمله وبيانه.

قال: (**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**) ماذا يحدث إذا ذهب العلماء والخيار؟

قال: (**يحدُث أقوام**) أي: يوجد أقوام (**يقيسون الأمور بآرائهم**)؛ يعني يكونون في تقريرهم لمسائل الدين يبنون ذلك على الآراء، لا يعرفون الكتاب ولا يعرفون السنن وليس لهم عناية بالكتاب ولا بالسنة فيقيسون الأمور بآرائهم؛ شأنهم كما قال عمر رضي الله عنه: «أعيتهم السنة أن يحفظوها فأعمَلوا عقولهم»[(١)]، فيقيسون الأمور بآرائهم؛ تجده يقرر الحكم ليس مبنياً على آية ولا مبني على حديث؛ وإنما مبني على الرأي، والرأي هنا: هو الرأي المذموم الذي أُحدِثت به البدع وأنشئت به الضلالات، وعُطلت به أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، والاشتغال بالأقيسة الباطلة التي تُعطل بها الصفات وتلغى بها الأحكام، (لو أنه كذا لكان كذا) هذه حجة هؤلاء، ليست الحجة عندهم قال الله ولا قال رسوله عليه الصلاة والسلام، وإنما الحجة أقيسه عقلية.

ماذا يحدث إذا وجد هؤلاء؟ قال: (**فيُهدم الإسلام ويُثلم**)؛ أي: بوجود هؤلاء.

---

(١) رواه الدارقطني في «سننه» (١٢).

إذاً ابن مسعود ﷺ ورضي عنه قال ذلك محذِّرا وموصيًا بالعناية بالعلم والعمل؛ العلم النافع كلام الله وكلام رسوله ﷺ، والعمل الصالح الذي شرعه الله ﷻ وأمر عباده به، وأن الإنسان -ولاسيما عند كثرة الشر وكثرة أهله ودعاته- عليه أن يجتهد في تعلّم الدين ومعرفته لعل الله ﷻ يكتبه من أنصار الدين. ودين الله ﷻ منصور بعز عزيزٍ وذل ذليل، فيجاهد نفسه على أن يكون من أنصار هذا الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلا، والتوفيق بيد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وما شاء الله كان، فالأمور بيده ﷻ وطوع تدبيره، وقد كان نبينا ﷺ يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: « اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمـًا نَافِعـًا، وَرِزْقـًا طَيِّبـًا، وَعَمَـلاً مُتَقَبَّلاً »[1].

## المتن

قال المؤلف ﷺ:

### باب تفسير الإسلام

وقول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ الآية [آل عمران: ٢٠].

## الشرح

قال المصنف ﷺ: (بَابُ تَفْسِيرُ الإِسْلاَمِ)؛ بعد أن بيّن ﷺ في البابين الماضيين

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣٢٢)، وابن ماجه في «سننه» (٩٢٥)، وصحّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).

فضل الإسلام وعظيم مكانته ووجوب الدخول فيه والمحافظة عليه عقد هذا الباب ليبين فيه تفسير الإسلام.

والتفسير: هو التوضيح والكشف والبيان؛ فتفسير الإسلام: هو توضيح وبيان حقيقة الإسلام؛ تفسيره: بيان ما هو؟.

وكثير ممن كانوا يأتون النبي ﷺ يسألونه عن الإسلام، وسيأتي بعض هذه الأحاديث عند المصنف رحمه الله. فالإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ والذي هو دين الله ولا يرضى سبحانه وتعالى ديناً سواه قد بيّنه النبي عليه الصلاة والسلام أتم بيان، وأوضحه عليه الصلاة والسلام أكمل إيضاح، فلم يدَع لقائل مقالة؛ بل بيّنه ﷺ، وما ترك شيئًا من أمور الإسلام إلا وبيّنها حتى نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

وعليه؛ فإن الإسلام هو دين الله الذي بعث به رسله عليهم صلوات الله وسلامه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩] أي: الدين الذي ارتضاه ينحصر في الإسلام الذي بعث به رسله، فكل عمل وكل طاعة وكل قربة يُتقرب بها ولم تأتِ عن رسول الله ﷺ فهي ليست من الإسلام؛ الإسلام هو ما جاء به رسول الله ﷺ.

والإسلام: هو الاستسلام؛ أسلم لله: أي استسلم له مخلِصاً متقرباً إليه تبارك وتعالى بما يحبه ويرضاه جل وعلا.

أسلم لله؛ هذا فيه أمران: فيه الإخلاص لله، وفيه الانقياد؛ «أسْلَم»: أي

استسلم وانقاد، «لله»: أي مخلصاً.

فالإسلام لله فيه الإخلاص لله، وفيه الانقياد لأمره ﷻ، ولهذا من عبَد غير الله ﷻ ليس بمسلم؛ لأنه لم يسلم لله وإنما أشرك مع الله ﷻ غيره، وكذلك من استكبر ولم يخضع لله ﷻ فهذا ليس بمسلم[1]. فالإسلام هو الاستسلام لله، فيشمل أمرين؛ يشمل الإخلاص والانقياد لله ﷻ؛ وأصل الإسلام في القلب، وينبني على علامات القلب عمل الجوارح بالخضوع والانقياد والتذلل والقيام بالعبودية لله ﷻ.

وقد عرّف المصنف ﵀ في بعض رسائله الإسلام بتعريف جامع فقال: «وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأَهله»[2]؛ هذه هي حقيقة الإسلام، حقيقة الإسلام: «استسلامٌ لله» وهذا فيه الإخلاص لله ﷻ، «والانقياد له بالطاعة» وذلك بلزوم أمره ﷻ وطاعته فيما أمر عباده به، «والبراءة من الشرك وأَهله» بالبعد عنه والحذر منه ومن أهله.

فهذه هي حقيقة الإسلام، ومن لم يأت بهذه الحقيقة فليس بمسلم، المسلم

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «وَأَمَّا الْإِخْلَاصُ فَهُوَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ إذْ (الْإِسْلَامُ) هُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ الْآيَةَ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْبَرَ، وَمَنْ اسْتَسْلَمَ لِلَّهِ وَلِغَيْرِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَكُلٌّ مِنْ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ ضِدُّ الْإِسْلَامِ، وَالْإِسْلَامُ ضِدُّ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ» «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤).

(٢) «ثلاثة الأصول» (ص٦).

هو المستسلم لله ﷻ المنقاد البريء من الشرك البعيد عن الشرك، ولهذا - كما قدمت - من عبَد مع الله غيره ليس بمسلم، ومن استكبر عن عبادة الله ﷻ ليس بمسلم، فالمسلم هو المستسلم لله الذي أسلم وجهه لله بالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أورد ﷺ أولاً قول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾؛ ساق هذه الآية ليبين بها تفسير الإسلام وحقيقته، وهذه الآية يسبقها قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾.

قال: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾: أي إن حاجوك في هذا الدين الذي جئت به وما تدعوا إليه من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين وارتابوا مما جئت به، إن حاجوك أي إن جادلوك في دينك الذي أُرسلت به وبُعثت به ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ وهذه حقيقة الإسلام، وهو موضع الشاهد من الآية للباب.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ تجمع هذه الكلمة أمران كما قدمت؛ الأول: الاستسلام لله بالانقياد والطاعة والاستجابة والإذعان والامتثال.

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾: أي مخلصاً لا أجعل مع الله ﷻ شريكا.

فالإسلام: دين الله ﷻ الذي يتقرب به إليه ﷻ، فمن لم يتقرب لله ﷻ

بالإسلام فليس بمسلم، ومن تقرب بالإسلام لغير الله أو جعل مع الله شريكًا فيه فليس بمسلم، هذه حقيقة الإسلام، حقيقة الإسلام: استسلام الله؛ فمن ترك الإسلام وترك الاستسلام لله فليس بمسلم، ومن جعل مع الله غيره في استسلامه فليس بمسلم.

قال: ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾؛ هذا حقيقة ديني وحقيقة ما جئت به هو إسلام الوجه لله ﷻ.

﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾؛ ومن اتبعن: أي يقول بقولي، أتباعي مثلي وعلى منهاجي وعلى طريقتي، فأنا ومن اتبعني أسلمنا وجوهنا لله ﷻ، مثلها قول الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف:١٠٨]؛ أي أنا وأتباعي على هذا النهج، وهنا أي أنا وأتباعي على هذا السبيل وعلى هذا الاستسلام لله ﷻ.

الشاهد: أن الآية فيها تفسير للإسلام وبيانٌ لحقيقته؛ بأنه استسلام العبد لله، وإسلام الوجه لله ﷻ خضوعًا وتذللاً ورغبًا ورهبًا وقيامًا بطاعة الرب ﷻ مخلصًا له الدين.

◈◈◈◈◈

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وفي الصحيح عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»[(١)].

## الشرح

ثم أورد حديث عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»؛ فسّر عليه الصلاة والسلام الإسلام بهذه الخمس، وتفسيره للإسلام بهذه الخمس لا لأن الإسلام منحصرٌ فيها؛ ولكن لأن هذه الخمس هي مباني الإسلام، فالإسلام عليها يُبنى كما في حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»[(٢)]، وذكر هذه الأمور الخمسة وهي تُعرف بـ«مباني الإسلام».

ومعنى كونها مباني الإسلام: أي قيام الإسلام وبناؤه عليها؛ فكما أن البيت لا يُبنى ولا يقوم إلا على عماده، فالإسلام لا يقوم إلا على هذه المباني؛ فهي أعمدة الإسلام ومبانيه التي عليها قيام الإسلام.

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

فتفسير النبي ﷺ للإسلام بهذه الأمور الخمسة لأنها هي الأساس وهي الأصل وهي التي عليها يبنى دين الله ﷻ الإسلام.

وبدأها بالشهادتين وهي أساس الأسس وأول ما يُدخل به في هذا الدين؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، الدين كله يبنى على الشهادتين؛ الصلاة والصيام والحج وكل طاعة، الدين كله يبنى على الشهادتين فهي أساس الدين وأصله؛ الشهادة لله ﷻ بالوحدانية، والشهادة لنبيه ﷺ بالرسالة.

قال: **﴿تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾**؛ تشهد: أي تُقر وتعلن وتعترف وتخبِر، كل هذه معاني للشهادة.

**﴿أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ﴾**: أي لا معبود بحق سواه، فهي كلمة مبنية على ركنين وقائمة على أصلين: النفي العام في أولها، والإثبات الخاص في آخرها.

فـ(لا إله) نفيٌ العبودية عن كل من سوى الله، و(إلا الله) إثبات للعبودية بكل معانيها لله وحده، وهذه حقيقة التوحيد: نفيٌ للعبودية عن كل من سوى الله، وإثباتٌ للعبودية بكل معانيها لله وحده ﷻ، فلا يكون المرء موحداً إلا بهذين الركنين: النفي والإثبات؛ فمن نفى ولم يثبت فهو ليس بموحد بل ملحد، ومن أثبت ولم ينفِ فهو ليس بموحد بل مشرك، وحقيقة التوحيد قائمة على النفي والإثبات؛ نفي العبودية عن كل من سوى الله، وإثبات للعبودية بكل معانيها لله وحده، ولا يكون موحداً إلا من عرف العبادة فنفاها عن كل من سوى الله وأثبتها

لله وحده وخضع وذل لله ﷻ بالقيام بهذه العبادة له ﷻ كما أمر وكما شرع.

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ): أي لا معبود بحق سوى الله، وعبادة كل من سوى الله مهما علا مقامه ومهما ارتفع شأنه فهي عبادةٌ باطلة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج:٦٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾[الحج:٦]، فالعبادة الحق عبادة الله، وأما عبادة من سواه من كان ومهما كان فهي عبادة باطلة.

(أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ)؛ والشهادة لنبينا ﷺ بالرسالة قرينة الشهادة لله بالوحدانية؛ بل إن الله ﷻ لا يقبل شهادة من شهد له بالوحدانية حتى يشهد لنبيه ﷺ بالرسالة، ولهذا جاءت مقترنة ويقال لهما «الشهادتان»، وهما متلازمتان لا تُقبل واحدة منهما إلا بالأخرى؛ الشهادة لله بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة.

ومن شهد له عليه السلام بالرسالة، فإن مقتضى هذه الشهادة طاعته ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤]، ولهذا فإن حقيقة الشهادة له ﷺ بالرسالة كما عرفها الإمام رحمه الله: «طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع»(١).

فمن شهد له ﷺ بالرسالة، فإن الواجب عليه أن يطيعه في أوامره، وأن ينتهي

(١) «ثلاثة الأصول» (ص٨).

عن نواهيه، وأن يصدِّق الأخبار التي جاء بها، وهذه الأمور الثلاثة هي خلاصة ما جاء به ﷺ، جاء بأوامر، وجاء بنواه، وجاء بأخبار؛ فمن قال: أشهد أنه رسول الله ﷺ فعليه أن يطيعه في أوامره، وأن ينتهي عن نواهيه، وأن يصدقه في أخباره ﷺ، ولهذا عرّف المصنف رحمه الله شهادة أن محمداً رسول الله في بعض رسائله بقوله هذا: «طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع».

قال: (**وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ**)؛ أي تقيم الصلاة التي كتب الله عليك.

والصلاة المكتوبة هي خمس صلوات في اليوم والليلة افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده وأمرهم بإقامتها، وأخبر نبي الله ﷺ بأن «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»(١)، وهؤلاء رؤساء الكفر وأعمدة الباطل.

فالصلاة كما وصفها النبي ﷺ في حديث آخر أنها عمود الدين: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسلامُ، وعَمُودُه الصَّلاةُ..»(٢)، وقال: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٦٥٧٦)، والدارمي في «سننه» (٢٧٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٦٧)، وحسنه ابن باز في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٣٦).

تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[١].

وعندما يُسأل أهل النار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر:٤٢-٤٣].

فالصلاة شأنها في الإسلام عظيم، بل جاء عن النبي ﷺ أن أول ما يُسأل العبد عنه يوم القيامة صلاته، وجاء فيها نصوص متكاثرة تدل على عظم فضلها وعظم مكانتها، بل قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»[٢]؛ لعظم مكانة الصلاة في الإسلام، ولهذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام الصلاة عقب الشهادتين مباشرة، وهذه الأركان في الحديث رُتِّبت حسب أهميتها ومكانتها؛ فأعظم شيء في الإسلام الشهادتان ثم الصلاة التي هي عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة كتبها الله تبارك وتعالى على عباده وجعل فيها صلاحهم وفلاحهم وقرة عينهم، وسميت «صلاةً»: لأنها صلة بين العبد وبين ربه يقرب من الله ويناجي ربه ويتذلل بين يديه راكعاً ساجداً خاضعاً متذللاً منكسراً متطهراً ذاكراً شاكراً؛ عبادة عظيمة جليلة وقربة لله تبارك وتعالى من أعظم القرب وأجلها.

(١) رواه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤١٤٣).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٥١)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٩٢٣)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٠٩).

قال: (**وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ**)؛ والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله، وكثيراً ما تأتي في القرآن مقرونة بالصلاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ في آيات كثيرة في كتاب الله ﷻ.

والزكاة جزء يسير من المال افترضه الله ﷻ على الأغنياء كما قال ﷺ: «فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ..»(١).

والزكاة ليست واجبة على كل مسلم؛ وإنما هي واجبة على من آتاه الله مالاً بلغ النصاب، ولا يُخرج ماله كله ولا نصفه ولا ثلثه، وإنما يُخرج جزءً يسيراً منه، وسميت «زكاة»: لأن فيها تزكية للمال، وتزكية لصاحب المال، وتزكية أيضا للمجتمع الذي تخرج فيه الزكاة وذهابٌ للشحناء والبغضاء والعداوات بين الناس.

(**وَتَصُومَ رَمَضَانَ**): وهو شهرٌ واحد في السنة كتب الله ﷻ على عباده صيامه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣]، وهي عبادة عظيمة يتقرب بها المسلم إلى الله ﷻ، وهي سرٌ بين الصائم وبين ربه ﷻ، ولهذا جاء في الحديث القدسي يقول الله ﷻ: (الصِّيَامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ)؛ لأنه سر بين الصائم وبين الله ﷻ، يمتنع فيه الصائم عن طعامه وشرابه وشهوته من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في أيام شهر رمضان طالباً بذلك تقوى الله ﷻ، متقربا بذلك إلى الله ﷻ.

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

ثم ذكر فريضة الحج قال: ﴿وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾؛ والحج فريضة من فرائض الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، فهي فريضة من فرائض الإسلام وليس مفروضًا على كل أحد؛ وإنما هو مفروض على المستطيع؛ وهو الذي يجد الزاد والراحلة، وهو لا يجب على الناس في كل عام؛ وإنما هو فريضة في العمر كله مرة واحدة: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ الْحَجُّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً قَالَ: «بَلْ مَرَّةً وَاحِدَةً فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ»[(١)]، فالحج فريضة وركن من أركان الإسلام، ولا يجب على الناس إلا مرة واحدة في الحياة كلها وفي العمر جميعه.

فهذه مباني الإسلام، وإذا تأملت هذه المباني:

- **الشهادتان**: يبنى عليها الدين كله.
- **والصلاة**: أعمال ميسرة في اليوم والليلة خمس مرات، وأيضا هي على الاستطاعة: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[(٢)]، لها أوقات محددة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، يؤدي المسلم كل صلاة في وقتها على قدر استطاعته: «وَمَا

---

(١) رواه أبو داود (١٧٢١)، والنسائي (٢٦٢٠)، وابن ماجه (٢٨٨٦)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٥١٤).

(٢) رواه البخاري (١١١٧).

أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[١].

▪ **والزكاة**: لا تجب إلا على الأغنياء، ومن بلغ ماله النصاب يُخرج منه جزءًا قليلا، وفيه تزكية للمال: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ..»[٢]؛ بل تزده، وفيها تزكية للمال وبركة ونماء.

▪ **والصيام**: فرض على الناس شهر واحد في السنة، من أطاقه صام، ومن كان غير مطيق لمرضه أو لكبره فهو معذور؛ المريض لا يصوم وإنما يؤجل الصيام حتى يشفى من مرضه، ومن كان غير قادرٍ على الصيام لكبره وهرمه لا يصوم وإنما يُطعم عن كل يوم مسكين.

▪ **والحج**: فُرض في العمر كله مرة، وأيضا ليس على كل أحد وإنما على المستطيع ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

فإذا قرأت هذه الأركان التي يُبنى عليها الدين ظهر لك أن دين الله ﷻ دين ميسَّر لا عنَت فيه ولا مشقة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا..»[٣].

فعقائده صحيحة قويمة تقبلها العقول السليمة وتتلقاها الفِطَر القويمة بانشراح، وأعماله أعمالٌ يسيرة وسهلة لا مشقة فيها ولا عنت، يدعو إلى كريم

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) رواه البخاري (٣٩).

الأخلاق وعالي الآداب ورفيعها، ولهذا سيأتي معنا: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»(١)؛ فهذه حقيقة الإسلام وهذه حقيقة الدين؛ دينٌ سمح، وقد مر معنا قريبًا «وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»(٢) فهو دين سمح ودينٌ ميسَّر فيه رفعة الإنسان وفلاحه في الدنيا والآخرة.

إذًا هذا الحديث حديث عمر بن الخطاب ومثله حديث ابنه ابن عمر فيه تفسير للإسلام بأعظم شيء فيه، وهي هذه الأسس الخمس والمباني الخمسة التي يبنى عليها الإسلام.

الإسلام عرفنا أنه: الاستسلام لله وهو الانقياد لله ﷻ مخلِصًا ومطيعًا له ﷻ، ففسره النبي ﷺ باستسلام مخصوص ذكر فيه مباني الإسلام الخمسة خاصةً لأنها أعظم شيء في الإسلام؛ لا أن الإسلام هو هذه الخمس فقط، ولهذا يأتي في أحاديث أخرى ذِكر أمور أخرى تدخل في الإسلام ويشملها اسمه، مثل هذا الحديث الذي ساقه المصنف: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، ومثل قوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(٣)، وأحاديث كثيرة

---

(١) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٩١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٦٨)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٢٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٨)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩١١).

وردت عن النبي ﷺ تبين ما يشمله اسم الإسلام من انقياد وامتثال وطاعة لله ﷻ.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»**(١).

## الشرح

ثم أورد المصنف حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»؛ عرفنا أن حقيقة الإسلام هي استسلام العبد لله وذلك بخضوعه له مخلصاً منقاداً ممتثلاً، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الله سبحانه بالقيام بحقوقه التي أمر عباده بها من صلاة وصيام، والقيام بحقوق عباده.

١) **القيام بحقوقه هو سبحانه وتعالى**: وهي العبادة المحضة التي أمر العباد بالقيام بها من صلاة وصيام وزكاة وحج هذه حقوق افترضها الله ﷻ على عباده؛ وهي العبادة المحضة، التقرب إلى الله ﷻ بما شرع وبما أمر عباده أن يتقربوا به من فرائض واجبات.

٢) **القيام بحقوق العباد**: من بر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٨٩٣١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الناس، والبعد عن آذاهم، كل ذلك يُعدّ عبادةً من جهة أنه طاعةٌ لله، ويعد إسلامًا لأن فيه استسلامٌ لله بامتثال أمره للقيام بهذه الحقوق، فهي تسمى عبادة من هذه الجهة؛ وإلا فإن العبادة المحضة هي التقرب إلى الله ﷻ بالعبادات التي يخضع فيها العبد لله من صلاة وصيام ودعاء وغير ذلك من القرب.

قال ﷺ: (**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)؛ عرفنا أن من الإسلام القيام بحقوق العباد، وأعظم ما يكون في ذلك أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وأن تأتي إليه الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك، يقول ﵊: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حق الله وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»[1]؛ «فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» حق الله، «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» حقوق العباد.

فحقوق العباد القيام بها من الإسلام؛ أي من الاستسلام لله، من الطاعة لله، لأن الله أمر بذلك ودعا عباده إلى ذلك؛ أن تأتي إلى الناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك وأن تحب لهم ما تحب نفسك.

وهنا قال: (**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**) وهذه أقل درجة تُنتظر من المسلم في إسلامه فيما يتعلق بحقوق العباد؛ أن يسلموا من لسانه ويده، وإلا الإسلام يتناول مقامات أعظم من كف الأذى، يتناول: إعانة المسلم،

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

وصلة الرحم، بر الوالدين، الإحسان إلى المحتاج، إغاثة الملهوف.. إلى غير ذلك من أعمال الإسلام التي دعا إليها وأمر بها في آيات وأحاديث عديدة[١].

فقوله ﷺ: (**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**) هذه أقل درجة تتعلق بحقوق العباد، من لم يقم بحقوق العباد من البر والصلة والإحسان والوفاء وغير ذلك فلا أقل من أن يسلم المسلمون من لسانه ويده؛ أن يكف آذاه عن الناس.

قال ﷺ: (**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**) أي: سلِموا من آذاه القولي والفعلي؛ القولي: باللسان، والفعلي: باليد أو غيرها من أعضاء الإنسان[٢].

◆◆◆◆◆

(١) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: «والمراد بذلك المسلم الكامل الإسلام، فمن لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فإنه ينتفي عنه كمال الإسلام الواجب، فإن سلامة المسلمين من لسان العبد ويده واجبة، فإن أذى المسلم حرام باللسان وباليد، فأذى اليد: الفعل، وأذى اللسان القول» «فتح الباري» (١/ ٣٣).

(٢) قال الإمام النووي رحمه الله: (وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال بها) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ١٠).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

**عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال: «أن تسْلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة»[(١)] رواه أحمد.**

## الشرح

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم في بيان حقيقة الإسلام، وهو عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام، قبل سؤاله للنبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام وعن حقيقة الإسلام قال كلمة عجيبة يتبين الواقع الذي كان يعيش الناس عليه بسبب الدعاية المغرضة ضد دعوة النبي ﷺ، فيقول والد حكيم لما وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام: «والله يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ عَدَدَ أَصَابِعِي هَذِهِ أَنْ لَا آتِيَكَ» لماذا هذا الحلف؟ بسبب ما سمع من دعاية حوله؛ ناس يقولون: مجنون، وناس يقولون: ساحر، وناس يقولون: كاهن.. دعايات مغرضة بُثت حوله لصد الناس عن دينه، فلما سمع عنه هذه الدعايات حلف عدد أصابعه ألا يذهب إليه، ولهذا لما وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: «والله يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ عَدَدَ أَصَابِعِي هَذِهِ أَنْ لَا آتِيَكَ، فَبِالَّذِي بَعَثَكَ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٠٢٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٣٦)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٦٩).

بِالْحَقِّ مَا الَّذِي بَعَثَكَ بِهِ؟»؛ اقتنع أنه بعث ﷺ بالحق فسأله قال: «مَا الَّذِي بَعَثَكَ بِهِ؟» قَالَ: (الْإِسْلَامُ)؛ بعثني الله بالإسلام. قَالَ: «وَمَا الْإِسْلَامُ؟» يعني سأل النبي ﷺ عن الإسلام، فعرّفه بهذه الكلمات، قال: (أن تسلِم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة».

تأمل تفسير الإسلام العظيم هنا، وأيضا سيأتي في الحديث الذي بعده؛قال: (**أن تسلم قلبك لله**)؛ ففسر ﷺ الإسلام باستسلام القلب مع العمل الظاهر، وتأمل ذلك واضحا في الحديث قال: (**أن تسْلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**)؛ فسر ﷺ الإسلام باستسلام القلب؛ وهو خضوع القلب وانقياده وإذعانه لله ﷻ، وبالأعمال الظاهرة؛ (أن تصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة)، فالنبي ﷺ فسر الإسلام هنا باستسلام القلب لله ومع هذا العمل الظاهر قال: (تصلي الصلاة المكتوية وتؤدي الزكاة المفروضة).

قوله (**أن تسلم قلبك لله**) أي: أن تجعل قلبك مسلماً لله ﷻ، وكيف يكون القلب مسلما لله؟ يكون القلب مسلما لله بانقياده وإذعانه لله ﷻ، وقبوله لدين الله، ورضاه ب، وإقباله عليه، وانشراح الصدر له: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر:٢٢]؛ ينشرح الصدر ويُقبِل على الإسلام، ويحب الدين وأوامر الدين، ويذعن وينقاد.

(**أن تسلم قلبك لله**)؛ و«لله» تتكرر معنا تنبيه على الإخلاص؛ أي لله وحده

دون جعل شريك معه في ذلك.

(**وأن تولي وجهك إلى الله**) كما قال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] تقيم وجهك لله وذلك بإقبالك على أوامر الله ﷻ وتوجهك إليها وامتثالك لها، وطواعيتك لربك ﷻ فيما أمرك ﷻ به، (وأن تولي وجهك إلى الله) أي: مقبِلا عليه ﷻ وعلى دينه غير معرِضٍ ولا مدبر.

(**وأن تصلي الصلاة المكتوبة**): أي التي افترضها الله ﷻ على عباده.

(**وتؤدي الزكاة المفروضة**)؛ فهذا هو الإسلام: استسلام القلب، وانقياد الجوارح.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وعن أبي قلابة عن رجلٍ من أهل الشام عن أبيه أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإسلام؟ قال: «أن تسلم قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك»، قال: أي الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان»، قال: وما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت»**[1].

## الشرح

ثم أورد حديث أبي قلابة عن رجلٍ من أهل الشام عن أبيه؛ والحديث له شواهد صح بها وثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٠٢٧)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٥٠).

**(أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإسلام؟ قال: أن تُسلم قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك)**؛ فجمع في هذا الحديث ما تقدم في الأحاديث الماضية؛ من أن الإسلام يشمل حقوق الله ﷻ وحقوق العباد.

فقوله: **(أن تسلم قلبك لله)** اقتصر على إسلام القلب لله ﷻ ولم يذكر الصلاة والزكاة وبقية الأركان وحقوق الله ﷻ؛ لأن إسلام القلب لله يقتضي القيام بحقوقه ﷻ، كما قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)]، فإذا استسلم القلب لله انقادت الجوارح بالصلاة والصيام وسائر الطاعات؛ فقوله ﷺ: «**أن تسلم قلبك لله**»، تنبيهٌ على حقوق الله ﷻ، وقوله ﷺ: «**ويسلم المسلمون من لسانك ويدك**»، تنبيه على القيام بحقوق العباد.

وعليه؛ فإن الإسلام هو الانقياد لله ﷻ بالقيام بحقوقه وحقوق عباده، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[(٢)]، ويأتي في أحاديث كثيرة جداً الجمع بين حقوقه وحقوق عباده ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، ثم ذكر بعدها حقوق للعباد عديدة أضافها كلها إلى حقه ﷻ، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).

﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] ذكر حقه وحقوق العباد.

وقال ﷺ في الحديث: «إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ: لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا»[(١)]؛ ذكر حقه ﷻ وحقوق عباده.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**يسلم المسلمون من لسانك ويدك**» هذا يتناول التحذير من جميع أنواع الأذى وصنوف الكبائر التي حرّمها الله سبحانه وتعالى على عباده: الكذب، والغش، والسب، والشتم، واللعن، والدخول في أعراض الناس، والسرقة، وانتهاك الأعراض، كلها داخلة تحت قوله ﷺ: «**أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك**»؛ يسلمون من أذى الإنسان القولي والفعلي، فلا يؤذي أحداً لا بقول ولا بفعل.

ثم قال: «**أي الإسلام أفضل؟**» **قال: (الإيمان)**؛ كنا عرفنا فيما سبق أن للإسلام إطلاقان: إطلاق يراد به الدين كله، وإطلاقٌ يراد به الأعمال؛ لأن الدين إيمان وعمل، والعمل هو الإسلام -الاستسلام-، فتارة يطلق الإسلام ويراد به الدين كله، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، فالإسلام الدين كله. «**فقال: أي الإسلام أفضل؟**» يعني أي الدين أفضل؟ فالإسلام المراد به هنا الدين كاملاً بعقائده وأعماله ولهذا قال: «**أي الإسلام أفضل؟**» **قال: (الإيمان)**.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٩٨٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٥٩).

فقوله: «**أي الإسلام أفضل؟**» المراد بالإسلام: عموم الدين، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾؛ فهذا يتناول العقيدة والعمل.

«**فقال: أي الإسلام أفضل؟» قال: (الإيمان)، قال: «وما الإيمان؟» قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت)**؛ وهذه الأمور التي ذكرها النبي ﷺ هنا هي أركان الإيمان، وعليها بناء الأعمال، الأعمال التي هي استسلام لله بالقيام بالعبودية والطاعة والامتثال تُبنى على هذه الأركان التي هي أصول الإيمان التي عليها بناؤه، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم:٢٤]، فالإيمان والدين له أصل في القلب؛ «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١) هذه أصول وأركان للإيمان يبنى عليها الدين.

ولهذا لا يُقبل أي عمل -لا صلاة ولا صيام ولا حج ولا غير ذلك من الطاعات- إلا إذا كانت قائمة على هذه الأركان، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء:١٩]، فلا يُقبل السعي وهو العمل إلا بالإيمان، وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل:٩٧]، فالإيمان أساس لا تُقبل

---

(١) رواه مسلم (٨).

الأعمال إلا به، ولهذا لما قال: (**أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، قال وما الإيمان؟**) فذكر هذه الأركان.

**وهذا تأخذ منه فائدة:** أن أعمال الإسلام وفرائضه لا تكون مقبولةً عند الله ﷻ إلا إذا وُجد في القلب إيمانٌ يصحِّح الإسلام، فإن لم يوجد في القلب إيمان لا تُقبل الأعمال الظاهرة مجردةً عن الإيمان، بل لابد أن يكون في القلب إيمان يصححها، ولهذا المسلم هو من جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القلبي ما يصحح إسلامه، أما من جاء بأعمال الإسلام الظاهرة ولم يترك منها عمل دون أن يكون في قلبه إيمانٌ يصحح هذه الأعمال فلا تُقبل منه وإن كثرت، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤]؛ فانتفاء الإيمان القلبي مانعٌ من قبول العمل الظاهر، فالمسلم: هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القلبي ما يصحح إسلامه، فإن انتفى الإيمان القلبي المصحِّح للإسلام لم تُقبل الأعمال كما هو واضح في الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ثم إذا تمكنت أمور الإيمان وخصاله من القلب يرتقي القلب إلى درجة الإيمان كما سبق بيان ذلك.

(**قال: وما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**)؛ بقي الإيمان بالقدر، والإيمان بالقدر جاء ذكره في حديث عمر ﵁، قال جبريل للنبي ﷺ: «فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، فالقدر تارة يُذكر مع هذه الأصول وتارة لا يُذكر، فمن الأمثلة على ذكره: حديث عمر رضي الله عنه، ومن الأمثلة على عدم ذكره: هذا الحديث، وكذلك قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة:١٧٧] فذكر هذه الخمس ولم يذكر الإيمان بالقدر، وكذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء:١٣٦]، فذكر هذه الخمس ولم يذكر الإيمان بالقدر.

**وعدم ذكر الإيمان بالقدر في بعض النصوص**: لأنه داخل في الإيمان بالله؛ فمن الإيمان بالله الإيمان بقدره وتقديره للأمور، قال الإمام أحمد رحمه الله: «القدر قدرة الله»(٢)، فالإيمان بالقدر من الإيمان بالله، ولهذا تارة يُذكر وتارة لا يذكر، وعدم ذكره في بعض النصوص لا إشكال فيه لأنه داخل في الإيمان بالله لأن «القدر قدرة الله»، ولا يؤمن عبدٌ بالله عز وجل حتى يؤمن بالقدر، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن وكذب بالقدر فهو نقض

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه ابن بطة في «الإبانة» (١٨٧٩)، والخلال في «السنة» (٩٠٤)، وانظر: «منهاج السنة» (٣/ ٢٥٤)، و«شفاء العليل» (ص٥٣).

للتوحيد»[١]؛ فلا يكون مؤمنًا بالله من لا يؤمن بقدر الله ﷻ.

ولا يكون أيضا المرء مؤمنا بالقدر حتى يؤمن بمراتبه الأربعة:

١) **علم الله** ﷻ **الأزلي** بما كان وما سيكون.

٢) **وكتابته** ﷻ ذلك في اللوح المحفوظ.

٣) **ومشيئته** النافذة.

٤) **وإيجاده** للمخلوقات وخلْقه لها.

فهذه مراتب القدر: علم، وكتابة، ومشيئة، وإيجاد؛ وكل هذه من أوصاف الرب ﷻ وأفعاله، وهذا كله يوضح لنا أن الإيمان بالقدر من الإيمان بالله، ولهذا - كما قلت - أحيانا يُذكر في بعض النصوص، وأحيانا لا يذكر لدخوله في الإيمان بالله ﷻ.

- **والإيمان بالله**: هو أصل أصول الإيمان وإليه ترجع، ولهذا قال في الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾؛ فأركان الإيمان كلها راجعة إلى هذا الأصل العظيم، والإيمان بالله: هو الإيمان بوحدانية الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ودين الإسلام سمي توحيداً: لأن مبناه على الإيمان بوحدانية الله في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، فمن لم يوحِّد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته فليس بمسلم، لأن مبنى الإسلام على التوحيد، والتوحيد هو الإيمان بوحدانية الله ﷻ في الربوبية والألوهية والأسماء

(١) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٢٥)، واللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٢٢٤).

والصفات.

- **والإيمان بالملائكة**: وهذا الأصل الثاني من أصول الإيمان، وهو الإيمان بهذا الخلق العظيم وهذا الجند الكبير والعديد الذي خلقه الله ﷻ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، والإيمان بكل ما يتعلق بهم مما جاء في الكتاب والسنة؛ من أسماء، أو أعداد، أو وظائف، أو أوصاف، وهذه أمور أربعة ننتبه لها: الإيمان بالملائكة هو الإيمان بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يتعلق بالملائكة من أسماء أو أعداد أو وظائف أو أوصاف إجمالا فيما أُجمِل وتفصيلاً فيما فُصِّل.
- **والإيمان بالكتب**: أي المنزلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى:١٥] نؤمن بها؛ ما علمناه منها وما لم نعلمه، نؤمن بأنها كتب هداية، وأنها كلام الله ﷻ وتنزيله، وأن فيها صلاح وفلاح من أنزلت عليهم تلك الكتب، وأنها خُتمت بكتاب الله ﷻ القرآن الكريم.
- **والإيمان بالرسل**: الإيمان بأنهم بُعثوا وأرسلوا من الله حقا، أرسلهم الله ﷻ، وأنهم بلّغوا البلاغ المبين، ونصحوا أممهم، وما تركوا خيراً إلا دلّوا أممهم عليه، ولا شراً إلا حذّروهم منه، والإيمان بأنهم خُتِموا بمحمد ﷺ، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وجاء في

«الصحيحين» وغيرهما عنه ﷺ أنه قال: «وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»(١).

- (**والبعث بعد الموت**)؛ في الحديث الآخر قال: (وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)؛ البعث بعد الموت: أي أن الناس يقومون لرب العالمين ويُبعثون من قبورهم، من يُدفن لا يبقى في قبره أبد الآباد، بل سيأتي يوم يُبعث الناس لرب العالمين ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين:٦]؛ يقومون من قبورهم.

وقيام الناس لرب العالمين ليس مختصًا بمن مات ودُفن في قبر، هذا الغالب من أحوال الناس أنهم يموتون ويدفنون ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾ [عبس:٢١]، هذا الغالب من حالهم، لكن منهم من يموت ولا يُقبر؛ منهم من يموت وتأكله السباع ويخرج من أدبارها روثًا ويذهب ولا يبقى له أثر، ومنهم من تأكله الحيتان، ومنهم من يحترق في النار فيصبح رمادًا، إلى غير ذلك من أنواع الميتات والهلكات، فلا يتناول القيام لرب العالمين من مات فقُبر؛ بل الجميع يقومون لرب العالمين حتى من أكلته السباع وخرج من أدبارها روثًا يقوم لرب العالمين، الكل يقومون لرب العالمين ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾؛ والكل يُجمعون لرب العالمين ويبعثون للجزاء والحساب.

**فالإيمان باليوم الآخر والإيمان بالبعث** هو إيمان بكل ما يكون بعد الموت؛ أولاً ما يكون في القبر من فتنة وعذاب ونعيم، ثم القيام لرب العالمين والحشر والدواوين والصراط والجنة والنار إلى غير ذلك من التفاصيل، فهذه الإيمان بها

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

أصلٌ لا بد منه، ولا قيام للدين إلا عليه، ولهذا يأتي في أحاديث كثيرة: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فليفعل كذا أو ليقل كذا»؛ لأن الدين يبنى على هذه الأركان.

قال هنا: (**أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان**) يعني أي الدين أفضل؟ قال: الإيمان، ومعلوم أن هذه الأمور مكانتها أعظم من الأعمال الظاهرة؛ لأنها الأساس الذي تبنى عليه الأعمال الظاهرة، ولهذا لما قال هذا السائل «**أي الإسلام أفضل؟**» قال: (**الإيمان**)، قال: «**وما الإيمان؟**» قال: (**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**).

## المتن

**قال المؤلف** رحمه الله:

**باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾**

**وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ يَا رَبِّ أَنَا الصَّلَاةُ، فَيَقُولُ إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، ثم تَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ يَا رَبِّ أَنَا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ أَيْ يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ فَيَقُولُ اللهُ إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ؛ بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي، قَالَ اللهُ تعالى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ**

غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:٨٥]»[1]

رواه أحمد.

## الشرح

قال المصنف رحمه الله وغفر له: (**باب قول الله تعالى**: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾)؛ عقد هذه الترجمة ليبين بها أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل دينًا غير الإسلام الذي أنزله تبارك وتعالى وشرعه وأمر به، فهو عز وجل خالق هذا الخلق والحُكم له سبحانه وتعالى ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]؛ فالله عز وجل لا يقبل من الناس أن يتقربوا إليه بأي دين كان، وإنما لا يقبل منهم سبحانه وتعالى إلا التقرب بدين الإسلام كما مر معنا قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]، فالدين الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده ولا يقبل منهم دينًا سواه هو دين الإسلام.

وعرفنا في الباب الذي قبل هذا الباب تفسير الإسلام من خلال ما ساقه المصنف رحمه الله من النصوص الشرعية المفسرة للإسلام المبينة لحقيقته.

وعرفنا أن الإسلام يعني: استسلام القلب لله سبحانه وتعالى، وانقياد الجوارح وامتثالها وطواعيتها لأمره عز وجل؛ (أن تسلِم وجهك لله وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة).

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٨٧٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧٦١١)، وضعفه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٢٢٤).

وعرفنا أيضا أن الإسلام الذي هو استسلام لله ﷻ لابد فيه من أمرين:

١- أن يكون الاستسلام لله: أي خالصاً.

٢- وأن يكون ذلك بما شرع الله ﷻ: أي لدينه الذي شرع موافقاً.

فلا يُستسلم لله ﷻ بأي أمر، ولا يُجعل الاستسلام لغيره أيضا.

فحقيقة الإسلام: الاستسلام لله ﷻ بالإخلاص وفِعل ما شَرَع، وقد قال مصنف هذا الكتاب ﵀ في شرح الإسلام: «هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله»[1]؛ هذه حقيقة الإسلام: إخلاص للمعبود واتباع للرسول ﷺ.

(وقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾)؛ جاءت هذه الآية في مساق الرد على المجادلين للنبي ﷺ في الإسلام، المعترضين على هذا الدين العظيم الذي بعث الله ﷻ به رسوله ﷺ، وفي القرآن أجوبة كثيرة على هؤلاء وعلى اعتراضاتهم وعلى شبهاتهم وعلى انتقاداتهم وعلى تخطئاتهم للرسول صلوات الله وسلامه عليه، قد مر معنا قريبا قول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقبلها بآيتين قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وهنا هذا السياق الذي ورد فيه قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾، يقول الله ﷻ في الآية التي قبل هذه الآية وكذلك في الآية التي قبلها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أي: الإسلام الذي شرعه الله وأنزله على رسله

(١) «ثلاثة الأصول» (ص٦).

عليهم صلوات الله وسلامه ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا﴾ يعني قل يا أيها النبي لهؤلاء الذين يبتغون غير الإسلام ويطلبون لأنفسهم دينًا غير الدين الذي شرعه الله ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾: أي غير هذا الدين الذي شرعه الله ﷻ وذُكرت خلاصته في الآية التي تسبق هذه الآية، لأن قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى تمام الآية هذه تُعدّ من جوامع الآيات في بيان خلاصة دين الله ﵎، ونظيرها ما جاء في ﴿سورة البقرة﴾: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ في ﴿سورة البقرة﴾ قال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وفي ﴿سورة آل عمران﴾ قال: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ لأن القرآن أنزل على الرسول ﵊، وجبريل نزل به على محمد ﷺ، لم ينزل به على كل فرد من أفراد المسلمين وإنما نزل به على خيارهم وعلى أفضلهم وعلى صفوتهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا فُرِّق بين من أُنزل عليه الكتاب وبين من أُنزل إليهم الكتاب، فهناك قال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ لأنه أنزل إليهم بواسطة الرسول ﵊، أما في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ لأنه أنزل عليه صلوات الله

وسلامه عليه مباشرة بواسطة الملك؛ أنزل عليه هو ﷺ.

هذه الآية وآية ﴿سورة البقرة﴾ هما من جوامع الآيات لبيان حقيقة الدين وحقيقة الإسلام.

وذُكر في هذه الآية ما يدل على أن الإسلام عقيدة وشريعة، إيمان وعمل؛ صُدِّرت الآية بالإيمان وخُتمت بالإسلام، وهذه هي حقيقة الدين؛ حقيقة الدين: إيمان يُعمَر به القلب، وإسلامٌ تمضي عليه الجوارح وتنقاد، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ هذا هو الإيمان، ثم خُتمت الآية بالإسلام الذي هو العمل والانقياد ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ فجُمع فيها بين حقيقة الدين وهو عقيدة وشريعة، إيمانٌ وعمل؛ إيمان بالله ﷻ ربًا خالقًا رازقًا منعِمًا متصرفًا، إيمانٌ بأسمائه ﷻ الحسنى وصفاته العظيمة، إيمانٌ بأنه المعبود بحقٍ ولا معبود بحق سواه، وصرْف العبادة كلها له ﷻ دون أن يُجعل معه شريك في شيء منها، وإيمان بالله بالإيمان بكل ما أمر ﷻ به من أصول الإيمان وحقائق الدين، ومن ذلكم: الإيمان بوحيه المنزّل وما تضمّنه من عقائد وما اشتمل عليه من أحكام.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ وقد أنزل على نبينا ﷺ القرآن الكريم الذي خُتمت به الشرائع، فمن الإيمان بالله: الإيمان بالقرآن والإيمان بالكتب المنزلة قبله، ولهذا قال سبحانه: ﴿عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾؛

فالإيمان بجميع الكتب المنزلة من الإيمان بالله، فمن لا يؤمن بكتب الله ﷻ المنزلة ليس مؤمنًا بالله ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، وكذلك من لا يؤمن برسل الله الذين اختارهم الله ﷻ واصطفاهم واجتباهم وأنزل عليهم وحيه وكلامه وذِكره الحكيم، من لا يؤمن برسل الله ليس مؤمنا بالله.

فقوله سبحانه: ﴿أُنزِلَ﴾ هذا يتضمن الإيمان بعدة أمور:

- بالمـُنزِل؛ وهو رب العالمين الذي أنزل الكتاب وتكلم بالوحي.
- ويتضمن الإيمان بالواسطة الذي تولى الإنزال؛ وهو الملَك.
- ويتضمن من أنزل إليه الكتاب؛ وهو الرسول ﷺ.
- ويتضمن الإيمان بالكتاب الذي أنزِل.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، فهذا الجانب الأول من الدين؛ وهو جانب العقيدة.

والجانب الآخر: جانب الشريعة وهو العمل جاء في خاتمة الآية بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: أي منقادون ممتثلون مطيعون، ما يأمرنا به نفعله وننقاد له ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، والإسلام: هو الاستسلام والانقياد لله ﷻ.

فدلت هذه الآية -ونظائرها في القرآن كثير- أن الإسلام عقيدة وشريعة، إيمان وعمل، ليس الإيمان اعتقاد بلا عمل، ولا أيضا عمل بلا اعتقاد؛ الإيمان اعتقاد وعمل، الإيمان: عقائد صحيحة عظيمة ينطوي عليها القلب ويدين بها،

وأعمال زاكية صالحة يمتثلها العبد ويقوم بها طواعية لله ﷻ وامتثالاً لأمره.

هذا هو الإسلام: وهذه هي حقيقته شُرحت باختصارٍ وإيجاز في هذه الآية الكريمة.

ثم عقبها مباشرة قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ أي من يبتغ غير هذا الإسلام الذي شُرع وبُيِّن في القرآن الكريم وبُين في إيجاز واختصار في الآية التي قبل هذه الآية فلن يُقبل منه، من لا يؤمن بعقائد الدين الصحيحة ولا يمتثل لأعمال الدين وطاعاته الزاكية فهو في الحقيقة لم يبتغِ الإسلام دينا؛ فيتناوله ما ذُكر في الآية وهو الخسران في الدنيا والآخرة، قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ ﴿يَبْتَغِ﴾: أي يطلب لنفسه وأيضا لغيره بالدعوة إلى الضلال والباطل، ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾: أي غير دين الله ﷻ، وقوله ﴿ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ هنا يتناول عقائد الدين الصحيحة، ويتناول أعماله الزاكية الصالحة؛ وهذان الجانبان بُيِّنا باختصار في الآية التي قبل هذه الآية ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: أي يُردّ عليه؛ مهما بذل من عمل ومهما اجتهد ولو واصل الليل والنهار لن يُقبل منه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

فقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: أي يُرد عليه، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد بأن يُرَدَّ عليه عمله ثم يكون الأمر مستويًا لا له ولا عليه! بل يُرد عليه ويبوء بالخسران، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ خسِر الثواب، خسِر

رضا الله، خسِر النجاة من عقوبة الله؛ يأتي يوم القيامة خاسراً، بخلاف المسلم فإنه يأتي يوم القيامة رابحـًا ينال الفلاح ورضا الله وجنته والنجاة من سخطه وعقابه، ولهذا جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، إِلاَّ مَنْ أَبَى».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَى؟

قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[١].

وقول الله ﷻ في هذه الآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾؛ فيه دلالة ظاهرة على أن العمل بغير ما جاء به الرسول ﵊ هو من الأمور المردودة، لأنها عمل بغير الإسلام، عرفنا أن الإسلام هو دين الله المنزّل؛ فمن عمل بغير هذا الدين المنزل فعمله مردود عليه، فتضمنت الآية في دلالتها إبطال البدع والمحدثات وكل ما يخترعه الناس في باب التقرب إلى الله ﵎، فهذا كله ردٌّ على صاحبه وغير مقبول منه؛ ولأجل هذا أورد المصنف ﵀ في هذا الباب قول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٢]: أي مردود على صاحبه غير مقبول منه.

ثم أورد ﵀ في هذه الترجمة حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ يَا رَبِّ أَنَا الصَّلَاةُ فَيَقُولُ إِنَّكِ**

(١) رواه البخاري ٧٢٨٠).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

عَلَى خَيْرٍ، ثمَّ تَجِيءُ الصَّدَقَةُ فتَقُولُ يَا رَبِّ أَنَا الصَّدَقَةُ فَيقُولُ إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ أَيْ يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ فَيَقُولُ إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ»، أي على هذا المنوال، تأتي الأعمال عملاً عمل، كل عملٍ يخبر عن نفسه؛ الصيام يقول أنا الصيام، والصلاة تقول أنا الصلاة، والحج يقول أنا الحج، تأتي الأعمال والله ﷻ يقول في حق كل عمل: (إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ).

قال: (ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ) أنت السلام: أي السلام اسمك؛ «السلام» اسم من أسماء الله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر:٢٣]، و ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ اسم فيه تنزيه الله ﷻ عن النقائص والعيوب، السلام: من السلامة، والسلامة أي من النقص والعيب، فالله ﷻ منزه عن النقائص ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

قال: (أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ)؛ والإسلام: هو استسلامٌ لله ﷻ وانقياد له وإخلاص للدين له ﷻ، فيقول الإسلام: (يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ).

(فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي)؛ وهذا فيه دلالة على ما سبق؛ وهو أن الله ﷻ لا يقبل ديناً إلا إذا كان مبنياً على الإسلام، فإذا جاءت الصلاة وجاء الصيام وجاء الحج وجاءت الصدقة وجاءت هذه الأعمال؛ إذا كانت مبنيةً على الإسلام قائمة عليه فإنها تُقبل عند الله (بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي)، فلا يقبل الله ﷻ أي: عمل ولا يعطي أي ثواب إلا بوجود الإسلام.

(بِكَ آخُذُ): أي قبول الله ﷻ للأعمال.

(**وَبِكَ أُعْطِي**): أي إعطاءه ﷻ للثواب والنعيم.

(**بِكَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي**)؛ فإذا جاء الإنسان بصلاة وصيام وحج ولم يأتِ بالإسلام فلا يُقبل منه صلاة أو صيام أو غير ذلك من الأعمال لأن الإسلام هو الذي به قبول الأعمال، فإذا وجد الإسلام الذي يتضمن أمرين كما سبق: إخلاص للمعبود ومتابعة للرسول ﷺ، فإذا كان حال الإنسان مخِلاً بهذا لا يقبل الله منه العمل، الصلاة إذا لم تكن خالصة لا يقبلها الله، وإذا كانت على غير وفق الشرع المنزل لا يقبلها الله، وقل مثل ذلك في كل عمل، فبالإسلام قال: (**بِكَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي**)؛ «**بك آخذ**»: القبول، «**وَبِكَ أُعْطِي**»: أي الثواب.

قال: (**ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي، فَقَالَ اللهُ تعالى فِي كِتَابِهِ** ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾) والآية الشاهد فيها واضح لمعنى الحديث؛ وذلك بأن الأعمال وأنواع العبادات لا تكون مقبولة مرضية مشكورة عند الله ﷻ إلا إذا كانت قائمة على الإسلام، والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠] فيها أن الله ﷻ لا يقبل الطاعات وأنواع العبادات إلا بالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول؛ الإخلاص في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾، والمتابعة في قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾؛ والعمل الصالح هو دين الله الذي أنزله على رسله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه.

قال المصنف ﵀: (**رواه أحمد**) أي: في «مسنده»، وفي مسند الإمام أحمد عِقب هذا الحديث قَالَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَنِ عبد الله بن أحمد بن حنبل ﵀: «فيه عَبَّادُ بْنُ رَاشِدٍ وهو ثِقَةٌ -يعني في الإسناد- والْحَسَنَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ»(١)؛ لأن الإمام أحمد ﵀ ساقه في «مسنده» من طريق عبّاد بن راشد عن الحسن عن أبي هريرة ﵁، فعلّق أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد ﵀ على هذا الحديث بالإشارة إلى توثيق عبّاد، وعبَّاد هذا مختلف فيه توثيقاً وتجريحاً؛ وعدد من أهل العلم ضعّفوه، والإمام أحمد وبعض أهل العلم وثّقوه، قال عبد الله: «عباد ثقة، والحسن لم يسمع من أبي هريرة».

## المتن

**قال المؤلف ﵀:**

**وفي «الصحيح»(٢) عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» رواه أحمد**(٣).

## الشرح

قوله: (**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا**) أمْر النبي ﵊ هو الإسلام، ورب العالمين، قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فالحديث بمعنى

(١) «مسند أحمد» (١٤/ ٣٥٥).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢٥١٢٨).

الآية؛ الله ﷻ قال في الآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، ونبينا ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، أي فلن يقبل منه، معنى قوله: «فَهُوَ رَدٌّ»، هذا مصدر، أُطلق المصدر وأريد اسم المفعول، أي مردود، (رد) أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه، فقوله: «فَهُوَ رَدٌّ»، هو بمعنى قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

فمن عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ وأمره ﷺ هو الإسلام الذي بلّغه ﷺ وافيًا بلا نقص، فمن عمل بغير الإسلام لا يقبل الله منه حتى ولو كان مخلِصًا في عمله، لا يقبل الله ﷻ منه إذا لم يكن عمله قائم على الاتباع والاقتداء والتمسك بدين الله ﷻ.

فالمصنف ﵀ أورد الحديث هنا مع أنه سبق أن مر عند المصنف في بابٍ سابق؛ أراد بإعادته أن ينبه أن هذا الحديث بمعنى الآية، فقوله ﷺ : «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، هو بمعنى قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ لأن أمْر النبي ﷺ هو الإسلام، فمن عمل بغير الإسلام لا يقبل الله ﷻ منه مهما وضع لنفسه من مبررات، فإذا كان المجال مفتوحا والباب مُشرعا لكل أحد يعبد الله بما شاء يحدِث ويخترع وينشئ؛ فما الفائدة من بعثة الرسل!! ولهذا مر معنا كلمة الإمام مالك ﵀ العظيمة في هذا الباب مستدلاً عليها بقول الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، في إبطال البدع والخرافات والأعمال التي ما أنزل الله ﷻ بها

من سلطان.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه**

وقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [النحل:٨٩].

## الشرح

ثم قال رحمه الله: «**باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه**»؛ الاستغناء هو: الاكتفاء وعدم البحث عن شيء آخر؛ أن يكون غنيًا ومستغنيًا بما أنزل الله تبارك وتعالى على رسله الكرام.

قال: (**باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب**): أي بلزوم ما جاء في كتاب الله عز وجل.

والكتاب المراد به هنا: الكتاب المعهود المعروف المنزّل على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وهو القرآن الكريم خاتمة الكتب المنزلة.

والاستغناء به: أي الاكتفاء به، وإلى هذا الاكتفاء جاءت الإشارة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]؛ أي أنه فيه كفاية وفيه غُنية ولا يحتاج الناس إلى شيء آخر سواه لأنه كافي وفيه غنية، قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وأورد قول الله عز وجل: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]؛ فالكتاب فيه الوفاء

وفيه الغنية وفيه الكفاية فوجب الاستغناء به؛ أي الاكتفاء بكتاب الله ﷻ عن كل ما سواه، يعني عن كل أمر سوى كتاب الله ﷻ من الأمور المحدثات، والأعمال المخترعات، والبدع والأهواء، والتجارب التي يبنى عليها أديان وأعمال، وأيضا الأعمال المبنية على العقول والتخرصات، وكذلك الأعمال المبنية على القصص والمنامات، إلى غير ذلك من طرائق الاستدلال التي وُجدت عند الناس هاجرين بها كتاب الله ﷻ، كتاب الله ﷻ بينهم يُتلى ثم إذا أراد المستدل منهم أن يستدل في الدين يقول: (رأيت في المنام كذا!!) أو يقول: (جرّبت وجرب أشياخي!!)، أو يقول: (هذا أمرٌ أجد فيه ذوقا!!)، أو يحكي قصة يبني عليها دين وعمل!! كتاب الله ﷻ الذي نزّله ونزّل به شرعه ودينه يُتلى حجة الله ﷻ على عباده بين أيديهم؛ ثم تُترك الحجة وتبنى الأديان على عقول وعلى أذواق وعلى قصص وعلى منامات وعلى حكايات وعلى تجارب إلى غير ذلك!! فهذا كله هجر لكتاب الله ﷻ، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠]؛ هذا هجر للقرآن، وهجر القرآن - كما بيّن العلماء - بهجر التلاوة، وهجر الفهم، وهجر العمل؛ يهجر القرآن بأن لا يتلوه، ويهجر القرآن بأن لا يحرص على فهمه، ويهجر القرآن بترك العمل بما جاء في القرآن الكريم.

فما سوى القرآن يشير المصنف إلى هذه المصادر.

القرآن هو المنبع العذب الصافي النقي الذي لا كدر فيه ولا شائبة، ويشير

بقوله: (وترك ما سواه) إلى هذه المصادر.

ومصادر الاستدلال لدى الناس لا حدّ لها ولا عدّ، وأنت إذا أردت أن تعرف سبب تنوع العقائد وكثرتها، وأيضا تباين الأعمال وتعددها واختلافها بين الناس؛ فالسبب وراء ذلك كله تنوّع المصادر، ناسٌ مصدرهم العقل، وآخرون التجارب، وآخرون المنامات، وآخرون القصص والحكايات؛ وهكذا؛ مصادر اتخذها الناس لطلب الدين وابتغاء الدين فنشأت عندهم أنواع الضلالات والباطل.

ولهذا عقد المصنف رحمه الله هذه الترجمة مبيّنًا وجوب الاستغناء بكتاب الله عز وجل، ومعنى الاستغناء بكتاب الله: أي الاكتفاء بالقرآن عن كل ما سواه.

وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم العمل بها من العمل بالقرآن؛ لأن من لم يعمل بالسنة هو في الحقيقة لم يكتفِ بالقرآن لم يعمل بالقرآن، لأن معنى الاكتفاء بالقرآن: يقول: **(الاستغناء بمتابعة الكتاب)**؛ هل من لا يعمل بالسنة متّبع للكتاب؟ أين اتباعه لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]؟ أين اتباعه لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النساء:٦٥]؟ أين اتباعه لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[النساء:٦٩]؟، ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور:٥٤]؟ أين اتباعه لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران:٣١]؟! فالذي لا يعمل بالسنة هو ليس من أهل القرآن، لأن القرآن فيه آيات كثيرة جداً فيها الأمر

بإتباع الرسول ﷺ وتحكيمه وامتثال أمره والانتهاء عن نهيه، وقرَن رب العالمين طاعة الرسول ﷺ بطاعته في آيات كثيرة في القرآن الكريم.

فقول المصنف رحمه الله: **(الاستغناء بمتابعة الكتاب)** لم ينص عليها بالذكر هنا لأنها من اتباع الكتاب؛ من لا يعمل بالسنة هو في الحقيقة لا يعمل بالقرآن الكريم، الله ﷻ قال: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[الأنعام:٧٢]، كيف نقيمها؟ هذه الصلوات الخمس بعدد ركعاتها وأعمالها وأنواع شروطها وواجباتها تفاصيل ذلك أين جاءت؟! أيضا بقية الأعمال؛ الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران:٩٧]، أعمال الحج كيف جاءت؟!

قال ﷺ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ»(١)، وفي الصلاة قال ﷺ: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»(٢).. فالذي لا يعمل بالسنة هو في الحقيقة لا يعمل بالقرآن.

وفي الأزمنة المتأخرة نشأت طائفة سمّوا أنفسهم «القرآنيون»؛ يزعمون أنهم لا يعملون إلا بالقرآن فقط ولا يعملون بالسنة، وهؤلاء ليسوا من أهل القرآن ولا من حزب القرآن، هؤلاء من حزب الشيطان ومن أولياء الشيطان، وحقيقة أمرهم عدم العمل بالقرآن، أين عملهم بالقرآن في آيات كثيرةً جداً فيها الدعوة إلى اتباع الرسول ﷺ وطاعته والاقتداء به والتحاكم إليه ورد النزاع إليه؟! ﴿فَإِن

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٤٤١٩)، ومسلم (١٢٩٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣١).

﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ٥٩]، والسنة هي وحي كذلك: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤]، الحكمة: هي السنة وحي منزل من رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣-٤]، فالسنة وحي.

فالذي لا يعمل بالسنة هو في الحقيقة لا يعمل بالقرآن، ومن لم يكن من أهل السنة والعمل بها ليس من أهل القرآن.

قال: (**باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه**)؛ «عن كل ما سواه» ضع تحتها كل مصادر الاستدلال التي وُجدت عند أهل البدع والضلال.

وما هي مصادر الاستدلال عند أهل البدع؟ كثيرة كما سبق: العقل مصدر، والهوى مصدر، والمنامات مصدر، والقصص مصدر، والتجارب مصدر؛ هذه كلها مصادر يستدلون بها، فهذه كلها داخلة تحت قول المصنف: (**عن كل ما سواه**).

فالدين قال الله قال رسوله، وفيهما غُنية وكفاية كما قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾.

ثم أورد رحمه الله قول الله ﷻ: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ هكذا وصف الله ﷻ الكتاب المنزل القرآن الكريم، وصفه الله سبحانه وتعالى بهذه الصفة العظيمة ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ يعني لا يحتاج الناس إلى شيء تتحقق به سعادتهم وفلاحهم وسلامتهم وفوزهم في الدنيا والآخرة إلا وبُيّن في كتاب الله ﷻ

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فإذا كان نُزِّل إلى الناس كتاب بُيِّن فيه كل شيء اشتمل على مصالح الناس وما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم فلِم يهجرونه ويقبِلون على ما سواه؟! وهذا وجه الاستدلال بالآية للترجمة؛ الترجمة: «**باب وجوب الاستغناء بالكتاب عن كل ما سواه**»، والكتاب بُيِّن فيه كل شيء، كل ما يحتاجه الناس في صلاحهم وسعادتهم وفلاحهم وسلامتهم في الدنيا والآخرة بُيِّن في الكتاب كما أخبر من نزَّل الكتاب ﷻ قال: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فالواجب الاستغناء به عن كل ما سواه.

وسنة النبي ﷺ شارحة للقرآن ومبيّنة له وموضحة لأحكامه، وهي تفسير للقرآن الكريم، ولا يمكن لأحد أن يعمل بالقرآن مع التخلي عن سنة النبي الكريم ﷺ.

## المتن

**قال المؤلف** رحمه الله:

**روى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة فقال: (أمتهوِّكون يا ابن الخطاب، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيًا واتبعتموه وتركتموني ضللتم)، وفي رواية (لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا إتباعي). فقال عمر: «رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا»**[(١)].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٥١٥٦)، والدارمي في «سننه» (٤٤٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٤٢١)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٥٨٩).

## الشَّرح

قال رحمه الله: **(روى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقةً من التوراة)**؛ والتوراة هو: الكتاب الذي أنزله الله تبارك وتعالى على عبده ورسوله موسى عليه صلوات الله وسلامه.

والتوراة وكذلك الكتب المنزلة قبله وبعده اعتراها التحريف والتغيير والتبديل فلم تبقَ سليمةً كما أُنزلت؛ بل أدخل فيها ما ليس منها وأخرِج منها ما هو منها؛ فزيد فيها ونُقِص، وغُيِّر فيها وبُدِّل، فهي كتب مبدلة محرفة مغيرة، وهي كتب أيضا منسوخة نُسخت بالقرآن، فكل كتابٍ قبل القرآن نُسخ بالقرآن.

وبعد نزول القرآن لا يجوز العمل بأي كتاب حتى لو كان سليماً من التبديل والتغيير، فجميع الكتب التي أنزلت قبل القرآن كتب منسوخة بالقرآن الكريم؛ فتُترك ويُعمل بالقرآن وحده ويكون الاتباع للقرآن وحده، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[(١)]، لأن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالقرآن وجعل القرآن ناسخًا للكتب التي قبله فلا يُعمل إلا به[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (١٥٣).

(٢) قال الشيخ العلامة الألباني رحمه الله: (واعتقادي أن كثيرا من الكفار لو أتيح لهم الاطلاع على الأصول والعقائد والعبادات التي جاء بها الإسلام، لسارعوا إلى الدخول فيه أفواجا، كما وقع ذلك
=

وهذا وجه الاستدلال في الحديث للترجمة: «**الاستغناء بكتاب الله**»، لأن الله ﷻ أنزل القرآن أعظم كتاب على رسول الله ﷺ أفضل رسول، وجعل الرسول خاتم الرسل والقرآن خاتم الكتب المنزلة، فهو أعظمها وأجلّها فكيف لا يُستغنى به!! كيف لا يُكتفى به!! ولماذا والقرآن بين أيدي الناس تُقرأ الكتب التي قبله ويُنظر في الكتب التي قبله!! فالكتب التي قبل القرآن جاء القرآن بنسخها، ولا يجوز أن تُقرأ تلك الكتب، ولا يجوز أن تكون مع الإنسان يتصفحها ويقرأها؛ لما رأى النبي ﷺ في يد عمر ورقة واحده من التوراة - ليست التوراة كاملة - قال: (**أمتهوِّكون يا ابن الخطاب**)، وعمر رضي الله عنه هو من هو في الفقه والعلم والدين؛ فلا يجوز أن تُقرأ التوراة أو الإنجيل أو الكتب المنزلة الأخرى، بل الواجب الاكتفاء والاستغناء بالقرآن الكريم.

والعلماء رحمهم الله قالوا: النظر فيها قد يسوغ في حالة واحدة للعلماء الأكابر فقط في مقام الرد على هؤلاء وإبطال دينهم؛ ولهذا النبي ﷺ في مقام الرد على هؤلاء نزل عليه قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:٩٣]، ففي مقام الرد وإبطال عقائد هؤلاء وبيان ضلالهم من قِبَل

---

في أول الأمر، فليت أن بعض الدول الإسلامية ترسل إلى بلاد الغرب من يدعو إلى الإسلام، ممن هو على علم به على حقيقته وعلى معرفة بما ألصق به من الخرافات والبدع والافتراءات ، ليحسن عرضه على المدعوين إليه، وذلك يستدعي أن يكون على علم بالكتاب والسنة الصحيحة، ومعرفة ببعض اللغات الأجنبية الرائجة) «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٥٦).

العلماء الأكابر الراسخين في العلم قد يسوغ هذا في مثل هذه الحالة، أما عوام الناس وطلاب العلم والمبتدئين في الطلب يقتني التوراة ويقرأ ويقول ننظر ما عندهم!! أو يفتح الإنترنت ويبدأ يدخل في مواقع ويقرأ هنا وهناك ويسمع لهذا وذاك؛ هذا من أعظم أبواب الضلال والانحراف(١).

قال: «**رأى النبي ﷺ في يد عمر بن الخطاب ﷺ ورقةً من التوراة**»؛ ورقة واحدة: «**فقال: أمتهوِّكون يا ابن الخطاب**»؛ التهوّك: هو التسرّع والدخول في الأمر بدون رويّة أو نظر؛ هذا من معاني التهوّك التي ذُكرت في كتب اللغة؛ التهوّك: التسرع أو فعل الأمر بدون روية ونظر.

قال: «**أمتهوِّكون يا ابن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية**»؛ قوله: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية» فيه دليل للترجمة: الاستغناء بما جاء به الرسول ﷺ، مثل الآية ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ هذا دليل على وجوب الاستغناء بما جاء به الرسول ﷺ، وقوله هنا: «**جئتكم بها بيضاء نقية**»، هذا دليل على وجوب الاستغناء بما جاء به الرسول ﷺ، إذا كانت جاءت بيضاء نقية واضحة جامعة وافية ألا يُستغنى بها؟!

قال ﷺ: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية**»، في الحديث الآخر قال ﷺ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا»(٢)، يعني واضحة وافية؛ فهذا كله من

---

(١) انظر: «فتاوى اللجنة الدائمة» (٣/ ١٢٢)، و«مجموع فتاوى العلامة ابن باز» (٢/ ٢٧٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١).

الدلائل على الاستغناء بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وترك ما سواه.

قوله فيما سبق: (**وترك ما سواه**) يدخل تحته هنا على سبيل المثال لا الحصر: الأخذ عن بني إسرائيل، أو عن التوراة، أو عن الإنجيل، أو عن الزبور أو غيرها؛ هذا على سبيل المثال، فهذا مما وجب تركه، وأيضا مما وجب تركه: كل مصادر الاستدلال (الباطلة) الذي سبق الإشارة إلى شيء منها.

قال ﷺ: (**ولو كان موسى حيًا واتبعتموه وتركتموني ضللتم**)؛ يعني لو كان موسى عليه السلام موجود بين أظهرهم سيدعوهم إلى ماذا؟ سيأخذون من موسى عليه السلام الدين الذي بُعث به بدون تحريف، يعني سيأخذون دين غير محرف، لكن التوراة التي توجد بين أيدي الناس ليست هي الدين الذي بُعث به موسى عليه السلام بل هي محرفة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يذكر لهم أعظم هذا، يعني أعظم من النظر في التوراة التي بين أيديهم، لو أن موسى عليه السلام كان بين أظهرهم واتبعوه وتركوا النبي عليه الصلاة والسلام لضلوا؛ لأن الأحكام التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام جاء في الإسلام نسخها أو نُسخ كثير منها، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، جاء في الإسلام وضع أمور، ونسْخ أمور، وإلغاء أحكام، ومجيء أحكام كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، فالدين الذي جاء به موسى لقومه ثم بعث الله ﷻ عيسى عليه السلام، ولما بعث محمد عليه الصلاة والسلام الأخذ بأي دين سواه لا يجوز، لماذا؟ نرجع للآية ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران:

٨٥]، الإسلام ما هو؟ استسلام لله، فإذا بعث رسولاً عِقب رسول وأمر بإتباع الرسول الآخر وقال قائل: (أنا لا أتبع الرسول الآخر وإنما أتبع الرسول الأول)، هو ليس مستسلم لله، أين إسلامه؟! الإسلام: هو الاستسلام لله تبارك وتعالى.

ولهذا دارت مناظرة جميلة جداً بين ابن القيم وبين أحد النصارى ذكرها رحمه الله في كتابه: «الصواعق المرسلة»، يقول: «ما جرى لي مع بعض علماء أهل الكتاب فإنه جمعني وإياه مجلس خلوة أفضى بيننا الكلام إلى أن جرى ذكر مسبة النصارى لرب العالمين مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، فقلت له: وأنتم بإنكاركم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قد سببتم الرب تعالى أعظم مسبة.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: لأنكم تزعمون أن محمدا ملك ظالم ليس برسول صادق وأنه خرج يستعرض الناس بسيفه فيستبيح أموالهم ونساءهم وذراريهم ولا يقتصر على ذلك حتى يكذب على الله ويقول الله أمرني بهذا وأباحه لي ولم يأمره الله ولا أباح له ذلك ويقول أوحى إلي ولم يوح إليه شيء وينسخ شرائع الأنبياء من عنده ويبطل منها ما يشاء ويبقي منها ما يشاء وينسب ذلك كله إلى الله ويقتل أولياءه وأتباع رسله ويسترق نساءهم وذرياتهم فإما أن يكون الله سبحانه رائيا لذلك كله عالما به مطلعا عليه أو لا، فإن قلتم إن ذلك بغير علمه واطلاعه نسبتموه إلى الجهل والغباوة وذلك من أقبح السب وإن كان عالما به رائيا له مشاهدا لما يفعله فإما أن يقدر على الأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا فإن

قلتم إنه غير قادر على منعه والأخذ على يده نسبتموه إلى العجز والضعف وإن قلتم بل هو قادر على منعه ولم يفعل نسبتموه إلى السفه والظلم والجور هذا وهو من حين ظهر إلى أن توفاه ربه يجيب دعواته ويقضي حاجاته ولا يسأله حاجة إلا قضاها له ولا يدعوه بدعوة إلا أجابها له ولا يقوم له عدو إلا ظفر به ولا تقوم له راية إلا نصرها ولا لواء إلا رفعه ولا من يناوئه ويعاديه إلا بتره ووضعه فكان أمره منحين ظهر إلى أن توفي يزداد على الأيام والليالي ظهورا وعلوا ورفعة وأمر مخالفيه لا يزداد إلا سفولا واضمحلالا ومحبته في قلوب الخلق تزيد على ممر الأوقات وربه تعالى يؤيده بأنواع التأييد ويرفع ذكره غاية الرفع هذا وهو عندكم من أعظم أعدائه وأشدهم ضررا على الناس فأي قدح في رب العالمين وأي مسبة له وأي طعن فيه أعظم من ذلك؟!

فأخذ الكلام منه مأخذا ظهر عليه وقال: حاشا لله أن نقول فيه هذه المقالة بل هو نبي صادق كل من اتبعه فهو سعيد وكل منصف منا يقر بذلك ويقول أتباعه سعداء في الدارين.

قلت له: فما يمنعك من الظفر بهذه السعادة؟

فقال: وأتباع كل نبي من الأنبياء كذلك فأتباع موسى أيضا سعداء.

قلت له: فإذا أقررت أنه نبي صادق فقد كفر من لم يتبعه واستباح دمه وماله وحكم له بالنار فإن صدقته في هذا وجب عليك اتباعه، وإن كذبته فيه لم يكن

نبيا فكيف يكون أتباعه سعداء؟ فلم يحر جوابا وقال: حدثنا في غير هذا »[١]
قامت عليه الحجة ولكنه أبى أن يستسلم.

قال: (**ولو كان موسى حيا**) هذا فيه فائدة - كما قدمت - وهي: أنه ليس الأمر مقتصراً على التوراة المحرف، بل موسى عليه السلام بشخصه ونفسه لو جاء وكان بين أظهر الناس لا يجوز اتباعه؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله تعالى، والله عز وجل ختم الرسالات ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام، فمن لم يتبع محمداً صلى الله عليه وسلم فليس بمسلم.

قال: (**ولو كان موسى حيا وأتبعتموه وتركتموني ضللتم**).

قال (وفي رواية: **لو كان موسى حيا ما وسعه إلا إتباعي**)؛ وهذا المعنى أعظم من الذي قبله، ولاحظ التدرج في البيان، عندنا ثلاثة أمور الآن:

- **الأمر الأول**: التوراة التي بين أيدينا لا يحل النظر فيها، والنظر فيها والبحث عن الهدى من خلالها ضلال.
- **والأمر الثاني**: ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم على وجه الافتراض البياني والإيضاحي قال: (**لو كان موسى حيا وأتبعتموه وتركتموني ضللتم**)؛ يعني لو كان بين أظهركم موسى وأتبعتموه وتركتم إتباعي ضللتم.
- وأمرٌ أعظم من ذلك؛ قال: (**لو كان موسى حيا ما وسعه إلا إتباعي**).

ومما يبين هذا المعنى أن عيسى عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان لا يحكم الناس بالإنجيل وهو الكتاب الذي أنزل عليه، وإنما يحكم الناس بالقرآن

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٢٨).

الكريم، فبعد بعثة محمد ﷺ ونزول القران الكريم وجب الاستغناء بالقرآن عن كل ما سواه؛ سواء في الكتب المنزلة قبله أو غير ذلك من المصادر التي جعلها الناس مأخذًا لهم في الاستدلال.

(**قال عمر** رضي الله عنه: **رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا**)؛ وهذا فيه سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم وحُسن استسلامهم، ونهجهم في ذلك نهج الأنبياء؛ مسارعة بدون تردد وبدون توقف.

وقد مر معنا قريبا آية عظيمة في هذا الباب: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة:١٣١]، فهنا مجرد ما نُبِّه عمر إلى هذا الأمر أو إلى هذا الخطأ قال: (**رضيت بالله ربا**)؛ مباشرة بدون تردد وبدون تفكير وبدون نظر، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[المؤمنون:٦١] يسابق للاستجابة والامتثال والانقياد، بعض الناس إذا عُرض عليه الدين الحق يقف متردداً وربما ينتظر ليستشير، يُعرض عليه الحق البيّن الواضح الظاهر الجلي الذي لا التباس فيه ولا غموض فيقف متردداً!! فعمر رضي الله عنه لما بيّن له النبي ﷺ هذا الأمر (**لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا إتباعي**) قال: «رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا»؛ فذَكر عمر رضي الله عنه الأصول الثلاثة التي قال عنها ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»[١]، وعن هذه الأصول الثلاثة يُسأل كل ميت إذا أدخل قبره؛ يقال له: «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»؛

(١) رواه مسلم (٣٤).

هذه فتنة القبر، ثلاث أسئلة محددة معيّنه، وكل من أدرِج في قبره يأتيه ملكان سود الوجوه زُرق العيون يقال لأحدهم «المنكر» ويقال للآخر «النكير»؛ لأنهما يأتيان على هيئة منكرة غير مألوفة ولا معروفة، ويقال لهما «الفتّانان» لأنهما يفتنان الإنسان يمتحنانه في قبره، والأسئلة التي يمتحن فيها الميت هي هذه: «من ربك؟، وما دينك؟، ومن نبيك؟».

ولهذا هذه الكلمات الثلاث يحتاج المسلم إلى عناية بها متواصلة ومستمرة، ومن العناية المتواصلة بهذه الأمور الثلاثة: أن يقول هذه الكلمات عند سماع الأذان، لما يقول المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمد رسول الله يقول: «وأنا أشهد، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا» لِما روى مسلم في «صحيحه» عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّن: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»(١).

وجاء في بعض الأحاديث أنها تقال في الصباح ثلاثا وفي المساء ثلاثا روي في الحديث: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَقُولُ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ**

(١) رواه مسلم (٣٨٦).

يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١]؛ على اختلاف بين أهل العلم في تحسين أو تضعيف الحديث الوارد في ذلك.

فيحتاج الإنسان إلى عناية عظيمة جداً بهذه الأصول، لأنها تعتبر ركيزة وأصول يقام عليها دين الإسلام؛ الرضا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا.

ومن نصح مؤلف هذا الكتاب لعموم المسلمين شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ألَّف رسالة أسماها «الأصول الثلاثة»؛ شرَح فيها هذه الأمور الثلاثة: (**رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا**) وذكر مع كل أصل من هذه الأصول الثلاثة دلائله من القرآن والسنة كما هي طريقته في جميع كتبه، فهو رحمه الله طريقته في كتبه جمْع الآيات والأحاديث، فهو في كتابه الأصول الثلاثة جَمَع طائفة من الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه الأصول الثلاثة وكتبها بعدة أساليب؛ كتبها للأطفال، وللعوام، ولطلبة العلم، ونفع الله برسالته هذه نفعًا عظيمًا، وكان كبار السن يُلقَّنون هذه الأصول تلقينًا وكانت تسمى «الدِّين» ويؤتى بهم ويلقنون هذه الأصول.

كنت من وقت قريب في زيارة لرجل عمره قارب المائة وضعُف ونحُل فلما جلستُ عنده قال لي مستذكراً: الطواغيت كثيرون لا كثّرهم الله ورؤوسهم

---

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (٥٠٧٢)، وَابْنُ مَاجَه (٣٨٧٠)، وَحَسَّنَهُ الإِمَامُ ابْنُ بَاز رحمه الله فِي «تُحْفَةِ الأَخْيَار» (ص ٣٩)، وَضَعَّفَهُ الأَلْبَانِي فِي «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَة» (٥٠٢٠).

خمسة، ثم أخذ يعدِّدهم واحداً تلو الآخر، قال بقي خامس الآن نسيته تذكرني به؟ فذكرته به، حفظوها منذ الصغر يسمونها «الدين».

فالمصنف رحمه الله كتَب الأصول الثلاثة بأسلوب مبسط وسهل وكان يحفَّظ الكبار هذه الأصول ويستذكرونها بين الوقت والآخر، ولما أهمل الناس دينهم دخلت عليهم أنواع من الضلالات انشغلوا بها عن أصول الدين وانشغلوا بها عن هذه الأصول الثلاثة التي يُسأل عنها كل ميت في قبره؛ ولهذا ينبغي أن تتظافر الجهود من طلبة العلم والدعاة والخطباء وأئمة المساجد على بث هذه الأصول الثلاثة ونشرها بين الناس، فهي أعظم ما ينبغي أن يُعنى به ويُهتم به؛ لأنها الأصول التي يُسأل عنها كل ميت عندما يدرج في قبره؛ الرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا[1].

- **والرضا بالله ربا**: أي الرضا به تبارك وتعالى خالقًا رازقًا منعِمًا متصرفًا، والرضا به معبوداً بحق ولا معبود بحق سواه، والرضا به حاكمًا آمِراً ناهيًا، له الحكم جل وعلا، وله الأمر سبحانه وتعالى.

- **والرضا بالإسلام**: بتلقي الإسلام بالقبول، وعدم ابتغاء دينٍ سواه، ومعرفته، وتعلّمه.

- **والرضا بالنبي صلى الله عليه وسلم رسولا**: بتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء

(١) وقد صدر ولله الحمد «شرح ثلاثة الأصول» في مجلد ضخم لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

عما نهى عنه وزجر، وتلقي ذلك كله بانشراح صدرٍ وإقبالٍ وطواعيةٍ وامتثال.

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

**باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام**

**وقوله تعالى:** ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا﴾ [الحج: ٧٨].

## الشرح

قال المصنف رحمه الله: (**بابٌ ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام**)؛ أي ما جاء في التحذير من ذلك والنهي عنه، وبيان أن الواجب على من حباه الله بالإسلام ومنّ عليه بهذا الدين وأكرمه بأن كان من أهله؛ أن يكون انتماؤه إليه، وانتصاره له، وعمله لأجله، ودعوته لتحقيقه؛ فيجمع الفضائل: فضيلة الامتثال والعمل بالإسلام، وفضيلة الدعوة إلى الإسلام وإلى شرائعه وأعماله والسعي في نشره، وفضيلة الانتماء إليه، وهذه ثلاثة فضائل عظيمة جداً.

ومن كانت فيه هذه الفضائل فليس هناك من هو أحسن منه حالاً، كما قال الله سبحانه وتعالى في جمْع هذه الفضائل العظام الثلاث وبيان أنه لا أحد أحسن ممن كانت هذه حاله قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]؛ ثلاث فضائل عظيمة امتدح الله سبحانه وتعالى المتصف بها وبيّن أنه لا أحد أحسن منه، فمن منّ الله سبحانه وتعالى عليه بالإسلام عليه أن يحمد الله تبارك وتعالى على هذه النعمة، وأن يسعى جاهدًا في تكميل إسلامه في نفسه، وتحقيق دينه

والسعي في البلوغ به إلى عالي الرتب، وأيضًا يسعى في نشره ودعوة الناس إليه وترغيب الناس فيه، قال ﷺ لعلي رضي الله عنه (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ) ثم قال له: (لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلا وَاحِدًا، خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ)(١)، وفي الآية المتقدمة قال رب العالمين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾، ونبينا ﷺ أمِر كما جاء في القرآن: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨]، وأن يكون انتماؤه إلى هذا الدين ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ وهذا الاسم العظيم اسمٌ سمى الله سبحانه وتعالى به أهل الإسلام في كتابه العظيم القرآن الذي ختم به الكتب المنزلة منه تبارك وتعالى على عباده، وسماهم بهذا الاسم قبل القرآن، ولهذا جاء المصنف بهذه الآية التي خُتمت بها ﴿سورة الحج﴾ مبيّنا عظمة الانتماء إلى الإسلام والاعتزاء إلى هذا الدين، قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾؛ ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: أي في القرآن الكريم، و ﴿مِن قَبْلُ﴾: أي في الكتب المنزلة قبله على رسل الله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه.

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ﴾: أي الله وليس إبراهيم عليه السلام، قال قبلها: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾، فبعض المفسرين قالوا: ﴿هُوَ﴾: أي إبراهيم عليه السلام ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾، ولكن هذا خلاف الصواب،

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (١٧٣١).

الصواب أن الذي سمى أهل هذا الدين بالمسلمين هو رب العالمين[(١)].

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾: أي الله، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: أي في القرآن الكريم، و ﴿مِن قَبۡلُ﴾: أي في الكتب التي أنزلها على رسله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه.

فيكون عمل المرء بالإسلام، ودعوته وانتماؤه إليه؛ فهو دين الله ﷻ الذي رضيه ودعا عباده إلى الإيمان به، وإلى العمل به، ودعاهم أيضا إلى الانتساب والانتماء والاعتزاء إلى هذا الدين.

فإذا سُئل من منّ الله عليه بدخول هذا الدين وأكرمه بأن كان من أهله عن دينه قال: «ديني الإسلام»، فهو دينه الذي يدين الله ﷻ به؛ يحافظ على عقائد الدين، ويحافظ على أعمال الدين، ويحافظ على أخلاقه وآدابه، ويسعى جاهداً في حياته إلى دعوة الناس إلى هذا الدين، لا يدعو الناس إلى شخصه، ولا يدعو الناس إلى شهرة يطلبها، ولا يدعو الناس إلى تحزّبات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما يدعوهم إلى دين الله بالإسلام، وهمّه انتشار هذا الدين، قال بعض السلف: «لوددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاع الله»[(٢)]، لم يكن همّ الواحد منهم سمعةً يكتسبها، أو شهرةً وصيتًا يذيع له، أو زعامةً يطلبها، أو أصواتًا يكتسبها أو غير ذلك، وإنما كان همّهم انتشار دين الله،

(١) انظر على سبيل المثال: «تفسير ابن جرير» (١٨/ ٦٩٢)، و«أضواء البيان» (٥/ ٣٠٢)، و«شفاء العليل» (ص ٢٨).

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ٩).

ودخول الناس في الإسلام، ومعرفتهم بهذا الدين، وذهاب الباطل وزهاقه، وانتشار الحق وعلو كلمته.

هذا همّ المسلم؛ همُّ من امتدحه الله ﷻ في الآية المتقدمة بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، ولهذا قال المصنف رحمه الله: **(باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام)**.

وأرباب المذاهب الباطلة المنحرفة يُنسب باطلهم إلى من أسسه أو من اخترعه أو من أوجد تلك البدع؛ فيُنسبون إلى المؤسسين أو يُنسبون إلى البدع نفسها، أما أهل الحق والاستقامة والتمسك بالإسلام الصحيح فإن نسبتهم إلى هذا الإسلام أو إلى الألفاظ الشرعية التي تدل على حقيقة الإسلام الخالص، فهي تسمية صحيحة شرعية تدل على حقيقة الإسلام الخالص؛ مثل تلقيب من ليسوا من أهل البدع الذين هم أهل المحافظة على الإسلام الخالص والدين الصحيح البعيدون عن البدع والخرافات والضلالات ونحوها بـ «أهل السنة والجماعة»، فهذه التسمية تسمية صحيحة لأنها نابعة من الإسلام وهي انتساب إلى الإسلام، ليست انتساباً إلى شخص، ولا انتساباً إلى حزب، ولا انتساباً إلى شعار من الشعارات الزائفة؛ وإنما هو انتساب إلى الإسلام، لأن الإسلام حقيقته تمسُّك بالسنة ولزومٌ للجماعة.

قال: **(باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام)**؛ أي باعتزاء لأشخاص أو شعارات أو نحو ذلك ينبني عليها التفرق وتشيّع الناس إلى شيَع وأحزاب

وتفرّق كلمتهم واختلال صفِّهم وأن يدب الوهن والضعف فيهم، فهذا أمرٌ ذمه الله ﷻ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]، والواجب أن ينضوي أهل الإسلام تحت الإسلام ملتزمين به، محافظين على شعائره، منتمين إليه، داعين إليه.

## المَتْن

**قال المؤلف ؒ:**

**وعن الحارث الأشعري ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالْجِهَادُ وَالْهِجْرَةُ وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يراجع، وَمَنْ دعا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ» فَقَالَ رَجُلٌ: «يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟» قَالَ: «وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ»(١).**

**رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح.**

## الشَّرح

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» والترمذي وغيرهما وسياقه طويل، واقتصر المصنف ؒ على موضع الشاهد للترجمة من الحديث، ولكن لأهمية سياق الحديث ولعظيم ما فيه من فوائد نذكر الحديث بتمامه؛ فعن

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧١٧٠)، والترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٢٤).

الحارث الأشعري ﵁ أن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَام بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ فَقَالَ لَهُ عِيسَى ﵇: إِنَّكَ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ؛ فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ، فَقَالَ: يَا أَخِي إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي، قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ فَقَعَدَ عَلَى الشُّرَفِ؛ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ؛ أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ -هذا مثل المشرك- فَأَيُّكُمْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ -يعني يعمل ويعطي الغلة لغير السيد!!- وَإِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» تأمل هذا المثل البديع الذي يوضح حال المشرك؛ حال المشرك مثل رجل عنده عبد اشتراه بخالص ماله ثم يعمل ذلك العبد ويعطي الغُلة والمكسب والربح لغير السيد، والله ﷻ خلق العبد وأوجده من العدم ويرزقه صنوف النعم وأنواع المنن ثم يجعل عبادته ودعائه لغير الله ﷻ!!، قال: «وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَآمُرُكُمْ

بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ - هذا مثل الصدقة والإنفاق في سبيل الله -، وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ - أي أدركه عدوه ولحقه عدوه - فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ ﷻ». انتهت وصايا يحيى عليه السلام لقومه، وقد ذكرها النبي ﷺ منوِّهًا بها مبينًا عظمتها ومكانتها، وهي وصيةٌ بالتوحيد، ووصيةٌ بالصلاة، ووصيةٌ بالصيام، ووصيةٌ بالصدقة، ووصيةٌ بالإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، مع ضرب مثل لكل وصية من هذه الوصايا الخمس يبين مكانة هذه الوصية وعظيم منزلتها.

ثم إن نبينا ﷺ لما أنهى ذكر هذه الوصايا -وصايا يحيى عليه السلام- قال: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْجِهَادِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ» فقال رجل: يَا رَسُولَ اللهِ وإن صلى وصام؟ قَالَ: «وَإِنْ صلى وصام فَادْعُوا بدعوى الله الذي سماكم الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ».

المصنف رحمه الله ساق هذا الجزء من الحديث المشتمل على وصايا نبينا الكريم ﷺ الخمس لأمته وأمره أمته بهن، وقال: (**إني آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ**)؛

فالله ﷻ أمر بها نبيه ﵇، ونبينا ﷺ أمر بها أمته مبلغًا ما أمره الله ﷻ به، فذكر هذه الوصايا الخمس.

قال: (**السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)؛ هذه الوصيتان الأوليان: السمع والطاعة؛ أي السمع لمن ولّاه الله ﷻ أمر المسلمين. وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بذلك (عَلَيْكم السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ)، (اسْمَعْ وَأَطِعْ)، وهنا قال: (السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ) أي: لمن ولاه الله ﷻ أمر المسلمين؛ يُسمع كلامه ويطاع أمره، وذلك لأن الإسلام وجماعة المسلمين واجتماع كلمتهم والتئام شملهم وانتظام أمرهم لا يكون إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، فجماعة المسلمين واجتماعهم على الإسلام مطلوب، والاجتماع على الإسلام واجتماع الناس عليه وكون كلمتهم واحدة هذا لابد فيه من إمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة؛ ولهذا جاء الإسلام بالتأكيد على السمع والطاعة؛ جاء ذلك في القرآن وجاء ذلك أيضا في سنة النبي ﷺ؛ في القرين قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، والسنة مليئة بالأحاديث عن النبي ﷺ في الأمر بالسمع والطاعة لمن ولاه الله ﷻ أمر المسلمين، يُسمع ويطاع حتى وإن لم يكن هذا الذي ولي أمر المسلمين عدلا، حتى وإن لم قائمًا بالعدل، حتى وإن كان عنده ظلم وشيء من الحيف، ولهذا أكد النبي ﷺ على ذلك قال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[١]، لأن نزع

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

اليد من الطاعة والخروج من السمع فيه شق لكلمة المسلمين، فيه تفرقة لصفهم، فيه خلخله لجماعتهم، فيه زعزعة لأمنهم، بل فيه إراقة دماء، وانتهاب أموال، وانتهاك أعراض، واختلالٌ للأمن، وذهابٌ للكلمة، ولهذا جاء الإسلام بالسمع والطاعة والصبر، يصبر على ظلم الولاة إن وُجد، وجاء عن عبد الله بن مسعود ﵁ أنه قال: «اتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، أَوْ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَجْمَعُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلاَلَةٍ»[1]، فجاء الإسلام بالوصية بالسمع والطاعة وعدم نزع اليد من الطاعة وعدم الخروج على الجماعة؛ لما في ذلك من الشر العظيم والفساد العريض.

والطاعة التي أمِر بها هنا في قوله: (السمع والطاعة) ليست طاعةً مطلقة في كل ما يأمر به، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ ولم يقل: (وأطيعوا أولي الأمر منكم)، لأنه ليس له طاعة مطلقة، يبين ذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[2] و«السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ؛ فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ عَلَيْهِ وَلاَ طَاعَةَ»[3]، فإذا أمر بمعصية لا يطاع، يعني إذا أمر بترك الصلاة أو أمر بشرب الخمر أو بالفواحش لا يطاع، ولا أيضا تُشق العصا وإنما يُمتنع من طاعته فيما يدعو إليه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٧١٩٢)، وابن بطة في «الإبانة» (١٤٩).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٥) ومسلم (١٨٤٠).

(٣) رواه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).

من حرام ومن الأمور التي نهى الرب ﷻ عنها لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قال: (**السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْجِهَادِ**)؛ أي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولنصر دينه ﷻ، وأيضا الجهاد الذي هو أساس هذا الأمر وهو جهاد النفس على طاعة الله ﷻ والبعد عما حرّم، كما قال نبينا ﷺ: (الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ)[١]، ومن انهزم أمام نفسه ولم يجاهدها في طاعة الله ليس أهلاً أن يجاهد العدو الخارجي وهو لم يجاهد العدو الداخلي الذي بين جنبتيه، من لم يجاهد نفسه على طاعة الله فلا يستطيع أن يجاهد نفسه ليصلي الفجر مثلا ليس أهلاً أن يجاهد العدو.

ولهذا قال بعض أهل العلم مشيراً إلى هذا المعنى وملْمِحاً إلى هذه الحقيقة: «أعظم أسباب النصر المحافظة على صلاة الفجر»، قاصدا بذلك الإشارة إلى هذا المعنى؛ من لم يجاهد نفسه على الصلاة وخاصةً صلاة الفجر التي هي باكورة اليوم ومفتتحه وينهزم أمام نفسه فينام عن الصلاة ويقدّم النوم على هذه الصلاة هذا ليس أهل أن يجاهد عدواً أو أن ينصر ديناً، لأنه لم ينصر دين الله ﷻ في نفسه فليس مؤهلاً أن ينصر دين الله ﷻ وأن يكون من أعوان نصر دين الله ﷻ، من لم ينتصر على نفسه ليس أهلاً أن ينتصر لدين الله ﷻ، ولهذا قال ﷺ: (الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ)؛ فالذي يجاهد نفسه في طاعة

(١) رواه الترمذي (١٦٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٧٩).

الله تأهل بهذا الجهاد لنصرة دين الله ﷻ، أما إذا كان منهزم أمام ألد أعدائه وهي نفسه التي بين جنبيه تذهب به إلى كل حرام وتجنح به إلى كل باطل وتبعِده عن كل فضيلة وهو منهزم أمامها، فهذا من باب أولى أن يكون منهزماً أمام عدوه، ولهذا أعظم أسباب تسلط الأعداء على المسلمين هي هزيمة المسلمين الداخلية مع أنفسهم، عندما يُهزم المسلم داخلياً مع نفسه فيضيّع دينه ويغشى الحرام ولا يبالي ويضيِّع الواجبات ولا يبالي فيكون بهذه الهزيمة يُهزم من الأعداء، وإذا انتصر على نفسه بالمحافظة على الدين ورعاية هذا الدين فالله ﷻ ينصره ويمكّن له، وتأمل هذا في قول الله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور:٥٥]؛ أمْن وتمكين وعز ونصرة، والشرط: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ يؤمنون ويعملون الصالحات.

فالمجاهد من جاهد نفسه على طاعة الله ﷻ، وبهذا يتأهل لأن يكون من أنصار الدين وأعوانه.

قال: (**وَالْهِجْرَةِ**)؛ هذا اللفظ العظيم يتناول الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، ولما كانت مكة دار كفرٍ كانت الهجرة منها واجبة، ثم لما فتح النبي ﷺ مكة قال: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»(١)، لأنها أصبحت دار إسلام والكلمة فيها

(١) رواه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٨٦٤).

للإسلام ليست للمشركين، و(لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ): أي من مكة، أما ديار الكفر فالهجرة منها إلى ديار الإسلام باقي الحكم؛ لكن (لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ) أي: من مكة لأنها أصبحت دار إسلام فلا هجرة منها واجبة لأنها أصبحت دار إسلام.

وكذلك (**الهجرة**) تتناول: هجرة المعاصي والذنوب والتوبة منها والإقبال على الله ﷻ، ولهذا أيضا صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)؛ هذا ذكره النبي ﷺ في خطبة له في حجة الوداع قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)(١).

فالهجرة تكون بالانتقال من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، وأيضا تكون الهجرة بهجر البدع بتركها والبعد عنها إلى السنة، وترك المعاصي والذنوب إلى الطاعة؛ فيتوب إلى الله ﷻ من البدع، ويتوب إلى الله من المعاصي، ويقبل على الله ﷻ تائبًا منيبًا، فهذه هجرة إلى الله ﷻ وإلى دينه وإلى سنة نبيه ﷺ.

وهذه المعاني تكلم فيها بإجادة وإفادةٍ بديعة الإمام ابن القيم ؒ في رسالة له صغيرة عنوانها: «الرسالة التبوكية» عظيمة الفائدة في هذا الباب، وتكلم عنها بتوسع في كتابه: «طريق الهجرتين».

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٥٨)، وابن ماجه (٣٩٢٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٩).

قال: (**والْجَمَاعَةِ**) وهذه الوصية الخامسة؛ الأولى: السمع، والثانية: الطاعة، والثالثة: الجهاد، والرابعة: الهجرة، والخامسة: الجماعة.

والجماعة: أي لزوم جماعة المسلمين، ولزوم الجماعة يتناول لزوم أمرين:

❖ **الأول**: لزوم الحق الذي عليه جماعة المسلمين؛ وهو دين الله ﷻ، ومن لزم الحق الذي يجب أن يكون عليه أهل الإسلام وأهل الدين فهو جماعة ولو كان وحده بلزومه للحق، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بلزوم الحق والمحافظة عليه.

❖ **والأمر الثاني**: لزوم جماعة المسلمين وإمامهم؛ فإذا كان المسلمون مجتمعون وكلمتهم مجتمعة على إمام واحد فالسمع والطاعة واجب، ولزوم الجماعة واجب، ونزع اليد من الطاعة محرم وذنب عظيم وجرم وخيم يجر على صاحبه وعلى غيره هلكة وشر في دينه ودنياه، ولهذا لزوم الجماعة جاء التأكيد عليه في أحاديث كثيرة، بل قال ﷺ: «الجَمَاعَة رَحْمَة وَالْفُرْقَة عَذَاب»[(١)]، وهذه كلمة دالة على حقيقة الأمر بأحسن ما يكون وأوجز ما يكون؛ «الجماعة رحمة»، لما يكون المسلمون مجتمعون على إمام واحد حتى لو كان هذا الإمام ظالم وجائر وعنده نقص؛ اجتماعهم عليه خيرٌ من تفرقهم بلا إمام، لأن تفرق الناس بلا إمام يعني إراقة الدماء، يعني انتهاك الفروج والحرمات، يعني انتهاب الأموال، يعني اختلال الأمن، لا يستطيع الناس أن يجلسوا في المساجد، ولا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٤٤٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٦٧).

يستطيعون أن يطلبوا العلم، ولا يستطيع الإنسان أن يحفظ ماله أو عرضه أو أهله أو بيته إلى غير ذلك، كل هذه تضيع، ولكن إذا كان عليهم إمام ولو كان فيه شيء من الجور أو الظلم أو الأثرة بالمال أو نحو ذلك هذا أرحم لهم: (الجماعة رحمة)، (والفرقة عذاب)؛ الفرقة ويلات على الناس وشر وبلاء لا يعلم به إلا الله سبحانه وتعالى.

ولهذا جاء الإسلام بحفظ الجماعة والمحافظة عليها، وأن يجتمع الناس على إمامهم وعلى أميرهم وأن يسمعوا له ويطيعوا ويحافظوا على جماعتهم بإصلاحها لا بإفسادها، الخروج على جماعة المسلمين ليس إصلاحًا بل هو إفساد، وإراقة للدماء، واختلال للأمن، وضياع للكلمة وتجرئة لأعداء الدين على أهله؛ ليس فيها خير، الخير في اجتماع المسلمين واجتماع كلمتهم، ولهذا جاء الإسلام ليس بالخروج على ولي الأمر وإنما بالنصيحة له، قال عليه الصلاة والسلام: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)(١)؛ ولأئمة **المسلمين**: بالنصيحة لهم، لا بالخروج ونزع اليد من الطاعة وشق العصا وتفرقة الكلمة؛ فهذا كله شر، ومن مارسوا هذه الأمور بنية الإصلاح لم يترتب على هذه الممارسة على مر التاريخ إلا الفساد، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رصدٍ له لمن مارسوا مثل هذه الأعمال: « فلا أقاموا دينا ولا أبقوا

(١) رواه مسلم (٥٥).

دنيا»[١]؛ لا يقام الدين بمثل هذه الممارسات، ولا تبقى دنيا الناس؛ بل يحصل فساد عريض وشر كبير، ولهذا جاء الإسلام بحفظ الجماعة.

وأعيد ما قدمته وهو: أن أمر المسلمين لا ينتظم إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة؛ ولهذا جاءت هذه الأمور مرتبطة؛ الوصية بالسمع والطاعة والوصية بلزوم الجماعة.

يقول العرباض بن سارية ﵁: «وَعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ لَهَا الْأَعْيُنُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى بَعْدِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٢].

فلزوم الجماعة بلزوم الحق ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم وعدم الخروج؛ هذا من الأمور التي أكد النبي ﷺ عليها تأكيداً عظيماً في أحاديثه، بل إنه ﷺ ثبت عنه أنه قال في خطبة له في حجة الوداع: (اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ - وفي رواية اعبدوا ربكم - وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٣١٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا رَبِّكُمْ»[(١)]، لاحظ؛ قَرَن طاعة ولي الأمر ورتب عليها دخول الجنة قرنها بالصلاة والصيام والزكاة وكلها رتب عليها دخول الجنة قال: (أطيعوا ذا أمركم).

وإذا وجدت الشبهات بين الناس في هذا الباب أفسدت عليهم قبول أحاديث النبي ﷺ التي فيها الأمر بالسمع والطاعة - ولنتنبه لهذا - تجد بعض الناس إذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالصلاة انشرح صدره، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالصيام انشرح صدره لحديثك، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالزكاة انشرح صدره لحديثك، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة انقبض صدره واستوحش، هذا الانقباض وهذه الوحشة من السنة ومن الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة سببها الشبهات والأهواء التي تدخل على النفوس؛ وإلا كلها سنن، كلها دين.

**(وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ)**

الذي أمر بطاعة ولي الأمر هو الذي أمر بالصلاة هو الذي أمر بالصيام؛ فلماذا آيات الصلاة والصيام والحج تُقبل بانشراح، والأحاديث والآيات المتعلقة بما يتعلق بولي الأمر تُقابَل باستيحاش!! لولا الأهواء التي تدخل على النفوس وعلى القلوب فتُمرِضها وتصدها عن دين الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٩).

ولهذا ينبغي على المسلم أن يعالج نفسه بالسنة، وأن يقرأ أحاديث النبي ﷺ وأن يؤمّرها على نفسه، قال بعض السلف: «مَن أمَّر السنَّةَ على نفسِه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهَوَى على نفسِه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة»[1]؛ لكن الذي يؤمِّر الهوى على نفسه ينطق بالبدعة وبالضلالة، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يؤمّر السنة على نفسه بمعنى أن يجعل السنة هي قائده.

لما ذكر الوصية بالجماعة قال مؤكداً: (**فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ**)؛ لاحظ هذه الكلمة «**قِيدَ شبر**»، قيد بكسر القاف أي قدر شبر، والشبر قدر يسير جدا.

مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْر يعني ولو مسافة قليلة ولو جزءً يسير ولو أمراً قليلاً (**فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يراجِع**).

(**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةِ**)؛ أي جماعة المسلمين ونزع اليد من الطاعة وخرج على جماعة المسلمين يقول ﷺ: (**فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ**)؛ الربقة في اللغة: هي الحبل الذي يُلف به عنق الدابة حتى لا تشرد وحتى لا تضيع وحتى لا تكون نهبةً للسباع تأكلها، ومن خرج من الجماعة أصبح نهبةً للسباع وعرضة للضياع والهلكة، ولهذا قال: (**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ**) أي قدرا يسيرا قليلا (**فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ**)؛ لأن هذا ضياع للدين، الدين يتحقق بالأمن والطمأنينة وهذه الأمور إضاعة للكلمة ونشر للشر والفساد، ولهذا إذا وُجد في

---

(١) «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٤٤).

بلدٍ من البلدان مثل هذه الأمور اختل الدين وقويت شوكة أهل الباطل وضعُفت كلمة أهل الحق، ولم يتمكن الناس من الصلاة في مساجدهم ولم يتمكنوا من طلب العلم ولم يتمكنوا من أبواب الخير، ويضيع أمرهم.

قال: (**فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يراجِع**)؛ يعني يتوب إلى الله ﷻ من هذا الافتيات وهذا الخروج وهذا النزع والمفارقة لجماعة المسلمين.

قال: (**وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**)؛ دعوى الجاهلية: أي عزاؤها وهو عصبيتها؛ إما عصبية لعِرق، أو لقبيلة، أو لشخصٍ، أو لفئة أو نحو ذلك، عصبيةً عمياء على الحق والباطل، وعلى الهدى والضلال، وانتصارٌ في هذا التعصب لمن يتعصبون له حتى في ظلمه وعدوانه وبغيه.

كان أهل الجاهلية إذا اعتدى أحدهم على آخر ثم غلبه من اعتدى عليه نادى هذا المعتدي الظالم الباغي عشيرته: (يا لفلان)، ثم جاءوا منتصرين له على ظلمه؛ عصبيةً جاهلية، وانتماءاتٍ باطلة، ونُصرة للظلم والهوى والضلال، هذه دعوى الجاهلية؛ ينصرون الظالم بإعانته على ظلمه وعلى بغيه وعلى عدوانه.

قال: (**وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**)؛ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ: أن يوجِد لنفسه انتماءً حتى ولو كان هذا الانتماء انتماءً مباح مثل: الانتماء إلى القبيلة، أو الانتماء إلى البلد الذي وُلد فيه ونشأ فيه الإنسان، هذا انتماء مباح لا شيء فيه، أو الانتماءات أيضًا المستحبة مثل: انتماء الإنسان للهجرة (مهاجر)، أو النصرة (أنصاري)؛ هذه انتماءات صحيحة كلها، لكن إذا جُعلت هذه الانتماءات من

أجل التعصب الباطل ودعوى الجاهلية وعزائها فهذا أمر محرم جاء الإسلام بتحريمه والمنع منه كما سيأتي بيان ذلك.

قال: (**وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ**)؛ من جُثى جهنم: أي من جماعاتها الذين يلقَون فيها ومن حطبها ووقودها، فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ أي أن الله يلقيه في النار يوم القيامة.

وهذا وعيد شديد لمن كان بهذا الوصف «مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ» وأيضا ضُبطت (من جُثِيّ جهنم) أي: ممن يجثون في جهنم، والجثي: هو على الركب؛ جثى يجثو جثيًا أي على ركبه، فهو من جثي جهنم؛ ممن يجثون في جهنم أي يُلقَون فيها.

(**فقال رجل: يَا رَسُولَ اللهِ وإن صَلَّى وَصَام!!**)؛ يعني من دعا بدعوى الجاهلية حتى وإن كان من أهل الصلاة ومن أهل الصيام ولكنه يدعو بدعوى الجاهلية فهل أيضا العقوبة نفسها؟

(**قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَام**)؛ يعني حتى وإن كان محافظًا على الصلاة محافظا على الصيام؛ من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم، (قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَام) أي: فهو كذلك حتى وإن صلى وصام.

(**فَادْعُوا بدعوى الله الذي سماكم الْمُسْلِمِينَ والْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ**) وجاء في بعض الروايات قال: (فادعوا المسلمين بما سماهم الله؛ المسلمين المؤمنين عباد الله)، وهنا قال: (**فَادْعُوا بدعوى الله الذي سماكم الْمُسْلِمِينَ والْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ**)؛ ولهذا انتماء الإنسان من باب التعريف لبلده أو لقبيلته هذا أمر مباح؛

أنا من قبيلة كذا أنا من بلد كذا هذا مباح، أما إذا كان هذا الانتماء نوع من عزاء الجاهلية ودعوى الجاهلية وتعصب للعشيرة أو للبلد بالحق والباطل، بالهدى والضلال، بالسنة والبدعة فهذا أمر محرم، وهذه هي دعوى الجاهلية التي حذّر منها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وفي «الصحيح»: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قيد شِبْر فَمَاتَ؛ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»[١]، وفيه «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!»[٢].**

**قال أبو العباس: «كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار قال ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بي أظهركم»، وغضب لذلك غضبا شديدا».**

**انتهى كلامه رحمه الله تعالى[٣].**

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

(٢) رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) لكن بلفظ: عن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللهِ قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟».

(٣) «السياسة الشرعية» (ص١١٣)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢٨).

## الشَّرح

قال وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قيد شِبْر**»: أي قدر شبر كما تقدم.

«**فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**» وهذا فيه وعيد لأن ميتته كانت على هذه الجاهلية، جاهلية أهل الشرك والضلال الذين من شأنهم مفارقة الجماعة، ومن شأنهم عدم السمع والطاعة، ومن شأنهم ترك التوحيد؛ هذه الأمور الثلاث من أبرز صفات الجاهليين: ترك التوحيد، ومفارقة الجماعة، وعدم السمع والطاعة، يأنف الواحد منهم أن يسمع ويطيع للأمير ويستكبر عن السمع والطاعة؛ مع أن السمع والطاعة فيه انتظام للكلمة واجتماع للصف، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلاَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[1]، لا يغل: يعني لا يجد قلب المسلم على هذه الأمور غل، بل يقبلها بانشراح وطمأنينة، أما المشركون ففي قلوبهم غل لهذه الأمور الثلاث.

ومن فارق الجماعة ففيه شعبة من شعب الجاهلية التي كان عليها أهل الجاهلية، ولهذا مصنف هذا الكتاب في كتابه الذي سبق أن أشرت إليه: «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» بدأ بهذه الأمور الثلاث؛ لأنها أبرز

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني: (صحيح لغيره) في «صحيح التَّرغيب» (٤).

صفاتهم: ترك التوحيد وترك السمع والطاعة وترك الجماعة، **(فمن فارق الجماعة قيد شبر فمات مات ميتة الجاهلية)**، لأن هذه من خصالهم ومن شعَب الجاهلية ليست من شعب الإسلام، فمن مات على هذه الحال مات ميتةً جاهلية.

قال: **(وفيه)** أي في الصحيح: **(أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم)** أي: لم أمت بعد؛ أبدعوى الجاهلية يعني تدعون وأنا بين أظهركم لم أمت بعد!! وهذه قالها النبي ﷺ في قصة حصلت كما جاء في «الصحيحين» وهي أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة فكَانَ أحد الْمُهَاجِرِينَ لَعَّابًا، قالوا في شرحها: أي كثير اللعب؛ يحب المزاح واللعب، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا؛ قالوا كسَعَه: أي ضربه مع قفاه بيده أو بظهر طرف قدمه، يحب اللعب ويحب المزاح فمن باب المزاح واللعب ضربه بيده أو بطرف قدمه، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا، وهما شابان، فَقَالَ «يَا لَلْأَنْصَارِ»، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: «يَا لَلْمُهَاجِرِينَ»، فبلغ النبي ﷺ هذه المقالة فقال: **(أبدعوى الجاهلية وأنا بي أظهركم)**؛ لاحظ مجيء هذه الكلمة في هذا الوقت وقت انتصار كلٌ ينتصر لصاحبه أيًا كانت صفة صاحبه، هذا يقول: «يا للمهاجرين» وهذا يقول: «يا للأنصار»، وكلٌ يطلب النصرة من جماعته أو ممن هو منهم، وينتصرون له كيفما كان الأمر!! هذا عزاء الجاهلية.

الانتماء للمهاجرين والانتماء للأنصار؛ هذا الاسم «مهاجر» و«أنصار» اسم شرعي أو غير شرعي؟ الله ﷻ سماهم به؛ مثل ما سماهم مسلمين سماهم

مهاجرين، اسم شرعي، قال الله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر:٨]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١٠٠]؛ فهو اسم شرعي سماهم الله سبحانه وتعالى به، ليس هو من الأسماء المباحة التي هي انتماء الإنسان لقبيلته أو بلده -هذا مباح إذا كان لمجرد التعريف- بل هذا اسم ممدوح شرعًا والله سماهم به، الذي سماهم مسلمين سماهم أيضًا مهاجرين وسماهم أنصار في غير ما آية في القرآن: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾؛ فالتسمية من حيث هي صحيحة أو لا؟ وشرعية أو غير شرعية؟ اسمٌ سماهم الله به، والحديث الذي مر معنا قريبًا قال: «فادعوا المسلمين بما سماهم الله به»؛ هذا اسم سماهم الله به.

فإذا قيل في إنسان هذا مهاجر، أو واحد من أنصار الدين قيل أنصاري هذا صحيح أو خطأ؟؛ هذا اسم شرعي صحيح لا شيء فيه، لكن لما جاء في هذا الموضع موضع عزاء الجاهلية كلٌ ينتصر أو يطلب النصرة سواء بالحق أو بالباطل فهذا ذمه الإسلام، ولهذا لو رُفعت في الإسلام شعارات صحيحة تجلب للناس عصبيةً باطلة وفرقةً واختلافًا تُمنع إذا كانت رُفعت لأجل هذا الغرض.

ولهذا لما قال الأنصاري: «يا للأنصار»، وقال المهاجري: «يا للمهاجرين» قال النبي ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!!» فبينوا له ﷺ القصة وسبب ذلك وقالوا إن المهاجري كسع الأنصاري فقال ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ».

الشاهد أن النبي ﷺ حذر من ذلك أشد التحذير.

ثم نقل المصنف كلاما عظيماً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو في كتابه «السياسة الشرعية» (ص١١٣) قال: (**قال أبو العباس: كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسبٍ أو بلدٍ أو جنسٍ أو مذهبٍ أو طريقةٍ فهو من عزاء الجاهلية**)؛ هل يقصد شيخ الإسلام بقوله: «من نسب أو بلد أو جنس» حرمة الانتماء إلى البلد أو النسب أو الجنس للتعريف؟! عندما يقال لأحدنا من أنت؟ يقول من قبيلة كذا، أو أنا من بلد كذا؛ للتعريف، هل هذا مقصود هنا؟ لا؛ المقصود هنا دعوى الجاهلية وهي الانتماء بتعصب للبلد أو النسب أو نحو ذلك بالحق والباطل، بالهدى والضلال، قال: (**من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية**)، وعزاء الجاهلية: هي دعوى الجاهلية وتعصباتها الباطلة التي ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان.

قال: (**بل لما أختصم مهاجري وأنصاري** - في القصة التي أشرت إليها وهي في «الصحيحين» - **فقال المهاجري يا للمهاجرين، وقال الأنصاري يا للأنصار قال رسول الله ﷺ: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!! وغضب لذلك غضبًا شديدا، انتهى كلامه** -أي كلام ابن تيمية- رحمه الله)؛ وغضب لذلك غضبا شديدًا: أي غضب لهذا العزاء ولدعوى الجاهلية الباطلة وتعصباتها المقيتة التي تفرق ولا تجمع، وتمزق الكلمة، وتفرق الصف وتوجد العدوات، ولا يترتب عليها خير، ولهذا قال ﷺ: (**أبدعوى الجاهلية**) يعني تدعون!! وبعزاء

الجاهلية تعلنون!! (**وأنا بين أظهركم**) أي حي بينكم لم أمت بعد، قال ذلك ﷺ محذِّرا من ذلك أشد التحذير.

وللتذكير مرة ثانية إلى أن (مهاجري وأنصاري) هذه أسماء شرعية سماهم الله بها في القرآن، فهي ليست خارجة عن دعوى الإسلام والقرآن؛ هي تسمية صحيحة، تسمية شرعية ليست مباحة فقط وليس مكروهة، بل هي مستحبة؛ أسماء امتدحها الله وامتدح أهلها وأثنى عليهم.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله قال: (فإذا كان هذا التداعي في الأسماء وفي هذا الانتساب الذي يحبه الله ورسوله فكيف بالتعصب مطلقا والتداعي للنسب والإضافات التي ما هي إما مباحة أو مكروهة وذلك أن الانتساب إلى الاسم الشرعي أحسن من الانتساب إلى غيره)(١).

لكن إذا أعلن هذا الاسم ورُفع من أجل تفرقة وعزاء الجاهلية فهذه دعوى الجاهلية، حتى وإن كان الاسم شرعياً إذا قُصد به التعصبات الباطلة وإيجاد العدوات والشحناء ونحو ذلك.

المصنف رحمه الله أورد هذه الترجمة في كتابه «فضل الإسلام» ليبين مكانة الإسلام ووجوب الانضواء تحت لوائه، والسعي في نصرته، والانتماء إليه، وأن يكون همّ الإنسان تحقيق الإسلام في نفسه ودعوة الناس إليه.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٧٢).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

### باب وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ الآية [النساء:٦٠].

## الشرح

قال المصنف رحمه الله: (**بابٌ وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه**)؛ وجوب الدخول في الإسلام كله: أي في شرائع الإسلام وأوامر الإسلام وتكاليف الإسلام، الواجب على كل مسلم أن يدخل فيها كلها ممتثلاً منقاداً مستجيباً مطيعاً ما استطاع من ذلك، قد قال ﷺ: «وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(١)، والله ﷻ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦].

فالواجب على كل مؤمن أن يدخل في الإسلام كله؛ بمعنى أن يجاهد نفسه على تحقيق الإسلام وتكميله والمحافظة على شرائعه من فرائض وواجبات ورغائب وسنن ومستحبات، وكلما عظم نصيبه وحظه من الإسلام عظم حظه من الخير في الدنيا والآخرة وكان من المفلحين.

قال: (**وجوب الدخول في الإسلام كله**)؛ أي في جميع شرائع الإسلام ما

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

استطاع إلى ذلك سبيلا، مجاهداً لنفسه على تتميم إسلامه وتكميل دينه وتحقيقه على الوجه الذي يرضي الله ﷻ.

(**الدخول في الإسلام كله**)؛ وهذا أيضا فيه إشارة إلى أن دخول المرء في الإسلام ليس دخولاً انتقائيًا؛ بمعنى أن ما يروق للإنسان من الأمور التي أُمر بها فعله وما لا يروق له تركه؛ وهذا حال عدد من الناس، يعمل ما يروق له من الأعمال وما يوافق لهوىً في نفسه، وما لا يروق له ولا لهواه لا يعمل به ولا يأبه به، وقد قال ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعًا لِمَا جِئتُ بِهِ»[1].

فالدخول في الإسلام كله لا يكون إلا إذا كان الإنسان بهذه الصفة؛ راضت نفسه على تلقي الدين وأوامره بانشراح صدر وارتياح قلب وحسن إقبال على طاعة الله ﷻ، فبمثل هذا يمكن يتيسر للإنسان بإذن الله ﷻ أن يدخل في الإسلام كله في شرائعه وواجباته.

قال: (**وترْك ما سواه**) أي: من الضلالات والبدع والخرافات، وأيضا ترك ما سواه من الأمور المحرمات والمعاصي والآثام واتباع شهوات النفس، فالواجب على المسلم أن يكون مستسلماً لله؛ فيفعل ما هو داخل في الإسلام من واجب ومستحب، وترك محرم ومكروه، وفعل مباحٍ يستعين به على تحقيق إسلامه وتكميل دينه، وما سوى ذلك يدَعُه.

---

(١) رواه الخطيب في «التاريخ» (٤/ ٣٦٨)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤)، وضعفه الألباني في «ظلال السنة» (١٥).

ولهذا صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١)؛ وقوله: «تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»: أي ما لا يعنيه في الإسلام؛ لا ما لا يعنيه في رغبته وهواه؛ فهذا هو الواجب على المسلم أن يكون اهتمامه بإسلامه واجبات ومستحبات، وتركٍ للمحرمات والمكروهات، وفعلٍ للأمور المباحات ليستعين بها على تحقيق إسلامه؛ لأن الإسلام هو الغاية التي وُجد لأجلها وخُلق لتحقيقها.

قال رحمه الله: (وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾)؛ ناداهم أولاً باسم الإيمان الذي يقتضي من صاحبه فعل ما يأمره به ربه سبحانه وتعالى، لأنه يؤمن بالله ربا خالقا حاكما آمراً ناهيا، فمن مقتضيات هذا الإيمان أن يستجيب لأمر الله وأن ينقاد له، فخاطبهم باسم الإيمان قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعا لا تتركوا منه شيئا، حافظوا عليه، ادخلوا فيه كله، لا يكون دخول الإنسان في الإسلام حسب هوى الإنسان، وإنما حسب ما ينال به رضا الرحمن سبحانه وتعالى. ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾: أي اجتهدوا في فعل ما تؤمرون به واجتهدوا في البعد عما تنهون عنه؛ لا يترك شيئا بل يجاهد نفسه على فعل كل ما أُمِر به ما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ هذا فيما يتعلق بالأوامر، أما النواهي لم يعلَّق الأمر

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩١١).

بالاستطاعة قال: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»(١)، لأن النهي ترك، والترك مستطاع.

قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾؛ ولما كان أعظم ما يحُول بين الإنسان وبين الدخول في السلم الذي -هو الإسلام - هو الشيطان الرجيم حذّر رب العالمين في هذا السياق المبارك من خطوات الشيطان، قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ لماذا؟ لأن الشيطان - أعاذنا الله جميعاً منه - ينقل الإنسان عن الإسلام عبر خطواتٍ يجعله يخطو بها خطوة من بعدها خطوة إلى أن يتخلى عن الدين، فيأخذ الإنسان أخذاً بعيداً عن الدين ولكنه بالتدريج، ولهذا حذّر رب العالمين من اتباع خطوات الشيطان وبيّن ﷻ أنه عدو، وقد قال بعض السلف ﵀: «إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله»(٢)؛ أي: يجب أن تحترز منه غاية الاحتراز وتحتاط من مكره وكيده وهمزه ونفثه ووسوسته بالاعتصام بالله ﷻ والاستعاذة به: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾[المؤمنون:٩٧]، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس:١-٦]، فالمسلم بحاجة إلى الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان؛ وذلك ليمضي في إسلامه دون أن ينحرف عنه يميناً أو شمالاً عبر خطوات الشيطان

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (١/ ٥٢٣).

التي يضعها له عثراتٍ في طريقه.

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ وهذا فيه إشارة؛ أن دخول المسلم في الإسلام وعنايته الشديدة به وشدة محافظته عليه تزيد في اتجاه الشيطان إليه ولإضلاله وإغوائه وصده عن سبيل الله، وهذه فائدة مستفادة من هذا السياق؛ لأن الله ﷻ لما قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ حذّر من خطوات الشيطان؛ وهذا فيه إشارة إلى أن الشيطان أحرَص ما يكون على الإنسان إذا اجتهد في الاستمساك بالدين والمحافظة عليه والمحافظة على صلاته وعبادته؛ فيتسلط عليه بالوساوس والهمز والنفخ والنفث، يتسلط عليه بالنزغات، فيحتاج من دخل في السلم كافة بعون الله تبارك وتعالى أن يُكثر من الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من الشيطان الرجيم ليُحفَظ ويوقى من شره وكيده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وَكُلَّمَا أَرَادَ الْعَبْدُ تَوَجُّهًا إلَى اللهِ تَعَالَى بِقَلْبِهِ جَاءَ مِنْ الْوَسْوَاسِ أُمُورٌ أُخْرَى فَإِنَّ الشَّيْطَانَ بِمَنْزِلَةِ قَاطِعِ الطَّرِيقِ كُلَّمَا أَرَادَ الْعَبْدُ يَسِيرُ إلَى اللهِ تَعَالَى أَرَادَ قَطْعَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قِيلَ لِبَعْضِ السَّلَفِ: إنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: لَا نُوَسْوَسُ فَقَالَ صَدَقُوا وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِالْبَيْتِ الْخَرَابِ)[1].

يعني ليس له فيه حاجة، الشيطان يتجه اهتمامه إلى المقبِل على الله، المقبِل على الإسلام، الحريص على المحافظة على الدين؛ مثل هؤلاء يقبِل عليهم

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٦٠٨).

الشيطان لصدهم عن هذا الخير، ولهذا صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ»(١)، أي: ما من طريقٍ يسلكه ابن آدم ويمضي فيه إلا والشيطان قاعد له فيه؛ إن كان خيراً صده، وإن كان شراً أزّه إليه.

ولهذا في الآية تنبيه إلى أن من دخل في السلم ووفقه الله ﷻ إلى هذا الأمر فعليه أن يُكثر من الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان الرجيم؛ لأن الشيطان قاعد له في هذا الطريق ومستمر في القعود والصد إلى أن يموت الإنسان، ولهذا قال عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمه الله: (حضرت أبي الوفاة فجلست عنده وبيدي الخرقة وهو في النزع لأشد لحييه، فكان يغرق حتى نظن أن قد قضى ثم يفيق ويقول: لا بعد لا بعد بيده ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبت إيش هذا الذي قد لهجت به في هذا الوقت فقال لي يا بني ما تدري فقلت: لا، فقال: إبليس لعنه الله قام بحذائي عاضا على أنامله يقول: يا أحمد فتني وأنا أقول: لا بعد حتى أموت)(٢)، يعني حتى يموت الإنسان ويخرج من هذه الدنيا؛ وإلا الفتنة في الشيطان حتى في اللحظات الأخيرة، بل في اللحظات الأخيرة عندما يحضر الإنسان الوفاة يكون أشد ما يكون حضوراً وحرصاً على الإنسان ليقول كلمةً باطلة أو مقولةً سيئة يموت عليها - والعياذ بالله -.

فيحتاج المسلم إلى آخر لحظة أن يتقي الله ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم

---

(١) رواه النسائي (٣١٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٥٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ١٨٣)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ١٧٥).

ويحافظ على إسلامه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

ثم أورد قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾؛ وانتبه أيضا في هذا السياق ما جاء في السياق الذي قبله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾؛ فالشيطان لا يريد للإنسان دخوله في السلم ومحافظته على الإسلام، بل يريد منه كفراً بالله، وتحاكماً إلى الطاغوت، وإعراضاً عن دين الله، وأن يضل الإنسان ضلالاً بعيدا؛ هذا الذي يريده الشيطان.

والسياق هنا في ذم جماعة من المنافقين ﴿يَزْعُمُونَ﴾ أي: يدّعون لأنفسهم أنهم يؤمنون بالرسول ﷺ وبما أنزل إليه، ويدّعون أيضا أنهم يؤمنون بما أنزل على الأنبياء الذين قبله؛ يزعمون أنهم مؤمنون بالقرآن وبالكتب المنزلة قبل القرآن ومع هذا الادّعاء ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: أمروا في القرآن وفي الكتب المنزلة التي يدّعون أنهم يؤمنون بها أن يكفروا بالطاغوت.

والطاغوت: مشتقٌ من الطغيان؛ وهو ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع.

فمن حكم بغير شرع الله ونصب نفسه حاكماً بغير شرع الله فهذا نوع من الطغيان.

ولا يُتحاكم إلى الطاغوت: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]. فالتحاكم إلى الطاغوت: هو التحاكم إلى غير شرع الله ﷻ؛ فكيف يجتمع دعوى الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على الأنبياء من قبله وفيه الأمر بالكفر بالطاغوت ثم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت!! كيف يجتمع هذا وذاك؟ ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

وقد ذكر العلماء في كتب التفسير[1] أن هذه الآية نزلت في رجل من المنافقين ورجل من اليهود اختصما؛ فقال اليهودي: (نتحاكم إلى محمد ﷺ) لعلمه أنه لا يأخذ الرشوة - يحكم بالعدل ولا يقبل رشوةً -، وقال المنافق: (نتحاكم إلى كعب بن الأشرف) لعلمه أنه يأخذ الرشوة، ثم اتفقا أن يتحاكما إلى كاهن أو رجل من جُهينة. فنزل قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

والعبرة بعموم اللفظ؛ فاللفظ عام، فمن ادّعى الإيمان بالله ﷻ وبما أنزل على محمد عليه السلام فليحكِّم الكتاب والسنة وليكن معوّله كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليأمِّر كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام على نفسه.

وهذا هو وجه الاستشهاد بهذه الآية للترجمة؛ الآية في التحذير من التحاكم إلى الطاغوت في مقام الأمر بالدخول في السلم كافة وترك ما سوى ذلك؛ وذلك باستجابة المرء المسلم لله ﷻ وانقياده لأمره وتحاكمه إلى شرعه وردِّه نزاعه إلى

(١) انظر: «تفسيير ابن جرير» (٨/ ٥٠٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٩٩١).

كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ، واطِّراحُ هوى النفس أو نحو ذلك من الأمور التي جعلها بعض الناس معوّلاً لهم وهجروا دين الله وكتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ الآية [الأنعام:١٥٩].**

**قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ الآية [آل عمران:١٠٦]: «تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدع والاختلاف»[1].**

## الشرح

قال: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾)؛ ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ يعني من كان هذا وصفهم وهذه حالهم: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾؛ فرقوا دينهم بسبب الأهواء التي اتّبعوها، فكلٌّ اتبع لنفسه هوى، واتخذت كل طائفة منها هواها ديناً لها فنشأ عن ذلك التفرق والتشيّع، فِرق وشيَع و ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٢٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٧٤).

﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾؛ بماذا فرقوا دينهم؟ بالأهواء، وقد جاء عن النبي ﷺ الإشارة إلى أن هذا التفرق حدث فيمن قبلنا وسيحدث أيضا في أمته ﷺ قال: «وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»، في الأهواء، فالأهواء هي سبب التفرق؛ يتخلى الإنسان عن دينه وعن كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ فيقعون في التفرق، وكل فرقةٍ لها هوى تتبعه وتميل إليه يخالف هوى الفرقة الأخرى، ولا يسْلم من هذا التفرق إلا من ترك هواه ولزم كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ؛ ولهذا من كان من أهل الأهواء فهو من أهل الفرقة شاء أم أبى.

ولهذا أصبحت الفرقة قريناً للهوى والبدعة، ولهذا يقال: «أهل البدعة والفرقة»، لأن الفرقة قرينة البدعة؛ متى وُجدت البدعة ووُجد الهوى وجدت الفرقة، ومتى وجدت السنة وُجد الاجتماع، ولهذا يقال: «أهل السنة والجماعة»؛ لأن السنة تجمع والبدعة تفرِّق، إذا وُجدت البدعة فرقت الناس.

ولهذا قال بعض العلماء في قوله ﷺ: «وَلَا تَبَاغَضُوا»[1]، فيه نهي عن البدعة، لأنها إذا وجدت وُجدت البغضة، فالبدعة تفرِّق والأهواء تفرِّق، ولا يجمع الناس إلا الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣]؛ لا يمكن أن يكون اعتصام واجتماع وترك للفرقة إلا بلزوم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

(١) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾؛ هذه الخطوة الأولى، الخطوة الثانية: ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، والخطوة الثانية ناشئة عن الخطوة الأولى؛ إذا فرّق الناس دينهم بالأهواء حدث فيهم الفرقة وحدث فيهم التشتت والتمزق وأصبحوا أحزابًا ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ فحذّر الله ﷻ من ذلك.

فأهل الأهواء ليسوا من النبي ﷺ في شيء، فهم مجانبون لطريقته، منحرفون عن نهجه، قد تخطّفتهم الأهواء وتلقفتهم الشبهات وصنوف الباطل.

والآية فيها دعوة إلى الاجتماع، وقد مر معنا في وصايا النبي ﷺ الخمس (الْجَمَاعَة)، والجماعة لابد فيها من لزوم الحق والهدى الذي بُعث به رسول الله ﷺ.

وفي الآية ذم الفرقة والافتراق والاختلاف في الدين بالأهواء والضلالات، وفيها التحذير من البدع؛ فكل ذلك تنتظم هذه الآية التحذير منه.

**(قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾)**؛ وهذا يكون يوم القيامة يوم الجزاء والحساب والوقوف بين يدي الله ﷻ ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾.

نسأل الله الكريم من فضله؛ فهذه حال الفريقين: فريق يأتي ووجهه مسود، وفريق يأتي ووجهه مبيض؛ ابيضَّ وجهه بنور القرآن ونور السنة ونور الإسلام ونور الصلاة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن

جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، «الصَّلَاةُ نُورٌ»[١]، «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا»[٢]؛ فيأتي بنور الإسلام، نور السنة، نور العبادة والعمل والطاعة، وصاحب الضلال والباطل يأتي مظلمًا، يأتي وهو يحمل ظلمة الباطل.

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾؛ وهذا البياض والسواد ناشئ عن بياضٍ وسواد أيضًا: بياض وسواد في الدنيا، فمن كان مع بياض السنة وبياض الدين: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ»[٣]، وقريبا مر معنا قول النبي ﷺ لعمر: «لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً»[٤]؛ فمن كان على هذا البياض - بياض السنة - محافظًا عليه في حياته الدنيا يأتي يوم القيامة من هؤلاء الذين ابيضت وجوههم، ومن كان في حياته الدنيا ماضيًا مع سواد البدعة وسواد الضلال فإنه يأتي يوم القيامة بهذه الحال؛ مسوداً وجهه ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ يعني يأتي مسوداً وجهه.

والبدعة تكسوا صاحبها ظلمة؛ حتى قال عبد الله بن المبارك ﵀ وهو من أجِلّة التابعين كما روى ذلك اللالكائي في كتابه: «شرح الاعتقاد»: «صاحب

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٦٥٧٦)، والدارمي في «سننه» (٢٧٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٦٧)، وحسنه ابن باز في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٦٩).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (١٥١٥٦)، وحسنة الألباني في «الإرواء» (١٥٨٩).

البدعة على وجهه ظلمة وإن ادّهن في اليوم ثلاثين مرة»[١]، يعني لو جاء بالدهون والمرطبات ودهن وجهه، الظلمة باقية، فالبدعة ظلمة على صاحبها في دنياه وأخراه، والسنة ضياء للإنسان.

وكذلك معصية الله ﷻ ظلمة ووحشة؛ ولهذا أيضا قال الحسن رحمه الله: «وَإِنْ هَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ وَطَقْطَقَتْ بِهِمْ الْبِغَالُ فَإِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ فِي رِقَابِهِمْ يَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ»[٢]، فيأتي في ذلته وقيد المعصية الذي طوقه، فهذه حال المعاصي وحال البدع وحال الضلالات مع أهلها، وأيضا تلك حال السنة والهدى والحق مع أهلها.

قال: ﴿ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ الآية، **قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والإتلاف، وتسود وجوه أهل البدعة والاختلاف**)؛ ولاحظ هنا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية؛ ﴿ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ ﴾ أي: وجوه أهل السنة؛ لماذا؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام ترك لهم السنة بيضاء نقية فأخذوا بها، فبياضهم من بياض السنة التي تمسكوا بها واعتصموا بها وحكَّموها على أنفسهم، فهذا البياض الذي كساهم هو بياض السنة ونورها وضياؤها، والنبي عليه الصلاة والسلام بعثه رب العالمين ليخرج الناس من الظلمة إلى النور: ﴿ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق:١١]، فلا ينال النور والضياء

---

(١) برقم: (٢٨٤).

(٢) «الآداب الشرعية» (١/ ١٩٧)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٣٠٢).

والبياض إلا بالسنة التي بُعث بها رسول الله ﷺ؛ فمن كان من أهلها كان من أهل هذا البياض ومن أهل النور، ومن كان من أهل البدعة والأهواء فهو من أهل الظلمة.

وأيضا تأمل في كلام ابن عباس رضي الله عنهما؛ قرن الائتلاف بالسنة والاختلاف بالبدعة، وهذا فيه فائدة: أن السنة إذا وُجدت وجد الائتلاف، والبدعة إذا وجدت وُجد الاختلاف؛ فالائتلاف قرين السنة، والاختلاف قرين البدعة؛ والسنة تجمع، والبدعة تفرق.

هنا لما يقال: سنة وبدعة، وأهل سنة وأهل بدعة، لا يُقبل في هذا الأمر مجرد الدعاوى؛ دعوى الإنسان أنه من أهل السنة مع إقامته على البدع والضلال لا يكفي، الدعاوى ما لم يقم عليها بيّنات لا تكفي، لابد من إقامة البرهان على صدق الدعوى، فمن قال أنه من أهل السنة يلزم السنة ويحكّم السنة على نفسه ويؤمِّرها على نفسه ويجعلها حاكمةً عليه؛ لا أن يجعل الهوى هو الحاكم على السنة، فلا يكفي في هذا مجرد الادِّعاء، بل الواجب أن يكون من أهلها حقـًا وصدقـًا.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلمة عظيمة في هذا الباب تبين من هم أهل السنة ومن هم أهل البدع؟ قال: «أئمة السنة تضاف السنة إليهم لأنهم مظاهر بهم ظهرت السنة، وأئمة البدعة تضاف إليهم لأنهم مصادر عنهم صدرت البدعة»؛ فمن ظهرت عليه السنة مستمسكـًا بها محافظـًا عليها معوِّلاً عليها فهو

من أهلها، ومن صدرت منه البدعة ونافح عنها ودعا إليها فهو من أهلها وإن قال عن نفسه أنه من أهل السنة، فإن مجرد الادِّعاء لا يكفي.

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

**عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».**

**فليتأمل المؤمن الذي يرجوا لقاء الله كلام الصادق المصدوق في هذا المقام خصوصا قوله: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة. رواه الترمذي(١).**

**ورواه أيضا من حديث أبي هريرة وصححه(٢) لكن ليس فيه ذكر النار وهو في حديث معاوية عند أحمد(٣) وأبي داود؛ وفيه: «إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى**

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤٠).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٩٣٧)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤١).

**بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ».**

وقد تقدم قوله: **(مُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ).**

## الشرح

ثم أورد المصنف ﷺ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وأورد أيضا شواهد الحديث عن أبي هريرة وعن معاوية ﷺ، وله شواهد عديدة عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، وهو حديث صحيح ثابت عن نبينا ﷺ ودل على معناه القرآن الكريم ومن ذلكم قول الله ﷻ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا﴾ [التوبة:٦٩].

قال: **«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ»**؛ في حديثٍ آخر قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»[(١)]؛ وفي رواية: «حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ»[(٢)] القذة: ريشة السهم، ولو جئت بريَش السهم ووضعتها وأردت أن تقارن بينها لا تجد بينها فرقًا، فقوله ﷺ: «حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ» يعني عملاً مطابقًا، ولا أبلَغ في التأكيد على المطابقة من قوله ﷺ: **«حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»**؛ علانية: يعني في قارعة الطريق أمام الناس، وهذا أمر لا

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٧١٣٥).

يخطر ببال أحد ولا يظن أحد أنه يُفعل؛ فيقول النبي ﷺ حتى هذا الأمر إن كان وُجد فيهم فسيوجد في هذه الأمة من يفعله، لأنه مطابق (حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ) هات ريش السهم وضعها أمامك وقارن بينها لا تجد بينها فرقا تجدها متماثلة متطابقة، فالأمر كذلك «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، «لَتَرْكَبُنَّ سنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، وهنا قال: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**»؛ كل ذلك قاله النبي عليه السلام.

وهنا لابد من سؤالٍ يُنبَّه به على المقصود وهو: هل ذِكر النبي ﷺ لهذا الأمر: «لَتَرْكَبُنَّ سنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»، ونظائره في السنة من الأحاديث كثير، هل هذا هو مجرد معلومة للناس يعرفونها وخبر من الأخبار يكون عندهم علم به؟ أو أن المراد التحذير؟ ولهذا قال العلماء: هذا خبرٌ خرج مخرج التحذير؛ يحذِّرنا من اتباعهم، قال لنا ذلك محذراً؛ انتبهوا، احذروا، لأنه سيوجد في الأمة إتِّباع لبني إسرائيل شبراً شبرا ذراعاً ذراعا، حتى قال عليه السلام: «**حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»؛ جحر الضب يتميز عن بقية جحور الدواب أنه جحر ملتوي ومتعرج ولا يوصَل إلى عمقه إلا بوعورة وصعوبة، فلو ركبوا ما ركبوا من الأعمال والأمور الوعرة والأشياء المستهجنة والمستكرهة؛ كل ما فعلوه سيُفعل، فكل ذلك ذكره عليه السلام ناصحًا ومحذِّرا لأمته من أن تكون حالهم كحال أولئك؛ تحذيرا للأمة.

والعاقل عندما يسمع هذا التحذير يخاف على نفسه، ولاسيما في زماننا هذا

الذي استطاع أعداء الدين المشار إليهم في هذا الحديث أن يوصِلوا أفكارهم وسمومهم وعفَنَهم وباطلهم وكفرهم ومجونهم إلى كثير من بيوتات المسلمين في قعر دورهم عبر القنوات الفضائية وعبر الشبكات العنكبوتية؛ استطاعوا أن يصلوا إلى كثير من العقول عقول الشباب والشابات في البيوت، كانوا قبل ذلك لا يصِلون إلى عقول الشباب ولا إلى عقول الشابات إلا بصعوبة؛ لكن جاءت هذه القنوات تحمل سموم هؤلاء وعفنهم ومجونهم وإلحادهم وكفرهم وضلالهم وأصبح في أبناء المسلمين من يجلس أمام هذه الشاشات الساعات الطوال يصغي إلى هؤلاء وينظر إلى أعمالهم؛ فماذا يُنتظر!! مع أيضا إعراضٍ عن السنة وإعراضٍ عن معرفة سيرة النبي ﷺ، ونشأ بسبب ذلك في أبناء المسلمين من لا يعرف عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام شيئا ولا سير أصحابه، حتى بعضهم لو قيل له: من هم الخلفاء الراشدون الأربعة؟ لا يعرف، وفي الوقت نفسه يعرف أسماء كثيرة من أسماء أولئك وأعمالهم وأوصافهم.

فهذه من المصائب العظيمة التي وُجدت في هذا الزمان، ونبينا عليه الصلاة والسلام حذّر من ذلك أشد التحذير.

وتزايدت في هذا الوقت مع القنوات الفضائية والشبكات العنكبوتية الإنترنت، فتلوثت الأفكار والعقول وأشربت بالفتن والشهوات بسبب هذه القنوات وتلك المجالات التي فُتحت على الناس وهي أبواب شر.

قال ﷺ: **(لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ)**؛

انظر قبل قليل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة:١٦٨]؛ الشيطان خطى بأولئك خطوات -أعني بني إسرائيل- وخطَوْها هم اتباعًا للشيطان، خطى بهم خطوات إلى ماذا؟ إلى الكفر، إلى الضلال، إلى الباطل، إلى المعاصي، والخطوات نفسها أيضًا يريد الشيطان أن يخطو الناس بها في أمة محمد ﷺ، ونبينا ﵇ قال هنا: (**حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**) يعني الخطوات التي خطوها أولئك إتباعًا للشيطان سيوجد في أمة محمد ﷺ من سيخطوها كما خطاها أولئك إتباعًا للشيطان ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩]، يخطو الإنسان خطوات أولئك، ويخوض خوضهم، ويفعل فعلهم، سيوجد في الأمة من يكون ذلك، كل ذلك يقوله نبينا ﷺ نصحًا وتحذيراً، وفي أحاديثه في هذا السياق أعطانا أمثله تبين وتؤكد؛ هنا قال: (**حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**)، وفي الحديث الآخر: (**حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّة**) وفي الحديث الآخر: (**شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**)يعني جميع خطواته بالتفصيل بالدقة؛ (**شبراً شبرا، ذراعًا ذراعًا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**) يعني لو فعلوا وساروا مسارات ملتوية وباطلة أيضا يوجد من يسير مسارهم ويسلك مسلكهم، (**لتركبن سنن من كان قبلكم**).

قال: (**حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ** - يعني من بني إسرائيل - **مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً**) يعني جاء أمه على قارعة الطريق (**كَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ**) أي: كل ما يفعله أولئك يوجد في الأمة من سيفعل ذلك.

العاقل عندما يسمع هذا الكلام يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستعيذ بالله

ﷻ من أن يكون على نهج أولئك وعلى طريقتهم، ويخاف على نفسه.

وبعض الناس قد يسمع هذه الأحاديث ويكون قد وقع في اتِّباعٍ لبني إسرائيل في أمور كثيرة ويظن أن هذا الحديث لا يعنيه، ويحاول أن يلتمس لنفسه مبررات فيما يصنعه من أعمال، والواجب على الإنسان أن يحكِّم السنة على نفسه، لا أن تكون نفسه مالت إلى أمرٍ معيّن وهواه مال لأمر معيّن فيحاول أن يوجِد لنفسه مبرراً.

قال ﷺ: (**وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**)؛ تفرقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة، هذا التفرق سببه الأهواء، ولهذا في حديث معاوية الذي أشار إليه المصنف ولم يذكر لفظه قال: (في الأهواء)؛ تفرقوا في الأهواء: يعني كل منهم اتبع هواه وجعل هواه ديناً له ولم يحكِّم شرع الله ﷻ، والأهواء ليست هوىً واحداً، الأهواء متعددة، ولهذا إذا حُكِّمت الأهواء تنوعت العقائد والأديان لأن الأهواء مختلفة، وإذا حُكمت العقول تنوعت العقائد والأديان، ولهذا قال بعض السلف قديماً: «لو كانت هذه الأهواء كلها هوى واحدا لقال القائل الحق فيه»[(١)]؛ ولكنها أهواء، وعليه فإن تحكيم الأهواء يُنشئ التفرق.

قال: (**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً** -أي بسبب الأهواء- **وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً**).

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣١٢).

(كُلُّهُمْ فِي النَّارِ): وهذا وعيد ذكَره النبي ﷺ، وإلحاق الوعيد بالمعيّن لابد فيه من شروط، وله موانع، فلا يُلحق الوعيد بمعيّن، وفرْقٌ بين التعميم والتعيين في مثل هذه الأحكام؛ فكلهم في النار هذا حكمهم، لكن إلحاق الوعيد بأصحاب البدع أو بأصحاب الفِرَق ممن لم يصل الأمر بهم إلى الانتقال من الملة والخروج من دين الإسلام هذا متوقف على وجود شروط وانتفاء موانع.

قال: (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ).

والمراد بقوله: (وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي): أي أمة الإجابة، ليس المراد أمة الدعوة، يعني من استجابوا للرسول ودخلوا في الإسلام يفترقون إلى هذا العدد من الافتراق ثلاث وسبعين فرقة، قال: (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ) أي: هذا حكمهم؛ كلهم في النار، لكن إلحاق الوعيد بالمعيَّن هذا يحتاج إلى ضوابط معلومة عند أهل العلم.

قال: (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟) هذا السؤال طرحه الصحابة ﷺ. لماذا هذا السؤال؟ ما الدافع إليه؟ ما الباعث إليه؟ هذا سؤال من يريد لنفسه النجاة، عندما يسمع أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة يبحث عن طريق النجاة، فلما ذكر لهم ﷺ هذا الخبر قالوا: (مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟)؛ لاحظ هنا أن الصحابة ﷺ يدركون الأمر الذي سبقت الإشارة إليه وهو أن هذا الخبر خرج مخرج التحذير؛ أي أنه قال ذلك محذِّراً، فلما قال لهم ذلك محذرا قالوا (مَنْ هِيَ؟) يعني الفرقة الواحدة هذه؟.

والعلماء أخذوا من هذا الحديث لقباً أضيف إلى ألقاب أهل السنة وهو «الفرقة الناجية»؛ أهل السنة والجماعة: الفرقة الناجية، ولهذا شيخ الإسلام ابن

تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ كتابه «العقيدة الواسطية» بقوله: «وبعد؛ هذا اعتقاد الفرقة الناجية»[(١)] من أين أخذ قوله: «الناجية»؟ من قول النبي ﷺ: «كلهم في النار إلا واحدة»؛ فهذا فيه إشارة إلى النجاة.

(**إِلَّا وَاحِدَةً، قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟**) يعني من هي هذه الفرقة الواحدة الناجية؟ ما صفتهم؟ ما حليتهم؟ ما علامتهم؟ ما أمارتهم؟ أذكرها لنا.

فقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**)؛ يعني من كان على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو من هؤلاء الناجين، ولهذا مر معنا سابقًا قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما لم يكن دينًا زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون اليوم دينا)، ولن يكون دينًا إلى أن تقوم الساعة؛ الدين ما كان عليه محمد ﷺ وصحابته الكرام، «ما أنا عليه وأصحابي»، فالفرقة الناجية هم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام.

مثل هذا الحديث تمامًا يطابقه حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: وَعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنهَا الْقُلُوبُ، فقلنا: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا؛ فَقَالَ: (أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِى فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيراً»[(٢)]؛ قوله: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيراً» هذا مطابق لقوله:

---

(١) «العقيدة الواسطية» (ص٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح =

«**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فرقة**»، وهناك قال: «**سَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيراً سيرى اختلافًا كثيرا**»، يعني تفرقًا كثيرا ذكر عدده في الحديث الآخر قال: «ثلاث وسبعين فرقة»، ما هو المخرج؟ ذكَره ﷺ دون أن يُسأل عنه، المخرج هو نفس المخرج في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»، فأرشد ﷺ إلى المخرج.

ولهذا حديث العرباض يصلح شاهداً لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه ذكر الافتراق الكثير وذكر المخرج منه؛ وهو أن يكون المسلم على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

ولما ذكر الخلفاء وصفهم بصفتين: «الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ»؛ الرشاد والهداية، وبهذين الوصفين وصف الله سبحانه وتعالى نبيه في أول ﴿سورة النجم﴾ قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم:٢]؛ نفي الضلال فيه إثبات الهداية، ونفي الغواية فيه إثبات الرشاد، فوصَف النبي ﷺ خلفاءه بهاتين الصفتين اللتين وصفه الله سبحانه وتعالى بهما في القرآن الكريم، والمهتدي: هو من عرف الحق، والراشد: هو من عمل به.

وقوله ﷺ: «الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ»، فيه تنبيه على صلاح العلم وصلاح العمل؛ صلاح العلم بوصفهم بالاهتداء، وصلاح العمل بوصفهم بالرشاد، فالمهتدي هو من عرف الحق وهُدي إليه، والراشد هو من لزم الحق

---

التَّرغيب» (٣٧).

وعمل به؛ فوصفهم بهاتين الصفتين: صلاح العلم، وصلاح العمل.

قال ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ»؛ إذاً سبيل النجاة من هذا الافتراق والاختلاف وهذه الضلالات: أن يلزم الإنسان ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام.

قال المؤلف ﵀ ناصحًا: (**فليتأمل المؤمن**) أي: ليطل النظر والتدقيق والتفكر في هذا الأمر.

(**فليتأمل المؤمن الذي يرجوا لقاء الله كلام الصادق المصدوق في هذا المقام**)؛ يعني دقق النظر وأعد النظر وتفكر في هذا الأمر الذي ذُكر لك (**وخصوصًا قوله: ما أنا عليه وأصحابي**) قف عند هذه متأملاً، يعني تأمل في أمرين ذكرهما النبي ﷺ:

١- **الأمر الأول**: أن الافتراق سيوجد وبكثرة في الأمة، وكان قبل هذا قال: (لتأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل) فلينتبه الإنسان لذلك تماماً.

٢- **ثم لينتبه في الوقت نفسه أنه لا نجاة من هذا كله إلا بطريق واحد** وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فيبدأ يحاسب نفسه على هذا الأساس؛ ما حظه مما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام؟.

قال: (**يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة**) هذا الإمام ﵀ - أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - كم اتِهم اتهامات هو بري منها براءة

الذئب من دم ابن يعقوب عليهما الصلاة والسلام!! ولم يكن يومًا ما يدعو لنفسه، يكفيك أن تقرأ هذه الكلمات التي نحسب أنها نابعة من قلبٍ صادق، ما يدعو إلى نفسه؛ يدعو إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، لم يخترع أعمالاً هو من نفسه يدعو الناس إليها كما هي حال أهل الطرق وأهل الضلال وأهل البدع والخرافات، لم يدعو يوما من الأيام إلى شيء يخصه هو أو يتعلق بشخصه، وهنا يتكلم بحرقة وبألم وبنصح وبدعوة يقول: (**فليتأمل**) ثم يقول: (**يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة**)؛ فما كان رحمه الله داعية إلا إلى ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام.

وفي كتابه «التوحيد» لما أورد قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، قال: (التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرا من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه)[١]، فهو ما كان يدعو إلى نفسه ولكن خصومه وأعدائه من أهل الباطل لقّبوه وأتباعه بالوهابية تنفيراً عن الحق، وأخذوا يفترون عليه الكذب، وقال بعضهم فيه أنه لا يصلي على الرسول ﷺ، وقال بعضهم أنه يشتم آل البيت، وقال آخرون فيه مقالات كثيرة هي كذب عليه؛ كل ذلك من أجل التنفير، وهذا الأمر فُعل مع دعاة الحق ومع الأنبياء، والد حكيم مر معنا حديثه قريبا؛ بهز بن حكيم روى حديثًا عن أبيه عن جده قال: «والله يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ عَدَدَ أَصَابِعِي هَذِهِ أَنْ لَا آتِيَكَ»؛ لماذا

---

(١) «كتاب التوحيد» (ص٢٨).

هذه الحلوف وهذه الأيمان عدد الأصابع أن لا يأتيه؟ بسبب الدعاية المغرضة، تُبث دعاية مغرضة فينفر الناس، من يُقبَل كلامه إذا كان والعياذ بالله يشتم آل البيت!! أو لا يصلي على النبي ﷺ! أو لا يحب الرسول ﷺ أو لا يحب الأولياء! لا نحسب مسلمًا هذه صفاته فضلاً عن عالم وإمام من أئمة المسلمين، ثم تُلصق هذه المفتريات به فيقولون لا يحب الرسول ﷺ!! ويقولون يشتم آل البيت!! ويقولون لا يصلي ولا يسلم على رسول الله!! هذه أمور لا يوصف بها آحاد من المسلمين فضلاً عن أن يوصف بها علَم من الأعلام وإمام من الأئمة وأحد أكابر المسلمين وعلمائهم، لكن هذه الدعايات المغرضة يبثها أعداء الدين للصد عن الحق وعن الهدى، فهو يومًا من الأيام ما دعا إلى نفسه، حتى أتباعه أو الذين استفادوا من كتبه لم يدعو يومًا إليه وإنما يدعون إلى سنة النبي ﷺ، ولا سمعنا أحداً من الأشياخ والعلماء يقول: (كونوا من الوهابيين) ما سمعنا ذلك، الذي نسمعه دائما: (عليكم بالسنة)، هذا الذي أوصى به هذا الإمام وأوصى به تلاميذه وأوصى به جميع علماء المسلمين، وانظر إلى دعوته هنا يقول: (**فليتأمل المؤمن الذي يرجو لقاء الله كلام الصادق المصدوق في هذا المقام خصوصا قوله «ما أنا عليه وأصحابي» يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة**)؛ القلب تصيبه حياة ويصيبه موات، وإذا كتب الله له حياةً أبصر الطريق وما لجرحٍ بميّتٍ إيلام؛ الميت لا يستفيد منه، لكن الحي إذا كان القلب حيًا عرف الطريق وعرف الجادة وانتفع بما يُلقى إليه من الخير

والعلم.

**(رواه الترمذي** - أي هذا الحديث - **ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة وصححه لكن ليس فيه ذكر النار)**؛ أي ليس فيه: (كلها في النار إلا واحدة)؛هذه الزيادة ليست عند الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لكن ثابتة في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وفي حديث معاوية رضي الله عنه، وفي أحاديث أخرى جاءت في هذا المعنى.

قال: **(وهو في حديث معاوية)**؛ يعني هذا القول «كلها في النار إلا واحدة» هو في حديث معاوية رضي الله عنه **(عند أحمد وأبي دواد، وفيه)** يعني حديث معاوية رضي الله عنه زيادة على هذا؛ يعني حديث معاوية رضي الله عنه فيه: (افترقت اليهود على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة) وفيه زيادة أشار إليها المصنف.

قال: **(وفيه أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ)**؛ «تلك الأهواء» إشارةً إلى ماذا؟ إلى الأهواء التي أوجدت الافتراق، لأنه قال: (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء) يعني بسبب الأهواء التي اتبعوها، عقب ذلك قال: **(وإِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ)**؛ معنى تتجارى: أي تدخل فيهم وتسري في أبدانهم إلى الأعماق.

ضرب لنا مثالاً قال: **(كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ)**؛ الكلَب: هو داء يصيب

الإنسان بسبب عضة الكلْب الكلِب، فالكلْب الذي به هذا المرض الكلَب إذا عض الإنسان - والعياذ بالله - في موضع من بدنه يسري أثر هذه العضة إلى البدن كله ويدخل في البدن كله، يعني لا يستقر ألم هذه العضة وأثرها على موضع العضة؛ وإنما يسري في البدن كله، ويُنشئ في الإنسان - والعياذ بالله - اختلالاً في عقله وفساداً في فكره وجنوناً وخبَلاً، وفي الغالب أنه لا ينتهي به الأمر إلا بالموت على إثرها؛ يعني يضطرب البدن ويختل ويسري فيه كله ويؤثر حتى على عقله فيختل ويُجن وتكون النهاية في ذلك هي الموت، هذا داء الكلَب، وهو معروف، داء يعرفونه.

فالنبي ﷺ ضرب مثالاً ليتضح به هذا الأمر قال: (**تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ**)؛ يعني تدخل فيهم الأهواء وتسري في أعماقهم: (**كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ**)؛ يعني كما يدخل الكلَب بصاحبه ويتعمق فيه ويُفسد عليه بدنه كله بما فيه عقله وفكره.

وهذا شأن الأهواء تدخل الإنسان رويداً رويدا، تدريجاً تدريجا إلى أن تتعمق فيه وتغطي فكره ويصبح لا يرى إلا ما يملي عليه هواه، تأتيه السنة الواضحة والحجج البينة فيأبى؛ لأن الهوى سيطر عليه وملأ جوانحه ومُلئ به من الداخل وتجارت به الأهواء وأصبحت تعصف به في كل وادٍ من أودية الضلال والباطل.

كان يكفي في معرفة هذا الأمر قوله: (**كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ**)؛ الكلَب

داء معروف تعرفه العرب ويعرفون أنه إذا أُصيب به الإنسان تجارى به بحيث يصل إلى جميع بدنه، فلم يكتفِ ﷺ بل زيادة في البيان قال: (**فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**)؛ يعني إلا دخله هذا الهوى مثل ما يتجارى الكلَب بصاحبه حتى يصل كل عرق وإلى كل مفصل من الإنسان، وهنا تكون مصيبة الإنسان عظيمة جداً؛ إذا انتشر الهوى في بدنه كله وتجارى به الهوى حركة يده عندما تتحرك تكون تحركت بالهوى، قدمه إذا خطَت خطت بالهوى، عينه إذا نظرت بالهوى، أذنه إذا سمعت بالهوى، أصبح كل بدنه يحركه الهوى، في خطواته، في أخذه، في عطائه، في ذهابه، في رواحه، في جميع حركاته الذي يحركه هو الهوى الذي تجارى به وسرى في بدنه ودخل في أعماقه.

والنبي ﷺ قال ذلك محذراً قال: (**إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**)، فنسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يحفظنا أجمعين.

ثم قال: (**وقد تقدم قوله** - أي قول النبي ﷺ: **ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية**)؛ في الحديث المتقدم: (أبغض الناس إلى الله ثلاثة - وذكر منهم - مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية) أي: من يطلب ويريد في الإسلام سنة الجاهلية، ما هي سنة الجاهلية؟ أي: طرائقهم وأعمالهم؛ هذا الذي قاله النبي ﷺ: (ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية) إشارة إلى أن هذا سيوجد أو أنه لن يوجد؟ سيوجد، فساقه المصنف رحمه الله لأنه مطابق لقوله: «لتركبن سَنن من كان قبلكم»؛ بمعنى أنه

سيوجد من يفعل سنة الجاهلية، وسيوجد أيضا من يدعو إلى سنة الجاهلية، وعرفنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ المتقدِّم أن سنة الجاهلية تتناول ما كان عليه المشركين وما كان عليه اليهود والنصارى، وقد مر معنا كلامه ﵀ سابقًا فليراجَع.

وعلى كل حال؛ سنة الجاهلية: ما عليه اليهود ما عليه النصارى ما عليه المشركين؛ وكل هذه الأعمال سيوجد في الأمة من يطلبها ويبتغيها ويريد أن يسنها في الإسلام، وهذا من الثلاثة الذين هم أبغض الناس إلى الله ﷻ كما مر الحديث بذلك.

فهذا الحديث ونظائره مما ذكره المصنف ﵀ وما لم يذكره في هذا الباب، والأحاديث في هذا الباب كثيرة كلها تجعل المسلم ينتبه ويحذر غاية الحذر؛ في باب العقائد وهي أهم ما يكون، وفي باب العبادات، وفي باب الأخلاق والمعاملات، فيحذر على نفسه وعلى أهله وعلى ولده وعلى بيته من أن تكون حاله من حال هؤلاء الذين ذمهم النبي ﵊.

وهذه الأمور توجد في الناس بسبب قلة العلم أو فساد القصد؛ إذا كان الإنسان قليل العلم في الدين ومعلوماته الشرعية قليلة فإنه قد تدخل عليه هذه الأمور.

ولنختم هنا حديث أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﵁ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ

اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ هَـذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١)، أي: يمكثون عندها وقتًا طويلاً «وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ» أي: يعلقون أسلحتهم على تلك الشجرة التماسًا للبركة، حتى تبارك الأسلحة بتعليقها على تلك الشجرة: «فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» اختر لنا شجرة مثلهم نعكف عندها ونعلّق عليها أسلحتنا للبركة.

أبو واقد ﵁ يعتذر عن هذا الكلام الذي قالوه بقوله: «كنا حدثاء عهد بكفر» يعني مسلمين جُدد، فقلة العلم بالدين وبتفاصيله ينشأ عنها هذا وأمثاله، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ»، وفي رواية قال: «سبحان الله»؛ سبح الله وعظّمه وكبّره عن هذه المقالة العظيمة الخطيرة، قال: «اللهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ»، ماذا تعني هذه الكلمة «إنها السنن»؟ (لتتبعن سَنن من كان قبلكم) هي سنن ماضية باقية في الناس: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ.. »(٢) في سنن باقية، (اللهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بنو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، قلتم مثلهم! وهذا

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).

(٢) رواه مسلم (٩٣٤).

معنى قول الله في الآية: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ هذا عام؛ كل ما يفعله الناس مما كان يفعله من قبلهم من ملل الكفر خوضٌ في الذي خاض فيه أولئك، فلينتبه العاقل كما قال المصنف رحمه الله «**فلينتبه وليحذر**»، قال عليه الصلاة والسلام: (**لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**) يعني لتركبن الطريق الذي ركبه من كان قبلكم.

وإذا كان هؤلاء الصحابة الذين هم حدثاء عهد بكفر وهم يمشون مع النبي صلى الله عليه وسلم جنبًا إلى جنب وبأيديهم السلاح وماضون لمقاتلة المشركين ويقولون: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» فما لكم بمن بعدهم؟! إذا كانت هذه المقالة بسبب الجهل بالدين وقعت من هؤلاء وهم يمشون مع النبي عليه الصلاة والسلام جنبا إلى جنب؛ فما بالكم في مثل هذه الأزمان المتأخرة التي قلّ فيها العلم، وقلّت الدراية بالسنة، وقلّ نصيب الناس من السنة!! هؤلاء يمشون جنبًا إلى جنب مع النبي صلى الله عليه وسلم ومتجهين بأيديهم السلاح وماضين لقتال المشركين ويقولون: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»!! خصص لنا شجرة نعكف عندها ونعلق عليها أسلحتنا للبركة، فيقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعلنا إلها كما لهم آلهة)؛ إذا كان هذا وجد في هؤلاء وهم في هذا المقام العظيم فكيف بمن بعدهم مع قلة العلم وقلة السنن!!

وهذا يبين لنا سبب انتشار الخرافات والباطل والشركيات والضلالات بين الناس وضياع الدين.

والواجب على العاقل أن ينصح لنفسه وأن يتأمل هذه الأحاديث العظيمة التي ساقها المصنف رحمه الله في هذا الباب، وأن يحقق الترجمة التي عنوَن المصنف ناصحًا وموردًا تحتها هذه الأحاديث بقوله رحمه الله «باب وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه».

هذه نصيحة بليغة من المصنف رحمه الله، وهي دعوة إلى الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه من هذه الأهواء والتشبهات والضلالات والشركيات والخرافات والبدع، كل هذه ليست من الإسلام؛ الإسلام: ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه، وما لم يكن دينًا زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون دينًا إلى أن تقوم الساعة.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

## باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦،٤٨]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام:١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل:٢٥].

## الشرح

قال المصنف رحمه الله وغفر له: **(باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر)**؛ الأبواب

الماضية اشتملت على تحذيرٍ بالغ من البدعة وبيانٍ لخطورتها، وقد مر معنا قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥]، كذلك قول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، ولكن أراد المصنف ﵀ بعقده لهذه الترجمة أن يزيد في بيان هذا الأمر والتحذير من البدع المحدثات التي هي ليست من دين الله ﷻ؛ وإن كان فاعلها يفعلها تدينًا وتقربًا إلى الله ﷻ إلا أنها ليست من دينه ولا يقبلها الله ﷻ من فاعلها، لأن شرط قبول الدين: أن يكون لله خالصًا وللسنة موافقًا، فإن لم يكن كذلك فهو مردود على فاعله غير مقبولٍ منه.

والبدعة: هي الحدَث في دين الله ﷻ، كما قال ﷺ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)(٢)، والحدَث في الدين سواءً كان في باب العقيدة أو في باب العبادة والعمل يعدّ بدعةً ويعدّ حدَثًا في دين الله ﷻ، وهو مردود على صاحبه غير مقبول منه؛ فكل عقيدةٍ ليست في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهي بدعة ضلالة، وكل عملٍ يُتقرب به إلى الله ﷻ وليس في نصوص الشرع دلالة على مشروعيته سواءً استحبابا أو وجوبًا فهو بدعة ضلالة، والبدع تكون في الاعتقاد وتكون في الأعمال، ومن أحدث في دين الله ﷻ ما ليس منه سواءً في باب العقيدة أو في باب العمل والعبادة فهو بدعة ضلالة.

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وقد تنوعت البدع الضالة التي أحدثها الناس في باب الاعتقاد وفي باب العمل، وكلها تنشأ عن الأهواء الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان، قد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، فكل من لم يلزم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهو متّبعٌ للهوى؛ وهذه قاعدة دلت عليها الآية المتقدمة؛ كل من لم يتبع الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ فهو متبعٌ هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

البدعة تكون في جانب الاعتقاد وتكون في جانب العمل.

البدعة قد تكون أيضا بدعةً حقيقية بمعنى أنها لا أصل لها مطلقـًا في شرع الله سبحانه وتعالى، وتارةً تكون بدعة إضافية بمعنى أن لها شائبتين: شائبة من جهة الشرع، وشائبة مما لا أصل له في الشرع؛ وهذه بدعة إضافية، كأن يأتي المتعبِّد لعبادةٍ مشروعة فيوظفها في كمِّها أو كيفها في أوقاتٍ مخصوصة على غير ما شرع الله سبحانه وتعالى، ومن خصَّص فقد شرع؛ من خصَّص ما لم يشرعه الله بوقتٍ أو بحالٍ أو عمل فقد شرع في دين الله سبحانه وتعالى ما لم يأذن به الله جل وعلا[1].

---

(١) والإمام الشاطبي رحمه الله فصل في هذا التفريق؛ ومما ذكره: «وأما البدعة الإضافية فهي التي لها شائبتان: إحداهما لها من الأدلة متعلق، فلا تكون من تلك الجهة بدعة.

والأخرى ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية، فلما كان العمل الذي له شائبتان لم يتخلص لأحد الطرفين وضعنا له هذه التسمية وهي البدعة الإضافية أي: أنها بالنسبة إلى إحدى الجهتين =

والبدعة شأنها على الإنسان خطيرٌ جداً؛ لأن الإنسان يقوم بها ويظن أنها تُدْنيه من الله وتقرِّبه منه وأنها عملٌ صالح يحبه الله ﷻ، بخلاف المعصية؛ المعصية فاعلها يعلم من نفسه أنه على معصية وأنه على ذنب ولكن شهوته تغلبه، ويمارس شهوته أو المعصية وهو يعرف أنه مذنب، بينما المبتدع صاحب البدعة يمارسها وهو يظن أنه على سنة وأنه على هدى وعلى خير وعلى عمل صالح يحبه الله ﷻ، ولهذا البدعة أخطر من المعصية، وهذا ما ترجم المصنف واستدل له بآيات وأحاديث قال: (**باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر**)، جاء عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يُتاب منها»[1]، ومعنى قوله «البدعة لا يُتاب منها»: أي أن صاحبها يرى أنها دين وشرع فلا يتوب منها بل يدافع عنها ويسعى في نشرها، بينما المعصية يتاب منها لأن صاحبها يرى أنه عاصٍ وأنه مذنب ويندم كثيراً على فعله لها؛ فهو قريب من التوبة، بينما المبتدع بعيد من التوبة لأنه لا يرى نفسه أصلاً مذنباً وإنما يرى نفسه على سنة وعلى حق وعلى صواب، ولو

---

سنة لأنها مستندة إلى دليل، وبالنسبة إلى الجهة الأخرى بدعة لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل، أو غير مستندة إلى شيء.

والفرق بينهما من جهة المعنى، أن الدليل عليها من جهة الأصل قائم، ومن جهة الكيفيات أو الأحوال أو التفاصيل لم يقم عليها، مع أنها محتاجة إليه لأن الغالب وقوعها في التعبديات لا في العاديات المحضة» «الاعتصام» (١/ ٢٢٦).

(١) «أحاديث في ذم الكلام وأهله» (٩١٤)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة » (٢٣٨).

قيل له هذا خطأ أو هذا ليس من دين الله لغضب ولما قبِل، لأنه يرى أن العمل الذي يمارسه من الدين ومن شرع الله ﷻ، ولهذا قال: «البدعة لا يُتاب منها والمعصية يتاب منها» لأن صاحبها يرى أنه على سنة وعلى حق وعلى صواب.

والمصنف رحمه الله هنا يقول: (**أن البدعة أشد من الكبائر**)؛ البدعة التي هي حدَث في دين الله ﷻ أشد من الكبيرة[1]؛ الكبيرة يتاب منها وصاحبها في الغالب الأعم يعلم أنه مذنب وأنه مقصر في جنب الله وأنه مرتكب لإثم وخطيئة، يعلم ذلك لكن تغلبه شهوته، بينما المبتدع لا يرى أنه على خطأ بل يرى أن العمل الذي هو عليه هو الصواب.

فهي أشد من هذه الجهة؛ من جهة أن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها، وهي أشد من جهة أخرى أنها إحداثٌ في دين الله ما ليس منه، أما المعصية لم يحدِث في الدين وإنما عصى الله ﷻ بفعله للذنب، والحدَث في دين الله شأنه خطير لأنه قولٌ على الله وفي الله بغير علم ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]؛ فهذه خطورة للبدعة وأنها أكبر من الكبائر.

وأيضا البدعة أكبر من الكبائر لأن البدعة - كما يقول أهل العلم - بريد الكفر وبريد الشرك بالله ﷻ[2]، لأن المبتدع فتح لنفسه باب الحكم في دين الله بغير شرع

---

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعريف الكبيرة: «كُلُّ ذَنْبٍ خُتِمَ بِلَعْنَةٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ نَارٍ فَهُوَ مِنْ الْكَبَائِرِ» «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٥٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩٧).

الله، وإنما يحكم في دين الله بهواه وبما لم يأذن به الله ﷻ، وهذا بابٌ يفضي به إلى الكفر والشرك بالله ﷻ، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ الحكم الكوني والقدري والشرعي والجزائي لله ﷻ ليس له شريك في ذلك، فمن ترك شرع الله إلى المحدثات فهذه خطورة بالغة أشد من مجرد فعل الكبيرة أو المعصية.

فالبدعة أشد من الكبيرة من وجوه عديدة، والمصنف ﵀ عقد هذه الترجمة في كتابه «فضل الإسلام» تحذيراً من البدع لأنها ليست من الإسلام، والله ﷻ لا يقبل إلا الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، البدع ليست من الإسلام، ليست من دين الله، والله ﷻ لا يقبل إلا الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩].

ثم أورد أول ما أورد ﵀ من أدلة لهذه الترجمة قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ وتصدير المصنف لدلائل أو لبيان أن البدعة أشد من الكبيرة بهذه الآية التي تبين خطورة الشرك في دين الله ﷻ لأن:

- البدع منها ما هي بدع شركية؛ يمارسها المبتدع وهي شرك بالله ﷻ، كقصد القبور بالعبادة والتبرك وطلب المدد والنذور والطواف وغير ذلك من القرب التي هي لله وحده ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.
- ومن البدع ما هي وسائل للشرك بالله ﷻ؛ كالبناء على القبور، قال ﵊: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا

صَنَعُوا»[١]، أو الصلاة إلى القبور أو إسراجها أو غير ذلك من البدع التي هي وسائل مفضية إلى الشرك بالله ﷻ.

بل البدع بعامة بريد للشرك؛ لأن المبتدع فتح لنفسه باب التفلت من الاستسلام لله بما شرع إلى ممارسة الأهواء والبدع، ولأجل ذلك صدَّر المصنف ﵀ هذه الترجمة بهذه الآية الكريمة التي تحذِّر من الشرك، لأن البدعة إما شرك بالله ﷻ أو مفضية إلى الشرك بالله والكفر به ﷻ، قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وكذلك أيضا التصدير بهذه الآية فيه إشارة إلى ما دل عليه قول الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، وهذا نوع من الشرك بالله ﷻ.

فهذه الآية فيها تحذير من البدع وبيانٌ لخطورتها، ومن المعلوم أن أعظم الذنب الشرك بالله ﷻ، وقد سئل ﵊: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[٢]؛

والمصنف ﵀ استدل بالآية هنا على خطورة البدعة وأنها أشد من المعصية لأن البدعة إما هي في ذاتها شركٌ بالله ﷻ، أو أنها مفضية إلى الشرك؛ والشرك أعظم الذنوب وأخطرها، ولهذا لا تقارن البدع بالمعصية، البدعة أشد وأخطر على صاحبها من المعصية.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

وهنا ينبغي أن يلاحظ أن هذا الكلام لا يعني التقليل من المعاصي والتهوين من شأنها، المعاصي خطيرة وخطرها بالغ؛ لكن معرفة الإنسان لتفاوت المعاصي فيه فائدة له في الحذر من المعاصي كلها، ولهذا كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن التفاوت بين المعاصي والذنوب؛ «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟»؛ هذا باب من الفقه مهم، ولولا أهميته لما سأل عنه الصحابة ولما أجابهم عنه الرسول ﷺ، فهذا بابٌ عظيم من الدين لا بد من فهمه، وعندما يختل فهم الناس لهذا الباب ترى فيهم من يمارس معصية أعظم ويتورع عن معصية دون ذلك، يتورع عن دم البعوض ولا يتورع عن قتل مسلم بغير حق، عندما يختل فهم الإنسان لفهم تفاوت الذنوب وعظم جرمها وتفاوتها في ذلك تجد من الناس من يتورع عن معصية هي من صغائر الذنوب ولا يتورع عن الشرك مثلا أو عن بدعة من عظائم البدع، ولهذا هذا الباب من العلم في غاية الأهمية؛ «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟» هكذا سأل الصحابة رسول الله ﷺ، وهم لم يسألوا هذا السؤال من أجل الاستهانة بالأصغر أو الأقل إثمًا؛ ليس هذا القصد، وإنما من أجل معرفة الأخطر ليزداد البعد عنه.

**ولهذا أعيد ما سبق وهو**: أن ذِكر أن البدعة أشد من المعصية لا يعني بأي حال التقليل من المعاصي، المعاصي خطيرة، ولكن يُقصد منه مزيد الحيطة والحذر من البدع التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان.

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى

ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾؛ وهذا أيضا مما يبين خطورة البدعة والحدث في دين الله ﷻ، لأن الله ﷻ حكم على هؤلاء بأنه لا أحد أظلم منهم، والاستفهام في هذه الآية بمعنى النفي؛ قوله تعلى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كانت هذه صفته وهذه حاله؛ يفتري على الله الكذب ليضل الناس بغير علم؛ يفتري على الله ويفتري على رسول الله ﷺ ويقول هذا حلال وهذا حرام وهذا مشروع وهذا من الدين وهذه من القرب كذبًا وافتراءً على الله ﷻ وقولاً عليه ﷻ بغير علم.

والقول على الله ﷻ بغير علم أعظم المحرمات وأخطرها وأشدها إثمًا في جميع الشرائع المنزلة، أخطر الذنوب القول على الله بلا علم، ويدخل في القول على الله بغير علم الشرك والبدع؛ كل ذلك من القول على الله وفي الله وفي دينه بغير علم.

قال: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾؛ ليضلهم: أي عن دينهم الذي شرعه الله، وليخرجهم من الإسلام إلى نقيضه من الشرك وأنواع الضلالات.

وكم من مفتريات افتُريت على رسول الله ﷺ ترويجًا للباطل، وأعظم ما افتُري على الرسول ﷺ مفتريات يروّجها بعض أئمة الباطل ودعاة الضلال فيها ترويجٌ للشرك الذي أمضى ﷺ حياته كلها في محاربته، ومن أشنع ذلك وأفظعه قول أحدهم كاذبا مفتريا على رسول الله ﷺ زاعمًا أنه ﷺ قال: «إذا أعْيَتْكم

الأمور فعليكم بأهل القبور»؛ ينسب ذلك كذبًا وافتراء إلى رسول الله ﷺ ليروِّج الشرك الذي هو أعظم الذنوب بالكذب على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وآخر يكذب عليه أنه قال: «من اعتقد في حَجَر نفَعَه»؛ وهذا كله من كذب عبَّاد الأصنام أهل الشرك بالله تبارك وتعالى؛ ترويجا لباطلهم وضلالهم، وهذا كله مما يبين لنا خطورة البدع وأنها فتْح باب شر على الناس وفي دين الله سبحانه وتعالى لأنها تُلصَق بالدين ويعدُّها أربابها ومن تُرَوِّج عندهم جزءً من دين الله سبحانه وتعالى، ويمارسونها على أنها دين وقربة يتقربون بها إلى الله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ والعلم: قال الله، قال رسوله ﷺ.

ثم أورد قول الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وهذه أيضا من أخطر ما يكون في بيان حال أهل البدع ودعاة البدع وأئمة الضلال؛ فالداعي إلى الضلال يحمِل إثم نفسه فيما يمارسه من بدع وضلالات، ويحمل إثم أتباعه ومن أضلّهم بغير علم، فهو يحمل وزر نفسه ووزر أتباعه، وليس فقط وزر أتباعه الذين تلقوا عنه مباشرة، بل يحمل وزر الأتباع، وأتباع الأتباع، وأتباعهم إلى يوم القيامة، وهذا من أخطر ما يكون، يلج الداعية إلى الضلال قبره ويُدرج في قبره ولا يزال على مر التاريخ تتوالى عليه الأوزار وتُكتب عليه الذنوب يومًا تلوَ يوم، وهو ميت في قبره وكل يومٍ يأتيه في قبره أوزار، ربما أنه مات قبل ألف سنة أو أكثر أو أقل ولا يزال

الذنب يأتيه، وقد قال ﷺ: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا»(١) لأنه أول من سنّ القتل، وقد قال ﷺ كما سيأتي: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»؛ فهذا مما يبين خطورة الدعوة إلى البدعة، وأن الداعي إلى البدعة وإلى الضلالة يحمل إثم نفسه وإثم أتباعه إلى يوم القيامة وهذا غاية في الخطورة، والله ﷻ يقول: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي أن ما ارتكبوه من وزر وذنب هو من أعظم السوء وأشنعه.

إذاً هذه الآيات الثلاث تدل على خطورة البدعة من جهاتٍ عديدة يمكن أن نلخصها في نقاط:

- **الأولى**: أن البدعة شركٌ أو بريدٌ إليه.
- **الثانية**: أن هذا من أعظم الظلم.
- **الثالثة**: أنها افتراء كذبٍ على الله ﷻ، وعلى رسوله، وفي دينه.
- **الرابعة**: أنها ضلال، قال: ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾.
- **الخامسة**: أنها قول على الله تبارك وتعالى بغير علم.
- **السادسة**: أن صاحبها الداعي إليها يحمل إثم نفسه وإثم أتباعه إلى يوم القيامة.
- **والسابعة**: أن ذلك الوزر أسوأ الوزر وأفظعه، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال في الخوارج: «أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»(١).

«لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»(٢).

وَفِيهِ: «أَنَّهُ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أُمَرَاءِ الجَوْرِ مَا صَلَّوا»(٣).

## الشرح

ثم أورد هذين الحديثين: الأول يتعلق بأهل البدع، والثاني يتعلق بأهل المعاصي.

وأراد المصنف رحمه الله في إيراده لهذين الحديثين أن يبين أن حال البدعة أخطر من حال المعصية.

قال: وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج(٤): «أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»،

---

(١) رواه البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) لكن بلفظ: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

(٣) يشير رحمه الله إلى حديث: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ» رواه مسلم (١٨٥٥).

(٤) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الخوارج يمتازون بخاصيتين مشهورتين فقال:

=

«لَئِنْ لقيتهم **لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»؛ حكَم فيهم ﷺ هذا الحكم؛ قال: «**أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**»، وقال: «**لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»، بينما أمراء الجوْر - والجور ظلم وهو ذنب من الذنوب التي يُعصى الله ﷻ بها - قال في أئمة الجور: «**نَهَى عَنْ قَتْلِ أُمَرَاءِ الجَوْرِ مَا صَلَّوا**»؛ هناك عن أولئك قال: «**اقْتُلُوهُمْ**»، وهنا قال: «**نَهَى عَنْ قَتْلِ أُمَرَاءِ الجَوْرِ مَا صَلَّوا**»، فهذا مما يبين أن البدعة أخطر من المعصية، وضررها في المجتمع أشد من المعصية.

وأنت في هذه المسألة قارن بين شخصين: شخصٌ يحمل عقيدة الخوارج بما فيها من فكر فاسد وضلال عظيم وما يترتب عليها من أضرار في المجتمع لا حد له، وأمير الجور وما عنده من ظلم وظلمه فيه ضرر على مجتمعه، لكن قارن بين المضرتين؛ أمير الجور مع وجوده جائراً أمور الناس في عباداتهم، في أمنهم، في حفظ أعراضهم، في تحقق مصالحهم ماضية، ساعة بإمام جوْر خيرٌ للناس من أزمنة بلا إمام؛ إمام جور تنتظم فيه أمورهم يصلّون ويمارسون أعمالهم ويأمنون على أعراضهم إلى غير ذلك من المصالح التي لا تتحقق لو لم يوجد إمام،

---

«ولهم خاصتان مشهورتان فارقوا بهما جماعة المسلمين وأئمتهم:

**أحدهما**: خروجهم عن السنة وجعلهم ما ليس بسيئة سيئة أو ما ليس بحسنة حسنة وهذا هو الذي أظهروه في وجه النبي ﷺ حيث قال له ذو الخويصرة التميمي: اعدل فانك لم تعدل...

**الفرق الثاني** في الخوارج وأهل البدع أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم وأن دار الإسلام دار حرب ودارهم هي دار الإيمان..» «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٧٢).

فإمام جور خير من بقاء الناس بلا إمام، لكن وجود بدعة الخوارج ونظائرها وانتشارها في المجتمع يترتب عليها اختلال الأمن وإراقة الدماء وانتهاك الأعراض واستلاب الأموال وغير ذلك من المفاسد التي لا حد لها، ولهذا دعا ﷺ إلى القضاء عليها فوراً؛ قال: (**فَاقْتُلُوهُمْ**)، (**لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**)؛ أمر بالقضاء الفوري عليهم، لأن بقاءهم في المجتمع يترتب عليه أنه ينشر فكره في المجتمع ولاسيما في حُدثاء الأسنان ويمرِّر عليهم ضلاله على أنه جزء من الدين الذي يتقرب به إلى الله ﷻ، أما إمام الجور أو أمير الجور فوجوده يترتب عليه حفظ الأمن وبقاء العبادة وصلاح أحوال الناس مع الظلم الذي قد يُمارس في حقهم، وعليهم في هذا الباب كما قال السلف أن يصبروا حتى يستريح بر أو يُستراح من فاجر. وعلى الناس في مثل هذه الحال أن يُصلِحوا حالهم يُصلح الله ﷻ مَن عليهم، يرفعوا الظلم عن نفسهم ويرفع الله عنهم ظلم ولاتهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام:١٢٩]؛ فيرفع الإنسان عن نفسه بتقوى الله وصلاح حاله وإقامة دين الله ﷻ في نفسه وفي بيته وفي جيرانه بالدعوة إلى الله ﷻ.

ولهذا ليس هناك مقارنة بين من يحمل فكر الخوارج وبين من هو إمام جور، والنبي ﷺ فرّق؛ في الخوارج قال: «**اقْتُلُوهُمْ**»، وفي أمير الجور قال: «**لَا، مَا صَلَّوْا**»[1]، الخوارج يصلُّون؛ والنبي ﷺ قال للصحابة: «تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ

(١) رواه مسلم (١٨٥٤).

صَلَاتِهِمْ» ليس فقط يصلون؛ قال: «تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»، ليسوا تاركين للصلاة يصلون، وهنا في أئمة الجور قال: «**لَا، مَا صَلَّوْا**»، وأولئك لم يذكر أمر الصلاة لأنها معروفة عندهم مشهورة بينهم، مع وجود الصلاة قال: «**لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»(١)، مع أنهم يصلون ويقرؤون القرآن ويذكرون الله ﷻ، ولم يقل هنا في الخوارج: «لا، ما صلوا»، لا تقتلوهم إذا ما رأيتموهم يصلون أو رأيتموهم محافظون على الصلاة لم يقل ذلك، وفي أئمة الجور قال: «لا ما صلوا»، فرّق بينهم.

**وهنا تلاحظ ملاحظة تُستفاد هنا**: أن الظالم تنفعه صلاته، وقد تكون صلاته سبب لحجزه عن ظلمه، أما المبتدع فإنه لا يستفيد من صلاته؛ لأن قلبه قائم على الهوى ويعتقد أن ما يعمله من عمل باطل شأنه مثل الصلاة وربما أعظم من الصلاة، فهو لا يرى نفسه مذنبًا تحجزه صلاته عن ذنبه، بخلاف الظالم عندما يصلي ويقف بين يدي الله ويستحضر عظمة الله عليه واطلاعه عليه ربما أن صلاته تمنعه، أما هذا يصلي وفي صلاته يدعو أن يمكن الله له في باطله الذي يرى هو أنه حق وأنه من دين الله ﷻ، فلا يقارن بين هذا وذاك، البدعة أخطر من المعصية.

وهذا مثال عظيم جدًا ساقه المصنف ليبين به الفرق بين البدعة والمعصية؛ في

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

الخوارج الذين هم أهل بدع قال النبي ﷺ: «**أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**»، «**لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**» مع إخباره عنهم أنهم يصلّون، بل قال: (تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وقراءتكم مع قراءتهم)، وفي أئمة الجور يعني أمراء الظلم والجور قال: «**نهى عن قتلهم**»، وقال: «**لَا مَا صَلَّوْا**»، مادام يصلون لا تفعلوا ذلك، وفي رواية قال: «لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ»، وفي رواية قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»؛ لاحظ!! عدة قيود؛ قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا»، ولم يكتف بهذا قال: «كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»، يعني انتبهوا؛ لا أنّ الإنسان يبدوا له من أول وهلة أن هذا الأمر كفر ثم يشرع في قتال، بل انتبهوا: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»؛ بل قواعد الشريعة تدل أنه لو كان الإمام عنده كفر بواح عند الناس فيه من الله برهان، وكان في خروجهم عليه من الفساد والضرر أعظم من عدم الخروج يُنهون عن الخروج عليه ويسعون في صلاح الأمور من أبواب أخرى.

ومن الأخطاء الشائعة أن ينشغل الناس بظلم الولاة عن الظلم الذي يمارسونه هم، تجده هو نفسه ظالم لنفسه بترك الصلاة، ظالم لنفسه بفعل المحرمات، ظالم لنفسه بفعل الذنوب، ظالم لنفسه بترك الواجبات، وينسى ظلم نفسه ولا يتحدث إلا عن ظلم الولاة!! وهذه من الأخطاء؛ المفترض في الإنسان أن ينظر أولاً في نفسه ويصلح نفسه ويجاهد نفسه على الاستقامة على طاعة الله ولزوم شرع الله ﷻ يُصلح ولده، يصلح بيته، يصلح جيرانه بالدعوة إلى

الله حتى ينتشر فيهم الخير ويُصلح لهم الله ﷻ الأمر.

الشاهد أن هذا الإيراد من المصنف رحمه الله إيرادٌ عظيم لهذين الحديثين في التنبيه على أن جرم البدعة أعظم من جرم المعصية، والتفرقة بينهما ظاهرة في حديث النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قول المصنف **(وفيه)** أي: في الصحيح **«أنه ﷺ نهى عن قتل أمراء الجور ما صلّوا»**، أشار إلى معنى الحديث، والحديث جاء في «الصحيح» عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ»، يعني تدعو لهم ويدعون لكم «وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونكُمْ،وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونكُمْ»، قَالُوا: «قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟» يعني نحمل عليهم السيف؟ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ يعني إذا بلغ الحال هذا المبلغ؟ قَالَ: «لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي -أي الوالي- شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»(١)؛ فانظر هذا التحذير البالغ.

وفي هذا المعنى جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه أحاديث، ويمكن أن يقف المسلم وطالب العلم على طرف كبير منها في كتاب الإمارة من «صحيح مسلم»، وبعض من أصابهم هوى يستوحش من (كتاب الإمارة) في «صحيح

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٥).

مسلم» ولا يستوحش من (كتاب الصلاة) في «صحيح مسلم»، ولا من كتاب الزكاة، ولا من الكتب الأخرى! و(كتاب الإمارة) يستوحش منه وربما لا يطيق قراءته!! مع أن الذي في (كتاب الإمارة) أحاديث صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوت أحاديث الصلاة وثبوت أحاديث الزكاة، فلِمَ الاستيحاش من هذا والاستئناس بذاك وكله دين الله؟!

بل جمع ﷺ بين هذه الأمور في بعض الأحاديث مثل قوله ﷺ في حجة الوداع: «اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»(١) كلها ساق بمساق واحد، فبعض الناس بسبب الهوى يستوحش من الأحاديث التي تتعلق بالإمارة ولا يستوحش من الأحاديث التي تتعلق بالصلاة والصيام ويصاب بعنترية الجاهلية وأنَفتهم، ومن أمور الجاهلية التي خالفها الإسلام وجاء الإسلام بمخالفتها «عدم السمع والطاعة»، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»(٢)؛ لا يغل: يعني لا يجد في قلبه غلاً، لا يجد حسيكة في قلبه بل صدره منشرح لها؛ الإخلاص لله بالتوحيد، ولزوم

---

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٦٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني: (صحيح لغيره) في «صحيح الترغيب» (٤).

الجماعة، ومناصحة ولاة الأمر وعدم غشهم.

وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ»[١]،الأمراء إذا كان عندهم ظلم أو عندهم ذنوب يُدعى لهم بالصلاح، يُدعى لهم بالهداية؛ فهذا الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: «لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في إمام لأنه إذا صلح الإمام أمن البلاد والعباد»[٢] أي: أن يهديه الله، لأن صلاح السلطان فيه صلاح لرعيته ومجتمعه، وهذا لا يقوى عليه كل أحد وإنما يقوى عليه الأئمة الأكابر.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلاً تصدق بصدقة ثم تتابع الناس فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ -شَيْءٌ»[٣] رواه مسلم.**

**وله مثله من حديث أبي هريرة ولفظه: «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ»[٤].**

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢٣)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٠٨٤٧)، وقال الألباني: (إسناده جيِّد)، في «ظلال السنَّة» (١٠١٥).

(٢) انظر: «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٧٦)، و«شرح السنة» (١٠٧).

(٣) رواه مسلم (١٠١٧).

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٤).

الشرح

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث جرير بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أن رجلا تصدق بصدقة ثم تتابع الناس**»، تتابع الناس في الصدقة: «**فقال رسول الله** ﷺ: **مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**» رواه مسلم؛ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لما أورد الحديث أشار إلى قصة الحديث.

والحديث له قصة وهي: أن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في المسجد وجاء إليه وفد وكانوا فقراء أعياهم الجوع والفقر والحاجة؛ فدعا النبي ﷺ إلى الصدقة على هؤلاء، فبادر أحد الأنصار وجاء بمال يصعب عليه حمله من ثِقله ووضعه بين يدي النبي ﷺ، فرآه الناس فتتابعوا في الصدقة على إثر هذه الصدقة الكبيرة التي قدّمها.

أرأيتم لو كان أناس في مجلس فعُرض عليهم الإنفاق في أمر معيّن وذُكر لهم ثمرته وفائدته قد لا ينشط كثير من الناس، لكن لو قام أحدهم وقال: (هذه عشرة آلاف ريال منّي لهذا المشروع)؛ تجد كلٌّ ينفق، حتى الفقير إذا كان عنده درهمين أخرج واحداً، هذه سنة حسنة بالقدوة، والقدوة بِفعل المأمور، فيسُن الإنسان للناس سنة حسنة بفعل المأمور فيقتدي الناس به فيكون بذلك سنَّ سنة حسنة.

حينئذ قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»؛ القصة توضح لك معنى الحديث.

لو قيل لك ما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**»؟

**الجواب**: من عمل عملاً مشروعا ثابتًا في السنة عن النبي ﷺ واقتدى به الناس فإنه بهذا العمل سنَّ في الناس سنة حسنة؛ لأنه دعاهم إلى المشروع ورغّبهم فيه بالقدوة، وكذلك بالدعوة والترغيب.

«**فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**»؛ لو كان في مجتمع يجهل الناس سنة من السنن الثابتة عن النبي ﷺ فذكّرهم بها وعلّمهم وبيّن لهم الدلائل عليها وعمِلوا بها يُكتب له أجره وأجرهم: «**فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»، فيُكتب له أجره هو لعمله، وأجورهم هم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

قال: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**»؛ الذين يمارسون البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ويُحدثونها يستدلون بهذا الحديث؛ وهي ما يسمونها بـ«البدع الحسنة»، يُحدِثون في الدين ما ليس منه ثم يسمونه حسنًا، وهي تسمية باطلة لأن النبي ﷺ وصف كل بدعة بأنها ضلالة ولم يستثنِ، وتسمية بعض البدع بأنها حسنة مناقَضة ومصادَمة ومصادرة لقوله عليه الصلاة والسلام، ثم يستدلون لها بهذا الحديث: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**».

**وفي الرد على هؤلاء نقول**: الحديث ليس فيه ذكرٌ للبدعة هنا؛ وإنما ذِكر للسنة.

**ما هي السنة الحسنة؟** التي جاءت عن النبي ﷺ؛ وإلا يلزم هؤلاء إلزام لا مفك لهم عنه وهو أن هناك سنن حسنة من دين الله تركها النبي ﷺ دون بيان، ولأجل ذا قال الإمام مالك إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى: (مَن ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمداً خان الرسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً)[1]، ولن يكون ديناً إلى قيام الساعة.

قال: «**وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا**»؛ هنا تدخل البدعة؛ ليس في القسم الأول أو الجانب الأول من الحديث.

وصاحب البدعة يأتي إلى الحديث ويستدل به فيما لا دلالة في الحديث عليه، ويدَع من الحديث ما فيه ردٌّ عليه!! وهنا يقول النبي ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً**»؛ أي بالبدع والمحدثات وغيرها: «**كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**» رواه مسلم.

قال: (**وله**) أي: لمسلم، **مثله من حديث أبي هريرة ولفظه**: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا».

(١) «الاعتصام» (١/ ٢٨).

والهدى ما هو؟ النبي ﷺ كان يقول كل جمعة: «أما بعد، فإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[١]؛ فقوله: «الهدى» مثل قوله: «سنة حسنة»؛ والمراد: دين الله الذي شرعه وجاء عن رسول الله ﷺ، وما سوى ذلك هو سنة سيئة وهو في الوقت نفسه ضلالة؛ لأنه ليس من دين الله سبحانه وتعالى.

في هذا الحديث والذي قبله فائدة عظيمة جداً لمن وفقهم الله سبحانه وتعالى للدعوة إلى الله وإلى دينه بالقدوة الصالحة وبالبيان؛ فهؤلاء لهم أجرٌ عظيم لا يعلم قدره إلا رب العالمين سبحانه وتعالى؛ لأن له من الأجر مثل أجور من تبعه، وهو من الصدقة الجارية كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[٢].

ولهذا دعاة الهدى الذين ماتوا من قريب أو من بعيد لا تزال الأجور تتوالى عليهم في قبورهم يومًا بعد يوم، ساعةً بعد ساعة، لحظةً بعد لحظة؛ وهو في قبره تتوالى عليه الأجور وتتكاثر عليه الأجور يومًا بعد يوم لم ينقطع عمله.

العابد الذي عبادته لا تتعداه ينتهي الأجر عند هذا الحد إلا إن قيّض الله له ولداً صالحًا يدعو له، أو ترك صدقة من ماله جارية يُستفاد منها؛ فلا يزال الأجر يأتيه ما استُفيد منها وما بقيت منتفَعٌ بها، ودعاة الحق والهدى لهم هذه الأجور

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

العظيمة وهي بقاء الأجر والثواب المستمر بعد وفاتهم، وهذا مما يجعل الإنسان يجاهد نفسه على تحصيل العلم النافع ومعرفة سنن النبي ﷺ ونشرها وبثها في الناس ودعوة الناس إليها؛ حتى يبقى له بعد مماته عمر ثان تترى وتتوالى عليه وتُكتب في حسناته وتنزل عليه في قبره وتتوالى عليه الأجور، فهذا بابٌ عظيم من الخير دل عليه هذا الحديث.

**ومن فوائد هذا الحديث**: عظم مكانة النبي ﷺ؛ لأن كل أجور الأمة له مثلها عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة، لأنه هو الذي دعاهم ودلهم إلى هذا الخير فله مثل أجور أمته عليه الصلاة والسلام.

وأيضا هذا الحديث يدل على عظم فضل الصحابة الذين نقلوا للأمة ما عهد إليهم النبي ﷺ من السنن والخير؛ فبلَّغوه وافيًا تامًا بأمانة وبدقة وبعدالة وبثقة، هذا يدل على مكانة الصحابة ويدل أيضا على أن الطعن في الصحابة طعنٌ في دين الله؛ لأن دين الله تبارك وتعالى لم يصِل إلينا إلا من طريقهم، فالطعن في الناقل طعنٌ في المنقول، الطعن في الصحابة طعن في الدين نفسه لأن الدين لم يصل إلينا إلا من طريقهم.

فهذا الحديث يدل على عظم مكانة الصحابة، ويدل أيضا على عظم مكانة أهل العلم وفضلهم ومكانتهم وأن العالم شأنه أعظم من العابد؛ لأن الخير الذي عنده متعد، وليس متعدٍ لمن حوله في زمانه؛ بل متعدٍ لأقوام وأجيال وأمم تأتي بعده، الآن عندما تقرأ عِلم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وعلم شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، علم الأئمة قبلهم وبعدهم، كالأئمة أحمد، الشافعي، مالك، سفيان الثوري، وغيرهم من أئمة الإسلام هل النفع الذي حصل منهم قاصر على التلاميذ الذين كانوا حولهم؟ الجواب: لا؛ فنحن إلى يومنا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا نزال نقول: قال الإمام الشافعي، قال الإمام مالك، قال الإمام سفيان الثوري، قال الإمام فلان وفلان وفلان، عِلمهم متعد إلى أجيال وأمم بعدهم لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى، فهذا يبين مكانة العلماء وعظم الأثر والخير الذي يجريه الله سبحانه وتعالى على أيديهم.

و **هذا الحديث يدل أيضا** على فضل طلب العلم، ومكانة العلم، وأهمية الحرص عليه بغرض نفع النفس ونفع الغير، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية» قيل وما صلاحها؟ قال: «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك»(١).

(١) انظر: «الآداب الشرعية» (٢/ ١٠١).

## المتن

قال المؤلف ﵀:

باب ما جاء: «أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة»

هذا مرويٌّ من حديث أنس[(١)] ومن مراسيل الحسن[(٢)].

وذكر ابن وضاح عن أيوب قال: كان عندنا رجل يرى رأيًا فتركه، فأتيت محمد ابن سيرين فقلت: أشعَرتَ أن فلانًا ترك رأيه؟ قال: انظر إلى ماذا يتحول!! إن آخر الحديث أشدُّ عليهم من أوله: (يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه)[(٣)].

وسُئل أحمد ابن حنبل عن معنى هذا الحديث فقال: لا يوفق للتوبة[(٤)].

## الشرح

قال ﵀: (بابٌ ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)؛ هذا الباب هو بمثابة التفريع للباب الذي قبله؛ ففي الباب الذي قبله قال: «باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر»، والبدعة أشد من الكبائر لوجوه عديدة؛ منها ما ثبت في

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٠٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠١٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢٠).

(٢) رواه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (١٤٣) بلفظ: «أبى الله لصاحب بدعة بتوبة».

(٣) رواه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (١٤٢).

(٤) «الآداب الشرعية» (١/ ٧٦).

الحديث: (أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)، فهذا الباب بمثابة التفريع للباب الذي قبله في بيان خطورة البدعة وأنها أعظم من الكبيرة.

وقوله: (**احتجز التوبة على صاحب البدعة**) أي: يُحال بينه وبينها، كما قال أهل العلم أي: لا يوفق للتوبة. والسبب في ذلك:

- أنه لا يرى نفسه مخطئًا أو مذنبًا بل يرى نفسه على هدى وعلى حقٍّ وعلى صواب، بخلاف صاحب الكبيرة يرى أنه مخطئ وأنه على ذنب ولهذا تكون التوبة قريبة منه؛ لأن أول التوبة العلم بالذنب والعلم بالخطأ، وصاحب البدعة عِلْمه أنه على صواب وأنه على هدى؛ ولهذا لا يوفق للتوبة لأنه يرى أنه على الحق.

- وأيضا من جهة أخرى؛ أن قلبه أشرِب البدعة، وقد مر معنا قريبًا قول النبي ﷺ: «إِنَّهُ سيكون في أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ»(١)؛ وهذا معناه تمكن الهوى والبدعة منهم وتغلغلها فيهم وأن قلوبهم أشربت البدعة، فمثل هؤلاء لا يوفقون للتوبة.

وهذا معنى قول النبي ﷺ: «إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٠٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠١٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢٠).

فالتوبة: ندمٌ على الذنب، وإقلاعٌ عنه، وعزمٌ على عدم العودة إليه؛ (ندم على الذنب) لكن المبتدع ما الذي يرى نفسه عليه؟ هل يرى نفسه على ذنب أو على معصية؟ ليس عنده شيء يُندم عليه؛ بل إنه يسأل الله أن يميته على هذا العمل وأن يلقى الله به ويعُدّه في صالح عمله، فليس عنده ندم على عمله فضلاً عن أن يكون منه إقلاع وعزم، بخلاف العاصي؛ العاصي يرِد عليه الندم مرات، وتارة يقلع ويعود تغلبه نفسه، ويعزم على الإقلاع ويرجع، وهكذا وهو والذنب سِجال، أما صاحب البدعة لا يندم، وعلى ماذا يندم!! وهو يرى أن هذا هو الهدى وهذا هو الحق، وهو دين الله ﷻ.

قال: «**إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**»؛ هل معنى ذلك أن صاحب البدعة لا يتوب؟ وهل أيضًا معنى ذلك أن صاحب البدعة لو تاب لا يُقبل منه؟ الجواب لا؛ ليس هذا معنى الحديث؛ وإنما معنى الحديث: بيان خطورة البدعة على صاحبها وتغلغلها من نفسه وكونه يرى أنها الحق؛ فمثل هذا لا يوفق للتوبة، وقد يمن الله ﷻ على بعض المبتدعة أو كثير منهم فيتبصّرون الحق ويعرفون الهدى ويرجعون إليه، ومن يقرأ التاريخ يجد أن عددًا من المبتدعة وبعضهم كانوا رؤوسًا في البدعة هداهم الله ﷻ إلى الحق وبصَّرهم به وتابوا وندموا مما كانوا عليه من خرافة أو بدعة أو ضلالات المتكلمين، تاب عدد منهم ورجعوا عن الباطل الذي كانوا عليه وأعلنوا توبتهم صريحةً إما في كتاب أو في مجلس أو في خطبة جمعة أو نحو ذلك.

فقد يوفَّق؛ يعلم الله ﷻ منه صدقًا ونصحًا وحرصًا، وقد يكون يلهج

بالدعاء إلى الله ﷻ أن يهديه فيُهدى إلى صراط الله المستقيم، لكن الغالب أن من أشرب البدعة لا يتحول منها إلا إلى بدعة أخرى، ولا ينتقل من عقيدة فاسدة إلى إلا عقيدة أخرى مثلها في الفساد أو أشد، ولهذا كان السلف قديما يذمُّون أهل البدع بالتلوّن والتنقل من مذهب إلى آخر ومن بدعة إلى بدعة، كانوا يذمونهم بهذا وكانوا يقولون في ذم البدع: «إياكم والتلون في الدين» لأن هذا حال أهل البدع يتلوَّنون ويتنقلون من دين إلى آخر ومن عقيدة إلى عقيدة ليس عندهم ثبات. وقد قال بعض السلف: «مَنْ جَعَلَ دِينَهُ غرضا لِلْخُصُومَاتِ أَكْثَرَ التَّنَقُّلْ»[١] أي: من دين إلى دين ومن مذهب إلى مذهب ومن عقيدة على عقيدة.

وهذا التنقل في البدع وليد الضلال، أما من كان على حق وعلِمه ولزمه لا ينتقل عنه بإذن الله ﷻ ولا يتحول منه إلى غيره ولاسيما إذا اجتمع له في طريق الحق صلاح الباطن وصلاح الظاهر.

ولما ذكَر النبي ﷺ تحوّل بعض الناس من الهدى إلى الضلال أشار إلى شيء من فساد الباطل، قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»[٢].

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٢١٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

وقد ذكر بعض أئمة العلم أنه لا يُعرف من كان على عقيدة صحيحة عرفها وفهمها وعُمِر قلبه بها ثم يتحول منها إلى عقيدة باطلة؛ فهذا التحول لا يكون إلا من إنسانٍ عمل بظاهر الإسلام ولم يُعمر باطنه بحقائق الإيمان، أما الذي دخل الإيمان في قلبه وذاق طعمه وعرف لذته وعرف قدره ومكانته ثم يتحول! فهذا لا يُعرف.

والعقيدة الصحيحة تقوّي صلة العبد بالله ﷻ صدقًا معه ﷻ ولجوءً إليه ودعاءً وتذللاً وإيمانًا بقضائه وقدره ﷻ وكل ذلك من أسباب الثبات على الحق والهدى، وكذلك العقيدة الصحيحة تدعو صاحبها إلى صالح العمل وسديد القول وحسَن الخُلق؛ وكل ذلك من أسباب الثبات على الحق والهدى.

بينما البدعة تحُول بين صاحبها وبين الخير والحق والهدى وتشغَل صاحبها بأنواع من الضلالات التي تُبعده من الله ﷻ.

فكل هذا يبين لنا معنى هذا الحديث والمراد به: «إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة».

وتأمل قوله: «**صاحب البدعة**»؛ هذا فيه إشارة إلى ملازمته لها وصحبته لها ومحافظته عليها ودفاعه عنها، أما الشخص الذي يقع في زلة أو في خطأ أو يقع في بدعة وقلبه مستوحش منها هذا قريب من التوبة ليس ببعيد عنها، لكن الذي أشرِب قلبه البدعة وتجارت به الأهواء كما يتجارى الكلَب بصاحبه فهذا على خطر عظيم من هذا الوعيد الذي جاء في الحديث.

قال المصنف: (**هذا مروي** -أي عن النبي ﷺ- **من حديث أنس**) أي: بن مالك رضي الله عنه، والحديث ثابت عن رسول الله ﷺ، ولفظه في بعض مصادره: (إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة) أي: يحول الله سبحانه وتعالى بينه وبينها ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ.

قال (**ومن مراسيل الحسن**) أي: البصري رحمه الله؛ والمرسل من أقسام الضعيف لكنه يصلح شاهداً لحديث أنس ابن مالك.

(**ومن مراسيل الحسن**) بمعنى هذا الحديث، جاء عن الحسن مرسلاً بمعنى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال: (**وذكر ابن وضاح عن أيوب**)؛ ابن وضاح من أئمة المالكية وله كتاب مطبوع بعنوان «البدع والنهي عنها» وهو كتاب قيِّم ونافع، في هذا الكتاب نقل ابن وضاح عن أيوب السختياني: (**قال: كان عندنا رجل يرى رأيًا فتركه**)؛ يرى رأيًا: أي كان على بدعة وعلى ضلالة، وتعبير السلف رحمهم الله عن البدعة بالرأي لأن هذا هو ما بُنيت عليه البدعة.

والبدعة تُبنى على الآراء وعلى العقول وعلى التخرصات، فكان يرى رأيًا: أي ابتدع بدعةً مبنيةً على الرأي.

(**كان يرى رأيًا فتركه**): يعني رجع عن ذلك الرأي الذي كان عليه، لكن إلى أين؟ مر معنا قريبًا أن من صفات أهل البدع كثرة التنقل والتلوّن؛ يرى رأيًا ثم

يتركه إلى رأي آخر وإلى بدعة أخرى، تنقلٌ في أودية الضلال.

قال: (**فأتيت محمد ابن سيرين**) أي: أيوب السختياني ذهب إلى محمد ابن سيرين.

(**فقلت أشعرتَ أن فلانا ترك رأيه**) يعني هل بلغك أن فلان ترك رأيه؟ يعني ترك البدعة التي كان عليها هل شعرت بذلك؟ هل بلغك شيء من ذلك؟

(**قال** - أي محمد ابن سيرين - **انظر إلى ماذا يتحول**) يعني هو ترك بدعةً ولكن إلى ماذا تحول انظر!! ستجده تحول إلى بدعة أخرى، وهذا الذي قاله محمد بن سيرين ﵀ علِمَه على ضوء ما دلت عليه النصوص، وعلى ضوء أيضا حال أهل البدع حيث عُرِفوا بكثرة التنقل من بدعة إلى بدعة وضلالة إلى ضلالة.

(**قال انظر إلى ماذا يتحول**): يعني ما هي العقيدة الجديدة التي ذهب إليها أو البدعة الأخرى التي تحول إليها؟

(**إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله**)؛ ما هو آخر الحديث؟ (**يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه**)؛ هكذا قال الرسول ﷺ (**ثم لا يعودون إليه**)؛ يمرق ثم لا يعود.

وقوله: (**ثم لا يعودون**) هي أشد من قوله: (**يمرقون**) لأن الذي يمرق ويعود أمره أهون من الذي يمرق ولا يعود، فآخر الحديث أشد، فهو لم يقتصر في وصفه لهم بقوله: (**يمرقون من الدين**) بل زاد على ذلك أمر أشد وهو عدم

العودة قال: (**يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه**)؛ ولهذا قال ابن سيرين ﵀: (آخر الحديث أشد عليهم من أوله» وهو إخبار النبي ﷺ أنه لا يعود)[١].

وهنا يتساءل متسائل: لماذا إذا مرق من الدين إلى البدعة والضلالة وأُشرب قلبه البدعة لا يعود؟

عرفنا ذلك فيما سبق؛ لأن البدعة التي أشربها قلبه قد أحبها ومال قلبه إليها وأعتنقها ورأى أنها هي الحق والصواب فلا يعدل عنها ولا يرجع إلى الحق والهدى، وإذا كان اكتسب بهذه البدعة زعامةً أو رئاسةً أو حظوظًا عظيمة من الدنيا فهذه أيضا تزيده تمسكًا بالباطل الذي عليه، بل جاء في الحديث في شأن من يطلب لنفسه زعامة كيفما كان؛ أن الرجل يقرأ القرآن ثم يقول أنه لم يجد أحداً اتبعه فيفتح باب ضلالةٍ حتى يجد أتباعًا، جاء حديث عن النبي ﷺ في «سنن أبي داود» وغيره بهذا المعنى قال: «مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ» يريد زعامة فقرأ القرآن فلم يجد أتباعًا له ثم يقول: «مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أفتتح لهم باب ضلالة»، جاء هذا الأثر عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﵁: «يُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ، مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ»[٢]؛ فبعض الناس قد يكون سيره في البدعة لزعامةٍ ولرئاسةٍ ولتسلطٍ على الناس ولإشباع غرائز باطلة، فمثل هذا لا يوفق للتوبة ويشمله قول

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٢/ ٢٩٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٦١١).

النبي ﷺ: «إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة».

قال: (**إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله؛ يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون**)؛ هذا الحديث ورد في بدعة الخوارج، وقد سبقت الإشارة إليه قريبًا، وبدعة الخوارج هي من أشد البدع التي يتعصب لها أصحابها ويستمسك بها أربابها، وذلك لأنهم يرون في أنفسهم أنهم الوحيدون على وجه الأرض حماة الدين وأنصاره وأن حماية الدين لا تكون إلا بطريقتهم، فهو لا يرى نفسه فقط على الدين؛ بل يرى نفسه أنه هو الوحيد الذي يعمل لحمايته، وأن حماية الدين لا تكون إلا بهذا الطريق الذي سلكه، فمثل هذا لا يوفق للتوبة؛ لأنه يرى أنه هو الذي على الدين ويرى أيضا أنه هو الذي يحمي الدين.

وقد كان من طريقة هؤلاء الدعاة إلى عقيدة الخوارج في قديم الزمان وحديثه كان من شأن هؤلاء في بث العقيدة: أول ما يبدؤون به مع من يدعونه بقطع صلته بأهل العلم وأهل الحق وأهل الهدى وتزهيده فيهم وانتقاصهم عنده وسبهم حتى يسقطوا من عينه ولا يبقى لهم مكانة في قلبه، وهذا أيضا من الحوائل والحجُب التي توضع لأمثال هؤلاء لئلا يعودوا إلى الحق والهدى، لأن قلبه كره أهل العلم، وكره حملة الحق كره أنصار الحق وأعوانه؛ فإذا حيل بينه وبينهم ومُلئ قلبه كراهيةً ومقتًا لهم كيف يكون منه سماعٌ لهم فضلاً عن أن يكون منه قبول!! فهو لا يسمع أصلاً لهم كلمة فضلاً عن أن يتقبل حقًا يدعون إليه، وهذه كلها من الأشياء التي تؤكد معنى الحديث من حيث واقع أصحاب

البدع ولاسيما وخاصةً الخوارج الذين قال فيهم ﷺ: (يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه).

قال: (**وسئل أحمد بن حنبل عن معنى ذلك**) الإشارة في قوله: «ذلك»: أي إلى الحديث الذي هو قول النبي ﷺ: «إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة»؛ سئل كما في مصادر هذا الأثر عن الإمام أحمد رحمه الله عن معنى: (إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة) ما المراد به؟

(**فقال: لا يوفق للتوبة**) أي: لا يوفقه الله، والتوفيق بيد الله، وفي القرآن: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:٨٨]، فالتوفيق بيد الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

(**قال: لا يوفق للتوبة**) وهنا أيضا أمر آخر أشير إليه في عدم توفيق هؤلاء للتوبة وهو: أن هؤلاء زُيِّن لهم سوء عملهم فرأوه حسنا كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر:٨]، زُيِّن له سوء عمله: أصبح عمله في عينه زينًا وحسنًا وجميلاً وطيبًا فلِمَ يتوب منه وهو يراه من أحسن الأعمال وأطيبها؟ وكيف يتوب منه وهو يراه عملاً صالحا!! فالبدعة من مصيبتها على أصحابها أنها تتزين لهم وتتجمل، وأيضا دعاتها يجمِّلونها ويزخرفونها في أعين من يدعونهم إليها، وهذه أيضا من الحجب التي تحُول بين الإنسان وبين التوبة من البدعة والرجوع إلى الحق، لأن البدعة تُزيَّن له وتتزين له ويراها حسنة فيكون ذلك حائلا وحاجبا بينه وبين أن يتوب إلى الله تبارك وتعالى من

بدعته.

وأمر آخر: وهو ما دل عليه قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد:١٧]؛ اهتدوا: أي ساروا في طريق الهدى، والهدى: هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ»[1]؛ فمن سار في طريق الهدى الذي هو السنة وأمّر السنة على نفسه وسعى في طلبها وجدّ واجتهد في تحصيلها ولم يجعل في نفسه حائلاً من قبولها، فمثل هذا يزداد هدىً وصلاحاً كما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾، أما الذي لا يعظّم السنة ولا يعرِف حُرمتها ويُذكر له الحديث فيردّه ويكذّبه أو يسعى جاهداً في تحريفه وصرفه عن معناه وعن دلالته وأطره إلى بدعته؛ فمثل هذا وقع في هذه الحوائل التي تحول بينه وبين التوبة.

وهذه الحوائل وضعها أئمة البدع لأتباعهم لتكون حائلاً بينهم وبين التوبة إلى الله ﷻ، وحتى لا يقبلوا الهدى الذي جاء في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام؛ فوضعوا طرائق لرد معاني الآيات وطرائق لتكذيب الأحاديث الثابتات عن رسول الله ﷺ تحريفاً للنصوص وتكذيباً، فهذا التحريف والتكذيب هو في الحقيقة من الحوائل والحجب التي تحول بين الإنسان وبين الحق والهدى.

وعلى كل حال؛ قول النبي ﷺ: «**إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**»،

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

معناه: أن البدعة وما يكتنفها تكون حائلاً للقلب عن قبول الحق والرجوع إليه.

وليس معنى ذلك - كما قدّمت - أن صاحب البدعة توبته غير ممكنة، توبة صاحب البدعة ممكنة وواقعة أيضاً؛ الخوارج الذين ورد فيهم هذا الحديث (**ثم لا يعودون**) لما ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما رجع منهم رجع منهم في ساعة واحدة ألفان وقيل ثلاثة آلاف، لما ناظرهم في مناظرة مشهودة مشهورة رجع منهم عدد كبير جداً[1]، وأيضا العلماء يشيرون إلى أن الغالب في الرجوع في العوام وفي الأتباع وفي من لم تتغلغل البدع في قلوبهم، أما الذي أشربت - والعياذ بالله - قلبه بدعة وأظلم قلبه ببدعة فإنه لا يقبل الحق في الغالب، ولهذا لما وصل ابن عباس رضي الله عنهما إلى أولئك من أجل المناظرة أراد بعض كبراء هؤلاء أن يقطعوا وأن يحولوا بين الناس وبين التوبة فقالوا محذرين للناس من ابن عباس رضي الله عنهما: «إنه من قريش، والله عز وجل قال عن قريش: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨] فاحذروه»، فنزّلوا ما وصف الله سبحانه وتعالى به المشركين في هذا الصحابي الجليل حَبر الأمة الذي جاء لدلالتهم على السنة، فوضعوا حائل. ومثل هذا الكلام قد يخلْخِل الجاهل ويؤثّر فيه.

فالكبراء الذين أشربت قلوبهم البدع الأمر فيهم أعسر وأشد، وأما الأتباع والجهال والعوام وبسطاء الناس فهؤلاء قريبون من الحق وقريبون من الهدى،

---

(١) انظر: «سنن النسائي الكبرى» (٨٥٢٢)، و«سنن البيهقي الكبرى» (١٦٧٤٠)، و«مستدرك الحاكم» (٢٦٥٦)، و«جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٢٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٢٤١).

وإذا قيل له كلمة الحق وبُصِّر بها ودُل عليها رجع، بخلاف الذي هو متمكن من البدعة ولُقِّن الحجة، وكان السلف رحمة الله عليهم يحذّرون من مجالسة أهل البدع يقولون لأن صاحب البدع ملقَّنٌ حجته، فما كانوا يستمعون إليهم لأن لهم شبهات، والشبهات توهي القلوب وتفسد الأفكار وتُضر بالناس غاية الضرر، فكانوا يحذِّرون من مجالسة أهل البدع وخاصةً الرؤوس الذين يحملون أنواع الشبهات، أما العوام والبسطاء فما أقربهم من الحق، قريبون جداً من الحق، وكلمات قليلة تكفيهم في الرجوع إلى الحق والعودة إليه.

والقصص في هذا عبر التاريخ في عودة عدد من المبتدعة ممن وقعوا في البدعة القصص في ذلك كثير، يعودون أفراداً ويعودون أيضًا جماعات؛ مثل رجوع الآلاف من الخوارج بعد المناظرة التي كانت مع ابن عباس رضي الله عنهما.

وأيضا من تلوثوا بهذه الأفكار في زماننا وصلت إليهم كلمة أكابر أهل العلم وكتب الله جل وعلا لهم هدايةً فتابوا وألقوا أسلحتهم ورجعوا إلى الحق والهدى بمنّ الله تبارك وتعالى وفضله.

هنا عندما يقرأ الإنسان هذا الحديث «**إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة**»، والله إن هذا الحديث يجلب لقلب العاقل خوفًا أن يدخل في هوى من الأهواء ثم يتجارى به هذا الهوى إلى أن يتغلغل في نفسه ويتمكن منه ويدخل في كل عرق ومفصل منه ثم لا يعود إلى الحق والهدى، يمشي في هذه الحياة يرى المعروف منكراً والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، فهذا الحديث

يجلب للقلب خوفًا من البدع والضلالات والأهواء، ويجلب له أيضًا انكسارًا وذلًا بين يدي الله ﷻ أن يعصمه وأن يحميه وأن يسلّمه وأن يقيه من هذه البدع وغوائلها وجناياتها على أصحابها وأربابها، يسأل الله ﷻ أن يعيذه من ذلك، ولهذا صح في الدعاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك مُنْكَرَاتِ الأَخْلاقِ، وَالأَعْمَالِ، وَالأَهْوَاءِ، وَالأدْوَاءِ»(١).

والهوى الذي هو البدع شأنه خطير على قلب الإنسان إذا دخل على القلب، وهو أخطر على الإنسان بمراحل كثيرة من المعصية؛ المعصية مع خطورتها أمرها أهون، لكن البدعة شر مستطير وفساد عريض إذا دخل فيه الإنسان، فهذا الحديث يخيف العاقل من البدع.

ثم هنا إذا وجد الخوف في قلب الإنسان من البدعة ما الذي عليه أن يفعله؟ ثمة أمور عديدة هنا ينبغي أن يسلكها من خاف على نفسه البدعة:

- **الأمر الأول**: أن يكثر من الالتجاء إلى الله ﷻ والإلحاح إليه ﷻ أن يهديه صراطه المستقيم ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦-٧]، يسأل الله الهداية كما في دعاء الفاتحة ويتعوذ بالله ﷻ من الضلال كما في أدعية كثيرة عن رسولنا ﷺ؛ ومنها ما ثبت في «الصحيحين» أنه ﷺ كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) رواه الترمذي (٣٥٩١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٩٨).

أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»[(١)]، الشاهد قوله: «أَنْ تُضِلَّنِي»؛ يتعوذ بالله ﷻ من الضلال. بل كان ﷺ في كل مرة يخرج من بيته يقول: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»[(٢)].

▪ **الأمر الثاني**: أن يعظّم السنة في قلبه وأن يكون لها حرمة في نفسه، وإذا بلغه كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يقدِّم عليه قول أحد كائنًا من كان مهما علا قدره وعلت منزلته، إذا كان ابن عباس رضي الله عنهما قال في مسألة من مسائل الفروع والمفاضلة بين الأنساك: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!!»[(٣)]؛ فكيف بمن يردّ السنة الصحيحة الصريحة ويقبل البدعة التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان!! والإمام أحمد رحمه الله يقول: «عجبت من قوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي فلان وفلان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور:٦٣]»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٢٧١٧).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٤٩)، وابن حزم في «حجة الوداع» (٣٦٩).

(٤) انظر: «الصارم المسلول» (١/ ٥٩).

فالأمر الثاني أن يعظم الإنسان السنة وأن يؤمِّرها على نفسه، وقد قال أهل العلم قديمًا: «من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة»[١]، وقال الإمام مالك رحمه الله: «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق وهلك»[٢]، فيتعوذ بالله عز وجل من البدع ويعظّم السنة ويجاهد نفسه على لزومها علمًا وتعلّمًا وعملاً وتعليمًا.

▪ **الأمر الثالث**: أن يحترم العلماء الذين هم دعاة للسنة وهداة إليها، وأن يعرف أقدارهم، وأن يحذر أشد الحذر من انتقاصهم أو سماع انتقاصهم؛ لأن هذا من الحوائل والحُجب التي توضع بين الناس وبين قبول الحق والهدى: الوقيعة في حملة السنة ودعاة الحق والهدى، فهذا أمر ينبغي أن يتنبَّه له الإنسان.

▪ **الأمر الرابع**: أن يحذر من مجالسة أهل البدع، وكما قال السلف: «ليس للمرء أن يجلس مع من شاء»، وقالوا: «من فقه الرجل مدخله وممشاه وإلفه»[٣]، وأعظم من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه في «سنن أبي داود» وغيره أنه قال: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»[٤] وكانوا يقولون: «اعْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَخْدَانِهِمْ» يعني انظر إلى جليس الشخص تعرف توجهه وعقيدته.

(١) «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٤٤).

(٢) رواه الهروي في «ذم الكلام» (٨٧٢).

(٣) رواه الخطابي في «العزلة» (١١٦).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٤٥).

فيحذر الإنسان أشد الحذر من مجالسة أهل البدع ودعاة البدعة، وقد قال ﷺ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»(١).

أي: دعاة الضلال ودعاة الباطل، فإذا كان النبي ﷺ يخاف على أمته من هؤلاء فكيف يجالسهم الإنسان ويسمع إليهم!!.

▪ **الأمر الخامس**: وهو أن لا يقرأ كل كتاب؛ وإنما يقرأ الكتب التي بُنيت على السنة وأسست على الحق والهدى، أما الكتب التي أقيمت على الفكر وعلى العقول وعلى الأهواء وعلى الآراء فكل هذه يحذر منها الإنسان، لأنه قد يقرأ فيها فتجره عبارة منمقة أو كلمة مزوقة وتشده إلى الضلال والبدعة.

▪ **الأمر السادس**: وهو ما استجدَّ في زماننا هذا من وسائل جرّت إلى الناس شبهات كثيرة وهي: القنوات والشبكة العنكبوتية، فبعض الشباب يجلس أمامها ومن باب حب الفضول وحب الاستطلاع يدخل في مواقع أهل البدع ويقول ننظر ماذا عندهم وماذا يقولون؟ فيسمع لهذا ويسمع لذاك حتى يُشرَب قلبه البدعة - والعياذ بالله -، وإذا كان الأئمة الأكابر يوصون تلامذتهم المتميزين في العلم والطلب والمتأهلين للرد على أهل البدع بعدم التعمق في النظر إلى البدعة عند الرد عليها، مثل تلك الوصية العظيمة التي أوصى بها شيخ الإسلام تلميذه الإمام ابن القيم، ويقول رحمه الله: «وقال لي شيخ الاسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

إيرادا بعد إيراد: لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا اشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرا للشبهات، أو كما قال»[1]؛ المرآة تعكس الشيء مباشرة، أما الاسفنجة فهي تشرب وتمتص، فلا يمتص الإنسان الشبهة ويمكّنها من قلبه، إذا كان في مقام الرد، أما إذا كان ليس أهلاً للرد فلا ينظر أصلاً، ونظره وجلوسه وسماعه وهو ليس من أهل الرد على البدع مخاطرة بدينه، وقد قال السلف رحمهم الله: «إن كنت مخاطِراً بشيء فلا تخاطر بدينك».

ومع ما تقدم كله يقول أحد أهل العلم: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك؟! ولكنَّ العجب ممن نجا كيف نجا؟!»[2]، والتوفيق بيد الله ﷻ فهو الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

◈◈◈◈◈

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٢).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧]، وقوله: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة:١٣٠].

## الشرح

قال المصنف رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾؛ جعل المصنف رحمه الله هذا السياق العظيم المبارك من ﴿سورة آل عمران﴾ عنوانًا لهذه الترجمة التي أراد من خلالها أن يبين أن حقيقة الإسلام ونيل فضائله العظام لا يكون بالانتساب المجرد؛ وإنما لابد مع ذلك من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام لله عز وجل، ولزوم نهج الأنبياء، وتحقيق التوحيد الذي دعَوا إليه، وأن لا يرغب الإنسان عن شيء منه، أما مجرد الدعوى فإنها لا تكفي، فكم من أناس يدّعون أشياء وهم في الحقيقة أدعياء.

والـــدعاوى مـــا لـــم يُقَـــم عليهـــا

بيّنـــــات فأصـــــحابها أدعيــــاء

فأراد ﵀ أن يبين بهذه الترجمة أن الإسلام لا يكفي فيه الانتماء المجرد، بل لابد فيه من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام، ولزوم التوحيد والإيمان الصحيح الذي بعث الله ﵎ به أنبياءه ورسله، وإلا الدعاوى كثيرة، وادّعاء الإنسان ما ليس فيه كثير، كأن يدّعي لنفسه أنه من الأتقياء، أو يدّعي لنفسه أنه من الصالحين، أو يدّعي لنفسه أنه من المحسنين، أو نحو ذلك، أمر الدعوى يسيرٌ على كل لسان وسهلٌ على كل إنسان لكن ذلك لا عبرة به، والعبرة في حقيقة الاستسلام لله ﷻ.

فالمصنف ﵀ أراد أن يبين هذا الأمر، وأن فضل الإسلام وفضائله العظام لا ينالها أحد بمجرد ادّعائه، بل لابد من معرفة الإسلام ولزومه والاستمساك به وعدم الرغبة عنه، فمن كان كذلك فهو الذي ينال فضائل الإسلام وخيراته.

قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾ إلى آخر السياق المبارك، هذا سياقٌ جاء في الرد على اليهود والنصارى في دعوى مجردة ادَّعوها؛ اليهود ادّعت أن إبراهيم ما كان إلا يهوديًا، والنصارى ادّعت أن إبراهيم ما كان إلا نصرانيًا، ومعنى ذلك أنهم يدَّعون لأنفسهم أنه معهم وأنهم معه، وأنه منهم وأنهم منه.

**وقد ذكر بعض أهل العلم أن للآية سبب نزول وهو:**

عن ابن عباس ﵄ قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبارُ يهود عند رسول الله

ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيمُ إلا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًّا! فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾، قالت النصارى: كان نصرانيًّا! وقالت اليهود: كان يهوديًّا! فأخبرهم الله أنّ التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية»[1]، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾؛ أي ليس لكم عقول؟!

والله ﷻ أبطل دعوى هاتين الطائفتين أن إبراهيم منهم بعدة أمور بُيِّنت في هذا السياق العظيم المبارك:

- **الأمر الأول**: أن ادّعاءهم هذا مبنيٌ على خوضٍ منهم فيما ليس لهم به علم؛ قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾؛ فهذا رد على هؤلاء أن خوضهم في هذا الأمر خوضٌ في أمرٍ لا علم لهم به، ولو أن خوضهم هذا وجدالهم هذا في أمرٍ لهم به علم مما أنزِل عليهم في التوراة بيانه من أحكام الحلال والحرام لقُبِل ذلك، لكن هذه محاجة في أمرٍ لا علم لهم به.

وقد استفيد من هذه الآية: تحريم خوض الإنسان ما ليس له به علم، قال

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٧٢٠٢).

تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

إذًا هذا الوجه الأول في الرد على هؤلاء أن هذه الدعوى مبنية من هؤلاء في أمر لا علم لهم به؛ وهذا باطل ومحرم.

- **الوجه الثاني في الرد على هؤلاء وإبطال دعواهم**: من الناحية التاريخية؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ ولهذا نبه بعض علماء التفسير أن من فوائد هذه الآية: أهمية العناية بالتاريخ في باب الرد على دعاوى أهل الباطل، فهنا أبطِلت دعوى هؤلاء من ناحية تاريخية؛ اليهود يقولون أن إبراهيم عليه السلام يهوديًا، والنصارى يقولون إن إبراهيم عليه السلام نصرانيًا، والتوراة التي أنزلت عليهم والإنجيل الذي أنزل على النصارى ما وُجدت وما أنزلت إلا بعد إبراهيم؛ فكيف يكون إبراهيم يهوديًا وكيف يكون نصرانيًا والتوراة التي أنزلت على موسى والإنجيل الذي أنزل على عيسى لم يكن إلا بعد إبراهيم بزمان؟! فهذه إبطال لهذه الدعوى من الناحية التاريخية.

- **الوجه الثالث في إبطال دعوى هؤلاء**: تبرئة إبراهيم عليه السلام من هؤلاء ومما هم عليه ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾؛ هذه تبرئة له من هؤلاء، ﴿وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ وهذا أيضا فيه تعريض ببيان حال هؤلاء وما هم عليه من الشرك والكفر بالله سبحانه وتعالى، وأن إبراهيم عليه السلام براء من ذلك

كله فهو حنيف؛ أي مائل متجانب عن الشرك وعن الباطل وعن أنواع الضلال إلى الإخلاص لله وتوحيده والاستسلام له ﷻ وامتثال أمره، هذا شأن إبراهيم عليه السلام ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾؛ ليس على ما عليه اليهود ولا على ما عليه النصارى؛ بل كانت ملته ودينه الحنيفية، قال تعالى في آية أخرى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، الحنيفية هي ملة إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠]؛ فهذه ملة إبراهيم البعد عن الشرك، ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ «حنيفًا»: أي مائلا عن الشرك وعن كل باطل، و«مسلمًا»: أي مستسلما لله منقاداً له ﷻ، وسيأتي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾؛ فهذا شأن إبراهيم الخليل عليه السلام: إسلام لله واستسلام لأمره تبارك وتعالى.

إذًا هذا السياق العظيم المبارك أفاد أن مجرد الدعوى لا تكفي، الآن كما نرى؛ اليهود ادّعوا أن إبراهيم منهم، والنصارى ادّعوا أن إبراهيم منهم؛ وهذا يعني أنهم أتباعه وعلى ملته، وأولئك أيضًا يدّعون أنهم أتباعه وعلى ملته، وكذلك المشركون يدّعون لأنفسهم أنهم على ملة إبراهيم، وكل هذه دعاوى لا قيمة لها ولا تفيد الإنسان.

فعُلم من ذلك أن مجرد الدعوى لا تكفي؛ وإلا أمر الدعوى سهل؛ ادّعى اليهود لأنفسهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، وأيضا تخاصموا هم والنصارى في ادعاءات قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]؛ أمر الدعوى سهل، سهل أن يحرك الإنسان طرف لسانه

بادعاءات وزعم كاذب ولكن كل ذلك لا قيمة له، لابد من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام لله ﷻ، ولهذا الله ﷻ بعد ذلك لما كشف زيف الدعوى وأوضح بطلانها قال عقب ذلك: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾؛ لاحظ كلمة: ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾؛ أما مجرد الدعوى هذا لا قيمة له.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ ولو كان من الناس من هو أقرب الناس إليه ولم يتبعه ليس من إبراهيم وإبراهيم ليس منه، ولهذا تبرأ إبراهيم من أبيه ومن قومه؛ مع أن أبا إبراهيم أقرب الناس إليه نسباً تبرأ منه، لأن الأمر يعود إلى وجود حقيقة الإسلام والإتباع.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾؛ هؤلاء هم أولى الناس به.

﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ﴾: أي محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي معه مع محمد ﷺ.

هؤلاء هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، وأولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم أتباعه الذين آمنوا به وصدّقوه وساروا على نهجه، وكذلك نبينا ﷺ الذي بُعث بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج:٧٨]، فملة إبراهيم هي ملة محمد ﷺ وهو على ملته ويدعو إلى ملته صلوات الله وسلامه عليه، فإذاً أولى الناس به أتباعه، ونبينا عليه الصلاة والسلام، وأتباع نبينا ﷺ، أما المشركون واليهود والنصارى وغيرهم من أرباب الديانات وإن ادّعوا أن إبراهيم منهم أو أنهم منه فهذه دعوى زائفة وكلام كاذب ليس هناك واقع

يصدِّقه، بل الواقع على نقيض ذلك وعلى خلافه؛ إبراهيم له نهج وهؤلاء لهم نهج آخر، والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾: أي أن مجرد الدعوى لا تكفي.

قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾؛ قوله تعالى هنا في هذا السياق: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دليلٌ واضح على أن أصحاب الدعاوى الزائفة لا عقل لهم، يعني أن من يقول عن نفسه أنه على ملة إبراهيم وهو على الشرك بالله ﷻ، أو يقول أنا على ملة محمد ﷺ وهو لا يلزم نهجه بل على البدع والخرافات؛ هذا دليل على عدم العقل؛ لأن قوله: (إنني على ملته) هذا يدل على وجود قناعة عنده بأن ملته هي الملة المرتضاة وهي الملة المقبولة ولهذا انتسب، ولولا وجود هذه القناعة لم ينتسب، ثم مع وجود هذا الانتساب المدّعى يناقض أعماله فأين العقل!! أين العقل في حق من عرف أن ملة إبراهيم هي الملة المرتضاة وهي الملة المقبولة ثم ادّعى لنفسه أنه على ملته ثم أخذ يمارس في واقعه العملي أعمالاً على نقيض ما كان عليه إبراهيم عليه السلام وما كان عليه الأنبياء عموماً عليهم صلوات الله وسلامه من التوحيد والاستسلام لله سبحانه وتعالى!! فلا توحيد لله ولا استسلام لله ثم يدَّعي لنفسه أنه على ملة إبراهيم!! هذا دليل على فقدان العقل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، إذاً هذا يفيدنا أن أرباب هذه الدعاوى الباطلة لا عقول لهم، وإلا لو كان عندهم عقولٌ راجحة لأتْبعوا الدعوى ببرهانها وبما يصدّقها من الاتباع لنهج الأنبياء عليهم صلوات

الله وسلامه.

قال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾؛ حاججتم في أمور لكم بها علم أي مما وجد تبيانه في التوراة والإنجيل من الأحكام والأوامر ونحو ذلك، فلِمَ هذا الخوض والمجادلة في أمرٍ ليس لكم به علم؟ وهو خوضكم في إبراهيم عليه السلام وادّعاء كل طرف منكم أن إبراهيم على ما هم عليه؛ فاليهود يقولون منا والنصارى يقولون منا، فهذا خوضٌ بلا علم وهو من أعظم الآثام ومن المحرمات العظام ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ثم برأ الله عز وجل نبيه إبراهيم من ذلك ومما عليه هؤلاء قال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾؛ ليس على ما ادّعاه النصارى ولا على ما ادعاه اليهود بل كان حنيفًا مسلمًا ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ هذه ملة إبراهيم قائمة على أمرين: الحنيفية والإسلام، الحنيفية تعني ترك الشرك.

والإسلام: يعني الاستلام لله بما شرع والخضوع له تبارك وتعالى بما أمر، فهذه ملة إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه.

ثم قال: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ لما زيّف دعوى أولئك وبيّن بطلانها من وجوه بيّن من هم الذين هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، فذكر أن أولى الناس بإبراهيم: أتباعه السائرون على نهجه، والنبي محمد ﷺ فهو على ملة إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين، وكذلك أتباع نبينا محمد ﷺ؛

قال: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ وتأمل ختم الآية بهذه الخاتمة العظيمة: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي الله ﷻ يتولاهم حفظًا وتأييداً ونصراً وعونًا، أما من سواهم فليس لهم حظ من ذلك: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة:٢٥٧].

إذاً هذا السياق المبارك المراد من إيراد المصنف له: أن يبين أن حقيقة الإسلام لا تكون بالانتماء المجرد؛ بل لابد من لزوم نهج الأنبياء، والاستسلام لله، وإخلاص الدين له، والقيام بتوحيده وبشرعه كما أمر تبارك وتعالى؛ فهذا هو الإسلام الذي به تُنال فضائل الإسلام العظيمة.

ثم قال: (وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾)؛ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: أي يميل عنها ويعدل عنها ويبتغي غيرها ويطلب غيرها.

الرغبة تكون في الشيء وعن الشيء؛ رغب فيه: أي طلبه وحرص عليه واجتهد في تحصيله، ورغب عنه: أي عدل عنه ومال عنه إلى غيره وتركه وتخلى عنه.

قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ وملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة وهي البراءة من الشرك ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾؛ هذه

ملته؛ ملته الحنيفية السمحة، ملته البراءة من الشرك صغيره وكبيره، ملته الإسلام والاستسلام لله ﷻ.

فمن رغب عن هذه الملة فقد ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، ومعنى ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾: أي حكَم على نفسه بالسَّفَه، والسفه: هو خفة العقل، والسفيه هو خفيف العقل؛ عقله خفيف: أي ليس عنده عقل راجح وعقل متزن بل في عقله خفة.

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾: أي إلا من حكم على نفسه ورضي لنفسه بسفَه العقل، وهذا مثل قوله قبل قليل: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ هذا كله من السفه ومن عدم العقل أن يمضي الإنسان في دعاوي مجردة بلا حقيقة ولا برهان، وتكون حقيقة الإنسان الرغبة عن ملة إبراهيم عليه السلام التي هي ملة جميع الأنبياء وهي التوحيد والاستسلام لله ﷻ، في السياق الأول قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وفي هذا السياق قال: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾.

ومفهوم المخالفة يدل على أن من رغب في ملة إبراهيم وحرص عليها وجدّ واجتهد في تحقيقها وتتميمها فهذا يدل على رجاحة العقل ورزانته.

قال: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ ثم بيَّن الملة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام وأنه عبد الله المجتبى ورسوله المصطفى قال: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ اصطفاه الله أي اجتباه ليكون عبداً مقرباً ونبياً مرسلا، بل هو من خيار الأنبياء ومن أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾ أي: اجتبيناه، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ اجتباه في الدنيا فكان من

صفوة عباد الله واختاره الله ﷻ ليكون رسولاً يبلغ الناس دين الله بشيراً ونذيراً، فقام بما أُمر به وافيًا على التمام والكمال، فما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذّرها منه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: أهل المنازل العالية والدرجات الرفيعة في جنات النعيم، فهذا شأن إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثم قال ﷻ ممتدحًا له: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾؛ أي استسلمت وانقدت لله ممتثلاً أمره منقاداً لشرعه مذعنًا بطواعية وبدون تردد، ما أن قال له ربه ﴿أَسۡلِمۡ﴾ إلا وأعلن إسلامه واستسلامه.

فهذه ملة إبراهيم الملة الحنيفية، وهي الملة التي وصى بها إبراهيم ذريته وأتباعه، وبها أيضًا وصى الأنبياء، فهذه هي الملة الحنيفية، ولا يكون الإنسان من أهلها إلا بلزومها، وهذا هو المقصود من هذا الباب.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وفيه حديث الخوارج وقد تقدم.**

## الشرح

قال: (**وفيه حديث الخوارج وقد تقدم**)؛ يشير رحمه الله إلى قول النبي ﷺ في الخوارج: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ»، وكان قبل هذا وصف عبادتهم قال: «تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وقراءتكم مع

قراءتهم يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ».

لاحظ هذه الأمور التي اتصف بها الخوارج على ضوء ما دل عليه هذا الحديث؛ الخوارج قوم يصلّون ويقرؤون القرآن، وصلاتهم فيها اجتهاد وقراءتهم للقرآن فيها اجتهاد أيضا؛ إذاً هم قوم ينتسبون إلى الإسلام وينتسبون لهذا الدين، ويجتهدون في الصلاة والمحافظة عليها، ويجتهدون في قراءة القرآن ومداومة القراءة والإكثار من قراءته كل ذلك يفعلونه، ولكن وصفهم النبي مع ذلك كله بقوله: (يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)، والسهم معروف إذا أطلق وصوِّب نحو رمية معيّنة ثم خرج من طرفها الآخر فلا يبقى ولا يستقر وإنما دخولٌ وخروج ومروق، وقد وصفهم ﷺ بأنهم يصلّون ويجتهدون في قراءة القرآن بل قال مخاطبًا الصحابة: (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وقراءتكم مع قراءتهم) أي للقرآن الكريم، ومع ذلك قال: (يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ) لماذا؟ هنا سر وسبب هو أساس الموضوع؛ وهو أنهم لم يجعلوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حاكمـًا عليهم؛ مع أنهم رفعوا شعار لا حُكم إلا لله ورفعوا المصحف ويصلّون ويقرؤون القرآن باجتهاد! ومع ذلك كله قال النبي ﷺ: (يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)[1].

**والسبب في ذلك**: أنه لم يوجد عندهم تحكيم لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإنما حكَّموا أهواءهم، كانت الأهواء هي المحكمة، لم يكن العلم المستمد من

(١) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

الكتاب والسنة هو المحكّم.

ولهذا لما ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما بالقرآن واحتج عليهم بالقرآن رجع منهم أربعة آلاف لوضوح الأمر، الأمر واضح والدلائل بينة ليس معهم حجة ولا برهان وإنما الذي معهم هو الأهواء، يحكمون أحكاماً بأهوائهم لا دليل عليها من كتاب الله ولا دليل عليها من سنة رسول الله ﷺ، وإنما يمارسون أنواعاً من الظلم والبغي والعدوان والجور وإراقة الدماء والاعتداء على الأموال إلى غير ذلك من الأمور يفعلونها تديناً ويزعمون أنهم فيها على بينة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وكل ذلك ادّعاء، ومن كتب الله سبحانه وتعالى له الهداية منهم عرفها من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام لما بُينت لهم بالدليل الواضح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ ولهذا قال المصنف هنا: (**وفيه حديث الخوارج وقد تقدم**)؛ الخوارج شأنهم كما تقدم أهل صلاة وأهل قراءة للقرآن وأهل انتساب للإسلام، ومع ذلك قال فيهم رسول الله ﷺ: (يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ).

ويأتي هنا السؤال الذي يتضح به مراد المصنف من إيراده لحديث الخوارج وهو: لماذا قال النبي ﷺ في الخوارج: (يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ)؟ مع أنهم يصلون ويقرؤون القرآن وينتسبون إلى الدين، لم ينتسبوا لا إلى اليهودية ولا إلى النصرانية ولا إلى ملة أخرى وإنما هم منتسبون إلى الإسلام فقط، ويصلون ويجتهدون في قراءة القرآن ويكثرون من ذكر الله سبحانه وتعالى، ولما سُئل علي عنهم قيل له أمنافقون هم؟ قال: «المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا وهؤلاء يذكرون الله

كثيرا»، فإذاً لماذا وصفهم النبي ﷺ بقوله: (يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ)؟

يأتيك الجواب وهو: أن مجرد الانتساب للدين والصلاة وقراءة القرآن وحدها لا تكفي، لابد من وجود حقيقة الإسلام؛ وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة؛ أن يكون في عبادته موحداً مخلصاً، وأن يكون لحكم الله وأمره وشرعه منقاداً مستسلماً.

أما الذي يجعل هواه هو الحاكم على شرع الله ﷻ فأين الاستسلام؟ وأيضا من لا يخلص العبادة لله ﷻ أين الإسلام وأين الاستسلام؟ وهذا أمرٌ سبقت الإشارة إليه؛ من استكبر عن عبادة الله وطاعته أين إسلامه؟ ومن جعل لله شريكاً معه في العبادة أين إسلامه؟ فلا يكون الإسلام إلا بالإخلاص للمعبود ﷻ، والاستسلام له ﷻ بالطاعة، وتحكيم شرعه سبحانه، والانقياد لحكمه ﷻ.

المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون»**[1].

الشرح

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث أيضا ليبين هذا الأمر، وأن مجرد قرابة الإنسان من

(١) رواه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥)، ولكن بلفظ: «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي، يَعْنِي فُلَانًا، لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

النبي ﷺ أو نحو ذلك لا يكفي، قال ﷺ: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون**»؛ «آل أبي فلان» يشير النبي ﷺ إلى بعض من لهم به صلة من قرابة، فيقول: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء**»، لأنه لم يوجد فيهم حقيقة الإسلام ولم يوجد فيهم التوحيد لله ﷻ، فقرابة الإنسان بنسبه من النبي ﷺ لا تفيده ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون:١٠١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]؛ فالعبرة بتحقيق التقوى لله ﷻ ولهذا قال: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء**»، من الوَلاية - بفتح الواو وليس بالكسر- أولياء وهي المحبة؛ أي ليسوا من أحبتي، ليسوا من أهلي، ليسوا من أهل ولايتي أي ممن أحبهم.

إذاً من هم أولياءه؟ قال: «**المتقون**»؛ أي لله ﷻ، فمن كان مؤمناً تقياً كان لله وليا، بالإيمان والتقوى تُنال الوَلاية؛ لا بمجرد الادِّعاء ولا بمجرد أيضا صلة القرابة، ولهذا الشرك أبعَدَ أبا لهب مع أنه عم النبي ﷺ، ونزل في ذلك وحي يتلى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة المسد]، وأبو لهب عم النبي ﷺ أخو والده، وقرّب الإسلام سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال رضي الله عنهم وهم من الموالي.

فالذي يقرّب هو الإسلام، والذي يبعِّد هو الكفر وعدم الاستسلام.

قال ﷺ: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون**»؛ الحديث

يدل على أن الادّعاء لا يكفي؛ لابد من تحقيق تقوى الله ﷻ، وتقوى الله أحسن ما عُرِّفت به؛ قول أحد التابعين: هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله؛ فهذه حقيقة التقوى.

في معنى قول النبي ﷺ: **(إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون)** يقول أحدهم نظمًا وقد أورده ابن رجب رحمه الله في كتابه «جامع العلوم والحكم»:

لَعَمْرُكَ ما الإنْسَانُ إلاَّ بِدينِهِ
فَلا تَتْرُكِ التَّقْوى اتِّكَالاً عَلَى النَّسَبْ
لَقَدْ رَفَعَ الإسْلاَمُ سَلمَانَ فَارِسٍ
وقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّقِيَّ أبَا لَهَبْ[١]

◈◈◈◈◈

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٤٨).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وفيه أيضا عن أنس: أن رسول الله ﷺ ذُكر له أن بعض الصحابة قال: أمّا أنا فلا آكل اللحم، وقال آخر: أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر فقال ﷺ: (لكنني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)(١).

فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسُمِّي فعله رُغوباً عن السنة فما ظنك بغير هذا من البدع؟ وما ظنك بغير الصحابة؟!

## الشرح

قال رحمه الله: (وفيه أيضا عن أنس أن رسول الله ﷺ ذُكر له أن بعض الصحابة قال: أما أنا فلا آكل اللحم، وقال آخر: أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر)؛ هؤلاء نفر من أهل الاجتهاد والحرص على العبادة والتديّن جاءوا وسألوا في بيت النبي ﷺ عن عبادته، عن صلاته، عن قيامه لليل، عن صيامه؛ فوجدوا أنه عليه السلام متزوج وله أكثر من زوجة، والزواج والصلة بالزوجة له متطلبات و«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

لِأَهْلِي»[(١)]، وجدوا أيضا أنه يأخذ حظه من نوم الليل؛ ينام حظًا من الليل ويقوم حظا منه، وأيضا ليس كل وقته في صلاة، بل يصلي ويقوم بأعمال أخرى في أوقات أخرى، فسألوا عن عبادته فوجدوها بهذه الصفة فتقالوها ورأوا أنها أقل من المطلوب؛ قالوا هذا قليل!! تقالوا عبادة من؟ أفضل عباد الله ﷺ!! ليس في عباد الله أفضل عبادةً منه ﷺ، فتقالوا العبادة ثم نشأ عندهم مخالفة.

لاحظ هنا متى تنشأ المخالفة عند الإنسان؟ عندما يوجد فيه شيء من الرغبة عن السنة.

والرغبة عن السنة لها أسباب ومولدات، ومن مولداتها: أن يرى الإنسان في السنة ما لا يكفي، انظر هذا على سبيل المثال فيمن يجتهدون في الأذكار المحدثة؛ تجد أحدهم في يده سبحة فيها ألف خرزة ولا نعرف في الأذكار الشرعية ما يُعدّ ألف مرة، وتجده يعُد أشياء بالآلاف بسبحته تضبط له هذا العدد، وفي الوقت نفسه سنن صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ في ذكر الله هو من أجهل الناس بها!! فيجتهد فيما ليس مشروع ويدع المشروع، ولو ذكرتَ له المشروع مثلاً من أذكار الصباح والمساء يقول: (هذا قليل؛ نحن نشتغل من بعد صلاة الفجر إلى الساعة العاشرة بالليل، هذه ما تكفي، قليلة)، فتجده يرغب عن السنة ولا يراها كافية ويراها قليلة، ويشتغل بما ليس بسنة وبأمرٍ ليس مشروعًا،

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣١٤).

فيمضي يعد أعدادًا معينة يضبطها بخرزته أو بسبحته وهي لا دليل عليها، ولو كان يذكر الله الذكر المطلق لا إشكال في ذلك، فالإنسان مطلوبٌ منه أن يجتهد في التسبيح وذكر الله في كل أوقاته وجميع أحايينه، لكن هذا التقييد وبأعداد معينة هذا أمرٌ لا دليل على مشروعيته من هدي النبي ﷺ وسنته.

فهؤلاء تقالوا عبادته ﷺ، ولما تقالوا العبادة ألزم كل واحد نفسه باجتهادٍ في أمر لا دليل على مشروعيته.

(فقال أحدهم: **أما أنا فلا آكل اللحم**)؛ يعني من الآن والوقت القادم لن آكل لحمًا، والنبي ﷺ يأكل اللحم، وكان يحب ﷺ الذراع أو الكتف ويأكله ﷺ.

(وقال الآخر: **أما أنا فأقوم ولا أنام**)؛ يعني الليل كله لا أنام، أظل قائمًا أصلي.

(وقال الآخر: **أما أنا فلا أتزوج النساء**)؛ كأنه بزعمه أن الزواج يشغل عن الصلاة وعن العبادة.

(وقال الآخر: **أما أنا فأصوم ولا أفطر**) يعني أمضي أيامي كلها صائمًا لا أفطر.

فسمع النبي ﷺ بكلام هؤلاء فقال: (**لكنني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم**)؛ يعني كل هذه الأشياء التي قالوها هي على خلاف هديي وعلى خلاف سنتي؛ أنا أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم كل هذه الأمور أفعلها.

**(فمن رغب عن سنتي فليس مني)**: الآن لاحظ ملاحظة مهمة في الموضوع؛ هؤلاء الذين فعلوا هذه الأمور فعلوها تدينًا وتقربًا واجتهاداً في التقرب إلى الله ﷻ وطلب ثوابه، ومع ذلك يقول ﷺ: **(إني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)** يعني هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني.

الآن أكل اللحم؛ لو كان الإنسان لا يأكل اللحم قال أنا لا آكل اللحم لأنه ثبت لي أنه يضرني صحيا هل هذا يؤثر على تدينه على اتباعه للسنة؟ إنسان نُصح أن لا يأكل اللحم، قيل له إن معك المرض الفلاني واللحم يضرك فترك أكل اللحم لهذا الغرض هل يؤثر؟ لا، لكن لو قال أنا لا آكل اللحم متقربا إلى الله ﷻ يتدين ويتقرب إلى الله بترك أكل اللحم، فهذا تقرب إلى الله ﷻ بما لم يشرع، لو أن إنسانا قال: والله أنا ما آكل لحم لأني لا أشتهيه ولا أحب أكله، نفسي ما ترغبه أجدني أعافه، النبي ﷺ امتنع من أكل لحم الضب مع أنه مباح قال: «أَجِدُنِي أَعَافُهُ»[1]؛ فامتناع الإنسان من أكل اللحم خوفًا على صحته لمرض معه أو لأن نفسه لا تقبله أو نحو ذلك هذا لا يضر، لكن هذا الذي قال: **(أنا لا آكل الحم)** فعل ذلك على وجه التدين يريد أن يتقرب إلى الله ﷻ بهذا، وهذا أمر ما شرعه الله له، فالتدين والتقرب إلى الله بما شرع ولهذا قال النبي

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٨١٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٢٠).

ﷺ: «وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وذكر أنه يتزوج النساء أيضًا؛ من ترك الزواج مثلا لفقره أو لا إربة له في النساء أو لسبب آخر هذا لا يضره، لكن لو ترك الزواج يتدين بذلك ويرى أن هذه من القربات ومن العبادات ومن الأعمال الصالحات التي يتقرب بها إلى الله ﷻ فتقرب إلى الله بترك الزواج هذا ليس على سنة النبي ﷺ.

وكذلك من يُلزم نفسه بإلزام هؤلاء يصلي ولا ينام، ويصوم ولا يفطر فهؤلاء كلهم ليسوا على سنة النبي ﷺ.

لاحظ في حق من صلى وصام واجتهد في الصلاة والصيام ومع ذلك سمى النبي ﷺ هذا الاجتهاد في الصلاة والصيام رغبةً عن السنة!! إذاً لا يكفي مجرد الانتساب ومجرد الصلاة والصيام؛ بل لابد من وجود حقيقة الاستسلام والاتباع والاهتداء بهدي الرسول الكريم ﷺ.

قال: «**ولكني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني**» قارن قوله: «**فمن رغب عن سنتي**» بقوله قريبًا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾؛ فالرغبة عن ملة إبراهيم ﵇ والرغبة عن سنة النبي الكريم ﷺ لا يؤدي بالإنسان إلا إلى الهلكة والخسران، والذي

(١) قال العلامة ابن باز ﵀: (الله شرع لعباده ما لا يشق عليهم وما لا يعنِّتهم، فلا يجوز التنطع والتكلف، وفي سنة الرسول ﷺ الكفاية، فهو أفضل الناس، وخير الناس ﷺ) «تعليق على كتاب فضل الإسلام» (ص ٣٨).

يجب على المسلم أن تقوم فيه رغبةٌ في ملة إبراهيم عليه السلام ورغبةٌ في سنة نبينا الكريم ﷺ؛ حفظًا لها ومحافظةً عليها وعنايةً بها واجتهاداً في تعلمها والعمل بها ليكون من أهل سنته وليكون من أهل ملة إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا وعلى جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه.

فهذا كله يبين أن الأمر لا ينال بمجرد الدعاوى بل لابد من وجود حقيقة الاتباع والالتزام بسنة النبي ﷺ.

مرة ثانية أو ثالثة: هؤلاء الآن النفر الذين أتوا إلى بيت النبي ﷺ وسألوا عن عبادته؛ اسأل هنا ما سر هذا السؤال؟ رغبة في الخير أو رغبة في الشر؟ رغبة في الخير؛ يريد أن ينظر في عمل النبي ﷺ الذي هو القدوة، فنظر في عمله فوجده بظنه قليلاً، فالتزم لنفسه صلاةً أكثر وصياما أكثر من باب حرصه على الخير وحرصه على العبادة، فالذي وُجد منهم صلاة وصيام، والذي قاله النبي ﷺ في حقهم: (من رغب عن سنتي فليس مني)، صلاة وصيام ونبينا ﷺ يقول: (من رغب عن سنتي فليس مني)!! هذا يدلنا على أن الصيام والصلاة لابد أن يكون على السنة.

أحد السلف مرةً رأى رجلا يصلي متنفلاً بعد صلاة العصر فنهاه فقال له ليس هذا وقت صلاة، فقرأ الرجل في حقه قول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق:٩-١٠]؛ يعني تنهاني عن الصلاة والله يقول: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾؟ قال: أنا لا أنهاك عن الصلاة ولكن أنهاك عن البدعة.

فالصلاة وهي صلاة - صلة بين الله وبين عبده - إذا كانت على المخالف للمشروع لا تكون من سنة النبي ﷺ بل تكون رغبةً عن سنته، «**ومن رغب عن سنتي** -يقول ﷺ- **فليس مني**»، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون في صلاته وفي صيامه وفي ذكره لله وفي عباداته ملتزمًا بهدي النبي الكريم ﷺ ليكون من أوليائه ﷺ حقًا وصدقا.

ثم قال المصنف ﷺ معلقًا على الحديث الأخير: (**فتأمل**) أي: تفكر وتدبر في هذا الأمر ينفعك الله به.

(**تأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة**) ومعنى التبتل: أي الانقطاع للعبادة وشغل الوقت كله بها، يعني ليس عنده وقت إلا للعبادة؛ لا يأكل لحم وذاك لا ينام وذاك لا يفطر وذاك لا يتزوج أراد أن يتبتل أن ينقطع للعبادة: (**قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسُمي فعله رغوبًا عن السنة**) أي: رغبةً عنها وعدولاً عنها، قال فيهم النبي ﷺ هذا القول الغليظ: (فمن رغب عن سنتي ليس مني)؛ سمى فعلهم رغبةً عن السنة وقال هذا القول الغليظ: (ليس مني)؛ يعني من كان على هذا النهج.

وتأمل مرة ثانية: يصلي باجتهاد ويصوم باجتهاد والنبي ﷺ يقول: (ليس مني)، ويقول: (من رغب عن سنتي)!! فتبين بهذا أنه لابد من وجود حقيقة الإسلام وهي الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة واتباع النبي الكريم ﷺ ولزوم ما جاء به، ولهذا قال العلماء: لا يُقبل من الإنسان دينه وعمله إلا

بشرطين: إخلاص العمل لله، وموافقة العمل لسنة رسول الله ﷺ، وقد جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في معنى الآية: «أي: أخلَصُه وأصوَبُه»، قيل: يا أبا علي وما أخلَصُهُ وأَصْوَبُه قال: «إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولَم يكن صوابًا لَم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لَم يُقبَل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالصُ ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة»[(١)].

قال المصنف رحمه الله: **(فما ظنك بغير هذا من البدع؟ وما ظنك بغير الصحابة؟)**؛ أمرين ينبه عليهما رحمه الله:

- **الأمر الأول**: يقول: **(فما ظنك بغير هذا من البدع؟)**؛ الصلاة والصيام عبادات مشروعة لكن الصفة التي التزمها هؤلاء في أداء هذه العبادات ليست مشروعة؛ وهي أن يصوم ولا يفطر والآخر يصلي ولا ينام هذا أمر غير مشروع، مع أن الصلاة من حيث هي مشروعة والصيام أيضا مشروع، والابتداع الذي وُجد هنا في هذا العمل يسمى «بدعة إضافية»، وقد مر معنا أن البدعة تنقسم إلى قسمين: بدعة إضافية، وبدعة حقيقية.

فإذا كان النبي ﷺ قال هذا في حق هؤلاء الذين أرادوا فعل أمرٍ مشروع ولكنهم أضافوا وزادوا فيه على المشروع وأتوا فيه بأمرٍ غير مشروع، فكيف بمن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص:٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

جاء ببدعة حقيقية ليس لها أصل في الشرع واجتهد فيها وحافظ عليها!! مثل من يُحيون ليالي بمسميات معيّنة - ليلة كذا وليلة كذا - يحيونها بأعمال لا دليل عندهم على مشروعية الإحياء ولا على وقته ولا أيضا على الأعمال التي يمارسونها في ذلك الإحياء لتلك الليالي، فهي بدع حقيقية ويجتهدون فيها!! إذا كان النبي ﷺ قال في حق من قال: أصوم ولا أفطر، وحق من قال: أصلي ولا أنام: (من رغب عن سنتي فليس مني)، فكيف بمن يأتي بأمور لا أصل لها في الشرع ولا وجود لها في الشرع لا في وقتها ولا في حقيقتها ولا في الأعمال التي تمارس فيها، فكيف الأمر بمثل هذه الأعمال!! فالمصنف ينبه على هذه الفائدة؛ يقول: إذا كان النبي ﷺ قال هذا في أعمالٍ هي مشروعة في الأصل فكيف بمن جاء بأعمال لا أصل لها في الشرع؛ محدثة من أساسها في صفتها وفي كيفيتها وفي وقتها من أساسها محدثة ثم يفعلها متقربا بها إلى الله!! إذا كان النبي ﷺ قال في أولئك: (من رغب عن سنتي) فماذا يقال في هؤلاء؟ هذه واحدة.

- **الثانية**: قال (**وما ظنك بغير الصحابة؟**) فالذين قال أحدهم أصوم ولا أفطر، والثاني قال أصلي ولا أنام إلى آخره، هؤلاء من الصحابة ولكنهم أخطئوا من باب شدة الحرص والرغبة في الخير ونبههم النبي عليه الصلاة والسلام على هذا الخطأ وبيّن أنه رغوب عن السنة، وأن من كان كذلك فليس من النبي ﷺ، والذي يُظن أن هؤلاء بلغهم هذا التوجيه وعدَلوا عن هذا الأمر الذي توجهوا إليه من باب الرغبة ورجعوا إلى ما وجههم إليه النبي عليه الصلاة والسلام.

فإذا كان النبي ﷺ قال هذا في حق بعض الصحابة فكيف بمن هو ليس من الصحابة!!، فهذه لفتة عظيمة ينبه لها المصنف رحمه الله وكأنه يقول لك: اتق الله وانتبه؛ ولا تتقرب إلا إلى الله مخلصًا له الدين، ولا تتقرب إلى الله إلا بما شرعه الله لك.

- فمن لم يجعل تقربه لله خالصًا لم يُقبل منه عمل، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].
- ومن تقرب إلى الله بغير ما شرع لم يُقبل منه، قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2] أي مردود على صاحبه.

فالواجب على المسلم أن يجتهد في تحقيق حقيقة الإسلام بالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ.

◆◆◆◆◆

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

باب قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة:١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

## الشرح

قال المصنف رحمه الله: (باب قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾)؛ هذه الترجمة عقدها المصنف رحمه الله ليبين بها حقيقة الإسلام، وأن فضائل الإسلام العظيمة التي ينالها أهل الإسلام لا تُنال إلا بإقامة الوجه للدين؛ بالتزامه والمحافظة عليه والعناية به والسعي في تحقيقه وتتميمه وتكميله، وأعظم شيء في ذلك إخلاصه لله سبحانه وتعالى والبعد عن الشرك، وأن يكون المسلم حنيفاً مخلصاً بعيداً عن الشرك بالله وصرف العبادة لغير الله مقبِلاً على الله سبحانه وتعالى بفعل ما أمر وإقامة فرائض الدين وواجباته.

فحقيقة الإسلام ونيل فضائله العظام لا تكون إلا بهذا؛ ولهذا أورد المصنف رحمه الله هذه الترجمة وجعل عنوانها هذه الآية الكريمة لكونها دالة على المقصود،

وساق من الآيات والأحاديث ما يبين هذا الأمر.

قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ إقامة الوجه تكون بالإخلاص لله ﷻ بأن يقبل في أعماله وعبادته وجميع طاعاته بوجهه إلى الله ﷻ؛ فيقصده وحده ويبتغي وجه الله بالعمل يريد بعمله ثواب الله.

هذه إقامة الوجه، إقامة الوجه: بإقباله على الله ﷻ وانصرافه عما سواه، وأن يكون مقبلا بقلبه ووجهه وعبادته وأعماله وطاعاته إلى الله ﷻ، لا يجعل لأحدٍ بها حظا أو نصيبا، وإنما تقع منه كلها لله ﷻ فيقصده وحده.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾؛ والدين: هو توحيد الله وعبادته والصلاة والصيام وكل ما شرع الله ﷻ من أوامر تُفعل ونواهي تُترك؛ كل ذلك يشمله قوله: ﴿ٱلدِّينَ﴾.

الدين هو شرع الله ﷻ وما أمر الله ﷻ عباده به.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: أي استقم على دين الله ﷻ مخلصًا له[1]؛ فثمة أمران هنا لابد منهما: وهو ابتغاء الله بالعمل، والثاني: الجد في العمل بالمحافظة عليه وحفظه والعناية به؛ فبهما يتحقق للعبد إقامة وجهه للدين، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ بالاستقامة على الدين محافظةً عليه، وبإيقاعه خالصا لله، ولهذا نعيد هنا ما سبق وهو: أن من استكبر عن العمل لم يُقِم وجهه للدين، ومن صرف العمل لغير وجه الله لم يُقِم وجهه للدين؛ فإقامة الوجه للدين لابد فيها من الإخلاص

(١) والخطاب للنبي ﷺ في هذا الموضع خطاب لأمته ﷺ؛ قال الإمام القرطبي رحمه الله: «ودخل في هذا الخطاب أمته باتفاق من أهل التأويل» «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٢٤).

والاستسلام؛ الإخلاص لله: بأن يبتغي بالعمل وجه الله ﷻ، والاستسلام له ﷻ: بفعل ما أمر، هذا معنى قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾.

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾؛ الحنيف: هو المائل عن الباطل والضلال إلى الحق والهدى، عن الشرك والكفر إلى الإيمان والتوحيد.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: اتجِه بقلبك وقالبك لإقامة دين الله الذي شرعه لك مخلصاً له، وكن متجافياً مائلاً حذراً مبتعداً عن الباطل الذي أخطره وأشرّه على الإنسان الشرك بالله ﷻ.

والحنيفية: ملة إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠] هي ملته، فيكون العبد بهذه الصفة يعيش حياته بهذه الصفة ويبقى مجاهداً نفسه على تحقيق هذا المعنى إلى أن يتوفاه الله كما يأتي إيضاح هذا المعنى في الآية الثانية، أن يقيم الإنسان وجهه لله بإقامة دينه مخلصا له ويثبت على ذلك إلى أن يموت على ذلك ويلقى الله ﷻ بالإسلام.

قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ﴾؛ هذا الذي طُلب من الناس إقامة الوجه للدين حنيفاً هو الفطرة، والفطرة: ما جُبل الناس عليه، وما خُلق الناس مفطورون عليه، ليس أبناء المسلمين فقط بل أبناء بني آدم كلهم فُطروا على ذلك، فُطِروا على إقامة الوجه لله، هكذا فطروا على الملة، على الحنيفية، ولهذا جاء في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال: (خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ

فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)(١)، وجاء في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا»(٢)، البهيمة عندما تنتج وتولد تراها جمعاء؛ ليست مقطوعة أذن ولا مكسورة قرن ولا مقطوعة يد تجدها جمعاء أي مكتملة الأطراف، وإذا رأيت فيها جدعًا؛ أذنًا مقطوعة أو قرناً مكسورًا أو يداً مبتورة فهذا الجدع لم تولد به «حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا»، فهذا مثل ضربه النبي ﷺ لبيان حال المواليد من بني آدم وأنهم يولدون على الفطرة.

والفطرة كما في الآية: إقامة الدين لله، ولهذا قال العلماء: المراد بالفطرة هنا الإسلام، وليس هذا يعني أن المولود يولد عالمًا بالإسلام وتفاصيله، وإنما المراد أن المولود يولد على الفطرة بإقامة الوجه لله ﷻ والإقبال عليه وطلب الثواب منه وأداء العبادة له، أما تفاصيل الدين لا تُعرف بالفطرة لابد فيها من الوحي، ولهذا قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢] الشاهد قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾، والمراد بقوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾: أي تفاصيله، فتفاصيل

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

الإيمان وتفاصيل الشرائع لا سبيل إلى العلم بها إلا من جهة الوحي، وأما تهيؤ الإنسان وإقباله وقبوله وإقامة وجهه وإخلاصه لله هذه أمور فُطر الناس عليها؛ وهي الإسلام، وهي الدين القيم، ولو خُلِّيَ بين الإنسان وفطرته ولم يُعبَث بها لما أقبل على غير الدين ولما قبِل غير الإسلام؛ لأن كل العقائد مصادمة للفطر، وغرْسها في الناس حرفٌ للفطرة، بخلاف غرس الإسلام والتربية عليه هذا بناء للفطرة، وقابلية القلب له قوية جداً لأنه يتواءم مع الفطرة التي فُطر عليها، بينما كل عقيدة أخرى فغرسها في القلب حرفٌ للفطرة.

ولهذا أخذ كل العلماء من هذا فائدة عظيمة: أن التربية على الإسلام ليست عسيرة، لأنك تربي فيه شيئًا يتواءم مع فطرته ليس شيئًا مصادمًا لها، بينما التربية على العقائد الباطلة إقحام أمور مناقضة للفطرة في القلب ومباينة لها، ولهذا يعيش أبناء الكفار صراعًا في قبول أمور فاسدة تردُّها فِطَرهم وتأباها ولكنها تُفرض عليه وتُغرس فيه بالمخاوف وبالترغيب وبالتهديد وبذكر أمور تُغرس فيه إلى أن تذهب الفطرة ويحل محلها فساد العقائد، «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُم عَنْ دِينِهِمْ»(١)، ولاحظ الإجتيال: نزع الإنسان وإخراجه من شيء ثابت فيه وُلد عليه فُطر عليه، في الحديث قال: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)؛ فهو يولد على الفطرة، على الإسلام، على الإقبال على الله، على إخلاص الدين لله ﷻ، يمضي على

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

هذه الحياة؛ وإلا هو إذا نشأ ابنـًا لأحد الكفار وبين أبوين كافرين وفي مجتمع كافر، الأبوان والمجتمع يحدُث منهم اجتيال لهذه الفطرة وقتلٌ لها، لأنه ينشأ على أمور لا تبني فطرته بل تهدمها، لا تقيم فطرته بل تحرفها، وكما قدمت ينشأ في صراع إلى أن ينشأ على ما عوّده عليه أبواه وما اعتاد عليه مجتمعه من الانحراف، وإلا في البداية يرى أموراً غير مرغوبة.

أحد المهتدين يحدّث عن نفسه وكان من عبدَة الأصنام، نشأ في مجتمع فيه عبادة الأصنام، يقول: ( فأخذني والدي إلى المعبد فلما دخلت وجدتُ أحد الكلاب يبول على الصنم فانقبضت نفسي منذ ذلك اليوم عن هذا الدين ووجدته دينٌ مقيت، دين مبغوض، آتي إلى هذا الحجر لأطلب منه حاجتي وعليه كلب يبول!! يقول وبقيت على هذه العقيدة وأنا كارهٌ ومبغض لها؛ لكن هذا هو ديني وهذا دين آبائي وهذا دين مجتمعي)، ثم يسّر الله له أن جاء عاملاً في هذه البلاد ورأى التوحيد وأعلن توبته وأعلن كراهيته لدينه منذ صغره ولكنه لم يجد مجالاً للتخلي عنه والإقبال على دينٍ صحيح يُعرَّف به.

ولهذا كثير منهم تجده كارها لدينه مبغضا له لكنه معتنق له مع مجتمعه، وما أن يلوح له أمارات التوحيد وضياء الإسلام إلا ويُقبل عليه بانشراح.

وهذا يدلنا على حاجة البشرية الماسة إلى إشاعة نور التوحيد والدعوة إليه وبيان محاسن الدين حتى يُعاد الناس إلى فطرهم الصحيحة التي حُرِفت عما خُلقت له وما أوجدت عليه من إقامة الوجه لله ﷻ دون سواه.

وذكّرتني قصة هذا المهتدي بقصة مشركٍ قصد صنماً من الأصنام وجد فوق رأسه ثعلب يبول، والبول يصب من فوق رأس الصنم إلى أخمص قدميه، فنظر إلى هذه الحال وأنشد بيتاً من الشعر ورجع، قال:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثّعْلَبَانُ بِرَأْسِهِ
لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثّعَالِبُ[1]

فعلى كل حال؛ الإسلام هو دين الفطرة، والله ﷻ فطر بني آدم كلهم على الإسلام؛ قبوله والإخلاص لله ونبذ الشرك والحنيفية السمحة؛ وتفاصيل هذا الدين لا تُعرف إلا بالوحي؛ وحي الله ﷻ.

قال: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾؛ خَلْقِ الله: أي ما فطرهم ﷻ عليه وهو دين الإسلام، دين الفطرة الذي لا يقبل ﷻ ديناً سواه، فمن بدّل أو غيّر أو ابتغى لنفسه غير هذه الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها فهي مردودة عليه، لا يقبل الله ﷻ من الناس ديناً إلا ما فطرهم عليه وهو إقامة الوجه للدين حنيفا.

قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾؛ أي دين الفطرة الذي هو الإسلام، الذي هو إقامة الوجه لله، الذي هو الاستسلام لله ﷻ؛ هو الدين القيِّم، الدين المستقيم الموصل إلى رضوان الله ﷻ وجنات النعيم.

---

(١) رواه أبو نعيم الأصبهاني في «دلائل النبوة» (٦٨)، وانظر: «البداية والنهاية» (٥/ ١٠٧)، و«الخصائص الكبرى» (٢/ ٥١).

وكل طريق سواه فلا يوصِل إلى رضا الله ولا يوصل إلى جنته، فلا يُنال رضاه ﷻ ولا تُبلغ جنته إلا بإقامة الوجه للدين؛ الذي هو دين الله ﷻ القيم.

ثم ختم الآية بقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه الحقيقة مع جلائها ووضوحها وكونها مغروسة في الفطر مركوزة في النفوس لكن الواقع ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فأكثر الناس مجتالةٌ فطرهم، لم يبقوا على الفطرة التي فُطروا عليها بل انحرفوا إما إلى مجوسية أو إلى يهودية أو إلى نصرانية أو غير ذلك من الأديان التي لا حصر لها.

﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ الذين يعلمون أقل الناس ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، فأكثر الناس على غير الفطرة، فطَرهم بُدِّلت وغُيِّرت، والأقل هم الذين سلِمت لهم فطرهم وبقيت دون تغير ودون تبدل، وهذا أيضا يفيد أن العبرة ليست بالكثرة، ولهذا قال بعض السلف: (عليك بالحق وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ ولا تستوحش من قلة السالكين)[1]، لأن العبرة ليست بالكثرة، وليس المقياس بكثرة العدد، المقياس هو وجود الحق ولو كان الإنسان وحده، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «الجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الحَقّ،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢)، و«الاعتصام» (١/ ٦٠).

وَإِن كُنْتَ وَحْدَكَ»(١).

لو كان الإنسان وحده وهو على الحق وعلى الدين الصحيح الذي فطر الله ﷻ الناس عليه، يقيم وجهه لله وما سواه على الشرك؛ فالحق معه وليس معهم، ولهذا وصف الله ﷻ إبراهيم الخليل ﵇ بأنه أمّة؛ أي إمامٌ في الخير وحده: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾.

ثم أورد ﵀ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾، منبِّهًا بذلك ﵀ إلى أن إقامة الوجه للدين حنيفًا الذي هو فطرة الله ﷻ هو دين الأنبياء ووصيتهم، فوصية الأنبياء إقامة الوجه لدين الله حنيفا بالإخلاص للمعبود في الأعمال كلها، والاستسلام له بفعل ما أمر وطاعة رسله عليهم صلوات الله وسلامه؛ فهذا هو دين الأنبياء ووصيتهم وميراثهم، قد قال ﷺ: «وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(٢)، والعلم الذي ورّثه الأنبياء هو هذا؛ إقامة الوجه للدين حنيفا؛ بالبعد عن الشرك والإخلاص لله ﷻ والاستسلام له ﷻ وطاعة رسله.

قال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾؛ وصى بها: أي هذا الأمر وهو

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١٦٠).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

الإسلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾؛ وصاه بالإسلام والاستسلام لله ﷻ وإقامة الوجه له وإخلاص الدين له والبعد عن الشرك بأنواعه؛ هذه وصية أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه.

قال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾؛ وصية الأب لابنه هي وصية المشفق الحريص الذي يختار خير أمرٍ وأعظم أمرٍ يعهده لابنه.

فهذه وصية الأنبياء لأبنائهم ولأممهم؛ وصيةٌ بتوحيد الله وإخلاص الدين له ﷻ والبعد عن الشرك.

قال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي ووصى بها يعقوب بنيه قائلين: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ هذه الوصية الآن، أعادها مع أنه أشير إليها بالضمير في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أعاد ألفاظها تبيينًا واهتمامًا بها ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ هذه وصية الأنبياء وهذه خلاصتها، وهذه الخلاصة التي هي وصية الأنبياء هي في حقيقة الأمر زبدة رسالتهم وخلاصتها وصفوها.

﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ اصطفاه: أي اختاره ورضيه، ولا يرضى ﷻ دينًا سواه، وقد مر معنا آيات بهذا المعنى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، اصطفاه: أي اختاره دينا ولا يقبل دينًا

سواه؛ فعليكم بهذا الدين الذي اصطفاه لكم واختاره لكم ولا يقبل منكم دينًا سواه، ولو أقام الإنسان وجهه حياته كلها على غير ما اصطفاه الله له ورضيه دينًا له لا يقبله الله منه، لو واصل الليل بالنهار عاملاً كادًّا مجتهداً لا يقبل الله منه، فكما أنه ﷻ لا يقبل من العمل إلا العمل الخالص؛ فهو لا يقبل من العمل إلا العمل الذي شرع وهو الدين الذي اصطفاه ﷻ لعباده وهو قائم على أمرين: إخلاص له، وعمل بما شرع لا بالضلالات والأهواء والبدع.

قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ والدين: شرْعه ﷻ القائم على توحيده وإسلام الوجه له ﷻ.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾: أي أقيموا وجوهكم لهذا الدين مستمرين عليه ماضين عليه محافظين عليه مجاهدين أنفسكم على الثبات عليه إلى الممات، وهذا هو معنى قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، وهذا مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢]؛ والأمر بالموت على الإسلام في قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ يعني الاستقامة على الإسلام والمحافظة عليه وإقامة الوجه للدين حنيفا والمضي على ذلك إلى أن يموت الإنسان[1].

---

(١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك» «تفسير القرآن =

والإنسان لا يدري متى يموت؛ قد يموت بعد يوم وقد يموت بعد ساعة، وقد يموت بعد سنة وقد يموت بعد مئة سنة، أمر مغيّب لا يدري عنه الإنسان: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان:٣٤]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد:٣٨]، والموت لا يفرّق بين صغير وكبير، قد يدخل الموت إلى بيت فيه رجل مسن جاوز السبعين أو الثمانين أو جاوز المئة ويدَعه ويأخذ طفلاً صغيرًا في البيت، وكم من بيوت عندهم رجل مسن وبين ساعة وأخرى يتوقعون أن يفتقدوه ثم يفاجئون بافتقاد طفل صغير!! فالموت لا يفرق بين صغير وكبير ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ بأن يحافظ الإنسان على إسلامه مستقيمًا عليه مجتهداً في تتميمه وتكميله إلى أن يتوفاه الله ﷻ على الإسلام.

قال سبحانه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أمرٌ بالموت على الإسلام، وهذا الموت على الإسلام يرجع إلى الثبات عليه، والله ﷻ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧].

ثم أورد ﵀ قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ

---

العظيم» (٢/ ٨٧).

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ وهذا تتويج للمعنى السابق؛ لما ذكر في الآية الأولى إقامة الوجه للدين حنيفا وبيّن في الآية الثانية أن هذا هو دين الأنبياء ووصيتهم ومنهم إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام توّج المعنى بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

**وهنا تقول:**

ما هي ملة إبراهيم التي أمِر نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام وأمته باتباعها؟

**الجواب:**

ملته ما جاء في هذا السياق: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، ملته هي وصيته التي أوصى بها بنيه ودعا إليها قومه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، هذه هي ملة إبراهيم: الحنيفية السمحة التي أمر نبينا عليه الصلاة والسلام باتباعها قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وملة إبراهيم عليه السلام هي الحنيفية السمحة؛ فإقامة الوجه للدين مخلصاً لله مطيعاً له ممتثلاً أمره عابداً له سبحانه وتعالى بما شرع.

فثبت عن نبينا صلى الله عليه وسلم في أذكار الصباح أنه كان يقول - ولاحظ اجتماع هذه المعاني في هذا الذكر -: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ»[١] كان ﷺ يقول ذلك إذا أصبح، ويقول ذلك إذا أمسى: «أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

**ومما ينبغي أن يُعلم هنا ويتأكد العلم به والعناية به**: أن هذه الأذكار ليست مجرد كلمات تقال، يقولها الإنسان إذا أصبح وإذا أمسى مجردةً عن العلم بمعانيها وتحقيق مضامينها؛ ليس هذا شأنها، وإنما هذه الأذكار فيها تجديد للتوحيد وتجديد للفطرة وتجديد للملة الحنيفية ملة إبراهيم، تجديدٌ للزوم العهد بإتباع الأنبياء ولزوم نهجهم، تجديدٌ لأخذ الميثاق على النفس بالبُعد عن الشرك الذي هو أظلم الظلم وأكبره، تجديدٌ للإيمان بلزوم الحنيفية السمحة، أرأيتم شخصاً يصبّح ويمسي بهذه الكلمات متأملاً في مضامينها مجتهداً في تحقيق ما دلت عليه؛ فإنه يصبح على خير يوم ويمسي على خير حال، على خير يبيت ويمسي ويصبح إذا كان على هذا الأمر ماضٍ مجدداً إيمانه مجدداً توحيده مجدداً حنيفيته والبراءة من الشرك، مجتهداً في تحقيق هذه المعاني.

وكل المضامين التي مرت معنا اجتمعت في هذا الذكر العظيم المبارك الذي يقال كل صباح ومساء ويشرع للمسلم أن يواظب عليه؛ «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٣٦٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦٧٤).

**فلاحظ هذه الكلمات الثلاث:**

«حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ» هي التي مرت معنا الآن في الآيات: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وفي الآية الثالثة: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ولاحظ الارتباط بين جُمَل هذا الذكر الأربع: «فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ»؛ هذه الأربعة شيء واحد أم مختلفة؟ الفطرة: هي التوحيد، هي لا إله إلا الله، هي ملة محمد ﷺ، هي دين أبينا إبراهيم عليه السلام، فالفطرة هي لا إله إلا الله هي توحيد الله إخلاص الدين لله، وهو الدين الذي بُعث به محمد ﷺ، وهو ملة إبراهيم الذي أمر نبينا عليه الصلاة والسلام باتباعه وأمِرت أمته باتباعه، هذا هو دين الله وهو دين الأنبياء كلهم من أولهم إلى آخرهم ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣]، قوله في حق الأنبياء وما شرعه الله ﷻ لهم هو هذا المعنى ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾، وهنا قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾؛ فهذا هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ

شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[١]؛ الدين الذي عليه الأنبياء واحد لكن الشرائع ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

حقيقة الدين: إخلاصٌ لله واستسلام لأمره، فمن لم يستسلم لأمر الله ﷻ بما أمره به لم يقِم وجهه للدين، وبهذا يتبين أيضا معنى سبق إيضاحه وهو: بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام وما شرع الله لنبيه ﷺ لا يقبل الله من عباده دينـاً سـواه، ومن عبَد الله ولو كان بشرعٍ غير مبدل -دعك من المبدَّل- بعد بعثة محمد ﷺ لا يقبل الله منه، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لأنه ﷻ لا يقبل في كل زمان إلا ما شرع وما أمر وأوحى إلى رسله به من الشرائع، سوى ذلك لا يقبله ﷻ.

إذًا هذه الترجمة وما فيها من الآيات وما فيها من الأحاديث التي سيأتي ذكرها عند المصنف تبين حقيقة الإسلام التي تنال به فضائل الدين العظام؛ أنه إقامة الدين لله مخلصاً حنيفاً ثابتاً على ذلك محافظاً عليه إلى أن يتوفاه الله ﷻ على ذلك؛ هذا هو الإسلام الذي تُنال به فضائله.

◆◆◆◆◆

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى»«فتح الباري»(٦/ ٤٨٩).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاَةً مِنْ النَّبِيِّينَ، وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم وَخَلِيلُ رَبِّي، ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران:٦٨]» رواه الترمذي.

## الشرح

قال: (وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاَةً مِنْ النَّبِيِّينَ)؛ أي أحبة، لأن الولاية تعني الحب، والمراد هنا بأن له ولاة: أي له أحبة؛ الأنبياء لهم مكانه خاصة ولهم مزية خاصة ولا يعني ذلك انتفاء المحبة عمن سواهم.

والأنبياء كلهم قد أخِذ عليهم الميثاق بالإيمان بكل رسول يبعثه الله والتزموا بذلك، ولهذا الأنبياء كلهم على طريقة واحدة، وعلى منوال واحد، وعلى سبيل واحد، وعلى نهج واحد، كلهم ماضون على مسلك واحد، كلهم دعاة إلى الله وتوحيده، يجمعهم دين الله والحب فيه والدعوة إليه وبلاغه للناس ودلالة الناس على الخير والحق والهدى.

وهنا قال ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاَةً مِنْ النَّبِيِّينَ»؛ يعني لهم شأن.

قال: «وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم وَخَلِيلُ رَبِّي»، والله سبحانه وتعالى لم يتخذ من عباده خليلاً إلا اثنين: إبراهيم الخليل عليه السلام، ونبينا ﷺ.

وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»(١).

فيقول ﷺ: «وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم»، ونبينا ﷺ من ولد إبراهيم عليه السلام؛ لأن نسبه يصل إلى إسماعيل بن إبراهيم، فإبراهيم أبوه ولهذا قال: (**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**).

(**وَخَلِيلُ رَبِّي**) ولاحظ تنصيص النبي ﷺ على الخلة التي ارتبط بها المعنى السابق وهو قوله: (**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)؛ وهذا يبين أن النبي ﷺ في حبه وفي ولاءه ينطلق من حب الله سبحانه وتعالى، فالله اتخذه خليلا فكان من شأنه ﷺ أن قال: (**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)، خصه الله سبحانه وتعالى بالخلة وهي أعلى درجات المحبة وأرفع منازلها.

(**ثم قرأ قول الله** سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾)؛ وفي هذا تنبيه على أمرٍ سبق إيضاحه عند المصنف في ترجمة مستقلة وهو أن هذا الباب لا يكفي فيه مجرد الدعوى ومجرد الانتماء، وكم من أناس على ملل باطلة وأديان زائفة ويدّعون أنهم أوْلى بإبراهيم عليه السلام، وقد مر معنا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران:٦٥]، ومر معنا سبب النزول؛ وأن اليهود قالوا: إن إبراهيم يهوديًا، والنصارى قالوا: إن إبراهيم نصرانيًا، ورد الله سبحانه وتعالى عليهم وكذّب دعواهم في هذا السياق المبارك.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٢).

وعقب هذا السياق الذي فيه تكذيب دعوى هؤلاء قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ أولى الناس به ليسوا من يدّعون أنهم أولياؤه وأحباؤه وهم على غير ملته وعلى غير دينه وعلى غير الحنيفية التي كان عليها ليسوا أولياءه، وقد قال نبينا ﷺ كما في حديث مر معنا قريبا: (إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما أوليائي المتقون

فهنا فيه تنبيه على هذا المعنى: (ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾)، كثيرون من يدّعون أنهم محبون له وأنهم أوْلى به، اليهود يدّعون ذلك، والنصارى تدّعي ذلك، والمشركون الذين بُعث فيهم ﷺ يدّعون ذلك، كلٌّ يدّعي ولكن الدعاوى ما لم يُقَم عليها بينات فأهلها أدعياء.

قال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ وفي ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنبيهٌ على أن الأدعياء لا حظ لهم من ولاية الله لعبده، وإنما ولاية الله لعبده تُنال بالإتباع؛ إتباع ملة إبراهيم الحنيفية السمحة.

◆◆◆◆◆

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[1].

## الشرح

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ليبين أيضًا المعاني السابقة وليؤكد عليها، وليوضح أن ولاية الله لعبده وتأييده لعبده وحفظه له ونيل العبد لثوابه وعظيم موعوده لا ينال إلا بتحقيق ما سبق؛ ولهذا قال هنا في هذا الحديث: (**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)؛ لا ينظر إلى الجسم من حيث الطول أو القصر أو البياض أو السواد أو وجود العيب أو السلامة من العيب، وجود البصر أو عدم وجود البصر، وجود السمع أو عدم وجوده أو ضعفه؛ كل الأمور التي تتعلق بالأجسام لا ينظر الله إليها، وقل ما شئت فيما يختص بالجسم كله ليس محل النظر؛ لا طول ولا قصر ولا صحة ولا سلامة أعضاء ولا غير ذلك «**إِنَّ اللهَ لَا يَنظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ**».

«**وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**»؛ المال: ما يملكه الإنسان من أموال، من نقود، من

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤)، ولكن بلفظ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»، وفي لفظ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

تجارات، من مزارع، من بيوت، من مركوبات؛ كلها مال له؛ فهذه كلها ليست محل للنظر، لا ينظر الله لا إلى الأجسام ولا إلى الأموال، جسم الإنسان بجميع أجزائه، وأمواله بجميع أشكالها وأنواعها لا ينظر الله إليها وليست هي محل الاعتبار في التقريب من الله ﷻ ونيل الثواب.

ومعنى قوله: «**لَا يَنْظُرُ**»؛ المراد بالنظر هنا نظر الرحمة والإثابة والإنعام والقبول والرضا، وإلا فالله ﷻ يبصر جميع المبصرات ويرى جميع المخلوقات، والنظر المنفي هنا: هو نظر والإنعام والرحمة والرضا والقبول والإثابة، فلا ينظر إليهم ﷻ هذا النظر؛ ولهذا يكثر في الأحاديث مثل هذا المعنى: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»؛ فالمنفي هنا: نظر الإكرام وكلام الإكرام والإحسان، وإلا فالكفار الذين نُفي الكلام عنهم يقول الله لهم يوم القيامة ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾.

هل قوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ [المؤمنون:١٠٨] يتنافى مع قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٧٤]؟ لأن الكلام المنفي كلام الإكرام والرحمة والإحسان والرضا، والكلام المثبت أمرٌ آخر.

فقوله هنا: «**إن الله لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**»؛ المراد بالنظر المنفي هنا: نظر الإكرام والإحسان والرضا والقبول.

«**لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»؛ النظر إلى هذين: إلى القلوب والأعمال، والقلوب والأعمال -وهذا موضع

الشاهد من إيراد المصنف لهذا الحديث- بماذا تصلح؟ بماذا يصلح القلب وبماذا يصلح العمل؟ قال: «**لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»، فما هو القلب والعمل الذي نال رضا الله ﷻ؟ أكُلُّ قلبٍ ينال رضا الله؟ أكُلُّ عملٍ يُنال به رضا الله؟ حاشا وكلا، إذاً ما هو الأمر الذي يُصلَح به القلب وتُصلح به الأعمال فينال الإنسان رضا الله ﷻ وثوابه؟

الجواب في الآيات المتقدمة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، ومر معنا في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال للرسول ﷺ ما الإسلام؟ قال: (أن تسْلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وأن تؤدي الزكاة المفروضة)؛ فالقلب والعمل لا يصلحان إلا بإقامة الوجه للدين حنيفا؛ بإصلاح القلب بالتوحيد والبراءة من الشرك، وإصلاح العمل بالمحافظة على أوامر الله ﷻ.

وتقديم القلب على العمل لأنه أساس قيام الأعمال، وقد قال ﷺ منبهًا على عظم شأن هذا الأساس: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)[1]، والأعمال بمجردها لا تُقبل إلا إذا كانت مؤسسة وقائمة على التوحيد والإخلاص لله ﷻ.

وقوله في الحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[2]؛ فالنية تارة تُطلق ويراد بها ما

(١) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

يميز به عمل عن عمل وفريضة عن فريضة وواجب عن واجب، وتارةً تطلق ويراد بها الإخلاص لله ﷻ في العمل.

فالعمل لا يُقبل إلا إذا أقيم على الإخلاص لله ﷻ وصلح القلب بذلك، وهو معنى قوله: (أن تسْلم قلبك لله) أي: مخلِصاً مذعِناً مستسلماً، ثم الجوارح تكون تبعٌ للقلب، قد قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١)،

والعاقل إذا وقف على هذا الحديث وأمثاله من الدلائل في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يجاهد نفسه على إصلاح قلبه وتزكية نفسه، يجاهد نفسه على الإخلاص لربه ﷻ والاستسلام لأمره، وإتباع نهج رسله عليهم صلوات الله وسلامه، ويجاهد نفسه على المحافظة على ذلك والثبات عليه إلى أن يلقى الله ﷻ حنيفاً مسلماً؛ فيرضى عنه ربه ويفوز بثوابه ونعيمه ﷻ الذي أعده لعباده المسلمين.

◇◇◇◇◇

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

ولهما[١] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وليُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ من أمتي حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي، فيقال: إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

ولهما[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا، قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، قَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ أَرَأَيْتم لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ قَالُوا بَلَى، قَالَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا».

وللبخاري[٣]: «بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ، فَقُلْتُ أَيْنَ؟ قَالَ إِلَى النَّارِ وَاللهِ، قُلْتُ وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى، ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ - فذكر مثله - قال فَلَا أُرَاهُ

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٩) ومسلم (٢٢٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤).

(٣) رواه البخاري (٦٥٨٧).

يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ».

ولهما[١] في حديث ابن عباس ﷺ: «فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]».

## الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المصنف ﷺ هنا في هذا الباب؛ باب قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠]؛ هذه الأحاديث ساقها ﷺ لأنها مبيِّنة وموضِّحة لحقيقة إقامة الوجه للدين، لأنها مبينة لحقيقة الإسلام وأنه استسلامٌ لله وإخلاصٌ له ﷻ ولزومٌ لشرعه ودينه وثباتٌ على ذلك إلى الممات، هذه حقيقة الدين، وقد مر معنا قريباً وصية إبراهيم الخليل ووصية يعقوب ﷺ ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

فالإسلام إخلاص لله ﷻ واستسلام له وثبات على ذلك إلى الممات دون تبديل ودون ارتداد ورجوع القهقرى؛ بل يثبت على ذلك إلى أن يموت على ذلك ويلقى الله ﷻ بذلك.

والمصنف ﷺ ساق جملة من روايات وأحاديث حوض النبي الكريم ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠).

ليبين من خلالها هذه الحقيقة، وليشير أيضـًا إلى أن فضائل الإسلام وخيراته وبركاته وثماره الدنيوية والأخروية والتي منها الشرب من حوض النبي الكريم ﷺ شربةً هنيئةً لا يظمأ بعدها الشارب أبداً؛ هذا كله من ثمار الإسلام والقيام بحقيقة الدين كما أمر الله ﷻ، أما المبدِّل، المغيِّر، المحدِث، الناكص على عقبيه، الراجع القهقرى إلى الوراء فهؤلاء لا نصيب لهم من هذه الثمار، ولهذا ساق المصنف رحمه الله بعض روايات الحوض.

وحديث الحوض كما نص عدد من أهل العلم حديث متواتر عن النبي ﷺ، وهو من جملة الأحاديث المتواترة، بل إن عِدَّة الصحابة الذين رووا حديث الحوض عن النبي ﷺ يزيدون على الخمسين صحابيـًا، بل قيل يزيدون على الستين كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري»[1]، وجمَع روايات الحوض وجمعها غيره من أهل العلم.

والحديث والوارد فيه عن النبي ﷺ حديثٌ متواتر، والحديث المتواتر يأتي

---

(١) (١١/ ٤٦٨).

قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: (أورد البخاري رحمه الله في باب: في الحوض، من كتاب الرقاق من «صحيحه» منها تسعة عشر طريقـًا من (٦٥٧٥ - ٦٥٩٣)، وذكر الحافظ في «الفتح» أنَّ الصحابةَ فيها يزيدون على خمسين صحابيًّا، ذكر خمسة وعشرين منهم نقلاً عن القاضي عياض، وثلاثة نقلاً عن النووي، وزاد عليهما قريبـًا من ذلك، فزادوا على الخمسين صحابيًّا (١١/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩)، وأورد الإمامُ ابن كثير في كتاب «النهاية» أحاديثَ الحوض عن أكثر من ثلاثين صحابيًّا) «قطف الجنى الداني» (ص ١٣٦).

في أعلى درجات الصحة في الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، ولو لم يصِلْنا حديث الحوض إلا من طريق واحد من الصحابة لكان كافيًا في الإيمان به والتسليم؛ لأن العقيدة وأمور الدين لا يشترط في أحاديثها أن تبلغ حد التواتر، بل تؤخذ العقيدة ولو بخبر الآحاد خلافًا لما عليه أهل البدع، لكن هذا بيان لمكانة هذا الحديث وكثرة عدد الصحابة الذين رووا عن النبي ﷺ هذا الحديث العظيم؛ الحديث المشتمل على ذكر حوض النبي ﷺ.

ومن الأحاديث التي جاءت في ذكر الحوض في «الصحيحين» وغيرهما أحاديث مشتملة على صفة الحوض، لأن النبي ﷺ وصف الحوض وصفًا عظيمًا يحرك القلوب شوقًا وطمعًا ورغبةً في الورود عليه والشرب منه وأن لا يكون الإنسان ممن يذادون ويردّون عنه، وصفه بصفات عظيمة عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»(١).

في بعض الروايات في الصحيح: أبيض من الورِق أي الفضة، وفي بعض الروايات أبيض من اللبن -، «مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ» يعني إذا

---

(١) رواه مسلم (٢٣٠٠).

شرب من هذا الماء لا يحس بعد ذلك بظمأ ولا يحس بعطش، وهذه خاصية جعلها الله ﷻ في ذلك الماء العظيم في الحوض المورود الذي يكون في عرصات يوم القيامة.

وقد جاء في بعض الأحاديث أن الكوثر - والكوثر غير الحوض، الكوثر في الجنة - فيه ميزابان يشخبان؛ أي: يصبان في حوض النبي ﷺ، ولهذا يأتي أحيانًا إطلاق الكوثر على الحوض لا لكونه هو الحوض؛ وإنما لكون الماء الذي يُصَب فيه هو من الكوثر، وإلا الحوض في عرصات يوم القيامة والكوثر في جنات النعيم، والكوثر يُمِد الحوض ويشخب منه ميزابان في الحوض المورود الذي يكون في عرصات يوم القيامة.

والناس كما هو معلوم من الأدلة يقفون في عرصات يوم القيامة موقفًا عظيمًا جاء في القرآن والسنة أن مقدار ذلك اليوم خمسين ألف سنة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، وهو وقوفٌ طويل ويحصل للناس فيه من العناء والتعب والشمس تدنو منهم خمسين ألف سنة، تأمل وقوفك في الصيف والشمس في كبد السماء وليس هناك هواء بارد يلطف الجو وليس هناك ظلٌّ يستظل به الإنسان؛ كيف يكون عطش الإنسان في مثل ذلك المكان!! في يوم واحد؛ فكيف بيوم كان مقداره خمسين ألف سنة!! والله ﷻ يكرم أهل الإيمان وأهل الصدق مع الله ﷻ وأهل الصلاح وأهل المحافظة على دينه والبعد عن التبديل والتغيير بأن يظلّهم ﷻ بظل عرشه العظيم يوم لا ظل إلا ظله، نسأل الله

الكريم رب العرش العظيم من فضله.

يرِد الناس في ذلك اليوم الحوض المورود يبحثون عن الماء؛ العطش شديد، والحاجة إلى الماء ماسة جداً، وأكبادهم جفت تريد ماءً، فيرِدون إلى الحوض، وقد جاء في حديث ثابت: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا»[1] ترِد عليه أمته، ولنبينا ﷺ حوض مورود تميّز عن غيره، وقد وصفه النبي ﷺ بصفات مر معنا بعضها، وقال ﵊: «لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا» أي: في الجمال والحسن والكثرة؛ فهي كثيرة عدد نجوم السماء، وجميلة أيضا مثل جمال نجوم السماء.

فيرِد الناس على الحوض البهي الجميل الحسن طيب الريح طيب الطعم طيب المرأى والمنظر، يردون في أشد ما يكونون من العطش ثم هناك يذاد عنه أقوام، لم يُذادون؟ هذا بيت القصيد أو أساس المقصود من إيراد المصنف ﵀ لأحاديث الحوض، أساس المقصود هنا: أن يحقق الإنسان في حياته الدنيا حقيقة الإسلام ويجاهد نفسه على معرفة حقيقة الإسلام وتطبيقها والعمل بها والثبات عليها إلى الممات؛ حتى يكون يوم القيامة من هؤلاء الذين يمنّ الله ﷻ عليهم بكرامته فيرِدون حوض النبي ﵊ دون أن يذادوا عنه.

والأحاديث التي ذكر فيها النبي ﷺ حال من يذادون عن الحوض تخيف المؤمن العاقل، من الذي يرضى لنفسه أن يرِد إلى الحوض وهو في أشد العطش

(١) رواه الترمذي (٢٤٤٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩).

وأشد ما يكون حاجة إلى الماء ثم يُطرد ويذاد ويُبعد ويؤخذ به إلى النار؟!

ولهذا أورد المصنف رحمه الله هذه الأحاديث في هذا الباب الذي فيه بيان إقامة الوجه لله سبحانه وتعالى نصحًا لعباد الله حتى يجتهد العبد ما دام على قيد الحياة ومادام في الأمر مهلة وسعة وفي الأمر مجال أن يجاهد نفسه على معرفة الإسلام ومعرفة حقيقته ويجاهد نفسه على العمل به وتطبيقه حتى ينال هذه الكرامة العظيمة فيشرب من حوض النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تتوالى عليه الخيرات والنعم والبركات متوّجةً بدخول جنات النعيم، وأعظم ذلك رؤية الرب الكريم سبحانه وتعالى ولذة النظر إلى وجهه وهذا أكمل نعيم؛ فهذا كله يحتاج من العبد إلى مجاهدة نفسه على معرفة الإسلام وتكميله والبُعد عن نواقصه ونواقضه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، «لَيْسَ الإِيمَان بِالتَّمَنِّي وَلاَ بِالتَّحَلِّي، وَلَكِن الإِيمَان مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَال»(١)؛ ليس الإيمان كلمة تُدَّعى ولا أمنية ترتجى؛ الإيمان حقيقة تقوم في قلب المؤمن يتبعها عملٌ وجدٌّ واجتهادٌ واستسلامٌ لله سبحانه وتعالى وطواعية وامتثال لأمره وثباتٌ على ذلك إلى أن يلقى المؤمن ربه عز وجل غير مبدِّل ولا مغيِّر كحال من قال الله سبحانه وتعالى في شأنهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الأحزاب:٢٣]، لا يغيِّر في الدين وإنما الذي يُطلب منه إقامة الدين بحقيقته التي أُرسل وبُعث بها رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

(١) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (٥٦).

حقيقةً هذه الأحاديث مفيدة جداً في هذا الموضع غاية الفائدة؛ حتى يتنبه العاقل ويتبصر ويتفكر في هذا الأمر قبل أن يفوت الفوات؛ مادام في الوقت سعة وعنده مهلة يتعلم ويتفقه ويحقق إسلامه فهذه فرصة كما يقال لا تعوَّض ولا تُقدَّر بثمن، فوجب على العاقل أن تفتح له أمثال هذه الأحاديث أبوابًا في الهداية والاستقامة وإقامة الدين والمحافظة على طاعة رب العالمين والبعد عن البدع والأهواء والضلالات والانحرافات وشغْل الأوقات بطاعة الله ﷻ بما شرع مخلصًا له ويجاهد نفسه على الثبات على ذلك إلى أن يلقى الله ﷻ.

قال رحمه الله: (**ولهما**) أي: البخاري ومسلم (**عن ابن مسعود** رضي الله عنه **قال**: **قال رسول الله** ﷺ: **أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ**)؛ فرطكم: أي سابقكم إليه ومتقدِّمكم إليه ومن يصل إليه أولاً.

فالنبي ﷺ يصل الحوض أول الناس؛ فهو فرَط الناس إلى الحوض صلوات الله وسلامه عليه، ثم يأتي بعد ذلك الناس تِباعًا يرِدون الحوض للشرب منه بحثًا عن الماء وطلبًا لدفع العطش والظمأ فيذهبون إلى الحوض، والنبي ﷺ قد سبقهم إليه.

قال: (**وَلَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ من أمتي**) يعني يتقدمون إليه ويأتون إلى حوضه من أجل الشرب.

قال: (**حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي**) يعني أخِذوا عني وصُرفوا عني؛ حتى إذا أهويت: يعني جاؤوا إليه ﷺ ليشربوا من الماء وإذا أهوى أي بيده

للحوض ليغترف لهم منه وليناولهم من ماءه ليشربوا اختلجوا أي ذيدوا كما في بعض الروايات وأبعدوا عنه ﷺ.

(**فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ**) يعني يا رب (**أَصْحَابِي**) يعني هؤلاء أصحابي لماذا يُذادون عن الحوض؟ ولماذا يُحرمون من الشرب من الحوض؟

(**فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**) وهذا فيه أنه ﷺ لا يعلم الغيب، فهؤلاء النفر الذين صحبوا النبي ﷺ ثم يحصل لهم هذا الذود عن حوضه ويعرفهم عليه السلام، قيل يعرفهم بأشخاصهم لأنه رآهم، وقيل: يعرفهم بعلاماتهم؛ كما يأتي في بعض الروايات بأثر الوضوء: (غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ)[1]، ومعنى ذلك أنهم يصلّون وأثر الصلاة عليهم ظاهر ومع ذلك يُذادون عن الحوض، فيقول: (أي رب أصحابي) وفي بعض الروايات (أُصَيْحَابي)[2] بالتصغير، وقد قال العلماء: التصغير هنا يعني تقليل العدد، فهؤلاء قلة عدد قليل من الذين كان لهم صحبة ثم حصل منهم بعد موت النبي عليه السلام ارتداد عن دينه ونكوص على العقبين أي: القهقرى إلى الوراء، ووجود الردة أمرٌ معروف بعد موته ﷺ من بعض الذين كان إسلامهم على طرف، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج: ١١]، فبعضهم يكون إسلامه على طرف وأدنى شيءٍ يغيِّره، فمن كان على هذه الشاكلة أسلم وإسلامه على طرف وبعد موت النبي

(١) رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٥٨٢)، ومسلم (٥٩٥).

ﷺ حصل له ارتداد عن الدين ونكوص على العقبين فهؤلاء يُذادون، وهم عدد قليل بالنسبة للصحابة عموماً.

وقد أجمع أهل العلم قاطبة من أهل السنة والجماعة أن هؤلاء ليس فيهم واحد من المهاجرين والأنصار وأعيان الصحابة الذين لهم المواقف المشهودة والأعمال المشهورة ممن شهدوا بدراً وأُحُداً وشاركوا النبي ﷺ في بيعة الرضوان وأخبر رب العالمين أنه رضي عنهم وكان عددهم كبيراً؛ فليس من هؤلاء واحد، وإنما هؤلاء الذين حصل فيهم الارتداد أناسٌ حدثاء عهد بإسلام، وإسلامهم كان رقيقا وعبادتهم لله ﷻ كانت على طرف، وهم عدد قليل مقارنة بجموع الصحابة وأعداد الصحابة الذين هم خير أمة أخرجت للناس أخبر عنهم رب العالمين بذلك، والذين هم خير القرون أخبر عنهم ﷺ بذلك، وإنما المعني بهذا أناسٌ قلائل ربما رأى الواحد منهم النبي ﷺ المرة أو المرتين فحصلت له الصحبة بالرؤية والإسلام، ولكن كان إسلامه على طرف وعلى ضعف وعلى رقة في الدين، ولما مات النبي ﷺ ارتدوا بعده ﷺ؛ فيعرفهم لأنه رآهم ولكنه لا يدري ماذا حصل منهم بعد مماته ﷺ.

وقوله: **(فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ)**؛ فيه التكذيب لقول من يقول إن النبي ﷺ يعلم الغيب، وبعضهم يقولون إنه حاضر ناضر ويعلم ما في الصدور، إلى غير ذلك من الضلال بل من الكفر، لأن من زعم أن النبي ﷺ يعلم الغيب فهو كافر بالقرآن ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾

[النمل:٦٥]، الله ﷻ مختص بالغيب، وهنا قال: «**إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ولهذا قوله: «**فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»، فيه دلالة على أن من قال: (إن النبي ﷺ يعلم الغيب!) ممن أحدثوا بعده حدثًا عظيمًا يتعلق بالاعتقاد يترتب عليه فساد العبادة، ولننتبه لهذا - لأن من ادّعوا في حقه ﷺ أنه يعلم الغيب تعلقت قلوبهم به تعلقاً لا يكون إلا بالله ﷻ، فتوجهوا إليه برغباتهم وطلباتهم وعرضوا عليه حاجاتهم وطلبوا منه المدد والعون وغير ذلك؛ وهذا كله مبني على أمثال هذه العقائد الباطلة، فهذا كله داخل تحت قوله: «**لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»، لأن هذا من الحدث في دين الله المتعلق بالاعتقاد المترتب عليه فساد السلوك والعمل.

قال: (**فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)؛ قلت وأؤكد أن هذا - وهو أمر أجمع عليه أهل العلم قاطبةً من أهل السنة والجماعة - لا يتناول خيار الصحابة وأئمة الأمة وسلف الأمة من المهاجرين والأنصار، فليس في هؤلاء واحد ممن شهد بدراً ولا ممن شهد أُحُداً ولا ممن شهدوا بيعة الرضوان ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] ورضاه عنهم بقي وحْي يُتلى في كتاب الله ﷻ يخبر ﷻ عن رضاه عنهم، فكل هؤلاء ليس منهم واحد يتناوله هذا الذود، وإنما يتناول هذا الذود نفراً قليلاً وعدداً يسيراً بالنسبة لعموم الصحابة ممن كان إسلامهم -كما قدمت- على

حرف وعلى طرف.

ومع هذا كله فإن أقوامًا ابتلوا - والعياذ بالله - بارتكاس القلوب وانتكاس العقول وقلَبوا الحديث قلبًا، فجعلوا الحديث منصبًّا على خيار الصحابة؛ بل جعلوا - والعياذ بالله - في مقدِّمة من يذادون أفضل الصحابة وهو صديق الأمة ﵁ الذي لا يوجد أحدٌ في الصحابة نُصَّ على لفظ صحبته في القرآن إلا هو ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾ [التوبة:٤٠]، لا يوجد أحد من الصحابة حظي بمثل هذا صديق الأمة﵁ فجعلوه في مقدمة من يذاد ومعه عمر ﵁ ومعه عثمان ﵁ ومعه خيار الصحابة ولم يستثنوا منهم إلا سبعةً أو تسعةً أو عدداً قليلاً يعد على أصابع اليد الواحدة والبقية كلهم يذادون، ويصفونهم بأنهم أحدثوا وبدّلوا وارتدوا، ويقولون إن الصحابة ارتدوا إلا نفر قليل: علي وسلمان وعدد قليل، والله ﷻ في القرآن قال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، هؤلاء أخبر الله ﷻ برضاه عنهم، بل إنه ﷻ زكّاهم تزكيةً عظيمة في التوراة والإنجيل قبل أن تدرج أقدامهم على الأرض وقبل أن يطئوا الأرض ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح:٢٩] هذه تزكية لهم في التوراة قبل أن يمشوا على الأرض، زكاهم رب العالمين ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ هذه تزكية لهم في الإنجيل قبل أن يوجدوا.

فزكاهم رب العالمين في التوراة، وزكاهم ﷻ في الإنجيل، وتُليت تزكيتهم في التوراة والإنجيل ردْحًا من الزمان، ثم نزلت تزكيتهم في القرآن وذكر رب العالمين في القرآن رضاه عنهم؛ ثم يأتي أقوام ويدّعون أنهم ارتدوا عن الدين وأنه لم يسلم منهم إلا قلة قليلة!! هذا - والعياذ بالله - ارتكاس في القلوب وانتكاس في العقول، ولهذا الإمام ابن كثير ؒ في تفسيره لما أشار إلى هذه المقالة قال: «وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُقُولَهُمْ مَعْكُوسَة وَقُلُوبَهُمْ مَنْكُوسَة»(١)؛ يعني لا يقول هذا أحد عنده قلب سليم وعنده عقل مستقيم إلا إذا ارتكس القلب وانتكس العقل، وإلا شخصٌ عنده قليل من عقل لا يمكن أن يقول هذه المقالة.

والوقيعة في الصحابة والطعن فيهم ليس مختصاً بهم بل هو طعنٌ في دين الله، الصحابة هم نقلة الدين، هم الذين نقلوا لنا دين الله، الدين كله عرفناه من طريقهم، فإذا طُعن فيهم يكون الطعن في الناقل طعن في المنقول، ولهذا قال أبو زرعة الرازي ؒ: (إذا رأيت الرجلَ ينتقصُ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنَّه زنديقٌ؛ وذلك أنَّ رسول الله ﷺ عندنا حقٌّ والقرآن حقٌّ، وإنَّما أدَّى إلينا هذا القرآنَ والسننَ أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنَّما يريدون أن يجرحوا شهودَنا ليُبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى، وهم زنادقةٌ)(٢)، فالجرح في

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٠٣).

(٢) «الكفاية في علم الرواية» (ص٤٩).

الصحابة والطعن في الصحابة طعن في الدين ذاته.

ثم تجد هؤلاء يستغرب بعضهم يقولون عن أهل السنة أنهم يروون هذا الحديث حديث الحوض وأنه يذاد نفر عن الحوض والنبي ﷺ يقول (أصحابي أصحابي)!! يقولون إن أهل السنة يروون هذا الحديث!! نعم نروي حديث الحوض ونعرف من المعني به، وهو حديث متواتر رواه عن النبي ﷺ أكثر من ستين صحابيًا وليس فيهم من كان من هؤلاء؛ أعيان وخيار الصحابة وأفاضل الصحابة وأماثل الصحابة ورووا الحديث ﴿وَمَابَدَّلُواْتَبْدِيلًا﴾، كانوا من أشد الناس خوفًا من التبديل وإنكاراً له ورداً للبدع، ومن يقرأ تاريخهم المجيد ومآثرهم العظيمة يجد بلاءهم الحسن في نشر السنة وبيان الدين ورد البدع وبراءتهم من المبتدعة وأهل البدع وأهل الضلال، وكم من مرة يعلنون البراءة: «أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»(١)، يعلنون ذلك في مواقف كثيرة جداً، وبدايات البدع وُجدت في زمانهم فتبرؤوا منها، فأصول البدع وبداياتها وُجدت ووجد منهم البراءة منها، كانوا على الإسلام الخالص وبدأت تظهر البدع وكانوا كلما ظهرت بدعة تبرءوا منها، ثم يأتي الموغلون في الابتداع والإحداث ورجوع القهقرى فيرمون الصحابة بما هم حقيقةً واقعون فيه -أي هؤلاء المحدثون-!! وانطبق عليهم قول القائل: «رمتني بدائها وانسلّت».

فالشاهد أن هذا الكلام يعني أفراداً قلائل كان في إسلامهم رقة وكانوا حدثاء

(١) كما روى الإمام مسلم ﷺ في «صحيحه» (٨) عن عبد الله بن عمر ﷺ.

عهد بإسلام وحصل منهم ارتداد بعد موت النبي ﷺ.

ومن مناقب أبي بكر الصديق ومآثره العظيمة: حرب المرتدين؛ ويزعم هؤلاء أنه زعيم المرتدين ومقدَّم المرتدين!! ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]، أبو بكر رضي الله عنه هو الذي كان من مناقبه العظيمة في خلافته حرب المرتدين؛ حاربهم وصمَد في محاربتهم وكان له مواقف عظيمة جداً قال: «وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ»(١).

وأبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه ليسوا أفضل هذه الأمة فقط؛ بل هم بشهادة نبينا ﷺ أفضل أمم الأنبياء كما جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ)(٢)، فيأتي في الدرجة الأولى بعد الأنبياء أبو بكر وعمر في الأمم كلها: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلٗا ٢٣﴾.

ونحن نرجو الله سبحانه وتعالى ونسأله أن يحشرنا مع أبو بكر ومع عمر ومع عثمان ومع هؤلاء الخيار في زمرة النبي ﷺ وصحابته الكرام الذين نشهد بالله عز وجل أنهم ما بدلوا تبديلا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلٗا﴾.

ثم قال رحمه الله: **(ولهما عن أبي هريرة** رضي الله عنه **أن رسول الله** ﷺ **قال: «وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا»، قَالُوا)** -أي الصحابة- **(قال: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي»)**.

(١) رواه البخاري (٧٢٨٥)، ومسلم (٢٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٦٥)، وابن ماجه (٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١).

انتبه هنا؛ النبي ﷺ يقول: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، والصحابة حوله، قالوا: «**أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟**»، أصحابي وإخواني أي الدرجتين أعلى؟ درجة الصحبة؛ الصحبة فيها صحبة وأخوّة، ولهذا قالوا: «أولسنا إخوانك؟»، هم إخوان النبي ﷺ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، فقال: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي**»، فهؤلاء لهم درجة الصحبة ونصرة النبي وأخْذ الدين منه ورؤيته ﷺ، وهذه منقبة لا يشاركهم فيها أحد، كل مَن جاء بعدهم مهما بلغ في الإيمان والعلم لا يبلغ رتبة الصحابة، ولهذا قال عليه السلام: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(١)، فمن بعدهم لا يبلغ رتبتهم، وقد منّ الله عز وجل عليهم وأكرمهم بما لا يكون لغيرهم من نصرة وهجرة ونشر للدين ودعوة إلى دين الله، وكل من جاء بعد الصحابة للصحابة حظٌ من حسناته لأنهم نقلوا الدين لمن بعدهم، وقد مر معنا الحديث: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ»(٢)، هذا العلم الذي سمعناه الآن وصل لابن مسعود رضي الله عنه أجر، ووصل لأبي هريرة رضي الله عنه أجر، وكل صحابي ننقل حديثه ويبلغنا حديث النبي ﷺ من طريقه له أجر في ذلك؛ لأن: «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»(٣)،

«**قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي**»، وهذا فيه تفضيل

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٧٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٠٥).

الصحابة وتشريفهم، والأمر واضح.

قال: «**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»؛ أريد أن نقف هنا وقفة قبل المواصلة في هذا الحديث لنربط بين هؤلاء الإخوان الذين قال عنهم النبي ﷺ: «لم يأتوا بعد»، وبين الأصحاب الذين هم مع النبي ﷺ جنبًا إلى جنب؛ اقرأ الرابطة في ﴿سورة الحشر﴾وصف الله ﷻ الذين يأتون بعد بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر:١٠] هذه حلية الإخوان الذين قال عنهم هنا ﷺ: «**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»، ما علامتهم؟ قال رب العالمين في ذكر علامتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فمن كان في قلبه غل على الصحابة ويلهج بلعنهم والطعن فيهم والوقيعة فيهم هل هو داخل تحت قوله: «**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»؟! حاشا وكلا؛ لأن رب العالمين ذكر علامة لهؤلاء الذين يأتون بعد، لما ذكر المهاجرين وذكر بعدهم الأنصار ذكر الذين يأتون بعد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ﴾ أي: علامتهم وحليتهم وزينتهم وصفتهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فلهم سمتان:

**الصفة الأولى تتعلق بالقلب**، فالقلب فسليم، قلوب هؤلاء سليمة ليس فيها

غل وليس فيها حسد وليس فيها ضغينة وليس فيها امتلاء ضد الصحابة الأخيار، قلوب سليمة نقية تجاه الصحابة وتجاه المؤمنين السابقين.

**والصفة الثانية**: سلامة اللسان: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ ليس في ألسنتهم إلا الترحم والاستغفار والدعاء، وليس في قلوبهم إلا المحبة والصفاء والنقاء، فالقلوب نقية والألسن نظيفة، القلوب ليس فيها تجاه الصحابة إلا محبة، والألسن ليس فيها تجاه الصحابة إلا الدعاء والاستغفار، أما من إذا ذُكر عنده أبو بكر وعمر استوحش كأنه ذُكر عنده أشد أعداء الدين؛ بل بعضهم يستوحش من ذكر أبي بكر وعمر أشد من استيحاشه من ذكر إبليس!! هل هذا يدخل؟ لا والله، هيهات أن يدخل.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ وهذه دعوة ينبغي أن يُكثر منها المسلم، لأن الله أثنى على هذه الدعوة، وجاء في هذه الدعوة فضائل، قال الله لنبيه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»(١)، فأنت إذا دعوت بهذه الدعوة التي في الآية ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ كم لك من حسنة؟ إذا أردت

---

(١) «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٠)، و«صحيح الجامع» (٥٩٠٦)، وانظر تعليق العلامة الشوكاني رحمه الله على هذا الحديث في «تحفة الذاكرين» (ص:٣٢٠).

أن تعرف الجواب فكم إخوانك الذين سبقوك بالإيمان!! هذا هو الجواب، فبعددهم لك بكل واحد حسنة، وهل قولك: ﴿إِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ يختص بأمة محمد أو يشمل؟ فلك من زمن آدم إلى ما شاء الله من الحسنات في كلمة واحدة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، فانظر الأجور العظيمة التي يكسبها سليم القلب سليم اللسان، وانظر إلى الآثام المتراكمة التي يكتسبها من يقع في الأماثل الأخيار صدر الأمة وخيارها.

وحقيقةً؛ من يقع في الصحابة بالثلب والسب لا يضر الصحابة شيئًا؛ بل إن الصحابة يحصِّلون من وراء ذلك أجوراً، أشارت إلى هذا المعنى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما بلغها عن نفر يتكلمون في بعض الصحابة؛ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قيل لعائشة رضي الله عنها: «إن ناسا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى إنهم ليتناولون أبا بكر وعمر؛ فقالت: أتعجبون من هذا! إنما قطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر»[1]، ويبين هذا المعنى الذي تشير إليه عائشة رضي الله عنها الحديث المعروف بحديث المفلس يقول فيه ﷺ للصحابة: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ

---

(١) «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٨٧).

فِي النَّارِ»(١)؛ فهذا المفلس حقيقةً من يأتي يوم القيامة بهذه الصفة، وأيُّ إفلاس أشد وأفظع من أن يكون السب للخيار!! إذا كان سب آحاد المسلمين يترتب عليه هذا الأمر فكيف بسب سادات المتقين من الصحابة الأخيار الذين أثنى عليهم رب العالمين وزكاهم وعدّلهم وأثنى عليهم رسوله الكريم ﷺ وزكاهم وعدلهم صلوات الله وسلامه عليه؟! إذاً هذا يبين لنا الرابطة بين الإخوان والأصحاب.

قال: (**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، قَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ؟**) واسمع هذا المثال العجيب من الناصح عليه الصلاة والسلام (**قَالَ: أَرَأَيْتم لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانِي خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**)؛ الخيل الغر: التي في نواصيها بياض، والمحجلة: التي في أطرافها في يديها وقدميها بياض، ففي طرف القدم بياض وفي طرف اليد بياض والناصية بيضاء، أي: أرأيتم لو أن رجلا عنده خيل غر محجلة ثم دخلت في خيل دُهمٍ بُهم يعني خيل سوداء، بُهم ليس فيها شيء من البياض ولا قطعة يسيرة هل يميز خيله أو لا يميزها؟! واضحة تماماً(٢).

وهنا اختار النبي ﷺ هذا المثال لأن له ارتباط، لأن أهل الإيمان وأهل الصلاة يأتون غراً محجلين من أثر الوضوء؛ فيأتون يوم القيامة الوجه أبيض

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣/ ١٣٩).

والأيادي بِيض والأقدام بيض من أثر الوضوء، من أثر الوضوء غراً محجلين فيأتون بهذه العلامة فكيف لا يُعرفون وكيف لا يميَّزون والعلامة ظاهرة!! وكان ﷺ قد قال في حديث صحيح: (وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)[1]؛ وهذا فيه محافظة على الوضوء الكامل للقدم ولليد؛ حتى إنه رأى في عِقب رجل قطعة من البياض ما وصلها الماء -وهذا يؤثر على التحجيل- فقال: (وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)؛ فإذا كان ﷺ رأى في عقب رجل ولم ينتبه لذلك دائرة صغيرة لم يصلها الماء فقال (وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)، فكيف بمن إذا أراد أن يتوضأ لا يأتي إلا بقليل من الماء ويمسح على طرف قدمه من أعلى ولا يصل قدمه؟ ثم يأتي هذا الذي يفعل هذا الأمر ويقول إن الصحابة ارتدوا وأنهم يذادون عن الحوض!! فهذا كله مما يوضح الانتكاس في العقول والارتكاس في القلوب وقلب الحقائق عياذاً بالله تبارك وتعالى.

وعلى كل حال هذه علامة واضحة ذكرها النبي ﷺ لهؤلاء الإخوان الذين يأتون بعد.

قال: (**قَالُوا بَلَى**) يعني لما ذكر النبي ﷺ هذا المثال قالوا بلى؛ يعني يميزهم، إذا كانت الخيل بهذه الصفة سهل التمييز.

(**قَالَ فَإِنَّهُمْ** - وهذا توضيح للأمر - **يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ**)؛ وهذا فيه أهمية المحافظة على الوضوء، والوضوء تحافظ عليه لماذا؟ للصلاة، ففيه

(١) رواه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١).

أهمية المحافظة على الصلاة وحسن الإقبال على الله ﷻ وأن يحسن الإنسان وضوءه وأن يحسن صلاته ويحسن إقباله على عبادة ربه ﷻ، والوضوء من أجل إقامة الصلاة وصلاة بلا وضوء غير مقبولة، فالإنسان يحسن وضوءه ويحسن صلاته ويحسن إقباله على الله ﷻ ليكون من هؤلاء الذين يأتون بهذه العلامة العظيمة ويكرمهم الله ﷻ بالشرب من حوض النبي ﷺ.

هنا فيه: وضوء، وصلاة، وحوض، وغر محجلين، ولعل فيه ارتباط؛ جاء في «المستدرك»(١) للحاكم بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لقد تركت بعدي عجائز ما تصلي واحدة منهن صلاة إلا سألت ربها أن يوردها حوض محمد ﷺ»؛ وفيه ارتباط، فأنت لما تصلي وتُقبِل على وضوئك وتستحضر هذه المعاني تشتاق، والوضوء هذه علامة لأهل الإيمان، فيجتهد الإنسان في تكميل وضوءه وتتميم صلاته ونفسه مقبِلة، فلعل هؤلاء النسوة من الصحابيات ومِن غيرهم ممن تركهن أنس في المدينة على هذه الحال لا يصلّين صلاة إلا سألن الله ﷻ أن يوردهن حوض النبي ﷺ لأنها معاني مترابطة.

الصلاة نفسها صلة بين العبد وبين الله، ويؤديها لينال كرامته عند الله ﷻ، ولهذا كان ﷺ في صلاته كما في حديث عمار بن ياسر يقول: (اللهم إني أَسْأَلُكَ

---

(١) برقم: (٢٦٠)، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٠٩)، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٣٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٩٨)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٤٧٦): ( وسنده صحيح)، وقال الألباني: (إسناده صحيح على شرط مسلم) «ظلال الجنة» (٦٩٨).

لَـذَّةَ النَّظَـرِ إِلَـى وَجْهِـكَ وَالشَّـوْقَ إِلَـى لِقَائِـكَ فِـي غَيْـرِ ضَـرَّاءَ مُضِـرَّةٍ وَلَا فِتْنَـةٍ مُضِلَّةٍ)[١]، فالصلاة بطهارتها ووضوءها وحسن إقامتها تجلب للإنسان خيرات وبركات في الدنيا والآخرة، وفيه ارتباط بين الصلاة وبين الثمرات التي تنال يوم القيامة.

قال: (**وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**): أي أنا السابق إليه والمتقدم إليه.

(**أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُـمَّ، فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا**) هنا لاحظ؛ (**أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ**) يؤخذ من هذا الحديث أن الذود الذي يحصل ليس مختصاً بأولئك القلة الذين صحبوا النبي ﷺ ثم حصل منهم ارتداد؛ بل من وقع منه هذه المعاني فله هذا الوعيد وله هذا الحكم.

هناك قال: (أصحابي)، وهنا قال: (ليذادن رجال)، وقال ذلك بعد ذكره للإخوان الذين يأتون بعد الصحابة، فقال: (**لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ**) فهذا نستفيد منه وكذلك من الحديث الآتي بعده: أن الأمر الذي هو الذود عن الحوض ليس مختصًا بأولئك القلة من الصحابة الذين حصل لهم ارتداد بعد موت النبي ﷺ بل يتناول أيضا أناسٌ فيما بعد يحصل منهم مثل هذا الأمر ويحصل لهم التخلي عن الدين والانصراف عنه إلى حيث الشرك

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٥)، والبزار (١٣٩٣)، وابن حبان (١٩٧١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

والضلال وعدم الاستسلام لله ﷻ وإخلاص الدين له، ينصرفون إلى هذه الأمور فينطبق عليهم قوله: «**فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ**».

فيقول: «**سُحْقًا سُحْقًا**»؛ الذي يقول هذه المقالة هو الذي وصفه الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨]؛ فيقول: «**سُحْقًا سُحْقًا**»، وهذا يدل على الحرمان العظيم الذي يتبوأه من أحدث وبدّل في دين الله سبحانه وتعالى.

ثم أورد رحمه الله بعد ذلك حديث النبي ﷺ في «صحيح البخاري»، قال عليه الصلاة والسلام: «**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ...**» الخ.

قال: «**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ**» الحديث جاء في «صحيح البخاري» في كثير من النسخ «بينما أنا نائم»، وجاء في رواية الكشميهني لصحيح البخاري «بينما أنا قائم»، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (قوله بينا أنا نائم كذا بالنون للأكثر وللكشميهني قائم بالقاف وهو أوجه والمراد به قيامه على الحوض يوم القيامة وتوجه الأولى بأنه رأى في المنام في الدنيا ما سيقع له في الآخرة)[١]، ولهذا اختار شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هنا رواية الكشميهني «بينا أنا قائم».

قال: «**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ**»؛ والزمرة هي الجماعة، ومعرفته لهم تكون بالعلامة التي مرت معنا قريبا؛ غرٌّ محجلين يعني من أثر الوضوء.

حتى إذا عرفهم بهذه العلامة «**خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ**»؛ بين النبي ﷺ

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٤٧٤).

وبين هؤلاء الذين هم مقبِلون عليه وعلى حوضه، فيخرج رجل من بين النبي ﷺ وبين هؤلاء وقد ذكر أهل العلم أن هذا ملَك يكِل الله ﷻ إليه هذا الأمر، فهم مقبلون عليه وهو يرتقب وصولهم إليه عليه السلام بينا هم على هذه الحال إذ خرج رجل من بينهم يعني جاء رجل في الوسط بين النبي ﷺ وبين هؤلاء؛ ماذا يصنع هذا الرجل؟

(**فَقَالَ** - يعني هذا الرجل - **هَلُمَّ**)؛ اقتربوا الآن من الحوض ما بقي إلا قليل ويصلوا إليه ليشربوا منه شربة لا يظمأ بعدها الشارب أبداً ويخرج هذا الرجل بينهم وبين النبي ﷺ فيقول لهم: (**هَلُمَّ**) يعني تعالوا.

(**فَقُلْتُ: أَيْنَ؟**): النبي ﷺ يقول للرجل أين؟ يعني أين تذهب بهم؟

(**قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللهِ**): ويحلف بالله، يعني سآخذهم إلى النار.

(**قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟**)؛ لأن النبي عرفهم وعليهم العلامة (حتى إذا عرفتهم فيقول: (وما شأنهم؟) يعني لماذا إلى النار والله؟ لماذا تأخذهم إلى النار؟ وقد عرفهم عليه السلام ورأى فيهم العلامة!! فيقول إلى النار والله!! فيقول ﷺ وما شأنهم؟

(**قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى**): يعني إلى الوراء رجعوا.

(**ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ؛ فذكر مثله**) يعني زمرة ثانية؛ (ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلم فقلت أين؟ قال إلى النار والله قلت وما شأنهم؟ قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى).

(**قال فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ**)؛ لا يخلص: أي لا ينجو منهم

إلا مثل همل النعم.

وهاتان الزمرتان الذين قال ﷺ: (فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ) يعني إلا قلة؛ همل النعم: يعني النَّعم الضالة، الهمل التي ليس لها راعي، الضائعة، فلما تقارن همل النعم بالنَّعم نفسها تجد عدد قليل، قال (فلا ينجو منهم إلا مثل همل النعم).

أحد المعاصرين في قلبه غل على الصحابة وتكلم كلاما قبيحا جداً في حق الصحابة، ولما جاء هذا الحديث بدّله ليُروي غلّه على الصحابة فغيّره وقال: (روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: لا يخلص منكم إلا مثل همل النعم)، وقال: هذه شهادة من النبي ﷺ أنه لا يخلص، فغيّر لفظ الحديث ثم فسره على ما يروي غليله الدفين بالحقد على أصحاب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؛ وكما يقال: «أَحَشَفًا وَسُوءَ كِيلَةٍ؟!»[1]، والعياذ بالله، وهذا بسبب الحقد الذي تظلم به القلوب على أصحاب النبي ﷺ، وأنت ترى الحديث أمامك قال: (لا ينجو منهم) الضمير يعود على الزمرتين، وهاتان الزمرتان هل هما فقط هم من يرد الحوض؟ لا؛ يرِد عوالم على الحوض، وذكَر هاتين الزمرتين وذكَر هذا الوصف لهم وقال في الحديث: (إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم)، فالحديث

(١) «الكِيلَة: فِعْلَة من الكَيْل وهي تدلّ على الهيئة والحالة نحو الرِّكْبة والْجِلْسَة؟ والحَشَفُ: أَرْدَأ التمر أي أتجمَعُ حشَفًا وسوء كيل يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين» «مجمع الأمثال» (١/ ٢٠٧).

واضح المعنى ولكنه حرَّف لفظه ليطوِّعه في الدلالة على ما في قلبه من حقد دفين ضد أصحاب النبي الكريم ﷺ.

ولو كان المعنى الذي يقوله صاحب هذا الحقد وأمثاله مراداً؛ هل يقول النبي ﷺ مخاطباً الصحابة (ليذادن أقوام)؟! - وهذا معنى ألمح إليه ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث»[(١)] وغيره من أهل العلم - لو كان المعنى الذي يعنيه هذا وأمثاله مراداً كان الخطاب بهذا اللفظ (لتذادُن عن الحوض)، ويقول أيضاً: (لا ينجو منكم إلا مثل همل النعم) مثل ما حرّف هذا المحرف، لكن النبي ﷺ قال: (ليذادن أقوام)، (ليذادن رجال) وألفاظ الأحاديث واضحة المعنى والكلام واضح المعنى.

وعلى كل حال من قرأ هذه الأحاديث وتدبرها تحرِّك في قلبه إيماناً وتفتح له تذكرة وتبصرة وعظة ويبدأ يحاسب نفسه؛ لأنه لا يرضى إنسان لنفسه هذا الأمر أن يُذاد هذا الذود وأن يُطرد هذا الطرد.

---

(١) قال ﷺ: (ونحن نقول إنهم لو تدبروا الحديث وفهموا ألفاظه لاستدلوا على أنه لم يرد بذلك إلا القليل، يدلك على ذلك قوله: (ليردن علي الحوض أقوام) ولو كان أرادهم جميعا إلا من ذكروا لقال: لتردن علي الحوض ثم لتختلجن دوني، ألا ترى أن القائل إذا قال: أتاني اليوم أقوام من بني تميم وأقوام من أهل الكوفة فإنما يريد قليلا من كثير ولو أراد أنهم آتوه إلا نفرا يسيرا قال أتاني بنو تميم وأتاني أهل الكوفة ولم يجز أن يقول قوم؛ لأن القوم هم الذين تخلفوا ويدلك أيضا قوله: (يا رب أصيحابي) بالتصغير وإنما يريد بذلك تقليل العدد كما تقول مررت بأبيات متفرقة ومررت بجميعه..) «تأويل مختلف الحديث» (ص٢٣٤).

لاحظ هذه المعاني: ذود عن الحوض، ملَك يأخذه إلى النار بعد أن أقبل على الحوض، والنبي ﷺ يسأل ما شأن هؤلاء؟ وفي الحديث الآخر يقول: (سحقًا سحقا)؛ من الذي يرضى لنفسه أن يكون مع هؤلاء!! فالمصنف رحمه الله أراد هنا أن يبين أن قراءة أحاديث الحوض والتفهم فيها والتعقل لها والتدبر في معانيها يحرك في قلب الإنسان يقظة في فهم الإسلام وحقيقة الإسلام، والثبات على الإسلام، والبعد عن الارتداد والنكوص على العقبين، والبعد أيضا عن الإحداث في دين الله سبحانه وتعالى، فإن المحدِث في دين الله على خطر عظيم، لأن في عدد من روايات الحديث قال: (إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)؛ فهذا يدل على خطورة الحدث في دين الله سبحانه وتعالى، وأنه يجني على الإنسان جنايات بالغة منها هذا الذي يتعلق بالحوض: (إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك).

قال: (ولهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾**»)؛ أي أنه ﷺ يقول هذا الكلام كما يقول ذلك العبد الصالح عيسى عليه السلام، فلما يرى هذه الحال ويرى هذا الوصف وهو عليه الصلاة والسلام الناصح المشفق، لكن لما يرى ردة وتبديل ونحو ذلك يقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

أحد التابعين كان إذا روى هذا الحديث وذكر تمامه قال عليه الصلاة والسلام في تمامه: «إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى»، فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ

بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا»[١]، لأن الإنسان إذا فُتن في دينه بالبدعة ربما أوصلته بدعته إلى الكفر، وقد مر معنا أن البدعة بريد الكفر - والعياذ بالله -.

فوجب على الإنسان أن يتقي الله ﷻ وأن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على البعد عن البدع ومحدثات الأمور وعن البعد عن الأمور التي تصرف الإنسان وتصده عن دينه، وأن يجاهد نفسه على معرفة الدين والمحافظة عليه والعمل به وسؤال الله ﷻ الثبات على الدين إلى الممات، وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما صح بذلك الحديث «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[٢]، وفي بعضها (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)[٣]، وكان أيضا من دعائه كما في «صحيح مسلم»: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»[٤].

أسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يمن علينا أجمعين بورود حوض النبي الكريم ﷺ، وأن نشرب منه شربة لا نظمأ بعدها أبدا، ونعوذ به ﷻ

(١) رواه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٤) رواه مسلم (٢٧٢٠).

من البدع والأهواء والضلالات، ونعوذ به أن نُفتن في ديننا أو أن نرتد على أعقابنا، ونسأله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يهدينا إليه صراطا مستقيما، ونسأله ﷻ أن يجعلنا من أحباب النبي ﷺ حقا وصدقا ومن أنصاره وأعوانه عليه الصلاة والسلام، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته وتحت لوائه، وأن يكرمنا بالدخول معه في جنات النعيم، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

## المتن

**قال المؤلف رحمه الله:**

**ولهما عنه مرفوعا: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]») متفق عليه**(١).

## الشرح

قال المصنف رحمه الله: **(ولهما)** أي: البخاري ومسلم **(عنه)** أي: ابن عباس رضي الله عنهما **(مرفوعا)** أي: إلى النبي ﷺ.

قال: **(مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)** هذا أحد ألفاظ هذا الحديث، وقد جاء بألفاظ متقاربة؛ منها هذا اللفظ الذي أورده المصنف، ومنها اللفظ

(١) رواه البخاري (١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨).

المشهور: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»[١]، وجاء أيضا بلفظ: «لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»[٢]، وجاء في بعض الألفاظ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا يولد عَلَى الْمِلَّةِ»[٣].

والحديث يدل على أن جميع بني آدم يولدون على الفطرة، على الملة، على الحنيفية، على الإسلام؛ كلهم يُفطَرون أي: يُخلقون مجبولين على ذلك، الفطرة: الجبلة التي يُخلق عليها الإنسان ويوجد عليها وهي الإسلام.

وقد دل على أن الفطرة هي الإسلام الآية التي جعلها المصنف ﷺ عنوانا لهذا الباب ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠] فوصف الفطرة بأنها الدين، كذلك بعض روايات هذا الحديث «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْمِلَّةِ» فهذه رواية مفسِّرة، كذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»[٤] فقوله: «حنفاء» وقوله: «عَنْ دِينِهِمْ» هذا يدل على أن الفطرة المراد بها الإسلام، ولهذا جماهير أهل العلم

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٨).

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥).

على ذلك؛ على أن المراد بالفطرة الإسلام، بل حكاه ابن عبد البر إجماعًا عن أهل العلم.

فقوله: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ) أي: يولد على الإسلام، يولد على الملة، يولد على الحنيفية، يولد على الإخلاص، يولد على الاستسلام لله ﷻ، يولد على النفور من الشرك؛ كل مولود يولد على هذه الفطرة، وما يحصل له من تغيُّرٍ وتحول بعد ذلك ليس أمراً ولد عليه وجُبل عليه بل هو طارئ، فالشرك طارئ على الإنسان وهو تغير في فطرته كما أن الشرك طارئ على البشرية، كان الناس على التوحيد، آدم وذريته كانوا على التوحيد لا يعرفون شركًا فُطِروا عليه وجُبِلوا عليه ولا يعرفون شركًا أصلاً، يولدون على التوحيد وينشؤون عليه وليس أمامهم وبينهم شرك، ثم بعد ذلك اجتهد الشيطان في اجتيال الناس عن التوحيد الذي هو الأصل إلى الشرك الذي هو طارئ، فكما أن الشرك طارئ على البشرية وليس هو موجودٌ معهم في ابتداء الأمر بل كانوا قرونًا على التوحيد؛ فكذلك الشرك طارئ على فِطَر الناس وعلى آحاد الناس وأفرادهم، فكل مولود يولد على الفطرة سليمًا؛ فإذا حصل فيه تبدُّل إلى يهودية باطلة أو نصرانية منحرفة أو وثنية مشركة أو غير ذلك من الأديان، فهذه الأديان المحرفة الباطلة الفاسدة لم تولد مع الإنسان وإنما طرأت عليه بمحيطه ووالديه ومجتمعه؛ وإلا أصله ناشئ على الفطرة التي هي الإسلام، قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ»، وجاء في بعض الأحاديث «كُلُّ بَنِي آدَمَ» هذا ليس مختصًا بأبناء

المسلمين؛ بل كل بني آدم يولدون على هذه الفطرة، ولهذا قال عن أبناء اليهود في الحديث نفسه: (**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**) يعني أبناء اليهود يولدون على الفطرة، أبناء النصارى على الفطرة، أبناء المجوس على الفطرة. قال: (**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**) ولم يقل يُسْلِمانه لأنه يولد على الإسلام، فذكَر الأديان المنحرفة الباطلة التي يحوَّل إليها عن الإسلام الذي فُطر عليه وجُبل عليه.

قال: (**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**): أي إلا على الملة كما جاء في بعض الروايات، والملة هي الإسلام؛ الحنيفية السمحة، والمراد بالإسلام هنا ليس تفاصيل الإسلام وتفاصيل الشرائع؛ فهذه لا تُعرف بالفطرة ولا يوصل إليها بالفطَر المجردة، وإنما المراد بالفطرة هنا: الحنيفية التي هي البراءة من الشرك والإخلاص لله والاعتراف بأنه وحده ﷻ المستحق للعبادة والاستسلام له ﷻ والخضوع؛ فهذا الإسلام فُطر الناس عليه، أما تفاصيل شرائع الإسلام فهذه لا سبيل إلى العلم بها إلا من طريق الوحي، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]، يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾!! وهو ﷺ ولد على الفطرة ولم يحدث لفطرته أي تغير، حفظه رب العالمين وسلّمه، مع أنه عاش في مجتمع عاش على الشرك بالله والتنديد وعبادة الأصنام ولكن الله ﷻ حفظ فطرته وسلّمها ولم يدخل عليه شيء من عقائدهم وشركياتهم، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: «من زعم أن النبي كان على دين قومه قبل أن يبعث فقال هذا قول سوء ينبغي

لصاحب هذه المقالة تحذر كلامه ولا يجالس»[١]؛ ما كان على دين قومه ولم يقع في شيء مما وقعوا فيه، بل بقيت فطرته سليمة، مع أنه عاش في مجتمع متضمخ بالشرك والباطل إلا أنه حفظه رب العالمين من ذلك فنشأ محفوظة فطرته ﷺ من الشوائب والانحرافات، ثم يقول الله ﷻ له: ﴿مَاكُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾، فما المراد بالإيمان الذي لا يدري عنه ﷺ حتى نزل عليه الوحي؛ ونحن عرفنا أن الفطرة هي الإسلام؟

قال العلماء[٢]: تفاصيل الشرائع؛ الصلاة المكتوبة خمس مرات في اليوم والليلة، صلاة الظهر أربع، العصر أربع، صيام شهر رمضان، إلى غير ذلك من الفرائض؛ هل للفطرة سبيل أن تعرف هذه التفاصيل؟! لو خُلي بين الإنسان وبين فطرته لم تحوَّل ولم تبدَّل هل له سبيلٌ أن يعرف هذه التفاصيل بالفطرة؟ الجواب: لا ليس له سبيل إلى ذلك، فلا تُعرف تفاصيل الشرائع إلا بوحي الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾.

وهذه الآية توضح لنا قوله ﷻ في ﴿سورة الضحى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى:٧]، ليس معنى ﴿ضَآلًّا﴾ أي: على دين قومه، كما سبق بيان بطلان ذلك من كلام الإمام أحمد ؒ، كذلك في كلام غيره من أهل العلم؛ وإنما المراد

(١) رواه الخلال في «السنة» (٢١٣).

(٢) قال الإمام ابن كثير ؒ: «أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن» «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٢١٧).

بـ ﴿ضَآلًّا﴾: أي عن تفاصيل الشرائع، فهو ﷺ لم يهتدِ إليها ولم يعرفها إلا بالوحي الذي نزّله الله ﷻ على قلبه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، ولهذا كان ﷺ يقول: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾ [الأنبياء:٤٥] كما أمره الله ﷻ.

قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**» هنا ذِكر التحول عن الفطَر كيف يكون؟ كيف يحصل للإنسان أن يتحول عن فطرته وأن يُجتال عن الدين الذي فطر عليه؟ بيّن ذلك ﷺ؛ قال: (**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**)، وذِكر هذه الثلاث ليس على سبيل الحصر وإنما على سبيل التمثيل؛ تمثيلاً للانحراف بأشهر المذاهب والأديان المنحرفة وأبرزها، وإلا كل الأديان المنحرفة والعقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة حتى أيضا هذا الحديث يتناول المذاهب الفاسدة المنتسبة للإسلام، فالتحول الذي يحصل للفِطَر والتغيَّر الذي يحصل لها بالعقائد الفاسدة مع بقاء صاحبها منتسباً للإسلام هذا أيضا يتناوله الحديث، بتحول الإنسان عن فطرته إلى مذهب منحلٍّ فاسد منحرف مصادم للدين الذي بعث به النبي ﷺ حتى وإن انتسب صاحبه إلى الإسلام فالحديث يتناول ذلك؛ لأنه داخل في جملة الانحراف عن الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها.

فإذاً قوله: (**يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**) هذا خرج مخرج التمثيل وليس الحصر، وإلا فالأمر يتناول كل إبعادٍ للإنسان عما جُبل عليه العبد، ولهذا جاء

في حديث عياض الذي تقدمت الإشارة إليه وذِكره قال الله تعالى: (خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)[١]؛ لاحظ هنا قضية التحول عن الفطرة، أو تحديداً لاحظ عوامل التغير عن الفطرة من خلال الحديثين: حديث عياض فيه: (أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ)، والحديث الذي معنا في هذا الباب قال: (فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ)، فهذان عاملان للتحول عن الفطرة:

**الأول**: الشيطان؛ ولهذا لا يلزم أن تتحول فطرة الإنسان عن التوحيد أن ينشأ بين أبوين يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين ، فقد ينشأ الإنسان في مجتمع مسلم وبين أبوين مسلمين ثم - والعياذ بالله- تجتاله الشياطين عن دينه، ولا يكون أخذ الدين الباطل من أبويه وإنما أخذه من مصدر آخر.

**الثاني**: الوالدان؛ فإذاً قوله: (**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ**)؛ ذِكر الأبوين هنا لأنه الأغلب في انحراف من ينحرف؛ لكونه ينشأ على ما كان عليه أبواه كما قيل:

وَيَنشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا
عَلى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ

فالولد ينشأ يحاكي والده، ولهذا يقولون: «الولد سر أبيه»، يحاكي والده ويقلد والده في حركته وفي مشيته وفي حديثه وأيضا في قناعته بالخطأ الذي يرتكبه والده، لأن معزّة الوالد ومكانته في النفس تجعله إما أن يتقبل أخطاء الوالد، أو يحمل أخطاء الوالد على محامل يرى أنها حسنة وجميلة، وينشأ على ما عوّده

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

عليه والده، لأنه ينشأ في هذه الحياة بين هذين الأبوين فيصعب عليه أن يخرج عن الشيء الذي نشأ عليه في البيت الذي نشأ فيه وتربى، لأن الغالب في الانحراف والتحول في الفطر على يد الوالدين الكافرين قال: (**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)؛ وإلا الأقارب أحيانا، والمجتمع أحيانا، والوسائل الأخرى للانحراف؛ هذه كلها عوامل تشكل خطورة على فطَر الناس في حرْفهم عن دينهم وعن الفطرة التي فطرهم الله ﷻ عليها إلى حيث الفساد والضلال والخرافة والانحراف والأوهام، ولا يسْلم من هذا الانحراف في البشرية إلا القليل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف:١٠٣]، مع أن الجميع يولدون على الفطرة إلا أن الأكثر ينحرف عنها ولا يسلم إلا القليل، ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾ [ص:٢٤]، ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]؛ فالقليل هو الذي يُكتب لفطرته السلامة.

ولهذا مر معنا قريبًا ما يستحب للمسلم أن يقوله كل صباح وكل مساء؛ استحضار الفطرة وسلامتها: (أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)[١] وفي المساء يقول: (أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ..)، فيومٌ يصبح فيه العبد على الفطرة السليمة وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين محمد ﷺ وعلى ملة إبراهيم غير مبدّل ولا محرَّف ولا مغيَّر خير يوم، خير يومٍ

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٣٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٨٠٣).

للإنسان هو هذا اليوم الذي يكون فيه باقيا على الفطرة لم يتحول، ويجدد كل يوم هذا الثبات على الفطرة ولزومها وعدم الانحراف عنها؛ (أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ)؛ وفطرة الإسلام: هي كلمة الإخلاص، هي دين محمد ﷺ، هي ملة إبراهيم، وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تبين معنى الفطرة من جهة، وتبين ضرورة ومسيس الحاجة إلى المحافظة عليها، وأن المحافظة على الفطرة تحتاج إلى تعاهد يومي؛ بل تحتاج مبادرة في صبيحة كل يوم أن يستذكر الإنسان الفطرة، لا يكفي في موضوع الفطرة أن نجلس يومًا نتذاكر أهميتها وعظيم شأنها وضرورة الحاجة إليها بل لابد من استذكار يومي لها وعناية مستمرة دائمة بها كما يربينا على ذلك هذا الذكر العظيم الثابت عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه.

إذاً عوامل صرف الناس عن الفطرة ليس الأبوان فقط، وذِكر الأبوين في هذا الحديث لكون ذلك هو الأغلب، وإلا الأخوال والأعمام والقرابة والجيران والأصدقاء، ولهذا قال عليه السلام: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»[1]؛ فالخليل إذا كان فاسداً منحرف الفطرة يحرف من يخالِله، وسليم الفطرة سليم الدين لا يُنصح بمجالسة من كان منحرفًا لأنه يؤثر عليه.

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٠٢٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٤٥).

عَـــنْ الْمَـــرْءِ لَا تَسْـــأَلْ وَسَـــلْ عَـــنْ قَرِينِـــهِ
إِنَّ الْقَـــــــرِينَ بِالْمُقَـــــــارَنِ يَقْتَـــــــدِي

يؤثِّر القرين في قرينه، ولهذا يقولون: «الصاحب ساحب» لأنه يؤثر في صاحبه.

وإذا كان القرين الفاسد يشكِّل خطورة بالغة على قرينه في حرْفه عن فطره فماذا يقال في القنوات الفضائية والشبكات العنكبوتية التي يجلس أمامها بعض الناس وبعض الشباب وبعض الشابات الأوقات الطوال!! وهي تحمل صنوف الفساد وأنواع الشر ثم يجلس أمامها بدون ضابط شرعي وبدون علم يزَع وبدون دين قوي يردع ثم يدخل في مواقع الشبهات ويدخل في مواقع الشهوات وفي الوقت نفسه يريد لنفسه سلامة!!

أَلْقَـــاهُ فِي الْـــيَمِّ مَكْتُوفـــاً وَقَـــالَ لَـــهُ
إِيَّـــاكَ إِيَّـــاكَ أَنْ تَبْتَـــلَّ بِالْمَـــاءِ

لا يمكن لمن يمشي في الوحل ويسير فيه ويريد لنفسه سلامةً ونقاءً!! هذه المخاطرات التي تحصل الآن هي من الروافد والعوامل المخلخلة لفطَر الناس والمزعزعة لإيمانهم والمفسدة لأديانهم والمبدِّلة لأخلاقهم وآدابهم؛ ولهذا الفطرة تحتاج إلى رعاية وإلى عناية وإلى حفظ حتى تبقى سليمةً من التغيّر والتبدّل والانحراف.

فعندما نقرأ هذا الحديث (**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**) لا يقف الإنسان موقفاً خاطئاً في فهمه للحديث ويقول: (الحمد لله أنا في بيت أبواي مسلمان مصليان محافظان

يدعوان الله، وأنا لو مارست هذه الأمور أو وقفت لن تؤثر عليّ لأنني في أبوين مسلمَيْن ففطرتي لن تتبدل)؛ هذا فهم مغلوط للحديث، فذكر الأبوين هنا لأنه الأغلب، وإلا كم من انحرافٍ حصل لأناس ولدوا بين أبوين مسلمين صالحين، ومن الشواهد على ذلك في القرآن ابن نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود:٤٦]؛ ابن نوح نشأ عند نوح عليه السلام، والانحراف الذي حصل لفطرته جاءه من طريق آخر؛ إما من طريق أمه الكافرة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم:١٠]، أو من طريق مجتمعه الذي هو نشأ فيه، لكن والده ليس نبياً فقط بل من أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعلى رسل الله أجمعين.

فالفطرة تَبدُّلها وتغيُّرها قد يكون من الأبوين هو الغالب، وقد يكون من طرق أخرى وهي تحتاج إلى رعاية متواصلة وعناية بها مستمرة في كل يوم، ويرشد إلى ضرورة هذه العناية المتواصلة الذكر والدعاء الذي أشرت إليه والذي يستحب للمسلم صبيحة كل يوم أن يأتي به، إتيانه به تجديد للفطرة وتذكير للنفس بها وضرورة المحافظة عليها ورعايتها وحفظها من التبدل والتغير.

قال: (**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**)؛ هذا ضرْب مثال لتوضيح الأمر، وبالمثال -كما يقولون- يتضح المقال، والأمثلة تُضرب لتبيين

المعاني وجعلها بمثابة الأمور المحسوسة المشاهدة الملموسة، فولادة الإنسان على الفطرة ثم تغيّره عنها وانحرافه هذا المعنى يوضحه هذا المثال؛ بحيث تقرأ المثال وكأنك تنظر إلى المعنى الذي يوضَّح لك في هذا الحديث.

قال: «**كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ**»؛ تُنتَج: أي تولد البهيمة.

«**بَهِيمَةً جَمْعَاءَ**»: يعني مجتمعة الأطراف مكتملة الأطراف، عندما تراها للتو مولودة لا ترى فيها أذنًا مقطوعة ولا يداً مقطوعة ولا ذنَبًا مقطوعًا ولا عينًا مفقوعة إلى غير ذلك، ترى أطرافها سليمة أعضائها سليمة، ثم فيما بعد إذا رأيت في أذنها قطع أو قدمها مبتورة أو ذنبها مقطوع أو نحو ذلك هل هذا أمر وُلدت عليه أم أنه طارئ وله سبب وُجد به؟

قال هنا في الحديث: «**حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**»، يعني أنتم الذين يحصل منكم هذا الذي يكون فيها من قطع أذن أو طرف أو قدم أو ذنب أو غير ذلك وإلا هي تولد سليمة.

فهذا مثال ضربه عليه الصلاة والسلام لتوضيح هذا المعنى، فالمولود يولد على الفطرة أي مجتمِع ليس فيه انحراف، الانحراف لا يولد معه؛ سواء من الانحراف العقدي أو كذلك الانحراف الأخلاقي هذا لا يولد مع الإنسان؛ والانحراف الأخلاقي لا يولد مع الإنسان.

**للتوضيح**: الكذب، الخيانة، الغش، التدليس، الظلم؛ كل هذه لا تولد مع الإنسان، وانظر في أكبر ظالم حي أو مات لم يولد ظلمه معه، مهما بلغ ظلمه

ومهما بلغ غشه ومهما بلغ كذبه هذا كله لم يولد معه، وُلد على الفطرة، وُلد لا يعرف كذبًا ولا يعرف غشًا ولا يعرف ظلمًا «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»، وهذه الأشياء كلها توجد بعد، لم تولد معه، أكابر الظلمة أكابر الفسقة أكابر الكذابين أكابر الغشاشين كل هؤلاء على مد التاريخ ليس منهم واحد وُلدت معه هذه الأشياء بل هي طارئة تطرأ على الإنسان، ولهذا النبي ﷺ رعى فطر الناس والأطفال حتى في هذه الجوانب، وجاء عنه النهي ﷺ أن يقال للطفل تعال خذ ولا تعطيه شيئا، وهذه يفعلها كثير من الناس؛ يريد أن يقبِّل طفلاً أو يداعب طفلاً صغيراً عمره سنة أو سنتين يقبض يده ويقول: (تعال خذ) يوهمه أن في بيده حلوى مثلا أو لعبة، ويأتي هذا الصغير يريد أن يأخذ ثم يفتح اليد ولا يرى فيها شيئا، لماذا نهى النبي ﷺ عن ذلك؟ لأن هذا العمل يحرف فطرة الطفل ويدخل عليها الكذب(١)، الكذب لم يولد مع الطفل، الذي ولد معه الصدق، الذي ولد معه الوفاء، الذي ولد معه الأمانة، الذي ولد معه العدل، وهذه أشياء طارئة وتوجد فيه، الآن عندما ترى طفل ثلاث سنوات أو أربع

---

(١) كما جاء في الحديث:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟»، قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ» رواه أبو داود (٤٩٩١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٤٨).

سنوات أو خمس سنوات - وهذا يوجد أحيانًا - وتجده كثير الكذب أو يغش هذه لم تولد معه، مع أن مدة عمره قصيرة وكذبه كثير! هذا الكذب الذي عنده لم يولد معه، فتِّش وترى السبب؛ إما أب أو أم أو أخت أو خال أو عم أو جار أدخَلوا عليه.

ويعظم انحراف الصغير عندما يزداد تعلقه بالكبير وحبه له، لأن هذا يفتح له باب القدوة، فإذا كان والده يكرمه ويحبه ويحسن إليه ثم يرى في والده أخلاقيات فاسدة يتقبلها بسرعة ويأخذها بسرعة عن والده، وأي خطأ يكون عليه والده يجد له مبررات، قرأت مرة -وآلمني كثيراً- عن أحد الأطفال رأى لوحة فيها تحذير من الدخان «الدخان داء قاتل يفضي بصاحبه إلى الموت» أو عبارة نحو هذه العبارة ونظر إلى اللوحة ووالده من المدخنين بشراهة، وهنا وصْفٌ للدخان بأنه داء قاتل يفضي بصاحبه إلى الموت ووالده يدخن بشراهة فقرأ اللوحة وقال: (لكن والدي يدخِّن كويس!)، هذه أشياء تنشأ مغالطات في النفس وتغيرات في داخل الإنسان، ثم أيضا تحوُّل في المقاييس ووزن الأمور على وفق ما نشأ عليه الإنسان في المجتمع الذي وُجد فيه أو بين الأبوين، ولهذا عظُمت المسؤولية على الأبوين تجاه الأبناء، وقد قال ﷺ مؤكدا هذا الأمر: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْهُمْ)[1] ومعنى

(١) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

المسؤولية: أنه سيقف أمام الله ﷻ ويسأله، وفي القرآن قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

وحِفظ فطَر هؤلاء الصغار وإبعادها عما يلوثها هذه مسؤولية عظيمة، أحيانا يأتي بعض الآباء من باب التوسعة على الأبناء والترفيه إلى غير ذلك من المعاني ويُدخل عليهم أشياء تفسد فطرهم وتجتالهم عن دينهم ثم ينشأ في أبناءه أخلاقيات وعقائد وأنواع من الفساد وهو الذي زرعها لهم بما جلبه إليهم، وهناك وعيد شديد ثابت عن النبي ﷺ في حق من مات وهو غاش لرعيته[1]؛ لم ينصح لهم، لم يجهد لهم في إصلاحهم في إبعادهم عن الانحراف، فهذه مسألة عظيمة جداً.

وهذا الحديث هو من الأحاديث العظيمة التي تعين الإنسان على موضوع هذا الباب؛ وهو إقامة الوجه للدين ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾؛ ولا يتم ذلك إلا بحفظ هذه الفطرة ورعايتها وصيانتها وإبعادها عن كل ما يحرفها.

والعلماء رحمهم الله أخذوا من هذا الحديث فائدة عظيمة جداً وأيضا مُفرِحة

---

(١) ورد في الحديث:
عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، قَالَ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»
رواه البخاري (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢)، واللفظ له.

مبهِجة في الوقت نفسه للآباء وللمربيين وللدعاة وهي: أن التربية على الإسلام هي بناءٌ على أصل موجود؛ الذي يربي أولاده على الإسلام يبني على أصل موجود، أما الذي يحرف في تربية أبنائه عن الإسلام هذا ينقلهم إلى شيء لا أصل له موجود، ولهذا قبول الطفل الذي وُلد على الفطرة للصدق، للوفاء، للأمانة، لحُسن المعاملة، للأخلاق الكريمة يقبلها بارتياح لأنها هي أشياء مفطور عليها، أشياء مجبول عليها، قبوله للعقائد الصحيحة للإيمان الصحيح هذه أشياء جُبل عليها، عندما يُزرع فيه عقيدة فاسدة أو خُلقًا فاسداً يبدأ القلب في مرحلة صراع لأن هذا شيء يصادم فطرته، فيبقى في مرحلة صراع؛ فيه عوامل تدفع للانحراف وفيه أصول تمنعه منه، وهو لأيهما غلب، قد يكتب الله ﷻ له حفظًا لفطرته، قد يكتب الله له من يحسن تربيته لتبقى فطرته سليمة، قد يقيّض الله ﷻ له أبوابًا من الهداية والصلاح والاستقامة، وقد يبتلى بعوامل شديدة متواصلة تحرفه عن هذه الفطرة.

**ولهذا هذا أمرٌ ينبغي أن يُعلم وهو**: أن التربية على الإسلام ليس حشراً لأمور تصادم أصل الإنسان، وإنما هو بناءٌ على أصول قائمة في الإنسان وثابتة فيه، أما حرْف الإنسان عن الفطرة إلى عقيدة فاسدة أو إلى أخلاق فاسدة أو نحو ذلك هذا نقلٌ له عن شيء لم يُجبل عليه ولم يفطر عليه.

فهذا يستفاد منه فائدة أن التربية على الإسلام ليست شاقة بإذن الله.

**ويستفاد أيضا**: أن من يربون أبناءهم على العقائد الباطلة يحتاجون إلى أنواع

من الكذب حتى يضطر هذا المولود الذي عندهم إلى التحول، مثلاً في بعض المذاهب وبعض الأديان تجده يسرق من طفله شيئًا ويخفيه عنه ويظل يبكي ويبقى فترة حزينًا ما وجده ثم يأتيه به ويقول من جاء به؟ يقول: هذا فلان جاء به؛ حتى يغرس فيه ماذا؟ يغرس فيه حب أو بغض هذا الشخص، فمثلا يقول هذا عيسى عليه السلام هو الذي جاء لك به، وعيسى عليه السلام هو الذي دائمًا ينقذنا، ثم يسرق له شيئا آخر ويقول له: سرقه فلان! وهكذا.

وأيضا فيمن ينتسبون إلى الإسلام ويعظّمون أشخاصًا باسم الولاية أو اسم الإمامة أو نحو ذلك ويعطونهم من خصائص الله ويريدون ربط صغارهم يكذبون مثل ذلك.

ثم إذا أرادوا أيضا حشر نفوس هؤلاء الصغار ضد بعض الأخيار وضد بعض الأفاضل يسرق منه الشيء فيظل الطفل يبكي، فيقولون له على سبيل المثال هذا أبو بكر رضي الله عنه هو الذي سرق، ودائما يعتدي على الناس، فينشأ وليس في الدنيا أبغض عليه منه بهذه الطريقة.

فلماذا يستعملون هذه الأساليب؟ ويضطرون إلى هذه الأساليب؟ لأن فيه حرْف عن الفطرة، والحرف يحتاج إلى مثل هذه الروافد، أما الذي يبني على أخلاقيات الإسلام وعلى آداب الإسلام وعلى عقائد الإسلام الصحيحة فهو معافى من ذلك كله؛ لأنك تبني على أصول قائمة وأسس ثابتة، والعمل الذي يقوم به ليس بناء من الأساس وإنما تكميل لشيء قائم.

فهذا أمر -حقيقة- مفرح جداً لمن أكرمه الله ﷻ وحباه، يعني يكفي في الطفل أن لا يُكذَب عنده؛ يبقى صادقا، أن لا يُخلف الوعد عنده؛ يبقى أمينًا، فإذا كنت تريد أن تربيه على الأمانة وذكرت له بعض الأحاديث هذا تكميل، لكن الذي يحرف الابن عن هذه المعاني هذا هو الذي يحتاج إلى تلك الأمور وتلك المغالطات وذلك الكذب إلى غير ذلك، فهذه من النعم العظيمة والفوائد الجليلة التي تستفاد من هذا الحديث.

(ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه قول الله ﷻ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾)؛ وهذا جزء من الآية التي هي عنوان هذا الباب، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾؛ هذا السياق بتمامه في ﴿سورة الروم﴾ تأملوه فإن فيه فائدة عظيمة، بل ذكرٌ لركائز عظيمة جداً للسلامة من التفرق والانحراف، ولا أطيل الكلام في تفصيلها لكن أشير إليها إجمالاً؛ السلامة من التفرق يكون بأمور ذُكرت في هذا السياق المبارك العظيم:

**الأمر الأول**: إقامة الوجه للدين بالاستسلام لله وحُسن التوجه إليه وقصده سبحانه وتعالى بالعمل وإخلاص الدين له ﷻ.

**الأمر الثاني**: أن يكون الإنسان معوِّدًا نفسه دائمًا وأبداً على الميل والانحراف والتجافي عن الباطل ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ فيكون بهذه الصفة متجافيا متباعدا، كلما يمر عليه باطل أو انحراف أو زيغ يميل عنه ويبتعد عنه

ولا يقصده.

**الأمر الثالث**: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ تعاهد العلم والعناية به والعناية بالتعلم والفقه في الدين، فهذا من أعظم الأمور التي يُحفظ بسببها العبد بإذن الله ﷻ، ولا يترك الجهل يلعب به ويعبث به في أودية الباطل والضلال؛ بل يتفقه ويتعلم.

**الأمر الرابع**: الإنابة إلى الله ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ والإنابة هي الرجوع إلى الله، والإنسان كثير الخطأ، فيه الخطأ، فيه التقصير «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ»، فيعوِّد نفسه دائمًا على الإنابة وهي الرجوع إلى الله.

**الأمر الخامس**: تقوى الله ﷻ ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ في السر والعلانية، في الغيب والشهادة، بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر، «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ».

**الأمر السادس**: إقام الصلاة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والصلاة إقامتها كما أمر الله من أعظم أسباب حفظ العبد وسلامته ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ وهي من أعظم الأسباب لحفظ العبد عن الانحراف والضياع ولاسيما إذا أقبل على الله في صلاته بخشوع وصدق مع الله ﷻ.

**الأمر السابع**: البعد عن الشرك والبراءة من المشركين: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

فبهذه الأمور يسلم الإنسان من التفرق ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾. وبهذا السياق المبارك تعلم أن اجتماع كلمة المسلمين واتحاد صفهم لا يكون إلا على هذه الأصول، عندما تجتمع فيهم هذه الأصول يتحقق فيهم الاجتماع، وإذا أخلّوا بهذه الأصول تفكك من اجتماعهم بحسب إخلالهم بها، ولهذا كم نحتاج إلى أن نقرأ مثل هذا السياق المبارك ونجاهد أنفسنا على تتميمه وتكميله وجبر ما يكون فينا من نقص أو خلل فيه أو في شيء من جوانبه، ويمكن أيضا مطالعة كلام أهل العلم في كتب التفسير لهذه الآية ونظائرها مما جاء في كتاب الله ﷻ.

ثم بعد ذلك انتقل المصنف ﵀ إلى حديث حذيفة ﵁ الطويل؛ أيضا في تقرير معنى إقامة الوجه للدين وكيف يسلَم الإنسان، مع أن أمامه في حياته تغيرات ومتغيرات وأمور وفتن متنوعة، والمصنف ﵀ يريد أن ينبه بذلك أن إقامة الوجه للدين يحتاج إلى مجاهدة مستمرة من العبد ليسلم مما سيمُرّ به من الصواد والصوارف التي تحرف الإنسان عن دينه والشرور التي يلقاها، وقد قيل: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك؟! ولكنَّ العجب ممن نجا كيف نجا؟!»[1]، الصوارف من حول الإنسان كثيرة جدا فالعجب في نجاة الإنسان من هذه المهلكات، فهذا باب إقامة الوجه للدين حنيفا يحتاج إلى أمور كثيرة جدا يعتني بها العبد يحفظها ويحافظ عليها حتى يسلم له دينه، وسيأتي في هذا تفاصيل نافعة ومفيدة جدا في الحديث الآتي حديث حذيفة ﵁.

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٢).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وعن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأنا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَني، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ». قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ». قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ «نَعَمْ فِتْنَةٌ عَمْيَاء ودُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: «قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَأْمُرُنِي إِنْ أدركتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»(١) أخرجاه.

وزاد مسلم: «ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ؛ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عنه وِزْرُهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ»(٢).

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧).

(٢) رواه مسلم (٢٩٣٤) بلفظ: «الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ، مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ»، ورواه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٢٩)، وأبو داود (٤٢٤٤).

## الشرح

أورد المصنف رحمه الله حديث حذيفة بن اليمان المخرّج في «الصحيحين» - صحيحي البخاري ومسلم رحمهما الله- في هذا الباب: «باب قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم:٣٠]»؛ لأن هذا الحديث العظيم حديث حذيفة رضي الله عنه فيه بيان ما ينبغي أن يكون عليه من يريد إقامة وجهه للدين حنيفا من حذر وبعد عن الشرور والهلكات والأمور الصارفات عن دين الله عز وجل، وأنه عليه أن يعلم أن أمامه في هذه الحياة فتنٌ صارفة وأهواء جارفة لابد أن يكون على حذر منها وحَيْطةٍ من الوقوع فيها؛ ليسلَم له دينه، وليتم له إقامة وجهه للدين حنيفًا، فكما أن الإسلام حِفظٌ للأوامر والطاعات فإنه كذلك بُعدٌ عن النواهي والأهواء والشبهات وحفظٌ لدين الله سبحانه وتعالى، ولهذا ساق المصنف رحمه الله هنا حديث حذيفة العظيم ليبين ما ينبغي أن يكون عليه من أراد لنفسه إقامة الوجه الدين حنيفًا بلا زيغ ولا انحراف.

وحديث حذيفة رضي الله عنه فيه آية من آيات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أخبر فيه بأمور أعلمه الله سبحانه وتعالى بها تكون في المستقبل مما يتعلق بأحوال أمته بعده؛ حيث ذكر عليه الصلاة والسلام أطواراً تمرُّ بها الأمة، طوراً من بعد طور. أمة محمد عليه الصلاة والسلام بعد أن أنقذهم الله سبحانه وتعالى من الجاهلية وخلّصهم من عمايتها وغوايتها وضلالها وغيِّها وظُلمها وظلامها فأصبحت أمةً على خير يذكر هنا صلى الله عليه وسلم أطواراً للأمة ستمُر بها، وهو صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٤]، ثم يذكر عليه الصلاة والسلام ماذا ينبغي أن

يكون عليه المسلم الذي يريد لنفسه إقامة الوجه للدين بدون زيغ وانحراف؟ يبين ﷺ ماذا ينبغي أن يكون عليه الإنسان عندما يمر به طور من تلك الأطوار التي أشار إليها في الحديث. وهو حديث عظيم جداً وفيه فوائد كبار وتأصيلات عظام وتقعيدات جليلة يحتاج إليها المسلم حاجة ماسة.

يقول حذيفة رضي الله عنه: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأنا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»؛ هذه الكلمة التي قالها حذيفة رضي الله عنه في صدر هذا الحديث هي توطئة منه رضي الله عنه للسؤالات التي ذكرها وذكر أنه تقدم بها إلى رسول الله ﷺ، سيمُر عليك في سؤالاته «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟» فلِمَ هذا السؤال؟ هو جاء في مقدمة هذا الحديث بتوطئة يبين فيها سبب تلك السؤالات، لماذا كان يسأل النبي ﷺ تلك السؤالات؟ سؤالات عديدة: «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟»، ثم يقول: «هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟»، ثم يسأل: «هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟»، ثم يسأل: «ثُمَّ مَاذَا؟»؛ أسئلة كانت متوالية عظيمة جداً نافعة ترتب عليها خيرٌ عظيم لكنه رضي الله عنه وطَّأ لتلك الأسئلة بقوله: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَته**» وأصبحت كلمته هذه قاعدةً علمية عظيمة الشأن جليلة القدر يحتاج إليها كل مسلم، أعني قوله رضي الله عنه «كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَته» فهي قاعدة مهمة في باب العلوم والفقه في دين الله سبحانه وتعالى.

«**كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَته**»؛ منبِّهًا بذلك إلى أصل عظيم في فقه الشريعة ومعرفة الدين ألا وهو: أن المسلم لا يكفيه أن يعرف الفرائض والواجبات

والرغائب والمستحبات؛ بل لابد أن يكون على معرفة بالمحرمات ولو إجمالاً من أجل اتقائها، رب العالمين حرّم في كتابه في آيات كثيرة الشرك، فمن لم يعرف الشرك كيف يتقيه؟!، حرّم البدع ونهى عنها وحذر منها، فمن لم يعرفها كيف يتقيها؟! حرّم الكبائر فمن لم يعرفها كيف يتقيها؟! وقد قيل: «كيف يتقي من لا يدري ما يَتَّقي»[1]؛ لابد من معرفة هذه الأشياء للحذر منها، ولهذا علل رضي الله عنه السر في هذه المعرفة قال: (وَكنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)؛ فيسأل عن الشر ليعرفه ويعرف حقيقته ويعرف صفته ليكون منه على حذر.

وهذا فيه تنبيه أن من لا يعرف الشر قد يقع فيه من حيث لا يشعر، بل وقع أقوامٌ في شرور كثيرة وفي شركيات صريحة وفي بدع مضلة وهم في قرارة نفوسهم يظنون أنهم على خير وأنهم على هدى وإيمان وصلاح، فهو يقول: (كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَته) يعني خوفًا من أن أقع فيه.

والقائل لهذه الكلمة صحابي جليل ومن علماء الأمة ومن الفقهاء ومن الأعيان؛ يقول: (كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَته) يخاف من الشر، فإذا كان هذا الصحابي الجليل الذي هو في زمن الخيرية وفي صدر الأمة يخاف ويسأل فكيف بالأزمان المتأخرة التي تتكاثر فيها الفتن والشرور والبدع والأهواء والانحرافات والزيغ عن دين الله!! فلا شك أن الأمر أعظم في حق من أراد لنفسه إقامة وجهه للدين، أما الذي لا يبالي بدينه ويخاطر بإيمانه فهذا شأنه

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

آخر، لكن الكلام في شأن من يريد إقامة وجهه للدين حنيفًا، فهذا يتطلب معرفة للشر من أجل أن يُتقى، كما قيل:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ
إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

الذي لا يميز بين خير وشر يقع في الشر من حيث لا يشعر، ولهذا احتاج الإنسان أن يعرف الشر ولو إجمالاً حتى يكون منه على حذر، والله ﷻ يقول في القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام:٥٥]؛ يعني تكون سبيل المجرمين واضحة، ما فائدة وضوح سبيل المجرمين للمسلم؟ حتى يحذر منهم ومن سبيلهم، أما الذي لم تستبن له سبيل المجرمين يذهب إليهم ومعهم وهو لا يشعر، فاستبانة سبيل المجرمين للإنسان، استبانة سبيل الضالين، واستبانة سبيل المنحرفين الزائغين؛ هذا يجعله في حيْطة وحذر من أن يقع في شيء من ذلك.

ولهذا كانت كلمة حذيفة رضي الله عنه قاعدةً عظيمة وتأصيلاً نافعًا في هذا الباب.

**«كَانَ أصحاب رسول الله ﷺ يَسْأَلُونَه عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»**؛ الشر يدرك من لا يعرفه، أما الذي يعرف الشر ويعرف أنه شر ويعرف صفة الشر وحقيقته ويجاهد نفسه على البعد منه ويسأل الله أن يعيذه منه فهذا يكون في عافية، والنبي ﷺ كان في تعوذاته يتعوذ بالله من الشرور؛ شر النفس، وشر الشيطان، وشر كل دآبة آخذ بناصيتها رب العالمين، فمن كان على

علمٍ بها مستعيذاً بالله مجانباً محتاطاً لدينه يسلم بإذنه ﷻ، أما الذي يخاطر بدينه ولا يعرف الشر فهذا دينه على خطر، قد يدركه الشر بل تدركه شرور كثيرة يقع فيها ويتضمّخ في أنواعٍ من الباطل والضلال.

قال: «**فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟**»؛ حذيفة رضي الله عنه يتحدث هنا مغتبطاً بنعمة الإسلام ومنّة الهداية إلى هذا الدين فرحاً بها ويريد لها بقاءً وسلامةً، ولما سأل هنا «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟» لم يسأل سؤالاً فارغاً من المعاني أو المقاصد؛ بل له مقصد عظيم جداً وهو: إذا كان هناك شر قادم أو آت؛ حتى نحذر منه ونكون في حيطة وفي مجاهدة لأنفسنا في حفظ الدين وإقامته والبعد عن الزيغ والانحراف، يسأل «فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟»، يوضح سر السؤال وسببه قوله قبل قليل: «مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي» هو يسأل حتى يعرف إذا كان فيه أشياء يحتاط ويحذر منها.

قال: «**إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ**»؛ يصف الحالة التي كان الناس عليها قبل الإسلام، حيث كانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء وشرور لا حد لها.

أما الجاهلية؛ فكان في الناس العقائد الباطلة، والنِّحل الفاسدة، والأهواء الزائغة، والمعاملات الفاسدة، ولا تسأل عن بابٍ من أبواب أحوال الناس وحياتهم إلا وتراه في جاهلية، وكانت جاهليةً مطبقة؛ ليست في بقعة من الأرض دون بقعة أخرى بل جاهلية خيمت على الأرض بأسْرها، حتى إن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ»

جاهلية خيَّمت على الأرض بكل أرجائها وجميع أطرافها غطت على الأرض، «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[١] أفذاذ قلائل جداً من أهل الكتاب بقيت فطَرهم لم تتبدل ومستمسكين بالكتب السابقة، «بَقَايَا» وإلا الجاهلية خيمت على الأرض، ولا تسأل عن ألوان الفساد في عقائدهم وعباداتهم؛ فساد في البيوع والمعاملات وما يتعلق بالأموال، فساد فيما يتعلق بالأعراض والفروج والأنكحة، فساد من جميع الجهات، انتهاب، قتل للأنفس، إراقة للدماء، انتهاك للأعراض، استباحة للمحرمات، جاهلية جهلاء أطبقت على الأرض، وكان مع الجاهلية شر؛ أي شراسة في الناس وهي وليدة الجاهلية، شراسة وفظاظة ورعونة وغلظة وعدوان وبغي وقتل ونهب وسلب.

فاجتمع لهم هذان الأمران: الجاهلية والشر؛ الجاهلية: انحلال في العقائد والعبادات، والشر: يعيش الناس حياة خوف وهلع لا يأمن الواحد على ماله ولا يأمن على عرضه ولا يأمن على نفسه، اختلال في جميع الأحوال.

فيقول حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مغتبطًا: «**كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ**»؛ وقوله: «فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ» فيه الاعتراف بالنعمة والمنعِم؛ النعمة: الإسلام، والمنعِم: رب العالمين، (فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ) ففيه اعتراف بالنعمة التي هي نعمة الإسلام أعظم النعم، وفيه الاعتراف بالمنعِم المتفضل وهو رب العالمين،

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

قال ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٧-٨]؛ فالإسلام فضلٌ من الله ونعمةٌ من الله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١]؛ فهي منّته سبحانه وتعالى.

الصحابة رضي الله عنهم كما في «الصحيحين»[1] كانوا يقولون:

لَـــوْلَا اللهُ مَـــا اهْتَـــدَيْنَا وَلَا صُـــمْنَا وَلَا صَـــلَّيْنَا

يعني لولا أن منّ الله علينا بهذا الدين وهدانا إليه وشرح صدورنا لقبوله لما كان ذلك ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]؛ فهي منة الله ﷻ وهو الهادي سبحانه وتعالى.

فيقول حذيفة رضي الله عنه مغتبطًا: «**فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ**»، والمراد بالخير هنا: الإسلام، وهنا أيضا فائدة: وهي أن حيازة الناس للخير وتحصيلهم له إنما يكون من جهة الإسلام؛ بمعنى: أنه كلما عظم حظ الإنسان من الإسلام عظم حظه من الخير، وكلما اجتهد الناس في حفظ الإسلام والمحافظة عليه والدعوة إليه

(١) رواه البخاري (٦٣٣١)، ومسلم (١٨٠٢).

والنهي عما يخالفه أو ينقِصه بقي لهم من الخيرية بحسب ذلك ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]؛ فالخيرية مرتبطة بالإسلام؛ فعلاً له، وتحقيقاً، ودعوةً، وأمراً، ونهياً وإصلاحاً؛ فكلما كانت الأمة محافظةً عليه عظم حظها من الخيرية بذلك.

قال: «فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟»؛ يعني هل سينتقل حال الناس بعد هذا الخير الذي عم وانتشر؟ هل سيكون هناك شر بعده؟

فقال ﷺ: «نَعَمْ»؛ يعني سيكون هناك شر بعد هذا الخير.

وهذا فيه تنبيه للناس أن الإنسان إذا كان يعيش حياة آمنة بالإيمان والإسلام والطاعة والمحافظة على عبادة الله هو وأولاده وأهله قد يفاجئه في حياته امتحان بحيث أن شراً يحيط، وكثير من الناس عندما يأتي الشر يتساقطون في الامتحان، والشر امتحان للإنسان وابتلاء له فكثير من الناس يسقط ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥] ابتلاء وامتحانا، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد:٣١]؛ فيُبتلى الإنسان امتحاناً واختباراً وتمحيصاً، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت:٢] فيه امتحان وفيه افتتان فيه اختبار، فهذا الشر يكون امتحاناً وابتلاء من الله ﷻ للناس. وحذيفة سأل للسبب الذي ذكره قريباً: «مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»؛ يعني حتى يحذر ويحتاط، من ذلكم أنك تسأل الله ﷻ أن يعيذك من

الشر، هذه المعرفة تحرك فيك تعوذاً (اللهم أعذنا من الشر، اللهم سلِّمنا، اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا)، لما يقال لك مثلاً أن عدواً متوقع مجيئه تجد نفسك مجتهد في إصلاح نفسك وفي تهيئة أمرك ودعاء ربك والإلحاح عليه.

«**فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ**» هذا طوْ، الطور الأول: الخير الذي عم وانتشر في حياة النبي ﷺ، ثم يأتي طور وهو الشر؛ يعني يكثر الشر ويفشو وينتشر ويكثر دعاته وتتبنَّاه دول وجهات وأفراد، ينتشر ويطغى على كثير من الناس، فأشار ﷺ إلى أن بعد هذا الخير يوجد شر، لما سأله: «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ».

**هنا يتنبه**: أن الشر المعني هنا ليس شراً مطبقاً تماماً بمعنى أنها عودة إلى الجاهلية الأولى، فهذا لا يكون؛ الجاهلية المطبقة انتهت بالإسلام، وقد قال ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[(١)]، فالحق باقٍ وله أعوان وله أنصار، محفوظ بحفظ الله ﷻ، ولهذا لا يصح للإنسان في وقت من الأوقات أن يقنِّط الناس وييئسهم، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: (إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)[(٢)] وفي رواية (فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ)؛ لأنه إذا قال: (هلك الناس، لم يبق من خير، الشر أطبق علينا من كل جانب، ما بقي في الناس خير!)؛ إذا قال مثل هذه الكلمات ماذا

(١) رواه البخاري (٧٤٦٠)، ومسلم (١٩٢٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٣).

يُحدِث؟ قال: (أَهْلَكَهُمْ) لأنه ييئسهم، يقنّطهم، يُضعِف عزائمهم، يُفتِر هممهم؛ وهذا باطل لا يجوز، لأنه إذا كان بهذه الصفة يكون هو نفسه القنوط مسيطر عليه ويرى أن الأمر انتهى، فهو في نفسه هالك وأيضـًا مهلِك للآخرين.

**وهذا فيه تنبيه**: أن الواجب على المسلم أن لا يسيطر عليه يأسٌ في أي مرحلة وفي أي وقت، بل يكون دائمـًا متفائل ومستبشر وطامع في رحمة الله ﷻ وفضله ومقبِل؛ حتى وإن تكاثرت الشرور وأحاطت وتعددت وتنوعت وكثر دعاتها لا يقنط، بل يكون دائما مستبشراً متفائلاً طامعـًا عاملاً ناصحـًا داعيـًا يؤدي عمله، أما إذا وصل إلى مرحلة يقول فيها: (هلك الناس، ما بقي خير) أو نحو هذه الكلمات أو ما يؤدي معناها؛ فهذا يُهلِك نفسه ويهلِك غيره، ويكون بذلك قد سيطر عليه هو القنوط، وبدأ ينشر في الناس قنوطـًا ويئسـًا، وهذا شر والعياذ بالله، فهذا أمر ينبغي أن يتنبه له المسلم وأن يحذر.

وبعض الدعاة أحيانـًا لا يوفق في طرحه؛ عندما يبدأ يسرِد للناس في خطب أو في محاضرات قوائم بأنواع الشرور وأماكنها ويسرد لهم سرداً حتى يكون من أمامه الفائدة التي حصّلوها إحباط؛ (الشر من كل جانب، ولا حول لنا ولا قوة)، ويدبّ لقلوبهم اليأس والقنوط، وتُذكر أرقام مهيلة ومخيفة تضر بالناس؛ فهذا ليس من النصح في دين الله ﷻ، النصيحة تكون ببيان الحرام والتحذير منه، ويمكن أن يشار إلى وجوده، ويشار إلى وجود دعاة له، ويقال للناس الخير باق ولله الحمد وأهله موجودون والناس في خير، وإذا ذهبتم إلى أماكن خير سترون

الخير وترون أهله، ومن يذهب إلى أماكن الشر يجد الشر ويجد أهله، فيُدَل الناس على الخير وعلى أماكنه وعلى أهله، أما إذا ذُكر للإنسان فقط دعاة الشر وأهل الشر وأنواع الشر بالأرقام وأُهمِل جانب الخير هذا من أخطر ما يكون، والأمر المفروض يكون بالعكس.

قال حذيفة رضي الله عنه: (**فَقُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟**)؛ يعني إذا صار حال الناس إلى ذلك الشر فهل يرجعون إلى الخير وهل ينتشر خير بعد الشر الذي وُجد؟

(**قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**)؛ الدخن معروف وهو الكدر والكدورة، يعني فيه خير وفيه أيضـًا أشياء تكدر صفوه، والدخن هو في الأصل التعتيم الذي يكون في الجو بسبب الغبار أو الدخان، وأنت تعلم أن إذا كان الجو فيه دخان أو غبار ثائر يعتِّم عليك الطريق ويُضعِف الرؤية؛ فكذلك في باب الخير عندما يكون في الخير دخن يكون الأمر بهذه الصفة.

وقوله: (**فِيهِ دَخَنٌ**) هذا فيه إشارة إلى أمرين: الأمر الأول يتعلق بقلوب الناس أو قلوب كثير منهم، من جهة ما قد يكون في القلوب من تكالب على الدنيا أو أحقاد أو حسد أو ضغائن أو نحو ذلك من الأمور؛ هذا دخن. وأيضا من حيث استبانتهم للحق وعلمهم به ومعرفتهم بالطريق والجادة والسنة، فيكون عندهم دراية، ويكون عند عدد منهم دخن في ذلك وغبش وعدم وضوح، وربما يدخل عليهم بعض الأعمال التي هي ليست من سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

(**قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**)؛ أنت تتساءل هنا: وما هو هذا الدخن؟ هذا سؤال -مثل ما يقولون- يطرح نفسه، وطَرَحه حذيفة رضي الله عنه، وحذيفة رضي الله عنه كانت أسئلته عجيبة جداً، أسئلته أسئلة شخص مغتبط بدينه فرحٌ به مسرور بالخير الذي انتشر وعم وتزايد وكثُر، يريد هذا الخير يبقى له وللناس فبدأ يسأل أسئلة المشفق الحريص الناصح لنفسه ولغيره، فهي حقيقة أسئلة عظيمة جداً مباركة طرحها رضي الله عنه وأرضاه وجزاه عنا على هذه الأسئلة خير الجزاء وأعظمه وأوفره.

قال: (**وَمَا دَخَنُهُ؟**)؛ انظر هذا السؤال العظيم: «وما دخنه؟».

(**قَالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)؛ هذا معنى «الدخن».

وهنا يشير عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء الذين فيهم هذا الدخن عندهم خلل من جهتين؛ الجهة الأولى: مصدر التلقي، والجهة الثانية: الأعمال التي يقومون بها.

- **فمصدر التلقي**؛ قال عليه الصلاة والسلام: (**يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي**) فتجد أحدهم إذا استدل يستدل إما بمنام، أو يستدل بتجربة، أو يستدل بعقله، أو يستدل بقصة، أو.. أو..الخ من أنواع ما جُعلت مصادر للناس في استدلالاتهم، فتجده يذكر أعمالاً وعبادات إلى غير ذلك ويستدل عليها بغير السنة.

تَبًّا لِمَنْ نَبَذَ الكِّتابَ وَرَاءَهُ　　　وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ

الكتاب والسنة مهجورة ثم يستدل بأشياء أخرى!! لا يستدل بكلام الله ولا بكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا فساد وانحراف وخلل في مصدر الاستدلال.

▪ **النوع الثاني من الخلل**: خلل في العمل؛ وهو نتيجة للأمر الأول، من لم يستن بسنة النبي ﷺ اختل عنده العمل ووُجد عنده الانحراف، ولهذا قال: (**وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي**)؛ غير هديه عليه الصلاة والسلام في عباداته وأعماله، فترى فيهم البدع، وترى فيهم الخرافات، وترى فيهم أنواع من الانحرافات التي هي ليست من هديه عليه الصلاة والسلام، قد كان ﷺ إذا خطب الناس يوم الجمعة يقول: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)(١) فكان عليه الصلاة والسلام يحذِّر من الضلالات والبدع، ويؤكد على لزوم الحق والهدى وسنته صلوات الله وسلامه عليه.

قال: (**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)؛ هذا أيضا فيه توضيح للدخن، الخير الذي فيه دخن إذا نظرت إلى جانب الخير تعرِف، وإذا نظرت إلى جانب الدخن تُنكر، ففيه جانب خير، ليس شراً محضاً، وإنما خيرٌ فيه دخن، فأنت تعرف وتنكر؛ يعني ترى خيراً وترى أعمالاً وترى سننًا وترى صلاحًا استقامةً نصحًا اجتهادا، وتنكر أيضا ترى مع ذلك كله أموراً تنكرها، وهذا يكون في الأفراد وفي عموم الناس. يعني تجد أحيانًا شخصا مقبلا على الخير ومقبلا على الطاعة ومقبلا على العبادة وحريصا على الدين لكنك تنكر فيه أشياء ليست من الدين؛ بدع وخرافات ليست من دين الله عز وجل، فأنت إذا نظرت إليه من جانب عرفت، وإذا نظرت إليه من جانب آخر أنكرت،

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

قال: (**تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)؛ تعرف منهم خيراً وتنكر فيهم شراً ومخالفة.

قال: (**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)؛ هنا الآن لما عرفت هذا الوصف، الوصف نفسه لهذا الدخن متضمنٌ العلاج، يعني لو قلت مثلاً: إذا وجد في مراحل الناس وأطوارهم هذه المرحلة وهي أنه يوجد من يستن بغير السنة ويهتدي بغير الهدي وتعرف منه وتنكر؛ ما الحل؟ الحل واضح، الحل أن يجاهد الإنسان نفسه دائماً وأبداً على لزوم السنة والتمسك بهدي النبي ﷺ، ليس هناك مخرج إلا هذا؛ ولهذا في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا» ما المخرج؟ أجاب دون أن يُسأل: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

(**قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**)؛ كل هذه الأسئلة المتلاحقة من حذيفة رضي الله عنه أساسها قوله المتقدم: «وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي».

(**قَالَ: نَعَمْ؛ فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ**)؛ الفتنة توصف بأنها عمياء لأنه بوجودها غالب الناس لا يبصرون الحق ولا يرونه، فالفتنة تُعميهم عن الحق، ولهذا يقال فتنة عمياء صماء، لأنها تصرف كثير من الناس وتجرفهم وتبعدهم عن الحق والهدى.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

«**ودُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»؛ هؤلاء الذين قال عنهم ﷺ دعاة على أبواب جهنم هل منهم واحد يقول للناس هلُمَّ إلى النار؟! هل منهم واحد يقول إنني من دعاة جهنم فتعالوا معي إلى جهنم؟! إذاً ما معنى قوله: «**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**»؟ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١﴾ [غافر:٤١]؛ ما معنى ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؟ بيّن قال: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾ [غافر:٤٢]، فمعنى قوله: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ جاء ما يفسره ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾ فهذه الدعوة إلى النار، فالذي يدعو إلى الكفر يدعو إلى الشرك يدعو إلى الضلال هو في الحقيقة داعية إلى النار؛ فمعنى قوله ﷺ: «**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**»، أي: يدعون الناس إليها بدعوتهم إلى أعمالها، فمن دعا الناس إلى عمل من أعمال جهنم وعمل من الأعمال الموصلة إلى النار فهو داعية على باب جهنم شاء أم أبى.

قال: «**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، أي: من أطاعهم فيما يدعونه إليه قذفوه في النار، ثم هؤلاء الدعاة على أبواب جهنم عندما يدعون الناس إلى أعمال جهنم هل يدعون الناس إلى هذه الأعمال واصفين لها بأنها أعمال مهلكة أعمال مفضية إلى جهنم مفضية إلى الشر والهلكة؟ لا؛ وإنما يصفونها بأوصاف أخرى ويزيِّنونها؛ الشرك يزينونه يقولون: هذا توسل هذا شفاعة، الربا: يقولون هذه فائدة، الرشوة: يقولون هذه إكرامية، الخمور: يقولون

هذه مشروبات روحية، أنواع الفساد: يقولون هذا رقي وتقدم وحضارة، السنن والفرائض والواجبات بعضهم قال: هذه أغلال، وبعضهم قال: هذه تعوق الإنسان وتعطله عن مشاركة الناس في ركب الحضارة، المرأة والأبواب التي تُفتح عليها بالفساد يدخلون من جهة المساواة والعدل ورفع الظلم عن المرأة؛ إلى متى تُظلم المرأة؟ إلى متى تُهضم حقوقها؟ إلى متى إلى متى..؟ ويبدأ بعضهم يتجرأ على أحاديث النبي ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ»[(١)] كيف يقال ناقصة عقل وفي النساء من هي كذا ومن هي كذا!! فيهم الطبيبة والمهندسة...الخ كيف يقال ناقصات عقل؟! وبهذا الطريق يدخل دعاة جهنم على الناس تضييعًا للدين، وتضييعًا للأخلاق، وتضييعًا للفضائل، وكلها تأتي بشعارات براقة: العدل، المساواة، رفع الظلم، الحضارة، الرقي، التقدم، أشياء من هذا القبيل حتى يُجرَف الناس ويُصرفون عن دين الله سبحانه وتعالى، ومن أكبر ما يدخل دعاة جهنم على الناس فيه من جهة فتنة النساء، يقول ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ»[(٢)]، «أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[(٣)].

وفتنة النساء تدخل في بداية الأمر في فساد الأعراض ثم بعد ذلك فساد العقائد والأديان والانحرافات وضياع الدين. ولهذا ابن القيم رحمه الله في كتابه «الطرق

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٣).

الحكمية»[١] يقول: «وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكِينَ النِّسَاءِ مِنْ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ أَصْلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَشَرٍّ»، وذكر عبر التاريخ حوادث وقصص كيف أن الشر يفشو وينتشر؛ فتأتي دعوات برفع الظلم عن المرأة ويبدؤون ينتقصون الأحاديث ويتكلمون فيها ويطعنون فيها ويقولون على الله وفي الله وفي دين الله ﷻ بغير علم ويحاولون التقوّل على الله ، يقول ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً»[٢]، يطعنون في ذلك ويستدلون استدلالات باطلة في غير بابها؛ كل ذلك ترويج للضلال وللباطل.

فالنبي عليه الصلاة والسلام ذكر فتنة عمياء، ودعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

قال: «**يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا**»؛ يعني أعطنا صفة هؤلاء. وهذا أيضا فيه فائدة: أن معرفة صفة دعاة الباطل تفيد الإنسان، كم يحتاج عوام المسلمين أن تعطى لهم صفات لدعاة الباطل؛ حتى يحذر منهم ومن سماع كلامهم، حتى لا يُدخلوه في أمور وفي ورطات ربما لا يتخلص منها.

(**قَالَ: «قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»**)؛ قال بعض المفسرين: يعني قوم من العرب منا وفينا، وقال بعضهم: منا أي على ملتنا يعني ينطقون ويتكلمون باسم الدين.

الكافر عندما يخاطب المسلم تجد المسلم حذِر منه ويخشى على نفسه من

(١) (ص٤٠٧).

(٢) رواه البخاري (٤٤٢٥).

آرائه؛ حتى لو كانت آراؤه في ظاهرها له فيها فائدة تجده حذر ويقول يمكن أن يقصد كذا أو يريد كذا، لكن إذا كان الذي يدعوه من جلدته وينطق بلسانه وبدينه! وبعضهم يبدأ ما يريد أن يقرره من ضلال بآية من القرآن، يُسمع أحيانًا من بعضهم فيما يدعو إليه من ضلال يبدأ بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ [التوبة:١٠٥]، ثم يذكر أمورا باطلة، والعوام مثل ما قال الإمام ابن القيم ﷺ: «والناس أكثرهم مع ظاهر السكة ليس لهم نقد النقاد»[(١)]؛ لا يستطيع العامي ينقد ولا يستطيع أن يميّز، ومن دأب أهل الباطل وطريقتهم في قديم الزمان وحديثه أنهم كما وصفهم رب العالمين بذلك يخلطون الحق بالباطل، يلبسون الحق بالباطل من أجل ترويج الباطل على الناس وإيقاع الناس فيه.

(**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَأْمُرُنِي إِنْ أدركتُ ذَلِكَ؟**)؛ يعني إذا بلغ الأمر هذا المبلغ ووصل هذا الحال ماذا تأمرني إن أدركت ذلك؟

(**قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)؛ إذا كان فيه جماعة وفيه إمام فالزم الجماعة والإمام، ولا يدخل عليك الشيطان في الوقيعة في الأئمة؛ كأن يقول أحد: هذا إمام جور، أو يقول آخر: هذا إمام ظالم، أو يقول: هذا إمام كذا، فالزم الجماعة والإمام إذا كان يوجد جماعة وإمام، ولم يشترط ﷺ لم يقل:(فالزم جماعة المسلمين وإمامهم إذا كان الإمام عادلاً أو إذا كان غير ظالم) ما اشترط، قال: (**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)؛ إذا كان في جماعة وإمام الزم الجماعة.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧).

ثم ذكر حذيفة ﵁ احتمالا؛ قد يصل الناس في مرحلة من مراحل حياتهم لا يكون لهم إمام، قال: (**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟**)؛ يعني ليس لهم جماعة وليس لهم إمام فما الذي أفعله؟

(**قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا**): يعني لا تدخل مع الناس.

(**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**): وهذه المرحلة التي فيها الإشارة في حديث حذيفة ﵁ في وقتنا هذا كثير من الناس في بلدانهم فيه جماعة وفيه إمام ويتفاوت الأمر من منطقة إلى منطقة قوة وضعفا، لكن الجماعة موجودة والإمام موجود؛ فيلزم المسلم جماعة المسلمين وإمامهم وينصح لعباد الله بالرفق وبالكلمة الطيبة وبالدعوة إلى دين الله ﷻ وبنشر الخير، والله ﷻ ناصر دينه ومدافعٌ عن عباده المؤمنين، لكن تُأتى البيوت من أبوابها وتُسلك الأمور من مسالكها الصحيحة بالدعوة والبيان والنصح والتعليم، وأن يرفع الإنسان الظلم الذي هو واقعٌ فيه بخوفه من الله ومراقبته لله وإصلاح بيته وولده؛ والله ﷻ يصلح له حال بلده.

ويدعو لولاة أمره بالصلاح والهداية والسداد والتوفيق، ولهذا كان الفضيل بن عياض ﵀ يقول: «لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلَّا للسلطان، قيل له: يا أبا علي فَسِّر لنا هذا؟ قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعْدُني، وإذا جعلتها في السلطان صلح، فصلح بصلاحه العباد والبلاد، فأُمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم، وإن جاروا وظلموا؛ لأنَّ جورهم وظلمهم على

أنفسهم، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين»[١]، لو يتفكر الإنسان ويقال له هذه دعوة مستجابة لك أطلب الآن دعوة مستجابة ماذا تريد؟ كثير من الناس يقول أريد بيتا واسعا من دورين..، من الذي يقوى أن يقول: اللهم أصلح ولي أمرنا؟ من الذي يقوى إلا الإنسان الذي عنده فقه ومعرفة وإدراك، ولهذا من علامة الخير ومن علامة السنة الدعاء لولاة الأمر بالصلاح والهداية، ومن علامة البدعة والهوى الدعاء عليهم، والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال: «لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ»[٢]، بل يصبر؛ إذا كان الأمير أو الوالي فاجراً يصبر على فجوره وينصح بالرفق وباللين وبالكلمة الطيبة ويدعو له بظهر الغيب؛ يدعو له بالصلاح، بالهداية، بالتوفيق؛ هذه النصيحة التي قال عنها عليه السلام: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[٣].

ويطرد من نفسه الغل كما قال النبي ﷺ : «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[٤].

---

(١) «شرح السُنَّة» (١٠٧)، و«حلية الأولياء» (٨/ ٩١)، و«سير أعلام النُّبلاء» (٨/ ٤٣٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢٣)، وابن أبي عاصم في «السُنَّة» ١٠٨٤٧، وقال الألباني (إسناده جيِّد)، في «ظلال السنَّة »(١٠١٥).

(٣) رواه مسلم (٥٥).

(٤) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني (صحيح لغيره) في «صحيح التَّرغيب» (٤).

يطرد من قلبه الغل لأن الأهواء إذا وُجدت أوجدت في القلب غلاً ولا يتقبل القلب لا لزوم جماعة ولا يقبل القلب أيضا سمعًا وطاعة لولي الأمر، ومصالح المسلمين وجماعتهم لا تنتظم إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة.

وسنوات طويلة يعيشها الناس بإمامٍ جائر خير من ساعة يعيشونها بدون إمام، وكما قال القائل:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سُرَاةَ لَهُمْ
وَلَا سُرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُم سَادُوا

فإذا كان الناس بدون إمام فهذا هلاك لهم.

قال: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»: فذكر مرحلة أو حالة.

قال: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟**» إذا وصل الأمر أن لا يوجد جماعة ولا إمام! كلٌ على رأسه فما العمل؟

قال: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا**»: وهذا تنبيه على الصبر على اعتزال الناس في مثل هذه الحال.

«**وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»: يعني تبقى بعيداً عن الناس منشغلاً بعبادة ربك وطاعته ودعائه واستغفاره إلى أن يأتيك الموت وأنت على هذه الحال.

قال: (**أخرجاه، وزاد مسلم**)؛ قول المصنف ﵀ «وزاد مسلم» هذه الزيادة في

«سنن أبي داود»(١) بسند ثابت، وليست في «صحيح مسلم».

قال: (**وزاد مسلم: ثُمَّ مَاذَا؟**) يعني قال حذيفة رضي الله عنه: (ثم ماذا؟)؛ لا تزال أسئلة هذا الصحابي الجليل الناصح الحريص على نفسه وعلى إخوانه جزاه الله خيراً ورضي عنه لا تزال أسئلته متوالية.

(**قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ**): يعني يعقب هذه المرحلة مرحلة خروج الدجال، وهو علامة من علامات الساعة وأمارة من أمارات قُرب قيامها، لأن الساعة لا تقوم حتى تخرج علامات من ضمنها خروج الدجال.

ولاحظ هنا ارتباطًا بين دعاة على أبواب جهنم وبين خروج الدجال بعد ذلك، فكأنهم جاءوا قبله تمهيداً وتوطئة، ولهذا قال العلماء: أن قول النبي ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ»(٢) كما أنه يشمل الدجال الأكبر الذي خروجه علامة من علامات الساعة فإنه أيضًا يشمل الجنس؛ بمعنى أنه يشمل الحذر من كل دجال يقول في دين الله بلا علم، فأيضًا أمثال هؤلاء يُنأى عنهم، (مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)؛ ففتنة الدجال العظيمة ذاك الرجل الذي يخرج في ذاك الزمان إذا سُمع بها يُنأى عنها، وأيضًا الدجاجلة الذين يدعون الناس إلى النار ودعاتهم على أبواب جهنم أيضا ينأ عنهم؛ فلا يسمع إليهم ولا يقرأ لهم ويحذر من أقوالهم وكلماتهم، لأن النتيجة عند هذا وهؤلاء واحدة؛ كلها إفضاء بالناس إلى

---

(١) برقم: (٤٢٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٠١).

نار جهنم، ولهذا يأتون قبله وهو يأتي بعدهم فهم كالتوطئة له والتمهيد لمجيئه وقدومه، وأيضا ترويض الناس لقبول ما يدعو إليه الدجال الأكبر، فهم يأتون قبله (دعاة على أبواب جهنم).

قال: (**قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ**)؛ سبحان الله العظيم!! امتحان وابتلاء عظيم، يخرج هذا الرجل ومعه نهر ونار، ومكتوب على عينيه كافر يقرؤها كل مسلم وكافر، وإحدى عينيه طافية كأنها عنبة أو كأنها زبيبة، جاء في الحديث: «ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ « إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لَقَدْ أَنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ، تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[(١)]؛ علامة واضحة ظاهرة عليه بينة، ومعه نهر ونار، وفتنته عظيمة، والله ﷻ جعل في زمانه أموراً تظهر على يديه بإذن الله امتحاناً كما جاء في بعض الأحاديث أنه إذا مر على قرية ودعا أهلها للإجابة إلى ما يدعوهم إليه، لأنه يقول لهم أنا ربكم وهذه جنتي وهذه ناري ويرون جنة ويرون نارا معه تمشي؛ إذا فتنة كبيرة، فإن أجابوه وإلا قال لكنوز قريتهم: اتبعيني، فتخرج الكنوز والناس يرونها تخرج وتتبعه؛ ولهذا يتبعه خلق يُفتنون والعياذ بالله، والنبي ﷺ يقول كما جاء في حديث ثابت: «إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ»[(٢)]؛ فتنة عظيمة جداً وينجرف وراءها خلق

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٧)، ومسلم (١٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٧٥).

يضلون عن دين الله ﷻ بسبب الامتحان والافتتان الذي يحصل لهم؛ ولهذا أمِرْنا في كل صلاة أن نتعوذ بالله من فتنته قبل أن نسلّم: (وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ)[1]، والصحابة كانوا أيضا يجلسون ويتذاكرون فتنته ويحذّر بعضهم بعضا من شره؛ حتى يكون الإنسان على حصانة، على معرفة به وتعوذ بالله تبارك وتعالى من شره.

**(قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ؛ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ)**؛ معنى وقع في ناره: يعني إذا دعاه الدجال أن يستجيب له وقال له إن لم تستجب ألقيتك في النار؛ فعليه أن لا يستجيب ولو أن يلقيه في النار، وإذا ألقي في النار ما الذي سيحدُث؟ قال ﷺ: «**فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ**»، فلا يبالي، يصبر ويصمد ويتحمّل وإذا ألقي في النار التي معه قال: **(وَجَبَ أَجْرُهُ)** أي على الله، **(وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ)**: تحط عنه خطاياه.

**(وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ)** ماذا يحدث؟ قال: **(وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ)** الذي وقع في نهره هو الذي استجاب له ولدعوته.

**(قَالَ: قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ)**؛ قد جاء عنه ﷺ أنه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ»[2]، «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»[3]؛ وهنا فيه ارتباط بين هؤلاء وهؤلاء وكلهم

(١) رواه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).

(٢) رواه مسلم (١٩٢٤).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٣٨٤٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١٨١٦)، والطبراني في =

شرار وصفهم بذلك ﷺ؛ الذين يتخذون القبور مساجد لأن هذه ذريعة الشرك ووسيلة وقوعه، وشرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة هم الذين ليس عندهم إلا الشرك بالله ﷻ، فجمع ﷺ في هذا الحديث بين الوسيلة والنتيجة؛ وسيلة الوصول إلى الشرك: اتخاذ القبور مساجد سواء بالبناء عليها أو بتحري العبادة عندها، ونتيجة ذلك: الشرك بالله ﷻ واتخاذ الأنداد.

وعلى كلٍّ؛ فهذا الحديث العظيم حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مشتمل على فوائد عظيمة وجليلة ترتبت على هذه السؤالات المباركة التي سألها حذيفة رضي الله عنه للنبي ﷺ، والنبي ﷺ نصح لأمته وأبان الحجة وأوضح المحجة وبيّن السبيل وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذّرها منه، فكان رسولاً أميناً، وناصحًا مشفقا، ومعلّمًا رحيما صلوات الله وسلامه عليه.

والواجب على أتباعه والمؤمنين به ﷺ أن يجاهدوا أنفسهم على تعلم سنته ولزوم هديه وأن يحذروا أشد الحذر من البدع والأهواء.

ومن الدعوات العظيمة الثابتة عنه ﷺ في «المستدرك» وغيره أنه كان ﷺ يقول في دعائه: (اللهُمَّ احْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ رَاقِدًا، وَلاَ تُشْمِتْ بِي عَدُوّاً وَلاَ حَاسِدًا، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ خزَائِنُهُ بِيَدِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ)[1] وهي دعوة

---

«المعجم الكبير» (١٠٤١٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٢٥)، وحسنه الألباني في «التعليقات الحسان» (٢٣١٩).

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (١٩٢٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٣٤)، وحسنه الألباني في =

عظيمة جداً وجامعة لخير الدنيا والآخرة.

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وقال أبو العالية: «تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ، وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ»[١] انتهى.

تأمل كلام أبي العالية رحمه الله تعالى هذا ما أجلّه، واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسنة والإسلام، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب؛ يتبين لك معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة:١٣١]، وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]. وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول والناس عنها في غفلة. وبمعرفته يتبين معاني الأحاديث في هذا الباب وأمثالُها، وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمنٌ مطمئن أنها لا

«السلسلة الصحيحة» (١٥٤٠).

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٧٥٨)، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (٧٥)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١٣)، والآجري في «الشريعة» (ص١١).

تناله ويظنها في قوم كانوا فبانوا آمِنٌ مكر الله ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

## الشَّرح

قال المصنف ﷺ: (**وقال أبو العالية: تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ، وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)؛ هنا ساق المصنف ﷺ هذه الوصية العظيمة الجامعة لأبي العالية ﷺ وغفر له[1]، وهي وصية من جوامع الوصايا وأعظمها، وقد أورد المصنف ﷺ هذه الوصية في موضعها؛ لما ساق ﷺ الآيات والأحاديث في إقامة الوجه للدين حنيفاً والبعد عن الانحراف والأهواء والضياع والضلال أورد هذه الوصية الجامعة في تحقيق هذا الغرض الذي هو إقامة الوجه للدين، وهي وصية من جوامع الوصايا وأنفعها.

وهذه الوصية تشتمل على عدة أمور أوصى بها أبو العالية ﷺ:

- الأولى: الوصية بتعلم الإسلام؛ قال: (**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ**): أي لا يكفي أن يقول الإنسان عن نفسه: (أنا مسلم وأصلي مع المصلين وأصوم مع الصائمين)،

---

(١) قال الإمام الذهبي ﷺ: (رفيع بن مهران، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، أبو العالية الرياحي البصري، أحد الأعلام) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٧)، وانظر ترجمته كذلك في تذكرة الحفاظ (١/ ٤٩)، ولسان الميزان (٧/ ٤٧١).

دون أن يعطي الإسلام حظًا من وقته لتعلمه ومعرفته ومعرفة ما يضاده ويناقضه؛ فإن عدم المعرفة تؤدي إلى ضعف الدين تارة، وإلى ذهابه عن الإنسان تارة، بينما معرفة الإسلام ومعرفة فضائله ومعرفة ما يدخل فيه ومعرفة نواقضه ونواقصه كل ذلك من الأمور المعِينة على تحقيقه، لأن تحقيق الإسلام لا يكون إلا بتصفيته وتنقيته من الشوائب؛ شوائب الشرك، وشوائب البدع، وشوائب المعاصي.

أما الشرك بالله ﷻ فإنه يناقض أصله، والبدع تناقض كماله الواجب ما لم تكن مكفِّرة، والمعاصي تُضْعِف ثوابه وأجره، وكلها تؤثر على الإسلام ونيل فضائله العظام.

ولهذا أوصى أبو العالية رحمه الله بتعلم الإسلام؛ أن يعطي المسلم الإسلام حظًا من وقته في تعلمه ومعرفة فرائض الإسلام وواجباته وأيضا المحرمات في الإسلام والنواهي، يجتهد في معرفة المأمور ليفعله، ومعرفة المحظور لينتهي عنه، وكيف يتسنى لشخصٍ لا يعرف المأمور ولا يعرف المحظور كيف يتسنى له الفعل والترك!! وفاقد الشيء -كما يقولون- لا يعطيه، فهذه الوصية الأولى: الوصية بتعلم الإسلام.

الوصية الثانية: العمل بالعلم والمحافظة على الإسلام الذي تعلمه المسلم وعرفه.

فيتبع التعلم العمل به، وهو مقصود التعلم؛ مقصود تعلم الإسلام: العمل

بالإسلام، ومقصود العلم: العمل، قال علي ﷺ: «يهتف بالعلم العمل؛ فإن أجابَه وإلَّا ارتحل»[١].

فالعلم مقصوده العمل والتقرب إلى الله ﷻ، فيأتي بعد التعلم العمل، ويكون العمل مبني على العلم وليس مبنيًا على الجهل، ومن كان عمله مبنيًا على الجهل سيكثر فيه الخطأ والمخالفة وتدخل عليه البدع، وقد قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: (من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح)[٢]؛ ما يفسد: أي في عبادته وعمله؛ لأن عبادة الله ﷻ والتقرب إليه إنما يكون بفعل ما أمر، وما أمر الله ﷻ به يحتاج إلى علم؛ أن يتعلم المسلم شرع الله ﷻ ودينه.

**الوصية الثالثة**: عدم الرغبة عنه إلى غيره من الأمور التي تناقصه أو تصادمه أو تعارضه أو تخالفه، ولهذا قال ﷺ: (**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)؛ وقوله: «فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ» أي: إذا تعلمتموه وعملتم به، وهذا واضح «فلا ترغبوا عنه»: لا ترغبوا عنه إلى غيره لا في جانب العلم ولا في جانب العمل؛ لا في جانب العلم بالانشغال عن علم الإسلام بالعلوم القائمة على الكلام مثلا أو الفلسفة أو نحو ذلك مما يتولد من تعلمها مناقضة الإسلام أو معارضته أو مخالفته، ولا أيضًا في جانب العمل لا ترغبوا عنه بممارسة أعمالٍ لم تُشرع وعبادات لم يأذن الله ﷻ بها، فهذه الوصية الثالثة؛ أوصى بالعلم

(١) رواه ابن عساكر في «ذم من لم يعمل بعمله» (ص٣٨).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٥٥).

والعمل ثم حذّر من الرغبة عن الإسلام قال: (**فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**).

وقوله ﵀ «**فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**»: يدل عليه ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ «لا ترغبوا عنه»: أي لا تبغوا غيره بدلاً ولا ترضوا بغيره عوَضًا عنه، بل هو الدين الحق والدين القويم الذي من حفظه وحافظ عليه سعِد في الدنيا والآخرة.

- **الوصية الرابعة**: قال ﵀: (**وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**): لزوم الصراط المستقيم؛ الصراط: الطريق، والمستقيم: أي غير المعوج، الذي لا انحراف فيه، «وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ» والصراط المستقيم هو صراط المنعَم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، والمنعَمُ عليهم: هم أهل العلم والعمل والثبات عليه إلى الممات، والمغضوب عليه: من يعلم ولا يعمل، والضال: من يعمل بلا علم، والصراط المستقيم لزومه بالاستقامة على العلم والعمل، ولهذا لما أوصى بالعلم والعمل وعدم الرغبة عنه أوصى بلزوم صراط الله المستقيم قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]؛ والمستقيم: هو الذي يوصِل إلى الغاية والمطلوب بأخصر وأقرب طريق، ولا يوصل إلى المقصود بأقرب طريق إلا الطريق المستقيم، وقد عرفنا من صفات صراط الله ﷻ: الاستقامة واليسر والسعة.

قال: (**فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**) قول أبي العالية ﵀ الصراط المستقيم الإسلام يدل عليه:

حديث النبي ﷺ الذي سبق الإشارة إليه، قال ﷺ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ - وهذا هو معنى قول أبو العالية هنا: «وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ»-، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[١].

وهو حديث حسن رواه الإمام أحمد وغيره، وأفرده الإمام ابن رجب رحمه الله في جزء مفرد عظيم النفع كبير الفائدة، وسماه: «شرح حديث مثل الإسلام»[٢] قال: (فَإِنَّهُ الإِسْلامُ) أي: الصراط.

- **الوصية الخامسة**: قال: (**وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا**)؛ وهذا فيه الوصية بالاستقامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود:١١٢]؛ الاستقامة: هي السير باعتدال على الصراط وبدون انحراف عنه لا يمينًا ولا شمالا؛ وإنما

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٤٨).

(٢) انظر: «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي» (٢/ ٣٣٧).

يمضي مستقيمًا على صراط الله المستقيم، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يروغ روغان الثعلب»[(١)]، الثعلب عندما ينطلق لا ينطلق مستقيمًا وإنما تجده يذهب يمينًا وشمالاً، لا يستقيم في سيره وإنما يروغ ذات اليمين وذات الشمال مرة؛ فالذي يسير على الصراط لا يصلح أن يكون هذا سيره، مرة ينحرف عن الصراط يمينًا ومرة شمالا، مرة تأخذه الأهواء ومرة تأخذه الشبهات، فمثل هذا السير لا يصلح من المؤمن الذي يريد لنفسه السعادة ونيل فضائل الإسلام العظيمة.

- **الوصية السادسة**: قال: (**وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ**)؛ وهذه وصية سادسة: الوصية بالسنة ولزومها والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ، وأن يكون المعوَّل عليها والرد إليها والأخذ منها وأن تكون هي المحكَّمة والمؤمَّرة على النفس، ومتى ما كانت السنة هي المحكَّمة صلح حال الإنسان، بخلاف ما إذا كانت الأهواء هي المحكمة عنده، وقد قال بعض السلف: «من أمّر السنة على نفسه نطق بالحكمة»، قال مالك رحمه الله: «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق»[(٢)]، فأوصى بسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٥)، وأحمد في «الزهد» (٦٠١)، وابن جرير في «تفسيره» (٢١/ ٤٦٥).

(٢) «ذم الكلام وأهله» (٨٧٢).

▪ **الوصية السابعة**: ثم ختم بأمر سابع وهو: التحذير من الأهواء، قال: (**وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)؛ أي: احذروها وابتعدوا عنها وجانبوها وكونوا منها على حذر.

والوصية بالسنة والتحذير من هذه الأهواء وصية متكررة عن نبينا ﷺ، وكثيراً ما يجمع ﷺ في وصيته بين الترغيب في السنة والتحذير من الأهواء، وكان إذا خطب الناس ﷺ قال: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا»، وفي حيث العرباض قال: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ»؛ فكثيراً ما يأتي الجمع بين الوصية بالسنة والتحذير من الأهواء والبدعة.

قال: (**وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)؛ أي احذروها.

والأهواء أمورٌ تدخل على قلوب الناس فتعبث بها وتحرفها عن الإسلام؛ فبدل أن تكون الرغبة في القلب هي الرغبة في الإسلام وأعماله وتفاصيله، تكون الرغبة متجهة إلى أمور أخرى وأعمال أخرى ليست من الإسلام بل ربما مضادةٌ له ومناقضةٌ له، وكل غير مستجيبٍ للرسول ﷺ فيما دعا إليه وأمر به متبعٌ لهواه كما قال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠]، وكل غير مستجيبٍ للرسول ﷺ فهو متبعٌ لهواه، والهوى إذا وُجد في القلب أعمى الإنسان عن رؤية الحق وأصمه عن سماعه؛ الأهواء تعمي

وتُصم، فحذّر رحمه الله في خاتمة وصيته من هذه الأهواء.

انتهى كلام أبو العالية رحمه الله، وهو موجود في بعض كتب السنة بالإسناد إليه، ومن المصادر التي فيها هذا الأثر العظيم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للحافظ اللالكائي رحمه الله.

لما أنهى المصنف رحمه الله ذِكر هذا الأثر العظيم عقّب بالتنبيه على فوائد هذا الأثر العظام الجوامع من هذا الإمام الجليل أبي العالية رحمه الله.

قال المصنف رحمه الله: (**تأمل كلام أبي العالية رحمه الله**)؛ تأمل: أي انظر في كلامه بتدبر وتأمل وتأنٍ، ولا تقرأه مروراً سريعًا، لأنك إن قرأته مروراً سريعًا لا تبقى معك الفائدة العظيمة التي اشتمل عليها هذا الأثر، هذا الأثر كلماته قلائل لو جمعتها إلى بعض لا تكمل ثلاثة أسطر لكنه جامعٌ للخير، وشأنه كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كلام السلف عموماً: «كلامهم قليل فيه البركة وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة»[1]؛ فكلام قليل لكنه مليء بالعلم، بالخير، بالإيمان، بالإسلام، بالترغيب، بالترهيب، بالوصية بالسنة، بالتحذير من الأهواء، بالثبات، بالاستقامة؛ معاني كثيرة جداً تجدها موجودة في هذا الأثر العظيم.

فيقول المصنف رحمه الله: (**تأمل كلام أبي العالية رحمه الله هذا ما أجلّه**)؛ وهذا ثناء على الكلام ووصف له بأنه كلام جليل عظيم متين مليء بالفائدة والنفع.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٣٩).

(**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء**)؛ يقول الشيخ: وأنت تقرأ هذا الكلام أيضا أحضِر في ذهنك الزمان الذي قال فيه أبو العالية هذه الوصية، متى قال هذه الوصية؟ هل قالها في القرن السادس؟ السابع؟ الثامن؟ التاسع؟ العاشر؟ في القرون المتأخرة؟ استحضر الزمان وأنت تقرأ الوصية.

قال ﵀: (**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام**)؛ بعض الناس في الأزمنة المتأخرة إذا حُذّر من الأهواء ومن البدع يتعاظم هذا التحذير ويتكاثره، ولسان حاله يقول: أين الأهواء حتى نُحذَّر منها!! وأين البدع حتى نُنهى عنها!!، وربما قال: نحن والحمد لله على الإسلام والسنة وعلى الاستقامة ما عندنا شيء من الأهواء ولا عندنا بدع فلِمَ التحذير منها وما الحاجة إلى النهي عنها!!، وربما قال بعضهم بهذا الأسلوب: (بدعة بدعة!! ما في إلا بدعة)؛ يتكاثرون التحذير من الأهواء والبدع والنهي عنها، مع أن أئمة السلف رحمهم الله لهم مصنفات خاصة، أدركوا خطورة البدع فأطالوا في النهي عنها والتحذير منها وجمع الدلائل في بيان خطورتها.

فالمصنف هنا ينبّه يقول ﵀: وأنت تقرأ هذا الأثر المشتمل فيما اشتمل عليه على التحذير من الأهواء والبدع والتحذير عن الرغبة عن الإسلام إلى حيث الأهواء والبدع؛ أيضا استحضِر الزمان الذي قيل فيه هذا الكلام، فإن استحضارك للزمان يوجِد عندك تأثر أكثر بهذا الأثر؛ لماذا؟ لأنك ستقول: إذا كان هذا الإمام قال هذا الكلام في زمانه فكيف بزماننا!! والناس في كل عام

يُرذلون، فلئن كان الناس في زمانه يحتاجون إلى هذا التنبيه فالحاجة إلى ذلك في زماننا أبلغ وأمسّ.

وأعظم من نهي أبي العالية رحمه الله عن ذلك نهي النبي صلى الله عليه وسلم المتكرر في كل خطبة: (وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)، والذي أمامه صحابته الأخيار من المهاجرين والأنصار؛ أنصار الدين وأعوانه، ويكرر في كل خطبة: (وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)، ولما أوصاهم وصية ذرفت منها عيونهم ووجلت منها قلوبهم كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قالوا: «كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا»، فقال صلى الله عليه وسلم في وصيته: (فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تمسكوا بها وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ).

ولا يزال السلف تتوالى وصاياهم بالتحذير من البدع والنهي عنها وبيان خطورتها وضررها على الإنسان، والنقول عنهم في ذلك كثيرة.

استحضار الزمان الذي قيلت فيه هذه الوصية فيه فائدة؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله: (**واعرف زمانه الذي يحذّر فيه من الأهواء**)، أبو العالية رحمه الله من طبقة كبار التابعين، وطبقة كبار التابعين هم من أدركوا كثيرا من الصحابة رضي الله عنهم، وأبو العالية رُفَيع بن مهْران الرياحي رحمه الله أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلقه ولم يسلِم كان على الشرك، ولقي أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأسلم في خلافته، وروى عن جمْعٍ من الصحابة منهم عمر وعلي وابن عباس وآخرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فمنّ الله

عليه بالإسلام وبلزوم السنة، وكلٌ من الإسلام والسنة نعمة عظيمة، ولهذا كان يقول -كما في شرح الاعتقاد للالكائي وغيره-: «ما أدري أي الغنمين علي أعظم! إذ أخرجني الله من الشرك إلى الإسلام، أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوى»[(١)]؛ يقول: لا أدري أي النعمتين أعظم!! نعمة الإخراج من الشرك إلى الإسلام، أو نعمة المحافظة على السنة مع البعد عن الأهواء والحذر منها، كلٌ منهما نعمة عظيمة جداً فلا أدري أي النعمتين أعظم؛ مشيراً إلى عظمة هاتين النعمتين، فكان كثير التحذير رحمه الله من الأهواء والبدع.

والأهواء بدأت تظهر في الناس، وفي ذاك الوقت -في أواخر عهد الصحابة- بدأت تظهر بذور الفرق المنحرفة الضالة وأنكرها الصحابة وتبرؤا منها، وتبرأ منها أعلام التابعين وأعيانهم، وتبرأ منها كل من كان على نهج السلف وجادّتهم وطريقهم.

الشاهد أن التحذير من الأهواء إذا كان في زمان أبي العالية رحمه الله زمن أكابر التابعين الذين أدركوا الصحابة ولقوا الصحابة وأخذوا عنهم فكيف بالأزمان المتأخرة؟! فالمصنف ينبه على هذه؛ كأنه يقول إذا كان في ذاك الزمان الحاجة ماسة إلى التحذير من الأهواء فكيف بزماننا؟

قال رحمه الله: **(واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام)**؛ وهذه فائدة: اتباع الأهواء رغبة عن الإسلام، لأن الأهواء ليست

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢٣٠).

من الإسلام؛ الإسلام هو شرع الله الذي أمر به وأذِن به ﷻ في كتابه وسنة نبيه ﷺ، والأهواء ليست منه، فمن رغب في الأهواء فهو راغب عن الإسلام، قال: (يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام) وهذا واضح في كلام أبي العالية المتقدِّم (**فلا ترغبوا عنه**)؛ أي الإسلام، إلى أين؟ إلى حيث الأهواء المخالفة له.

قال: (**وتفسير الإسلام بالسنة**)؛ «تفسير» معطوفة على «زمانه»، يعني واعرف زمانه وتفسيره.

هذا أمر آخر اعرِفه؛ اعرِف تفسير الإسلام بالسنة، حيث فسر أبو العالية رحمه الله الإسلام بالسنة ولزوم الصراط المستقيم الذي كان عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام؛ فأيضا اعرِف أن الإسلام هو سنة النبي ﷺ وهي صراط الله المستقيم.

(**وخوفه**)؛ أيضا هذه معطوفة على «زمانه»؛ اعرِف زمانه، وتفسيره الإسلام بالسنة، وخوفه، خوفه على من؟ يخاف على مَن مِن الأهواء؟

قال: (**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم**)؛ لأنه هو من طبقة كبار التابعين، الطبقة الثانية التي تلي الصحابة رضي الله عنهم، ولما قسّم العلماء أمة محمد عليه الصلاة والسلام أو أهل العلم إلى طبقات: الطبقة الأولى الصحابة رضي الله عنهم، والطبقة الثانية كبار التابعين منهم أبو العالية رحمه الله، فوصيته هذه وصية لأكابر علماء التابعين وأعلامهم.

(**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب**)؛ وخروج الإنسان عن السنة والكتاب بالأهواء، وفي حديث معاوية رضي الله عنه الذي

أشار المصنف فيما سبق إليه وذكر طرفًا منه وفيه قول النبي ﷺ: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ..»[(١)]، فكان يخاف على أعلام التابعين وأعيانهم وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب بسبب الأهواء التي تجرف.

وهنا أيضا لك أن تقول واعظًا نفسك وغيرك: إذا كان أبو العالية رحمه الله خاف على علماء التابعين وأعيانهم وأعلامهم من الأهواء أن تجرفهم وتبعدهم عن الكتاب والسنة فكيف بمن هو ليس من العلماء؟! وكيف بمن هو في الأزمنة المتأخرة؛ لا علم ولا أيضا قُرب زمان؟! فالخوف على من كان في زمانٍ متأخر ولا علم عنده بالكتاب والسنة أشد، أَضِف إلى ذلك أن مع قلة العلم وبُعد الزمان عن السنة ثمة مخاطرة بالدين، تجد الواحد لا يبالي؛ يسمع لأهل الأهواء لأهل البدع يقرأ لكل أحد يخاطر بدينه.

(دخل على محمد بن سيرين يوما رجل فقال: يا أبا بكر، أقرأ عليك آية من كتاب الله لا أزيد على أن أقرأها ثم أخرج، فوضع إصبعيه في أذنيه ثم قال: أحرج عليك إن كنت مسلما لما خرجت من بيتي، قال: فقال: يا أبا بكر، إني لا أزيد على أن أقرأ ثم أخرج، قال: فقام بإزاره يشده عليه، وتهيأ للقيام، فأقبلنا على الرجل فقلنا: قد حرج عليك إلا خرجت، أَفيحِلُّ لك أن تخرج رجلا من بيته،

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥١).

قال: فخرج، فقلنا: يا أبا بكر، ما عليك لو قرأ آية ثم خرج؟ قال: إني والله لو ظننت أن قلبي يثبت على ما هو عليه ما باليت أن يقرأ، ولكني خفت أن يلقي في قلبي شيئا أجهد أن أخرجه من قلبي فلا أستطيع)[1]؛ يعني تتقلب في قلبي وفي صدري حتى أموت ما أستطيع أن أخرِجها.

وقال أحدهم: (كنت عِنْد ابْن طَاوُوس فِي غَدِير لَهُ إِذْ أَتَاهُ رجل يُقَال لَهُ صَالح يتَكَلَّم فِي الْقدر فَتكلم بشيء مِنْهُ فَأَدْخل ابْن طَاوُوس أصبعيه فِي أُذُنَيْهِ وَقَالَ لِابْنِهِ أَدخل أصبعيك فِي أذنيك وَاشْدُدْ حَتَّى لَا تسمع من قَوْله شَيْئا فَإِن الْقلب ضَعِيف)[2]، يعني أدخل أصابعك جيداً في أذنيك بحيث لا يصل إليك ولا كلمة.

يخافون من الأهواء وعندهم علم وفقه ومعرفة بالسنة، وفي الأزمنة المتأخرة لا علم ولا فقه ولا معرفة بالسنة وتجده يجلس أمام القنوات الفضائية يسمع لكل أحد!! وتجده يجلس أمام الشبكة العنكبوتية يقرأ لكل أحد!! وتجده يفتح كل مجلة ويقرأ كل كتاب ولا علم عنده!! ولهذا ترى في زماننا هذا وبكثرة يسأل الناس عن بدع ومحدثات، يتصلون بأهل العلم ويقولون هل يجوز أن نذكر الله بكذا وكذا؟ هل يجوز أن نفعل كذا في اليوم عشر مرات؟ وهي بدع ليس لها دليل ولا لها أصل، فيُقبِلون على سماع أشياء يحتاجون بعد ذلك إلى سؤال أهل

---

(١) رواه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (١٣٧).

(٢) رواه ابن بطة في «الإبانة» (١٧٧٨).

العلم لتنبيههم على خطئها، ثم هل يقتنع بأنها خطأ أو لا يقتنع هذه مسألة ثانية، بعضهم مع قول أهل العلم له أن هذا الأمر لا أصل له ربما تستهويه البدع وتستميله وتجرفه لا يقتنع، وربما قال له مضِل: (دعك من هؤلاء؛ ما بقي شيء، كل شيء بدعة، ما تركوا شيئا)، وقوله: (ما تركوا شيئا) أي: من البدع، أما من الإسلام ما حذّر منه أهل العلم ولا يحذّرون منه، وإنما يحذّرون ما خالف الإسلام وما لا دليل عليه في الإسلام وما لا دليل عليه في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ودأب أئمة العلم وعلماء السلف في قديم الزمان وحديثه الترغيب في الإسلام الذي هو السنة والتحذير من الأهواء التي هي البدع المحدثات، ولكن بسبب الجهل وتراكمه على الناس أصبح التحذير من البدع يعد خطئًا، لِمَ؟ للرغبة في البدع من جهة، والرغبة عن السنن من جهة أخرى.

ولهذا يظهر في بعض المجتمعات إقبال شديد على بدع لا يفرِّط فيها! وفي المقابل يفرط في فرائض من فرائض الإسلام، مثلاً صلاة الفجر لا يحافظ عليها وبعض البدع لا يفرط فيها مهما كان الأمر ومهما كانت ظروفه ومهما كانت أحواله، ويفرط في فرائض!!، ولم تُحدَث بدعة ولم تُقم بدعة إلا أميت في مقابلها سنة أو سنن كما نبه على ذلك أهل العلم.

فالمسألة جدُّ خطيرة؛ يحتاج الإنسان إلى أن يجاهد نفسه على العلم والتعلم والسنة ومعرفتها، ولا يخاطر بدينه بالسماع لكل أحد والقراءة لكل أحد، فهذا نوع من المخاطرة بالدين وقد حذّر منه أهل العلم في قديم الزمان وحديثه.

قال: (**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب يتبين لك**)؛ أي: بهذا التأمل، إذا تأملت في هذه النقاط في أثر أبي العالية رحمه الله:

١- إذا تأملت زمانه.

٢- إذا تأملت تفسيره للإسلام بالسنة.

٣- إذا تأملت تخويفه لأعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب.

إذا تأملت في هذه النقاط يتبين لك معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾، وقول إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ معنى هذه الكلمة تظهر لك بتأمل كلام أبي العالية؛ لأن في الناس خلْقٌ يقول كل واحدٍ عن نفسه إنني مسلم، وبعضهم ليس عنده من الإسلام إلا اسمه -إلا اسم الإسلام-، وبعضهم عنده الإسلام وعنده بعض أمور الإسلام لكن عنده أمور مخالفة له، وبعضهم عنده شيء من أعمال الإسلام وعنده أمورٌ تنقض الإسلام؛ يعبد غير الله، يشرك مع الله غيره في العبادة، يستغيث بغير الله، يطلب المدد من غير الله، يصرف عبادة لغير الله، عنده أعمال من أعمال الإسلام وعنده عقائد تهدم الدين، والله يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة:٥]؛ يكون عنده أمور محبطة، الله جل وعلا قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، قد يكون عند الإنسان أعمال ولكن عنده أيضا محبطاتٌ لها، فيقول أنت إذا تأملت في هذه النقاط المتقدمة ستعرف معنى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ﴾، كأنه يريد أن يقول: ليس الإسلام مجرد انتساب، ليس الإسلام تدينا بما يريد العبد وما يهوى من أعمال فقط، وليس الإسلام ممارسات كيفما كانت، الإسلام: استسلامٌ لله بما شرع؛ واستسلام لله بالإخلاص، بما شرع: أي بلزوم الكتاب والسنة، فمن لم يستسلم لله فجعل مع الله شريك ليس بمسلم، ومن رغب عن دين الله الذي هو في كتابه وسنة نبيه ﷺ فليس بمسلم؛ الإسلام هو الاستسلام لله بما شرع سبحانه وتعالى وبما أمر الله عز وجل عباده به.

فيقول: أنت إذا تأملت الكلام المتقدم ستعرف معنى هذه الآية وغيرها من الآيات التي فيها الأمر بالإسلام والاستسلام لله سبحانه وتعالى، وستعرف أنه لا يكفيك حظًا ونصيبًا من الإسلام مجرد الانتساب أو مجرد أعمال معيّنة وبالمقابل مناقضة ومخالفة للإسلام في العقيدة أو العمل، لا يكفي، أو أن يرغب الإنسان عن الإسلام باتباع الأهواء لا يقيم للكتاب والسنة وزنًا، ويجعل إمامه هواه، أو يجعل إمامه متبوعه من أئمة الضلال ودعاة الباطل، أو يجعل إمامه ذوقه، أو نحو ذلك من الأمور التي بسببها وبسبب التعويل عليها حدث في كثير رغبة عن الإسلام إلى حيث الضلال والباطل.

قال: (**وقوله**) أي: أيضًا يتبين لك معنى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾؛ يتبين لك الإسلام الذي وصى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بنيهم به ما هو؟ وما حقيقته؟ فبالكلام المتقدم يتبين لك ذلك.

(وقوله تعالى) أيضًا يتبين لك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ ما هي الرغبة عن ملة إبراهيم عليه السلام؟ واقرأ قول أبي العالية رحمه الله: (**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)، ثم فسر الإسلام بالسنة فالرغبة عن السنة إلى الأهواء هذا من الرغبة عن ملة إبراهيم، لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة، لزوم شرع الله سبحانه وتعالى، وكم من أقوامٍ يمارسون عبادات وأذكار مهلكة ومضنية وشديدة ومتعِبة ولا يقيمون وزنـًا للأذكار المشروعة بل لا يعرفونها!! تجده لا يعرف الأذكار الصحيحة التي تقال في الصباح وفي المساء ثم يقوم في الليل على قدميه يهز وسَطَه ويقفز قفزاً ويردد كلماتٍ غير مشروعة، فالعمل منكر والقول منكر وهو في قرارة نفسه يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ويعبد الله، وربما يرى نفسه من أحسن العبّاد لله سبحانه وتعالى بالرقص والهز والقفز وترداد كلمات ليس من شرع الله تبارك وتعالى التقرب إلى الله بها، حتى إن أقوامـًا هجروا أفضل الكلمات: «لا إله إلا الله» وانتقصوا من قدرها وقالوا إن الذكر إنما يكون بالضمير «هو»، وقالوا هذا ذكر الخواص أما العوام فلهم «لا إله إلا الله»، ويرددون هذا الضمير بصوت واحد جماعات وربما مع قفز ورقص.

حدثني أحد من اهتدى من هؤلاء عن هذا العمل قال: كنا نجتمع في حائط - يعني في بستان- عدد كبير ونردد الضمير (هو) بصوت واحد وقتـًا طويلاً، قال لي هو نفسه بالحرف الواحد: لو كنت وراء الجدار تسمع الصوت ولا ترى شخصنا لم يقع في قلبك شك أن من وراء الجدار ليسوا من بني آدم، سمى لي

حيوانًا من الحيوانات، وهم بزعمهم أنهم في ذكر لله ﷻ.

ثم «لا إله إلا الله» التي قال عنها ﷺ: «وَخَيرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَـهُ، لَـهُ الْمُلْكُ، وَلَـهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[١]؛ ينتقصونها، وفي وصية نوح عليه السلام لابنه قال: «آمُرُكَ بِلَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ»[٢]، ثم يرغبون عنها ويشتغلون بمثل هذه الأمور!! هذا كله من الضياع، وهي ممارسات تُفعل وتمارس على أنها من الدين، وأشنع من هذا وأفظع من يجعل دعائه لغير الله طالبًا مدداً أو عونًا أو غوثًا من نبي أو ولي أو ملك أو حجر أو شجر، أو يقول في مناجاته:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به
سواك عند حلول الحادث العمم
وإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

يعني نبي الله ﷺ، هذا كله من ضياع الدين بالرغبة عنه وعن هدي النبي

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٨٣٧).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٦٥٨٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٤).

الكريم ﷺ.

أمور كثيرة جداً حذّر منها العلماء ونهوا عنها وبيّنوا خطورتها وهي تتكاثر في الناس وتدْرُج بينهم عندما يجهلون سنة النبي ﷺ؛ فتأتي وصية أبي العالية رحمه الله في مكانها: (**تعلموا الإسلام**)، ولتكن هذه لك قاعدة في تعلمك، عندما يعلمك معلم أو ينصحك ناصح بأمرٍ ما تأكد هل هو من الإسلام أو ليس منه؟ فإذا قلت له ما دليل ذلك؟ وروى لك دليلاً عليه: منام، أو قال هذا شيء عرفناه بالذوق، أو قال مثلاً هذا خلاصة أفكارنا أو أفكار مشايخنا، إلى غير ذلك من الكلام دعه جانبًا، الإسلام: قال الله قال رسوله ﷺ، وجادة السلف رحمهم الله في تعليم الإسلام هي هذه؛ يضعون أبوابا ويذكرون تحتها آيات وأحاديث، هذه جادّتهم؛ تعليم الإسلام بتعليم الناس كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ولا ينجي الإنسان من الهلاك إلا تعلم الإسلام الصحيح المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأيضًا بفهم السلف، والمصنف رحمة الله عليه هنا يعطيك منهجًا في فهم النصوص، لم يستقل هو هنا بفهمه؛ وإنما أورد لك كلام أبي العالية رحمه الله ونبهك على فوائده، فالعلم الذي قدّمه لك آيات وأحاديث ثم أوضح لك معناها من كلام السلف، وهذا هو المنهج الصحيح؛ أخْذ العلم من الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

بعض الناس يدخل في فهم الكتاب والسنة وفهم بعض الآيات وفهم بعض الأحاديث بتخرصات أو بخرافات تَرِد على عقله ويحاول أن يركّبها فيجعلها فهمًا للقرآن أو ربما سماها (فتح)، أحد المصنفين كتب كتابًا حول القرآن

سماه «الفتوح الإلهية» كله خرافات وسماه فتوحات إلهية ويذكر فيه أشياءً من الخرافات.

فهذه الأمور ينبه المصنف على الحذر منها حتى وأن سُميت ما سميت وزُينت؛ يحذر منها ويكون في فهمه للآية والحديث مستنِداً إلى فهم السلف الصالح، وهذه جادّة مباركة فيها السلامة وفيها الخير وفيها البركة. والمصنف لما ذكر لك الآيات في إقامة الوجه للدين والأحاديث في هذا المعنى أعقب ذلك بهذا الأثر لأحد كبار التابعين وهو أبو العالية رحمه الله، ثم نبهك على شيء من فوائده العظيمة.

قال: (**وأشباه هذه الأصول الكبار**) يعني أن ذِكره لهذه الآيات الثلاث مثال؛ وإلا فإن أثر أبي العالية رحمه الله يعينك على فهم القرآن والسنة الفهم الصحيح، وليس أثر أبي العالية رحمه الله فقط؛ بل الآثار التي عن التابعين وأتباعهم وأئمة العلم المتقدمين تعينك على فهم كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

قال: (**وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول**)؛ الإسلام والإيمان وأركان الإيمان وأركان الإسلام هذه الأصول الكبار العظيمة معرفتها وتعلمها والسير فيها على جادةٍ سوية وهديٍ قويم لا يكون إلا بالرجوع إلى فهم السلف الصالح، أما إذا استقل الإنسان بفهمه فإنه قد يدخل عليه أنواع من الانحرافات يراها سداداً وهي انحراف، قد قال الإمام أحمد رحمه الله: «إِيَّاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةٍ لَيْسَ لَك فِيهَا إِمَامٌ»(١) يعني من السلف رحمهم الله، لأن فهمهم أسدّ، وقربهم من

(١) «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٩١)، وانظر: «السنة» للخلال (٣/ ٥٥٢).

زمن النبوة وصفاء القلوب وحُسن العلم والسلامة من الأهواء، ما كانت الأهواء تصل إليهم، حفظهم الله ﷻ منها، ويحافظون على السلامة من سماعها، لا يسمع إلا السنة، ولا يتيح فرصة لصاحب هوى أن يتكلم عنده، هل يقارن فهم شخص بهذه الصفة بشخصٍ ذهنه مشوش وأفكاره مضطربة ويسمع يعني لكل أحد ثم يريد أن يبين معاني الإسلام وذهنه مليء بهذه التشوشات؟! هل يقارن أمثال هؤلاء بأئمة السلف في صفائهم ونقائهم وزكائهم وحرصهم وعبادتهم!! جمعوا بين العلم والعمل، أبو العالية رحمه الله علمه هذا أخذه برويّة وبأناة وبتؤدة حتى قال في ترجمته: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام لأسمع منه، فأتفقد صلاته، فإن وجدته يحسنها، أقمت عليه، وإن أجده يضيعها، رحلت ولم أسمع منه، وقلت: هو لما سواها أضيع»[1]، فجمعوا علمهم هذا بوقت وبأناة وعن أئمة وأكابر فهل يقارن علمهم بعلم غيرهم؟!

فإذاً فهم السلف ضرورة، ولهذا الله ﷻ قال في القرآن: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]، سبيل المؤمنين هو هذا، ونبينا ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»، وقال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله كلمته العظيمة التي أوردها الشاطبي رحمه الله في كتابه «الاعتصام» قال: «مَن ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمداً خان الرسالة؛

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٩)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٢٢٠).

لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فما لَم يكن يومئذ دينـًا فلا يكون اليوم دينـًا»(١)، فمثل هذه الأمور تبين لك ضرورة الارتباط بفهم السلف الصالح رحمهم الله لكلام الله وكلام رسوله ﷺ.

قال: (**والناس عنها في غفلة**)؛ أي: هذه الأصول وهذه المعاني العظام الناس عنها في غفلة، بسبب الجهل، وتراكم الأهواء، وتنوع الفتن وطرقها للناس من مجالات كثيرة ووسائل عديدة.

قال: (**وبمعرفته يتبن معاني الأحاديث في هذا الباب وأمثالها**)؛ يعني أمثال هذه الأحاديث، وهذا ينبهك على قاعدة مفيدة وأصل شريف في العلم وهو: **العناية بفهم السلف لكلام الله وكلام رسوله ﷺ**، ومن أنواع التفسير عند أهل العلم: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالحديث، وتفسير القرآن بالمأثور؛ ولهذا تقرأ في تفاسير الأئمة كابن جرير وابن كثير وغيرهما من كتب التفسير بالمأثور عِقِب كل آية ينقل لك في الغالب عن ابن عباس وعن مجاهد وعن أبي العالية وعن غيرهم معاني الآيات، وترى في تفسير الآيات كلاما مختصرا جدًا لكنه فيه الكفاية والغنية، وبعض التفاسير المطوّلة التي لم تنهج نهج السلف قيل عن بعضها: «فيها كل شيء إلا التفسير»، يعني مجلدات كبار وبزعم من كتبها يفسر القرآن ولما نظر فيه العلماء قالوا ذلك، وتجد بعض الناس يرغِّب في هذه التفاسير المتأخرة ويحذِّر من فهم السلف ويقول هذه تواكب العصر!! ولو قال

(١) «الاعتصام» (١/ ٢٨).

تواكب البدع لكان أوفق، وتلك تواكب السنن.

وعندما يشتغل الإنسان بهذه التفاسير يذهب عن حقيقة الإيمان وعن حقيقة ما دل عليه القرآن إلى أن يسبح بأفكاره وخياله وعقله وفكره ويورِد تصورات يجعلها هو نفسه فهمًا للآيات، بمعنى أنه تصوّر أولا ثم أراد أن يفهم القرآن، على خلاف طريقة السلف؛ السلف رحمة الله عليهم كانوا يأتون للقرآن متجردين عن الأهواء وعن غيرها ويريد أن يفهم القرآن، أما الخلف يأتي وعنده تصورات معيّنه ثم يريد أن يفهم الآيات على ضوء تصوراته فيلوي المعاني إلى حيث يريد، وهذا ما يسمى بتحريف المعاني الذي كثر في كتب الخلف، ووُجدت تفاسير مبنية على تحريف وتأويل في صفات الله في أسمائه في الأحكام وما يتعلق باليوم الأخر وأمور أخرى كثيرة وُجد فيها مثل هذه الأشياء.

فالمصنف رحمه الله ينبه على هذه الفائدة العظيمة وهي ضرورة وأهمية الرجوع إلى فهم السلف وعلم السلف رحمهم الله كما ذكر الإمام ابن القيم قليل كثير البركة[1].

قال: **(وأما الإنسان الذي يقرؤها وأشباهها وهو آمن مطمئن)**؛ لاحظ هذه الكلمة مهمة جداً في التنبيه على خطأ متكاثر في الناس.

**(أما الإنسان الذي يقرؤها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله)**؛ يعني مثلاً

(١) «كلامهم قليل فيه البركة وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة» «مدارج السالكين» (١/ ١٣٩).

يقرأ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، يقول: (الحمد لله مسلم وأصلي وأنا في عافية من الرغبة عن الإسلام، لست من هؤلاء) آمِن، وتجده يحيط به الجهل وتحيط به البدع وتحيط به الخرافات وتحيط به الأهواء والأوهام وفي الوقت نفسه آمِن ومطمئن، ويقرأ الآيات ويمر عليها مرات ولكنه يقول هذه لا تعنيني، وإذا قُرأت عليه هذه الآيات وأمثالها ونُبه على الخطأ الذي عنده في مخالفته لهذه الآيات يغضب، وغضبه مبني على امتلاء قلبه بالهوى، وإلا لو أن الإنسان قلبه راغب في السنة إذا حُذر من الخطأ يُقبِل لا يدبر.

قال: (**أما الإنسان الذي يقرؤها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبانوا**)؛ يعني يقول: (هذه الآيات لا تتحدث عنا)، وربما يقول: (هذه خاصة بالمشركين الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، هذه لا تعنينا ولا تخصنا)، تجده يستغيث بغير الله وإذا قيل له: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٥] يقول: لا؛ هذه لكفار قريش ليس لنا بها علاقة، ورب العالمين يقول: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر:٤٣]، إذا وُجد الكفر في أي وقت ووُجد الشرك في أي زمان وبأي أسلوب ومن أي شخص الحكم واحد، وقل هذا في عموم الآيات.

والسلف بل الأنبياء كانوا يخافون على أنفسهم، فإبراهيم الخليل عليه السلام وهو الذي كسر الأصنام بيده ذكر الله ﷻ دعائه في القرآن قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦]، وقال ﷺ

لهم: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»[(١)]، فإذا كان الإنسان آمنا من الشرك وآمنا من البدعة وليس خائفاً ولا يقول بصدق: (اللهم أعذني من الشرك، اللهم أعذني من البدع)، ويظن أنه سالم منها، فهذا في الحقيقة على خطر، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩]؛ أفأمن مكر الله أن يكون ما يكون عليه نوع من الاستدراج له؛ إما توسعة في المال أو توسعة في الرزق أو أشياء من هذا القبيل، ثم هو يقيم على شركيات ويقيم على بدع وعلى ضلالات ما أنزل الله بها من سلطان ثم في قرارة نفسه يرى أن عمله أصح الأعمال وعباداته أزكى العبادات؛ هذا على خطر إذا كان على هذه الصفة.

وهنا ملاحظة يُشار إليها وهي في قول الحسن البصري رحمه الله في بعض كلامه قال: «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمنا»[(٢)]؛ المؤمن يحسن في العمل والاتباع ولزوم السنة ويجتهد في الطاعات والعبادات وهو خائف: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠]، والآخر المنافق يسيء بفعل الشركيات وبفعل الضلالات وهو آمن يرى نفسه من أحسن الناس وأصلحهم حالا.

وهذا ابن أبي مليكة رحمه الله من أجلَّة التابعين أدرك عدداً من الصحابة يقول رحمه الله:

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٦٠٦)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٩٤٥)، و«تفسير الإمام ابن كثير» (٥/ ٤٨٠).

«أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»(١)؛ صلاح في العمل وخوف ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، وغيرهم فساد في العمل وضعف في العمل وقصور في العمل وأمن!!

قد يرى نفسه من أصلح الناس وأزكاهم وهو مضيّع في أعماله وفي عباداته، فهذه مصيبة، وصلاح الإنسان بأن يعود بنفسه إلى اتباع الرعيل الأول؛ الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، يقرأ كلامهم، يتأمل في سيَرهم يجد فيها صلاحًا وزكاءً وقدوةً، وقد قيل:

كرر عليّ حديثهم يا حادي

فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

نحن مشكلتنا الآن نقرأ لكل أحد إلا سيرة السلف، سيرة السلف نحن في غربة عن قراءتها ومعرفتها، ثم يريد مع ذلك الإنسان لنفسه أن يبقى على سلامة في صحة إسلامه وسنته واتباعه، والله المستعان.

◈◈◈◈◈

(١) «صحيح البخاري» (٣٧).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ وقَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [سورة الأنعام:١٥٣][(١)]

رواه أحمد والنسائي.

## الشرح

ثم ختم المصنف رحمه الله هذا الباب العظيم (باب: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾) بهذا الحديث؛ حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لأنه يبين لك المسار الصحيح ويحذرك من المسارات المنحرفة.

فيقول ابن مسعود رضي الله عنه: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللهِ»؛ يعني خط خطًا مستقيما ليس فيه اعوجاجا ولا انحرافا «ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللهِ».

«ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ»؛ انتبه هنا إلى فائدة لطيفة؛ خط خطًا مستقيمًا بدون الخطوط ثم قال هذا سبيل الله يعني الخط المستقيم، ثم بعد ذلك خط في جنبه خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال في وصفها: (هَذِهِ سُبُلٌ؛

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤١٤٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٠٩)، وحسنه الألباني في «التعليقات الحسان» (١/ ٤٦).

**عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)؛ أي: أنك إذا أسلمت واستقمت ومشيت على الصراط سيأتيك على يمينك وعلى يسارك على مد الصراط إلى أن يتوفاك الله سيأتيك باستمرار مفترقات في الطرق.

(**وعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)؛ وهذه السبل ترجع في جملتها إلى سبيلين: سبيل شهوة، وسبيل شبهة، إما شبهات أو شهوات؛ شبهات تفسد العقائد والعلوم، أو شهوات تفسد الأعمال والسلوك؛ وهي متنوعة، فالسبل بتنوع ما يتعلق بالشبهات وما يتعلق بالشهوات.

فهذه تأتي الإنسان مادام ماضياً على صراط الله المستقيم إلى أن يموت وهي لا تزال تأتيه، حتى في لحظاته الأخيرة، حتى في ساعات الاحتضار لا يزال الشيطان حريصاً على الإنسان وقد أيضا يرافده ويعاونه من شياطين الإنس من يحضرون عند الميت ليثبُت على الكفر أو ليثبُت على الضلال أو ليثبُت على البدعة، فيحتاج الإنسان في سيره يعني في تحقيق معنى الآية ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم:٣٠]، أن لا يميل شمالا ولا يمينا، بل يبقى مستقيماً على صراط الله المستقيم.

قال: «**عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»؛ هل المراد هنا بالشيطان شياطين الجن فقط بل يشمل شياطين الإنس، والله ﷻ قال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، فليس خاصاً بهذا.

ويدخل تحت قوله: «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ»، قوله ﷺ في الحديث المتقدم في الباب نفسه: «دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، في النار، فهؤلاء الدعاة قد يكونون من شياطين الجن وقد يكونون من شياطين الإنس وهم خلطاء الشر وقرناء الفساد، ولا يلزم أن يكون الواحد منهم قرينًا للإنسان ملازمًا له، الآن أصبحت الخلطة لا تختص بالمجالِس من الأشخاص بل بالمشاهَد، وهذه وسيلة في العصر للخلطة أمام القنوات الفضائية أمام الشبكات العنكبوتية كما سبق التنبيه على ذلك، والآن يحصل في زماننا بسبب وجود هذه الآلات آلات الفساد يحصل خلوات غير شرعية يتورط فيها كثير من الناس، يكون وحده في غرفة وأمامه القنوات وأمامه تلك الشبكات العنكبوتية وفيها من وسائل الانحراف في الشبهة والشهوة الشيء الكثير، ثم يلتفت الشخص في الغرفة التي هو فيها وإذا الباب مغلق ولا أحد من الناس يراه فيكون في خلوة مع أدوات الفساد فتعبث به، يجلس أمامها وهو مطمئن أنه لا أحد من الناس يراه، ورب العرش يراه.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل: علي رقيب

وربما لو فُتح عليه الباب وهو في تلك الخلوة لاستحيا من الناس أن يروه وهو يشاهد ما يشاهد وينظر إلى ما ينظر إليه، والنبي ﷺ قال: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ

حَقَّ الْحَيَاءِ»(١)؛ فعليه بالحياء ممن خلقه الذي يراه ويطلع عليه في خلوته وفي جلوته في سره وفي علانيته، «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»(٢)، وكل هذا من ضعف الدين ورقَّته ومن مخاطرة الناس بأديانهم، ثم ينشأ عن مثل هذه الخلوات تحلل في الأخلاق، في العقول، في الأفكار، في العبادات، في الأعمال، وتبدأ حال الإنسان تتبلد، حتى إن بعضهم مع طول مجالسته أنكر قلبه بسبب هذه الأمور.

فالدعاة على أبواب جهنم والسبل التي على كل سبيل منها شيطان في زماننا هذا اتسعت، واستجدّت في الزمان أمور لم تكن موجودة قبل، أصبح الإنسان في بيته وفي غرفته فساد العالم كله يصل إليه، وكانوا قديمًا الكفار سبيلهم إلى الوصول إلى عقول المسلمين أو أفراد المسلمين ضعيف جدا، وقديما قبل وجود القنوات هذه وقبل وجود الوسائل الموجودة ليس للكافر أن يصل إلى عقل المسلم، فمثلا في قرى المسلمين وفي بلدانهم من أين يصل الكافر إلى عقله؟ ماله إلا طريق واحد أن يأتي، وإذا دخل عليهم في قريتهم طردوه وما أحد يستمع له، لكن الآن بسبب وسائل الاتصال الحديثة والقنوات وغيرها أصبحت سموم العالم وحثالات البشر وزبالات العقول وعفن الكفار كل هذه الأمور تأتي وتصُب، وتجد الأولاد والنساء وغيرهم يسمعون، ثم وُضعت لهم قواعد توسِّع لهم قاعدة السماع لكل أحد، يعني مثلا يقول: لماذا هذه الانطوائية؟

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٣٧).

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).

ويأتون بعبارات غليظة شيئًا ما وتزاحم عقل الإنسان ويريد أن ينفك منها فلا يكون انطوائيا فينظر للإباحية مثلا حتى لا يكون إنطوائيا! أو ينظر لشبهات أهل البدع وأهل الضلال، أو يقول مثلا: لماذا التقوقع؟ ويأتون بعبارات غليظة يضرب بها قلب الإنسان وعقله ثم يفتح له أبواب ليسمع لكل ناعق وينظر لكل أحد حتى لا يكون بزعم أولئك متقوقعًا أو منطويًا أو منعزلاً أو متحجراً، ومن يخاطَب بهذه العبارات ضعيف العلم ضعيف الإيمان ضعيف الفهم؛ فيريد أن لا يكون متقوقعا ولا متحجرًا ولا من أهل هذه الأوصاف فيبدأ يفتح كل شيء وينظر إلى أن تتخلخل العقائد والأعمال، فهذه خطورة بالغة جداً يحتاج من أراد أن يقيم وجهه للدين حنيفًا أن يجاهد نفسه في البعد عن هذه الأمور وأن يحفظ نفسه من الوقوع في هذه الأشياء.

قال: (وقرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾).

فاللهم اجعلنا من عبادك المتقين، وأصلح لنا شأننا كله يا رب العالمين، وأعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأعذنا من البدع والأهواء، واهدنا اليك صراطًا مستقيما.

◇◇◇◇◇

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

### باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء

وقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ الآية [هود:١١٦].

## الشرح

قال المصنف رحمه الله: **(باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء)**؛ ما جاء في غربة الإسلام: أي ما جاء في نصوص السنة من دلالةٍ على أن الإسلام يؤول أمره إلى غربة كما أن بدأه إذ كان في غربة، حيث إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود كذلك غريبًا.

والغريب: هو الرجل الذي غادر وطنه وبلده إلى مكان آخر لا يعرف فيه أحدا، ولهذا جاء في الحديث: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»(١)؛ الغريب هو الذي يدخل بلداً ليس له فيه معرفة، لا يعرفه الناس ولا يعرف الناس، من يراه لا يعرفه، وهذا أيضًا شأن الإسلام عندما يكون غريبًا، يصبح من يعرفه قلائل من الناس، وأكثر الناس ينكرونه ويجهلونه ويعادونه ويعادون أعماله وخِلاله؛ فيكون أمره غريبًا، وأمر أهله المحافظين عليه المستمسكين به في غربة كذلك، فيكون الإسلام غريبًا ويكون أهله غرباء، وقد جاء في الحديث

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

عن النبي عليه السلام ما يدل على فضل الغرباء وعظيم ثوابهم عند الله سبحانه وتعالى.

وإيراد المصنف رحمه الله لهذه الترجمة في كتاب «فضل الإسلام» ليبين هذه الفضيلة المخصوصة للإسلام في حق من حافظ عليه وقت غربته وأن له عند الله سبحانه وتعالى ثوابًا عظيمًا، فالإسلام له فضائل عظام كثيرة ويختص بمزيد فضائل عندما يكون أمره بين الناس غريبا، فالمستمسك به في هذه الحال شأنه كالقابض على الجمر وثوابه عند الله تعالى عظيمٌ، ولأجل ذا عقد المصنف هذه الترجمة ليبين فيها أن الإسلام يعود غريبًا، وأن ثواب الاستمساك به والمحافظة عليه وقت غربته أعظم وله ثوابٌ مخصوص، من كان استمساكه بالدين كالقبض على الجمر من كثرة الأعداء وكثرة المنفِّرين وكثرة الشانئين ويكون مستمسكًا معتصمًا محافظا فهذا له ثواب عند الله سبحانه وتعالى عظيم؛ ولهذا عقد المصنف رحمه الله هذه الترجمة في باب فضل الإسلام.

قال رحمه الله: **(باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء)**؛ وهو في هذه الترجمة سيتحدث عن غربة الإسلام؛ أي: أن الإسلام سيعود غريبًا كما بدأ غريبًا.

وحتى تستحضر عوْد الإسلام غريبًا كما بدأ تفكر في بدئه غريبًا؛ كيف كان أمر الإسلام؟ جاء في «صحيح مسلم» عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»(١)؛ أي: أبغضهم قاطبة.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

وفي خضم هذه الظلمة المغطية لأرجاء هذه الأرض بدأ الإسلام، وأول من بدأ بالإسلام دعوةً إليه ونصرةً له ونشراً له هو نبينا ﷺ؛ فبدأ وحده يدعو إلى الإسلام الصحيح ودين الله القويم الذي نزل عليه بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء:٤٥]، ثم آمن معه نفر قلائل، وأول من آمن هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم آمن أيضا بلال وقلائل من الصحابة رضي الله عنهم، فقلائل هم الذين أسلموا في بادئ الأمر وكان شأنهم في غربة، وهم غرباء لكن بين من يمشي جنباً إلى جنب مع والده وأمه وأخته وأخيه وعمه وخاله وجاره وهو في الوقت نفسه غريب، فغريب بين أهله، مثله مثل شخص دخل بلد لا يعرف فيها أحد وكل من رآه أنكره، هكذا بدأ، وكانوا قلائل الذين كانوا مع النبي ﷺ، حتى أنه عليه السلام في بدء الأمر لما سُئل عمّن أسلم معه قال: قَالَ ﷺ: «**حُرٌّ، وَعَبْدٌ**»(١)؛ الحر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والعبد بلال بن رباح رضي الله عنه، وبدأ الإسلام يتزايد الداخلون فيه والمهتدون إليه ويتكاثر عددهم يوماً بعد يوم حتى دخل الناس في دين الله أفوجا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [سورة النصر].

فبدأ الإسلام غريباً وسيعود غريبا كما بدأ؛ أي: كما أنه بدأ غريبا فستعود له غربته، ثم ينتهي آخر الأمر عندما يبعث الله سبحانه وتعالى ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى إلا شرار الخلق: «مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ

(١) رواه مسلم (٨٣٢).

أَحْيَاءٌ»[١]، و«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللهُ اللهُ»[٢]؛ فينتهي الإسلام ولا يكون له وجود، فيبدأ أمر الإسلام إلى الغربة ثم بعد ذلك تُرسل الريح التي تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الخلق عند الله ﷻ وأولئك الذين تقوم عليهم الساعة.

وإخبار النبي عليه الصلاة والسلام -وهذا أهم أمر في هذا الموضوع- بعودة الإسلام غريبًا ثم قوله: (طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ) كما سيأتي يعني حض الناس ودعوتهم نصحًا منه ﷺ إلى مجاهدة النفس على الاستمساك بالدين في كل وقتٍ وحين ولاسيما وقت الغربة، ولا يستوحش الإنسان من قلة السالكين ولا يغتر أيضا بكثرة الهالكين، بل يجاهد نفسه على الاستمساك بدين الله تبارك وتعالى، فإخبار النبي عليه الصلاة والسلام بعوْد الإسلام غريبا كما بدأ هذا جاء على وجه النصيحة للناس أن يحرصوا على الاستمساك بدينهم والمحافظة عليه في كل وقت وحين ولاسيما عندما يكون الإسلام غريبًا فتكون المحافظة عليه أمرها أشد، والاعتصام به أمره أعظم.

قال رحمه الله: (**وقول الله تعالى**: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾)؛ هذه الآية ساقها المصنف مشيراً بها إلى معنى الغربة الذي جاء إشارة إليه وذكر في القرآن؛ وهو أن يكون أهل الحق المستمسكين به الداعين

---

(١) رواه البخاري (٧٠٦٧).

(٢) رواه مسلم (١٤٨).

إليه قلائل بين خلقٍ كثيرين، ففي الآية إشارة إلى هذا المعنى ولفت انتباهٍ إليه وبيانٌ لعظيم ثواب من كانوا كذلك، ففيها إشارة إلى فضل الغرباء وعظيم ثوابهم عند الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: هلَّا وُجد من أهل القرون الماضية، ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ يعني بقايا ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حال كثرة الفساد وانتشاره وكثرة الدعاة إليه ينهون عن الفساد في الأرض؛ بقايا من أهل الخير والفضل أهل الدعوة إلى الله والنصح لدينه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ولينتبه هنا إلى لفتة مهمة في الآية: أن الدعوة إلى الله جل وعلا كما أنها أمرٌ بالمعروف فهي نهيٌ عن المنكر، النهي عن المنكر جزء من الدعوة إلى الله جل وعلا، خلافًا لما يتوهمه بعض الناس أن في الأمر بالمعروف كفاية ويقولون يُؤمر الناس بالمعروف وإذا نُشر فيهم المعروف زال المنكر؛ هذا فهمٌ خاطئ، بل النهي عن المنكر لزيم وقرين الأمر بالمعروف، فالأمر بالمعروف مطلوب والنهي عن المنكر مطلوب، والأمر بالمعروف يكون بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يكون بالمنكر، بل لابد من الاعتدال في الأمر والنهي، ويكون ذلك على وجه النصيحة للعباد ودلالاتهم على الخير وإنقاذهم من الشر والفساد.

قال: ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ والمراد بالفساد في الأرض: أي

بالمعاصي والذنوب واتباع الأهواء والشرك بالله ﷻ، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] أي بعد أن أصلحها الله ﷻ ببعثة الأنبياء، ولك أن تتأمل هنا الجهود العظيمة التي بذلها نبينا محمد ﷺ في نشر الدين الصحيح والمسلك القويم والصراط المستقيم وصحابته معه ثم أنصار الدين من بعدهم من التابعين وأتباعهم؛ كم جهود بُذلت وأوقات بذلت في سبيل نصرة الدين؟ إذا تأملت ذلك تدرك الجناية العظيمة التي يرتكبها أئمة الضلال ودعاة الباطل وأهل الأهواء؛ يفسدون في الأرض بعد أن أصلحها الله ﷻ، فهذه جناية من أكبر الجنايات ووزر من أعظم الأوزار، تُصلَح الأرض ببعثة الأنبياء ونصرة الدين والنهي عن الفساد ويصلُح حال الناس ويمشون في الأرض على السداد والاستقامة ثم يأتي بعد هذا الصلاح أقوام يفسدون الأرض ولا يصلحون!! فيكونون دعاة إلى الأهواء، دعاةً إلى البدع والخرافات، دعاةً إلى الضلال، ينصرون البدع ويزهِّدون في السنن، هذه جناية عظيمة، هذا فساد في الأرض بعد إصلاحها.

والغرباء ضد هؤلاء؛ الذين ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾؛ بدعوة الناس إلى الحق وتحذيرهم من الباطل والصبر على ذلك.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾؛ وهذا موضع الشاهد للغربة، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قلائل، فهم الغرباء، قد ذكر الله ﷻ ثوابهم وهو النجاة، فالناجون هم وإن كانوا قلة، الناجون هم وإن كانوا شخصًا واحدًا.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾؛ فكانوا معتصمين بالله ثابتين على دينه دعاةً إليه إلى أن توفاهم الله ﷻ وهم على هذا الحال. أما من سواهم فما شأنهم؟

قال سبحانه: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾؛ شغَلَهم الترف واللهو ومُتع الدنيا الزائلة وشهواتها الفانية وملذاتها المنقضية، انشغلوا بها عما خُلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: أي كانوا أهل إجرام؛ أجرموا في حق أنفسهم وأجرموا في حق الناس وأجرموا في حق الأرض التي خلقهم الله ليمشوا عليها؛ فكانوا يمشون على هذه الأرض التي خلقهم الله ﷻ ليكونوا عليها صالحين فتحولوا إلى أناسٍ يمشون على الأرض مفسدين: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥٢]؛ فكانوا مجرمين في حق أنفسهم وفي حق الناس وفي حق الأرض إفساداً وتخريباً وتغييراً وضياعاً وانحرافاً وزيغاً، هذا شأن أكثر الناس، وقلائل الذين اعتصموا بالله ﷻ فهداهم الله إليه صراطاً مستقيماً ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١].

**الشاهد من الآية الكريمة**: أن فيها إشارة إلى حال أهل الغربة وعظيم ثوابهم عند الله ﷻ، وأن النجاة لهم، وما سواهم فهم أهل هلكة، وكما قال الإمام مالك ؒ: «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق»[1]، من ركبها نجا ولو كان

(١) «ذم الكلام وأهله» (٨٧٢).

واحداً، وهذا يفيد الإنسان أن لا يغتر بكثرة الهالكين ولا يستوحش من قلة السالكين، بعض الناس إذا عرف السنة وفهِمها واقتنع بها وقامت عنده دلائلها وبراهينها الصحيحة الثابتة ثم ذهب إلى أهله ووطنه ووجد نفسه وحيداً في هذه السنة ومن حوله على خلافها يستوحش، وربما ترك بعضهم السنة بسبب الاستيحاش، وتجده لا يراقب الله وإنما يراقب الناس ماذا قالوا عنه؟ وأي شيء يقولون عنه؟ فتجده مع شدة مراقبته للناس يترك السنة وهو مقتنع بها، وربما يكون أمره أشد من أولئك الذين جهلوها؛ فهو عرفها واقتنع بها وقامت دلائلها عنده ولكنه يدعها ولا يستمسك بها التفاتاً إلى حال أكثر الناس الذين هم على خلافها وعلى نقيضها، وربما بعضهم أيضا من هذا القبيل يشاركهم في اجتماعاتهم المحدثة الباطلة ويمارسها معهم عن غير قناعه من باب (حتى لا يقال)، وحتى لا يكون وحيداً فريداً، وحتى لا يُنتقد إلى آخره.

فالأمر يحتاج من الإنسان إذا عرف الحق أن يلزمه وأن يستعين بالله ﷻ حتى لو وجد نفسه في وطنه وبين أهله غريباً ليس أحد على شيء مما هو عليه؛ يصبر ويعتصم بالله ويسأل الله ﷻ العون والثبات والهداية والسداد وأن يهديه وأن يهدي به وأن يهدي له وأن ييسر الهدى له، يسأل الله ﷻ ذلك ويلح عليه إلى أن يتوفاه الله ﷻ وهو على هذه الحال.

◈◈◈◈◈

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعـًا: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(١) رواه مسلم.

## الشرح

قال: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعـًا) أي: إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

(بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا): بدء الإسلام غريبـًا من الابتداء، ولهذا ذكر ما يقابل ذلك وهو العوْد، بدأ من الابتداء ثم بعد ذلك سيعود إلى الغربة.

ومعنى بدأ غريبـًا: أي ابتدأ الإسلام في الناس غريبـًا لا يعرفه أحد، وعرفنا أن بدأه كانت على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، صفي الله وخليله صلوات الله وسلامه عليه، فبدأ الإسلام غريبًا، ثم تبعه قلائل من الناس أو أفراد كانوا في أول الأمر يُعَدّون على أصابع اليد الواحدة، ومن على وجه الأرض كلهم ينكر ذلك، كلهم يرى أن ذلك ضلال ومنكر وأن الحق ما هم عليه وما عليه آبائهم، بدأ غريبـًا ثم كتب الله عز وجل له ظهوراً ورفعة وعلواً: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنه سيعود غريبـًا كما بدأ؛ وهذا ابتلاء من الله سبحانه وتعالى وامتحان لعباده، ولهذا نبَّه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -كما في «مجموع الفتاوى» في المجلد الثامن عشر في رسالةٍ فيها شرح لهذا الحديث- إلى أن عود الإسلام غريبـًا لا

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).

يعني تركه، وإنما عود الإسلام غريبًا يعني قوة مجاهدة النفس على الاستمساك به؛ إذ الأمر يحتاج إلى قوة مجاهدة، فليس الإخبار عن عود الإسلام غريبًا يعني ترك الإسلام، لأن هذا الذي يتبادر إلى حال كثير من الجهلاء؛ إذا كان الإسلام غريبا وليس عليه أحد تجد كثير من الناس يقول أنا مع الناس حالي حالهم: (لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً)[1] يكون حاله من حال الناس، ما يرى الناس عليه يمضي عليه لا يريد أن ينفرد، وربما بعضهم عبّر بـ (لا أريد أن أكون شاذاً).

فقوله: (**وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا**)؛ هذا فيه دعوه إلى شدة الاستمساك به وشدة مجاهدة النفس على المحافظة عليه لا أن يُترك الإسلام، والنبي ﷺ أخبر بذلك ناصحا من أجل أن يزيد الإنسان في مجاهدة لنفسه على حفظ الإسلام والمحافظة عليه.

قال: (**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**)؛ قيل: «طوبى» الثواب العظيم، وقيل: الجنة، وقيل: الحسنى، وقيل: أقوال عديدة وكلها صحيحة، لأن طوبى موعود عظيم لله سبحانه وتعالى يتناول كل خير في الدنيا والآخرة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد:٢٩]، فلهم عظيم موعود الله سبحانه وتعالى وكريم نواله في دنياهم وأخراهم، وليس هذا ثوابٌ يختص بالأخرى بل كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾ [الانفطار:١٣]، أي: في دورهم الثلاثة؛ نعيم في الدنيا، ونعيم في البرزخ، ونعيم يوم القيامة عندما يلقون الله عز وجل.

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٧١).

قال: (**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**)؛ من هم؟ الذين يستمسكون بالإسلام حال غربته، وعندما يكون الإسلام في نفسه غريباً بين الناس – أي: قلائل من الناس الذين يعرفونه – فإن المستمسكين به في هذه الحال يكونون غرباء، ويكون المستمسك به غريبا ولو كان بين أهله، ولو كان المجتمع الذي ولد فيه ونشأ وترعرع فيه.

ثم أورد رحمه الله روايات للحديث فيها تفسير من هم الغرباء، والذي رواه مسلم من الحديث هو هذا القدر بدون هذه الزيادة، وقد جاء في أحاديث أخرى عنه صلوات الله وسلامه عليه تفسير الغرباء من هم؟ ما صفتهم؟

وهذا التفسير يعين المسلم المتأمل في هذه الأحاديث على تحقيق المعاني والصفات التي عليها أهل الغربة.

◆◆◆◆◆

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

ورواه أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفيه: (قيل مَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ)(١).

وفي رواية: (الْغُرَبَاءُ: الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)(٢).

ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وفيه: (فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)(٣).

وللترمذي من حديث كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده: (فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي)(٤).

## الشرح

هذه روايات ساقها المصنف رحمه الله للحديث فيها تفسير وبيان للغرباء، ومن هم الغرباء؟، وهذه الروايات اعتنى من قبل أهل العلم بجمعها في مصنفات لما في ذلك من فائدة للمسلم ولطالب العلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أن الإسلام سيعود

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٣٧٨٤)، وابن ماجه (٣٩٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٢٣).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٦٩٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٠٥٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧٣).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٤).

(٤) رواه الترمذي (٢٦٣٠).

غريبًا»، وقال: «طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» فالناصح لنفسه يتساءل من هم الغرباء؟ ما صفتهم؟ ما حليتهم؟ ما أعمالهم؟ يتساءل عن ذلك ليكون محافظًا وليكون مستمسكًا، فكتبوا في ذلك كتابات نافعة جداً، ومن أحسن ما كُتب في ذلك: كتاب الآجري رحمه الله «الغرباء» وهو مطبوع، وكتاب الحافظ ابن رجب رحمه الله وهو مطبوع «كشف الكربة في وصف أهل الغربة»؛ رسالة صغيرة وضمّنها فوائد في وصف حال الغربة ووصف حال الغرباء، واعتنى بها في حديثٍ عن هذا الأمر ساقه مبني على الأدلة وعلى كلام أهل العلم وعلى نقل الآثار عن سلف الأمة.

لأن الحديث عن الغربة أحيانًا يخلط فيه الناس وتجد بعض من ابتُلي بشيء من الأهواء يوظّف أحاديث الغربة لنصر هواءه؛ وهذا أيضًا من المصائب وتأييد باطله أو فكره أو نحو ذلك، وهذا مضرٌ بالناس، لأن أحاديث غربة الدين إذا وُظفت في أهواء معيّنه فهذا أيضًا من الخطورة بمكان على عوام الناس وجهالهم.

وقد كان سَنن السلف رحمهم الله في هذا الباب هو الحديث عن الغربة وبيان معانيها على ضوء الآيات والمأثور عن السلف، لا أنهم يُقحمون تصوراتٍ يفهمونها أو أفكار يصِلون إليها ثم يجعلون أحاديث الغربة متنزِّلة عليها؛ فهذا إشكال وإضرار بالناس في فهم أحاديث الغربة، وأحاديث الغربة تُفهم على جادة السلف رحمهم الله وعلى ضوء الروايات التي وردت عن النبي ﷺ في بيان الغرباء وحالهم، تُفهم الغربة من حال السلف وأعمالهم وصفاتهم وسَنن

الصحابة ومن اتبعهم بإحسان والنهج الذي كانوا عليه، والدين الذي كان عليه الصحابة هو الدين إلى قيام الساعة، وما لم يكن دينًا زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون ديننا إلى قيام الساعة.

والإمام الآجري رحمه الله في كتابه «الغرباء» وهو مطبوع قال فيه: «معناه والله أعلم أن الأهواء المضلة تكثر -أي في الناس- فيضل بها كثير من الناس، ويبقى أهل الحق الذين هم على شريعة الإسلام غرباء في الناس»(١)، هذا تفسير ذكره الآجري رحمه الله في كتابه «الغرباء» وأشار فيه أن الغربة تكون عندما تُتبع الأهواء ويكون للأهواء دعاة فتفشو في الناس وتنتشر ثم يبقى قلائل من الناس مستمسكين بالسنة غير مغترين بالأهواء والبدع ولا ملتفتين إليها؛ فيكون حالهم حال أهل الغربة ويكونون هم الغرباء: (الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)؛ يصلحون: أي بتمسكهم بالسنة، إذا فسد الناس: أي باتباعهم الأهواء، وهذا معنى الحديث الآتي.

ساق المصنف رحمه الله روايات فيها تفسير للغرباء من هم؟

في رواية: **(قَالَ: النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)**؛ النزاع: من ينزع من وطنه إلى وطن آخر، وما سبب هذا الرحيل والانتقال من الوطن؟ يرى أن وطنه وأهله وعشيرته وقومه والمجتمع الذي نشأ فيه مجتمعٌ عم فيه الفساد وكثُر فيه الشر وكثر فيه الضياع، ويكون قلبه خائفًا على دينه مشفِقًا على دينه، يريد لدينه حفظًا وبقاءً،

(١) «الغرباء» (ص٢٥).

ويجد المجتمع الذي حوله بدءً ببيته وبيت جيرانه والبيوت التي حوله والناس الذين يمشون حوله يجدهم في ضياع؛ إما أخذتهم الشهوات مأخذاً عظيماً، أو تلقفتهم الشبهات فحرفتهم عن دينهم، أو جُمع لهم بين الأمرين: شهواتٌ أفسدت أعمالهم وشبهات أفسدت عقائدهم وأديانهم، فيعيش في مجتمع هذه صفته فيرحل عنه.

قال: (**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)؛ والمراد: الفارُّون بدينهم، ينزع من قبيلته، يرحل، يغترب، ويترك الوطن والأهل والأولاد والقرابة فراراً بدينه، يبحث عن مكانٍ يبقى ويجاهد نفسه فيه على سلامة دينه، ويجد نفسه في بقائه في مجتمعه الذي أنكَر دينه فيه بقاؤه يترتب عليه ضعف دينه ورقته، فيريد علماً، ويريد مجالسة أهل علم، ويريد أهل الصلاح والاستقامة يصبر نفسه معهم ويجالسهم ليحافظ على دينه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف:٢٨]؛ أمره ﷺ بالصبر ثم قال في تمام الآية: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾، فيكون راحلاً للبحث عن وطنٍ يجد فيه قرار دينه وزيادة إيمانه وقوة يقينه وحسن صلته بالله وفقهه في دين الله، هؤلاء هم النزاع من القبائل؛ يستنكر دينه في وطنه ويجد أموراً عمت وطمت في وطنه ليست من دين الله؛ إما شبهات منحرفة أو شهوات متبَعة والدين في ضياع، فينزع أي يرحل بحثًا عن دينه.

قال: (**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)؛ هذا أحد الأحاديث الذي ورد في تفسير الغرباء -

وهو من أصح ما ورد في هذا الباب - يعني الذي يرحل من بلده ويتحمل عناء الغربة.

فالإنسان إذا كان بين أهله وقرابته وجيرانه أموره المعيشية أهون، لأنه قد يذهب إلى بلادٍ يصعب عليه أمر المعاش فيها وربما يتعسر عليه أمر المعاش فيها ويجد معاناةً في هذا الباب فلا يبالي ولا يهتم؛ لأن أمر دينه أهم وصلاح دينه ألزم عنده فلا يبالي بذلك، قال (**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**) وهذا يدل على أن أعظم شيء استحكم في قلوبهم العناية به والاهتمام هو دينهم؛ ولهذا لا يبالي، يرحل ويغترب ويترك الوطن مع حبه له، والأهل مع حبه لهم وحرصه عليهم، يرحل في سبيل حفظ دينه.

قال: (**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)؛ هذه رواية وفيها تفسير للغرباء.

قال: (**وفي رواية: الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**)؛ يصلحون: أي بالتمسك بالسنة والدين الصحيح. والصلاح يكون بتعلم الدين ومعرفته والمحافظة عليه، مثل ما مر معنا قريبًا في كلام أبي العالية رحمه الله؛ فيكون ذلك بإصلاح النفس بتعلم الدين والمحافظة عليه والثبات عليه إلى الممات.

(**إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**) أي: باتباع الأهواء واتباع الشهوات، فيكون الناس اهتماماتهم متجهة إلى أهوائهم أو جرفتهم الشبهات وحرفتهم عن دينهم، ويكون هو صالحًا في وسط هذا الفساد.

قال: (**ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وفيه: فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ**

**لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**)؛ وهذا بمعنى الرواية التي قبلها، طوبى للغرباء: أي أهل الصلاح، ولم يُذكر لدلالة السياق عليه.

قال: (**وللترمذي من حديث كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده (فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي**)؛ وهذا المعنى دلائله كثيرة وشواهده عديدة، ومن شواهده الآية التي صدّر بها المصنف ﵀ الترجمة ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ ينهون عن الفساد في الأرض أي: بالإصلاح فيها وإنكار المنكر وإنكار الفساد، ولهذا المعنى شواهد كثيرة جدًا، والآيات التي فيها فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والأحاديث الواردة في هذا الباب كلها شواهد على هذا المعنى.

فهذه المعاني التي ذكر المصنف: «**النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ**»، «**الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»، «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**» كلها صحيحة، وكلها أوصاف صحيحة لأهل الغربة جُمعت في ﴿سورة العصر﴾؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾؛ فجمعوا بين صلاحٍ في أنفسهم، وجدٍّ واجتهاد في إصلاح مجتمعهم، وصبر على ذلك وما ينالهم من أذىً فيه، وقد جاء عن الإمام الشافعي ﵀ أنه قال: «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم»[1]، لأنها جمعت الأوصاف التي يكون بها السلامة من الخسران، لأن من سوى الغرباء في خسران، متفاوتين في حجم

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٣).

الخسران الذي هم عليه، ولا ينجو ولا يسلم إلا الغرباء، والغرباء السالمون من الخسران هم أهل هذه الصفات المذكورة في هذه السورة.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١) في رسالته التي في المجلد الثامن عشر من «مجموع الفتاوى» أن الغربة قد تكون في بعض شرائع الدين وقد تكون أيضًا في بعض الأمكنة؛ يعني تذهب إلى بلد من بلدان المسلمين وأنت تعرف أن هذا البلد كان من منارات الإسلام ومن البلدان التي كثر فيها العلم والعلماء وكان لهم قوة ونشاط، وتقرأ أحيانًا بعض الكتب المختصة بتراجم أهل العلم من أهل بلدان معينة، ثم تذهب إلى ذلك البلد فترى غربة، وترى الذي انتشر في الناس أموراً خلاف الدين، فالغربة قد تكون في مكان وقد تكون في أعمال؛ يعني تجد أعمالا من الدين غريبة بين الناس.

ولعله يلاحَظ أن بعض الناس قد تُذكر له سنة من السنن فيسمع بها أول مرة فيستغرب، وربما ذُكرت السنة لجماعة من الناس فيستغربونها أجمعين، وربما حلفوا قالوا والله ما سمعنا بهذا من قبل، وهي سنة ثابتة عن النبي ﷺ!! لكنها

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وَقَدْ تَكُونُ الْغُرْبَةُ فِي بَعْضِ شَرَائِعِهِ وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَمْكِنَةِ . فَفِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَمْكِنَةِ يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعِهِ مَا يَصِيرُ بِهِ غَرِيبًا بَيْنَهُمْ لَا يَعْرِفُهُ مِنْهُمْ إلَّا الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ.
وَمَعَ هَذَا فَطُوبَى لِمَنْ تَمَسَّكَ بِتِلْكَ الشَّرِيعَةِ كَمَا أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ. فَإِنَّ إظْهَارَهُ وَالْأَمْرَ بِهِ وَالْإِنْكَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ هُوَ بِحَسَبِ الْقُوَّةِ وَالْأَعْوَانِ) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٩٨).

أصبحت غريبة بين الناس بسبب قلة العلم وضعفه ودروسه بين كثير من الناس.

فالغربة قد تكون في مكان؛ بحيث إذا بقي الإنسان في مكان يجد غربة وإذا انتقل إلى مكان آخر لا يجد غربة بل يجد أمثاله من أهل السنة المحافظين عليها وهم كثر، وأحيانا تشتد الغربة في الأمكنة حتى جاء عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: «إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة وآخر بالمغرب فابعث إليهما بالسلام وادع لهما، ما أقل أهل السنة والجماعة!»[1]، فقد تشتد الغربة وقد يكون في وطنه وحيداً.

على كلٍّ هذه أوصاف جاءت في روايات الأحاديث في وصف الغرباء، وما ذكره المصنف هنا هو أصح ما ورد في الباب، وقد جاءت أحاديث أخرى في تفسير الغرباء فيها ما هو أسانيده ضعيفة وفيه ما أسانيده واهية جداً.

◈◈◈◈◈

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥٠)، و«حلية الأولياء» (٧/ ٣٤).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وعن أبي أمية قال: سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ رضي الله عنه كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾؟ قَالَ: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: (بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكم)، قلنا: مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: (بَلْ مِنْكُمْ) رواه أبو داود والترمذي[(١)].

## الشرح

قال رحمه الله: (وعن أبي أمية قال: سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ رضي الله عنه كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾؟)؛ قد يفهم بعض الناس عندما يقرأ هذه الآية أن المراد بها أن اشتغال الإنسان بإصلاح نفسه فقط دون اجتهادٍ منه في إصلاح من حوله يكفيه ولا يضره.

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ أي: إذا صلحتَ في نفسك واستقمت ليس عليك في الناس من صلح منهم ومن استقام؛ وهذا مفهوم خاطئ وليس هو مراد

(١) رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

الآية.

لأن قوله: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ من الهداية التي لا يضر الإنسان إذا ضل الناس إذا كان هو مهتديًا، من الهداية المطلوبة: الدعوة والأمر والنهي، وهي من هدايات القرآن وهدايات السنة، وهي هداية مطلوبة من العبد؛ فتركه لها ترك لجزء من الهداية؛ لأن الأمر والنهي هداية: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]؛ فالأمر والنهي جزء من الهداية وهو داخل فيها. فقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ من الهداية: الأمر والنهي والدعوة إلى دين الله ﷻ؛ هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أن دعوة صاحب الحق إلى الحق من وسائل حفظ الهداية التي عنده، وقد قيل: «إذا لم تدعُ تُدعى»، فدعوة الإنسان إلى الحق الذي منّ الله ﷻ عليه به فيه حفظٌ للهداية التي أكرمه الله ﷻ بها، فمن وسائل حفظ الهداية في الشخص أن يدعو الناس إليها، وإن لم يكن كذلك أصبح هدفًا لدعوة الناس ومستهدفًا من دعاة الضلال.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ سأله عن هذه الآية كيف يقول في معناها؟ قال: (**أَمَا وَاللهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا**)؛ ولم يقل ذلك تزكيةً لنفسه، وإنما قالها ليُطمئن سائله بالعلم الذي أكرمه الله ﷻ به في هذا الأمر، فإذا قال الإنسان في مسألةٍ ما أو في موضوع ما (هذه المسألة أنا عندي خبرة بها درستها شهور مثلا) هذا لا يكون تزكية؛ إلا إذا أراد في نيته تزكية نفسه

ولاحظ الرياء والشهرة وهذه المعاني «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١)، أما إذا كان مقصوده النصح للناس وطمأنة قلوبهم لتحصيل الفائدة فهذا ليس من التزكية.

قال: (**لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ**)؛ ولاحظ الخبرة التي عنده في هذه المسألة علمٌ بالسنة، مما يبين لك أن علم الصحابة هو هذا، ولو لم يكن عنده هذا السؤال لما قال سألت عنها خبيرا، ومن الناس من لا يكون عنده علم بالسنة ويعدّ نفسه خبيرا؛ فيخوض في كلام الله وفي كلام رسوله ﷺ بغير علمٍ وغير فهم.

قال: «**سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ**»؛ أي: ليس معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس هذا مراد الآية بل مراد الآية: «**بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ**».

«**حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ**»؛ يعني يلزم الإنسان شأن نفسه في مثل هذه الحال؛ ما هي؟

قال أولا: «**إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا**»؛ والشح: هو بخل الإنسان الذي ملأ قلبه وأصبح في سيره في حياته أسير بخله، يطيع بخل نفسه ولم يوق شح نفسه بل أصبح مطيعـًا لما امتلأ به قلبه من البخل.

ومن كان بهذه الصفة لا يلتفت إلا إلى بخل نفسه وشحِّها أين أذنه التي

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

ستسمع وستصغي وقد سيطر على قلبه شحُّه وبخله؟!

«**وَهَوًى مُتَّبَعًا**»: سيطر عليه أمر آخر وهو اتباع الأهواء، تجارت به الأهواء كما يتجارى الكلَب بصاحبه، فرمَته في أودية الضلال ومواضع الهلكة.

«**وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً**»: اهتمام الناس منصرف إلى الدنيا ليس لديهم اهتمام بالدين وليس عندهم وقت للدين والعناية به، دُنْيَا مُؤْثَرَةً يعني آثرتها القلوب وأقبلت عليها النفوس.

«**وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ**»: يصبح أصحاب الآراء كلٌّ منهم معجَب برأيه، وإذا بُيِّنت له السنة أنكرها لمخالفتها لرأيه، وهو معجب برأيه فينكر السنة لكونها مخالفة لرأيه.

«**وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ**»: والله ﷻ يقول: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى:٩]، فإذا صار الإنسان في حال يصل فيها من حوله بهذه الصفات قال: (**فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ**): يعني دع عنك خلطتهم، الزم نفسك بالحفظ لدينك والمحافظة عليه ومجاهدة النفس على الاستقامة عليه.

(**وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنّ** -أي على دينه- **مِثْلُ القَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**): لأن القابض على الجمر يحس بألم من قبضه على الجمرة، وكذلك المحافِظ على الحق يجد مثل هذا الإحساس من شدة العنَت والخصومة وإنكار الناس له وتسفيههم له وطعنهم فيه إلى غير ذلك؛ فيكون فيها كالقابض على الجمر لاستحكام أو لشدة الغربة التي يعيشها بين الناس.

قال: (**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكم**): فأراد الصحابة الاستفصال عن قوله ﷺ: (**مِثْلَ عَمَلِكم**): هل المراد مثل عمل الصحابة؟ أو مثل عمل من جاء بعدهم؟

قال: (**قلنا مِنَّا** – أي الصحابة – **أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ بَلْ مِنْكُمْ**): أي من الصحابة.

قال أهل العلم وذلك لأن هؤلاء الذين بهذه الصفة غرباء ينصرون الدين وهو متجه إلى مزيد من الغربة، والصحابة نصروا الدين وهو متجه إلى الخلاص من الغربة، وكل يوم والإسلام يحقق انتصارات وعزاً ورفعة وكثرة داخلين فيه.

وأيضا نبّه العلماء أن هذا لا يعني تفضيلهم على الصحابة، بل ما حازه الصحابة من السبق ونصرة النبي ﷺ ولزومه وأخذ الدين عنه فهذه أمور لا يقارنهم فيها من جاء بعدهم، قد قال ﷺ في حديث آخر: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١)، فالأمر الذي حازه الصحابة والفضائل التي حازها الصحابة هذه لا يلحقهم فيها أحد ممن جاء بعدهم، فالصحابة لهم فضل مخصوص لا يناله من جاء بعدهم.

فقوله: (**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا**) لا يعني تفضيل هؤلاء على صحابة النبي الكريم ﷺ.

◈◈◈◈◈

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٦٤٣٤).

المتن

قال المؤلف رحمه الله:

**وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: (إن من بعدكم أيامًا الصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم)**(١).

الشرح

ثم أورد هذه الرواية عند ابن وضاح في كتابه: «البدع والنهي عنها» وهو مطبوع.

قال رحمه الله: **وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: (إن من بعدكم أيامًا الصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم)**(٢)؛ وتأمل هنا وصفًا للغرباء قال: **(المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم)**؛

---

(١) «البدع والنهي عنها» (١٨٧).

(٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: **(وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم**؛ فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه وفقها في سنة رسوله وفهما في كتابه وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه وطعنهم عليه وإزرائهم به وتنفير الناس عنه وتحذيرهم منه كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه؛ فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه فهنالك تقوم قيامتهم ويبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده =

فالغريب هو الذي يتمسك بمثل ما كان عليه الصحابة، وهذا المعنى دل عليه قول النبي ﷺ وقد تقدم عندما ذكر الافتراق قال: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً؛ قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

**أنبأنا محمد بن سعيد قال أنبأنا أسد قال أنبأنا سفيان بن عيينة عن أسلم البصري عن سعيد أخي الحسن يرفعه قلت لسفيان: عن النبي ﷺ؟ قال نعم، قال: (إنكم اليوم على بينة من أمركم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في الله ولم تظهر فيكم السكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حب العيش، وستَحوَّلون عن ذلك ولا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين قيل منهم؟ قال: لا بل منكم)[(١)].**

---

لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

**وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرته** لا يجد من العامة مساعدا ولا معينا، فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف) «مدارج السالكين» (٣/ ١٩٩).

(١) «البدع والنهي عنها» (١٨٨).

## الشَّرح

ثم أورد هذه الرواية التي ساقها ابن وضاح بسنده «**عن سعيد أخي الحسن يرفعه**» أي: إلى النبي ﷺ وهو مرسل؛ سعيد أخي الحسن البصري يرفعه إلى النبي ﷺ هذا مرسل.

قال: (**قلت لسفيان عن النبي ﷺ؟ قال نعم**).

قال: (**إنكم اليوم على بينة من أمركم**) ما هي هذه البينة؟

قال: (**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في الله، ولم تظهر فيكم السكرتان سكرة الجهل وسكرة حب العيش**)؛ هذا الآن بيان لوصف الحالة التي كان عليها الصحابة ﷺ وبيان للدين الصحيح، والدين الصحيح: هو ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته، فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله، ولم تظهر فيهم السكرتان سكرة الجهل وسكرة حب العيش.

(**سكرة الجهل وسكرة حب العيش**)؛ أن يمشي الإنسان في هذه الحياة في سكرة جهله يخوض فيما يخوض فيه من ضلال بسبب سكرة الجهل التي تسيطر عليه.

ويخوض أيضا فيما يخوض فيه من شهوات بسبب سكرة حب العيش الذي سيطر عليه، فهو بين سكرتين سيطرتا عليه: سكرة جهل وسكرة حب عيش، فإذا وُجدت هاتان السكرتان لا تسأل حينئذ عن هلكة الإنسان، جاهل ويحب الدنيا وهي أكبر همه!! ماذا ستكون حال من كان كذلك؟ من سيطرت عليه هاتان

السكرتان؟

قال: (**وستَحوَّلون**)؛ أي ستتغير الأمور تتبدل عن ذلك.

(**فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان**)؛ أي تفشو فيكم وتنتشر هاتان السكرتان: سكرة الجهل وسكرة حب العيش.

ثم نصح النبي ﷺ ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في مثل هذه الحال قال: (**فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين، قيل: منهم؟ قال: لا بل منكم**)؛ منكم: أي من الصحابة رضي الله عنهم.

هذه الرواية وإن كان فيها ضعف فالمصنف لم يذكرها في هذا الباب اعتماداً، وإنما ذكرها استئناساً لما فيها من معاني صحيحة ولما فيها من توضيحات، فهي ليست كلاما يُرفع إلى النبي ﷺ ولكنه كلام درج عند أهل العلم، مثله مثل أقوال أهل العلم، فهو فيه معاني صحيحة قوية مفيدة تفيد في تفسير هذا الباب وليست هي كلامًا للنبي ﷺ، لهذا جرت عادة العلماء ذكر ما لا يشتد ضعفه من المراسيل أو مثلاً فيه ضعف يسير أوفيه راوٍ ضعيفُ حفظٍ أو نحو ذلك؛ يذكرونها على سبيل الاستئناس لا على سبيل الاعتماد.

ولو تأملت هذا الحديث فهو ليس عمدة في هذا الباب، وإنما فيما مر في الباب؛ آيات وأحاديث اتضح بها المقصود ولكن هذه روايات يُستأنس بذكرها لا أنها عمدة الباب، وإذا تأملت المعاني التي فيها فشواهدها مبسوطة في الكتاب

والسنة، كم في القرآن من الأدلة الدالة على خطورة الجهل؟ وكم في القرآن والسنة من الأدلة الدالة على خطورة حب الدنيا والتهالك ورائها والانشغال بها؟ فهذا المعنى ليس معنىً العمدة فيه هذا الحديث، وكذلك ترك الأمر بالمعروف وترك النهي عن المنكر وترك الجهاد ليس العمدة فيه هذا الحديث، وإنما العمدة نصوص أخرى واضحة بيِّنة، فيكون ذكر هذا على وجه الاستئناس، وأمثال هذه الأحاديث تُذكر للاعتضاد لا للاعتماد، وتُذكر للاستئناس بها لا لكونها عمدة في الباب، وهذا نهج معروف عند أهل العلم من قديم، يذكرون أمثال هذه الأحاديث من مرسلٍ ضعيف أو فيه راوٍ خفيف الضبط أو فيه ضعف أو نحو ذلك للاستئناس بذكرها.

## المتن

**قال المؤلف** رحمه الله:

**وله بإسناد عن المعافري قال: قال رسول الله ﷺ: (طوبى للغرباء؛ الذين يمسِّكون بكتاب الله حين يُترك، ويعملون بالسنة حين تُطفئ)**[1].

## الشرح

وهذا مثل ما سبق ساقه المصنف رحمه الله ليستأنس بذكره، لأن المعنى الذي فيه معنى صحيح في وصف الغربة.

قال: **(طوبى للغرباء)** من هم؟

(١) «البدع والنهي عنها» (١٦٧).

قال: **(الذين يمسِّكون بكتاب الله حين يُترك ويعملون بالسنة حين تُطفئ)** يعني يُطفئ نورها بين الناس ولا يكون للناس بها معرفة، فإذا بلغ الناس هذا الحال ووُجد من هو متمسك بالكتاب والسنة فهو الغريب، وهذا المعنى الذي دل عليه هذا الحديث في تفسيره الغربة دلت عليه النصوص المتقدمة.

هذه الترجمة عمومًا ترجمة عظيمة جداً في بيان الغربة -غربة الدين- التي توجد في الناس بسبب كثرة الجهل وغلبة الأهواء والانشغال بالدنيا وحظوظ النفس والإعراض عن دين الله ﷻ، وأورد المصنف ﵀ فضل الغرباء الذين يتمسكون بالدين ويحافظون عليه ويدعون إليه حال تخلي أكثر الناس عنه وحال تفريط كثير من الناس به، وأن فضلهم عند الله ﷻ عظيم وثوابهم جزيل، قد ساق من النصوص والشواهد ما يدل على ذلك، وساق أيضا من النصوص تفسير الغرباء ومن هم الغرباء.

ولعلك تلحظ فيما ساقه المصنف وفي طريقته ﵀ النهج الذي ألمحتُ إليه؛ نهج السلف الصالح رحمهم الله، فالمصنف شأنه كأئمة السلف لا يحْمِل فكراً أو رأيًا أو تصوراتٍ ابتكرها وأنشأها ودعا إليها أو أخذ يدعو إليها، وإنما دعوته إلى دين الله ﷻ، ولهذا لما تكلم عن الغربة وفضلها ذكر تفسيرها بسوق الروايات التي تفسِّر لنا ما هي الغربة، وترى في الناس من يأتي ويتحدث عن الغربة وغربة الدين ليوظفها لآرائه وأفكاره ويسوّد صفحاتٍ كثيرة يبث فيها فكراً نشأ عليه أو رأيًا درج عليه ثم يوظف الأحاديث، هذه ليست طريقة أهل

الحق. وانظر هذه الصفحة الواحدة التي سطرها المصنف رحمه الله في الكلام عن الغربة تغنيك عن مطولات، لأنها جمعت خلاصة الأمر وزبدة الموضوع، ففي باب الغربة يكفيك هذا الذي ذكره المصنف، خلاصة وافية وكافية من جهة ذِكر الغربة ووجودها، وذِكر فضل الغرباء وثوابهم، وذِكر أعمال الغرباء وصفاتهم؛ كلها اجتمعت لك في هذه الخلاصة التي سطرها المصنف رحمه الله في صفحة واحدة.

وإذا قرأت أيضاً ما ساقه هنا لا تجد له فيه كلمة واحدة، لو كان يحمل آراءً معيّنة أو أفكاراً معيّنة أو توجهات معيّنة لبثها في كتبه؛ لكن ليس في كتبه إلا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ ومع ذلك يشن عليه دعاة الضلال ودعاة الباطل حملات شعواء يسألهم عنها ربّ العالمين يوم القيامة لصدِّهم عن دين الله وصدهم عن حملته من أئمة السّنة ودعاة الحق والهدى ومن أصلح الله تبارك وتعالى بهم دينه جلّ وعز.

وهذا الإمام - أعني الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله - إمام من أئمة أهل السنة وداعية من دعاة الحق والهدى، وكتبه التي صنفها كلها داعية إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ قائمة على الآية والحديث والمأثور المروي من كلام السلف الصالح، ثم كذبوا عليه وافتروا عليه كذباً يسأله عنه رب العالمين يوم القيامة، ورموه بعظائم لا يوصف بها أحاد المسلمين! حتى إن بعضهم قال إثما وزورا أنه لا يصلي على رسول الله ﷺ، وقال آخرون: لا يحب آل بيت رسول الله

ﷺ، وقال آخرون.. وقال آخرون؛ كلماتٌ ترمى هنا وهناك في الصد عن هذا الحق الذي يدعو إليه هذا الإمام رحمه الله.

ولهذا من وفقه الله عز وجل من هؤلاء فقرؤوا كتبه وجدوا كذب الدعايات التي بُثت والباطل الذي أشيع، رجل ليس عنده في كتبه إلا النصح والدعوة لدين الله سبحانه وتعالى، ولهذا لما نقرأ الآن كتاب «فضل الإسلام» لهذا الإمام لا نرى له فيه كلاما، فلو كان يحمل مذهبًا خامسًا أو يحمل فكراً أو يحمل كذا إلى آخره لبثه في كتبه، وأولئك اكتفوا في حال هذا الرجل بدعاية بُثت بثها أعداء الدين من الكفار الأصليين ومن المنتسبين للدين من خصوم الدين وخصوم الدعوة، لكن من وفقه الله عز وجل وقرأ ما كتبه من هذه الآيات وهذه الأحاديث لوجد حقًا.

## المَتْنُ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

### باب التحذير من البدع

عن العرباض بن سارية قال: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[١] قال الترمذي حديث حسن صحيح.

## الشَّرْحُ

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بابُ التحذير من البدع**) أي: ذكر الدلائل والشواهد الدالة على خطورة البدع وشدة ضررها على فاعليها وأهلها، وأنها ليست من دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي عبادة له جَلَّ وَعَلَا بغير ما شرع وبغير ما أذن به عَزَّوَجَلَّ.

وقد جعل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب خاتمةً لكتابه «فضل الإسلام»؛ منبهًا بذلك أن فضائل الإسلام العظيمة وخيراته العميمة لا تُنال بالانشغال بالبدع والأهواء وبالتعبد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بغير ما شرع؛ وإنما تُنال بالاستسلام لله بما شرع وبما

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

أذِن به ﷻ وبما بعث به رسوله ﵊، فمن أراد لنفسه تلك الفضائل العظيمة المترتبة على حفظ الإسلام والمحافظة عليه فليحذر من البدع، وهذا هو السبب الذي لأجله أورد المصنف ﵀ هذا الباب وجعله خاتمةً لكتابه «فضل الإسلام».

والتحذير من البدع: أي ذكر ما يدل على وجوب الحذر منها والبعد عنها ومجانبتها، والنصوص في هذا المعنى متكاثرة عن نبينا ﵊ في تحذيره من البدع؛ بل هو وصيته ﷺ لأمته كما في حديث العرباض بن سارية الذي ساقه المصنف ﵀ في هذه الترجمة.

والبدع سبق الكلام على المراد بها عند ذكر قول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، فالبدعة: هي التقرب إلى الله ﷻ بما لم يشرع وبما لا أصل له في الدين؛ بما لم يأت في الدين الأمر به أمر إيجابٍ أو أمر استحباب، فكل قربةٍ يتقرب بها الإنسان إلى الله ﷻ لم يشرعها الله ولا أصل لها في دين الله ولا دليل عليها في كتاب الله وسنة نبيه ﵊ فهي من البدع المحدثات، حتى وإن حسُن قصد صاحبها، حتى وإن رآها صاحبها حسنةً، ولهذا روى محمد بن نصر المروَزي ﵀ في كتابه «السنة» بسند صحيح عن ابن عمر ﵄ أنه قال: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة»[2]؛ أي: أنه لا يشفع للإنسان استحسانه للبدعة

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

(٢) رواه ابن نصر المرزوي في «السنة» (ص٢٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» =

ورؤيته لها أنها حسنة، كذلك لا يشفع له إعجابه بها، كل هذه لا تفيد، فالبدعة ضلالة مهما كان مبرر الإنسان لها ومسوغاته فهي ضلالة «كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»، والنبي ﷺ أكد هذا المعنى مرات كثيرة؛ بل كان ﷺ في كل جمعة يقرر هذا الأمر «كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»؛ ترسيخًا لهذا الأصل العظيم ليحذر الناس من البدع، وهذا التأكيد المتوالي منه ﷺ في بيان ضلالة البدعة وبطلانها لأن قلوب كثير من الناس تستهويهم البدع وتستميلهم.

وقد يدخل بعضهم في البدعة من بابٍ حسن وهو باب حب الخير -كما سيأتي معنا في أثر ابن مسعود رضي الله عنه الذي ختم به المصنف رحمه الله هذه الترجمة- فقد يفعلها الإنسان من باب إرادة الخير والرغبة فيه والحرص عليه؛ ولكن كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ»[١]، الذي يحصل الخير ويفوز به هو من لزم سنة النبي ﷺ وأمَّرها على نفسه، ولهذا قال بعض السلف: «مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ»[٢]؛ الذي يجعل السنة هي المحكَّمة وعليها المعوَّل وإليها المرجع وهي المعتمد هذا ينطق بالحكمة، أما الذي يطلق لهواه العِنان ويرخي له الزمام فإنه ينطق بالبدعة وتكون أفعاله وأعماله وممارساته هي البدع.

---

(١٢٦).

(١) رواه الدارمي في «سننه» (٢٠٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٠٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٦٤)، و«حلية الأولياء» (١٠/ ٢٤٤).

ثم إن هذا فيه تنبيهٌ إلى أن كون الإنسان من أهل السنة أو من أهل البدعة مرتبط بحقيقة عمله لا بمجرد دعواه، إذ لا يكفي في هذا الباب ادِّعاء الإنسان أنه من أهل السنة؛ بل لابد من وجود حقيقة هذه الدعوى بلزوم السنة، ولهذا صاحب السنة وصاحب الحق يحتاج إلى مجاهدة لنفسه ليحذر من البدع فلا تستهويه ولا يستجِرنَّه الشيطان إلى حيث البدع ولا تستميله نفسه إلى أعمال لم يشرعها الله ﷻ ولم يأذن بها.

قال: (**عن العرباض بن سارية** رضي الله عنه **قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)؛ قوله رضي الله عنه: «**وعظنا**»؛ الموعظة: هي النصيحة المشتملة على ترغيبٍ وترهيب، فإذا كان النصح فيه ترغيب بالفضائل وترهيب من الرذائل وذِكرٌ للثواب والعقاب فيقال لها: «موعظة»، ففيها ترقيق للقلوب وتليين للنفوس وتأثير بما اشتملت عليه من ذكرٍ للثواب وذكرٍ للعقاب.

فيقول العرباض رضي الله عنه: (**وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)؛ وصف رضي الله عنه هذه الموعظة بصفات ثلاث:

**الأولى**: بلاغة هذه الموعظة؛ قال: «**مَوْعِظَةً بَلِيغَةً**»، والمراد بالبلاغة هنا: إيصال المقصود بالكلام الواضح الجلي البيّن دون أن يكون فيه تعقيد أو غموض، كلمات بليغة؛ أي: كلمات واضحة سهلة يسيرة الفهم مؤثرة.

**الثانية والثالثة**: قال: (**وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**) هاتان الصفتان الأخريان؛ وجلت منها القلوب: أي أصاب القلوب منها الوجل وهو

الخوف من الله ﷻ والخوف من عقابه ولانت وتأثرت، وذرفت العيون: أي بالدمع؛ سال الدمع منها متأثرةً بهذا الوعظ من النبي ﷺ.

**وقد أخذ أهل العلم من هذا الحديث ونظائره:** أهمية تخوُّل الناس بالموعظة بين الفيْنة والأخرى؛ فلا يُتركون هكذا بدون وعظ، ولا يكون أيضًا الوعظ هو كل حديثهم، وإنما يُتخولون بالموعظة تليينًا للقلوب وجلبًا لها وطرداً لغفلتها فيُذكَّرون بالثواب والعقاب، فلا يُترك الناس بلا موعظة ولا أيضًا تكون الموعظة هي غاية ما عندهم في العلم فلا ينشغلون إلا بها ولا يجلسون إلا لها، لأن القلوب إذا لانت بالموعظة ولم يُبيَّن لها العلم ربما انشغلت بالبدع لأن الموعظة أوجدت فيها رغبةً في الخير وحرصًا عليه، فإذا وُعظ الإنسان ولم يُدَل على الحق والهدى بالعلم الصحيح المسدد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أقبلت نفسه على العمل بلا علم، قد قال عمر بن عبد العزيز ؒ: (من تعبد بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح)[1].

ولهذا ترك الناس بلا وعظ هذا خطأ، والاقتصار على الوعظ في تعليم الناس وحده هذا خطأ، والصواب التخوّل بالموعظة بين الفينة والأخرى والوقت والآخر حسب حاجة الناس، ويُنشغَل بالعلم وبيانه ودلالة الناس إلى السنن. وقد صار واضحًا في حال أقوام قصروا علمهم على الوعظ وحده أن جر ذلك إلى أعمالٍ وأمورٍ لم يأذن بها الله ﷻ، وقع فيها من وقع بسبب لين قلبه وشدة

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٥٥).

حرصه وعظيم رغبته، وفي الوقت نفسه قلة علمه بدين الله ﷻ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولعل هذا الحديث يرسم للدعاة والمعلمين منهاجًا يُحتذى ومسلكًا يُسار على ضوءه، فهو ﷺ وعظهم فطلبوا منه الوصية، يعني وصية يعملون بها إثر تأثرهم بهذه الموعظة؛ فلم يُقتصَر عليها، فأرشدهم إلى التقوى، والسمع والطاعة، والحرص على السنة، والحذر من البدع؛ أوصاهم عليه صلوات الله وسلامه بهذه الوصايا العظام التي هي من العلم النافع بل هي أساس العلم الذي يُبنى عليه وتبنى عليه الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات.

قال رضي الله عنه: (**قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا**)؛ ولعل هذا الحديث كما أشار بعض شرَّاحه كان في أواخر حياته ﷺ، وكأن الصحابة أحسوا بقرب توديعه ودنو أجله ﷺ فأرادوا أن يعهد إليهم بوصية وتكون هذه الوصية جامعة لأبواب الخير مقرِّرة لأصوله وقواعده فقالوا رضي الله عنهم: (**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ**)، وليس هناك جزم وإنما وُجد عندهم شيء من الإحساس بذلك فقالوا: (**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا**).

ووصية المودِّع سواء كان مسافراً وودع أهله وقرابته ولاسيما إن كان السفر الذي يقصده طويلاً، أو كان أيضا مسافراً السفر الذي لا عودة بعده إلى أهله وهو إلى الدار الآخرة، إلى الله ﷻ، بمعنى أن يحس أن منيَّته دنت وأجله اقترب، فتجد وصية من كانت هذه حاله أبلغ وأجمع وأوعب، وقد كان من سنن الأنبياء

وهديهم عند دنو الأجل العهد لذويهم ولعموم الناس بالوصية ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢] هذه وصية من يعقوب ومن إبراهيم عليهما صلوات الله وسلامه، والله ﷻ سماها وصية، والوصية هي قولهما: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، والعادة في الوصية أن يكون فيها كلام قليل جامع لأبواب الخير لا يُنشغل فيها بالتفاصيل إلا عند الحاجة للتفصيل، أما الأصل فيها أن تكون مشتملة على كلمات قلائل جامعة للخير ويفصَّل عند الحاجة، ولهذا كان يأتي في وصايا بعض السلف شيء من التفاصيل يقتضيها المقام أو يحتاج إليها؛ مثل قول بعضهم في وصيته: «وَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ حَالِقَةٍ أَوْ سَالِقَةٍ أَوْ خَارِقَةٍ»(١) إذا خشي أو وُجد في مجتمع الإنسان من البدع التي تُمارس في حق من مات، و«الْمَيِّت يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ»(٢)، قال أهل العلم: إذا كان مُقِراً لذلك راضياً به أو داعياً إليه(٣)، فمثل هذه الوصايا التي هي نوع من التفصيل تأتي للحاجة؛ وإلا فالأصل أن تكون الوصية تجمع؛ يعهد إليهم بحفظ الإسلام والمحافظة عليه، يعهد إليهم بلزوم تقوى الله ﷻ في السر والعلانية، يعهد إليهم

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٥٧٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١٥٠)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٣١٤٠).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).

(٣) انظر: «فتح الباري» (٣/ ١٥٣).

بالتحذير من الأهواء واتباع حظوظ النفس والشهوات، إلى غير ذلك من الأصول الجامعة والكليات والقواعد.

(قَالَ: **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ** ﷻ)؛ استهل صلوات الله وسلامه عليه وصيته الجامعة هذه بالوصية بتقوى الله ﷻ، وتقوى الله ﷻ هي وصيته ﷻ للأولين والآخرين من خلقه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، وهي وصية الرسول ﷺ لأمته، وهي وصية السلف الصالح رحمهم الله فيما بينهم.

وتقوى الله: هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من سخط الله ﷻ وعقابه وقايةً تقيه، فالذي يشعر ببردٍ يتقيه بملابس الشتاء، والذي يخشى الشمس يتقيها بمظلة، والذي يخشى عقاب الله ﷻ وسخطه يجعل بينه وبين هذا العقاب والسخط شيئًا يقيه منه.

وتقوى الله: هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من سخط الله ﷻ وعقابه وقايةً تقيه وذلك بفعل المأمور، وترك المحظور وتصديق الأخبار، وأي إخلالٍ بشيء من هذه الثلاث نقص في تقوى الله ﷻ، ولا تتحقق هي إلا بهذه الأمور: أن يفعل العبد ما أُمِر به، وأن ينتهي عما نُهِي عنه، وأن يصدِّق الأخبار الواردة عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ومن أجمع ما قيل في حد التقوى: قول طلق بن حبيب رحمه الله وهو من علماء التابعين عندما سألوه عن الفتنة التي حصلت كيف الخلاص منها؟ قال: «اتقوها بالتقوى»، فقالوا له: أجمِل لنا

التقوى؟ اذكر لنا تعريفًا مجملاً جامعًا لتقوى الله ﷻ.

فقال ﵀: (تقوى الله: هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله)[(١)].

وهذا التعريف للتقوى هو من أحسن ما قيل في حدها، وقد أثنى على هذا التعريف أو ذكروه في مؤلفاتهم جمع من أهل العلم؛ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀[(٢)]، وتلميذه العلامة ابن القيم[(٣)]، والذهبي[(٤)]، وابن رجب[(٥)]، وآخرين من هل العلم.

وقد جمع ﵀ في تعريفه للتقوى بين فعل الأمر وترك النهي وفي كل منهما أن يكون الإنسان على علم، فقوله «على نور» أي: على علم؛ علم بالمأمور ليفعله وعلم بالمحظور ليجتنبه، ثم الجمع في ذلك بين الرجاء والخوف؛ يفعل ما أمره الله ﷻ راجيًا ثوابه، ويجتنب ما نهاه الله ﷻ عنه خائفًا من عقابه، ففيه إحسانٌ في العمل يرجو ثواب الله ﷻ، وبُعدٌ عن الإساءة يخاف من عقابه ﷻ وسخطه.

وبهذا يُعلم أن تقوى الله ﷻ ليست مجرد دعوى يدّعيها الإنسان؛ لأنه من

(١) «كتاب الزهد» للإمام عبد الله بن المبارك ﵀ (ص ١٠١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٣٢).

(٣) «الرسالة التبوكية» (ص١٠).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠٤).

(٥) «لطائف المعارف» (ص١٥٩).

اليسير على كل إنسان ومن السهل على كل لسان أن يقول إنني من المتقين، فالدعوى أمرها سهل ولكن العبرة بتحقيق التقوى والقيام بحقيقتها؛ ذلاً وخضوعًا لله ﷻ، وقيامًا بطاعته، وبُعدًا عن نواهيه، ومعرفةً بعظمته ﷻ وقدرته واطلاعه، وأنه لا تخفى عليه ﷻ خافية في الأرض ولا في السماء، وأنه الغفور الرحيم، وأنه شديد العقاب، كل هذا تحقيق لتقوى الله ﷻ.

قال: (**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)؛ أي: السمع والطاعة لمن ولاه الله ﷻ أمركم، مَن وَلِيَ أمر المسلمين السمع لكلامه والطاعة لأمره.

والسمع والطاعة لم يأت في هذا الحديث فقط السمع والطاعة لولاة الأمر؛ بل جاء في أحاديث كثيرة جداً عنه صلوات الله وسلامه عليه تأكيداً على هذا الأمر العظيم الذي به انتظام أمر المسلمين واجتماع كلمتهم؛ لأن انتظام أمر المسلمين لا يكون إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمعٍ وطاعة؛ أمور مترابطة، انتظام أمر المسلمين لابد فيه أن يكونوا مجتمعين، وإلا لو كان كل إنسان على رأسه كيف يتحقق لهم أمن!! كيف تتحد لهم كلمة؟! كيف تجتمع القلوب؟! كيف يؤمَن على الدماء أو الأعراض؟! كيف تُستردّ الحقوق؟! كيف تعاد المظالم؟! الخ، فهذا لا يتحقق إلا بجماعة، أما إذا كانوا متفرقين لا تنتظم أمورهم أبداً، ولا جماعة إلا بإمام؛ لابد من وجود إمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة؛ إذا كان لهم إمام ولا يُسمع له ولا يطاع فوجوده مثل عدمه، لا تتحقق المصلحة بمثل هذا.

ولهذا تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في الحث على السمع والطاعة، بل جاء في بعض الأحاديث ضم السمع والطاعة لولي الأمر إلى الطاعات الكبار مثل الصلاة والزكاة، وعدُّ ذلك من أسباب دخول الجنة، ومن خطب النبي ﷺ في حجة الوداع قوله ﷺ: «اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»(١)؛ فضمّ عليه الصلاة والسلام الطاعة لولاة الأمر إلى الصلاة والزكاة والصيام، ضمها إلى هذه الطاعات الكبيرة وجعل هذه كلها من أسباب دخول الجنة.

وهناك ارتباط بين الصلاة والصيام والزكاة وبين طاعة ولي الأمر؛ لأن هذه المصالح الدينية العظيمة لا تتحقق للناس إلا باجتماع وأمن وسلامة وزوال للمخاوف والاعتداءات والظلم، وهذه كلها لابد فيها من جماعة، والجماعة لابد فيها من إمام، ولهذا إذا لم يكن الناس في جماعةٍ أمرهم منتظم ولهم إمام قد لا يتمكنون من أداء الصلوات في المساجد، وقد لا يتمكنون من الاجتماع فيها لطلب العلم، وقد.. وقد.. أمور كثيرة، والله ﷻ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، يعني بعض الناس لا يردعه عن ممارسات خاطئة واعتداءات آثمة إلا خوفه من السلطان، مجرد وعظه أو نهيه أو تذكيره لا يكفيه، فالسلطان يتحقق بوجوده مكاسب كبيرة وعظيمة لأمة الإسلام، وهذه المصالح لا تتحقق إلا بالقيام بهذا الأمر وهو السمع والطاعة.

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصَّحيحة» (٨٦٧).

بل إنه ﷺ أكد في بعض أحاديثه على السمع والطاعة حتى وإن كان السلطان أو ولي الأمر ظالما أو جائرا أو غير عدل، وهذا السمع والطاعة على خلاف ما يفهمه بعض الناس أنه يرجع إلى شخص السلطان، هو يرجع إلى مكانة السلطان ومنزلته، هو ولي أمر المسلمين، وهذه مكانة عظيمة، فالسمع والطاعة لمكانته ومنزلته وهي ولاية أمر المسلمين؛ فيُسمع له ويطاع حتى تنتظم الأمور وتصلح وتستقيم، هذا إذا كانت حاله -كما أشرت- الظلم والجور والفسق والاعتداء يُسمع له ويطاع من أجل مكانته ومنزلته التي بها تنتظم الأمور، وإلا تصبح أمور الناس فوضى؛ تراق الدماء وتنتهك الأعراض وتُستلب الأموال وتتفرق الكلمة وتعم الفوضى وينتشر الفساد إلى غير ذلك من المفاسد التي تترتب على ذلك.

بل لو فُرض أن السلطان من جوره وظلمه اعتدى على مال الشخص وأخذه ظلماً قال ﷺ مؤكداً على هذا الأمر العظيم: «وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»(١)؛ وهذا فيه تنبيه من النبي ﷺ إلى أن بعض الناس مقابل أخذ حقه أو عدم إيصال حقه إليه ينزع اليد من الطاعة لحظ نفسه، وقد يكون فيه هو نفسه فيه خلل، فيكون المقياس في باب السمع والطاعة عنده النظر إلى حظ نفسه: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨]؛ إذا أعطي من المال رضي وبارك السلطان وأثنى عليه، وإن لم يُعطَ أو أخِذ منه شيء

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

من حقوقه نزع اليد من الطاعة، فأصبح نزع اليد من الطاعة ليس مرتبطًا بقضية نصرة الدين وإنما مرتبطة بمطامع، ولهذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله جاءه مرة حال ولايته نفر من الخوارج بزعمهم أنهم يعارضونه في مال المسلمين ومصارفه، فأخذوا يتكلمون عن المال وكان كلما أوردوا عليه شيئا أجابهم بالآية والحديث والحجة والبرهان حتى لم يبقَ عندهم شيء وسكتوا، فلما انتهوا قالوا: نحن جئنا من بلد كذا وكذا والمسافة بعيدة وليس عندنا مال ونريد أن تحملنا على البريد حتى نذهب، قال عجبًا أنتم تكلمونني الآن في المال ولا حق لكم في مال البريد أن تُحملوا عليه، معنى كلامه: كيف تجادلون في المال وأنتم تطالبون في أمر يتعلق بالمال لا حق لكم فيه، ثم أعطاهم شيء من أموال الصدقة ونحو ذلك ليركبوا بها إلى بلادهم ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التوبة:٦٠].

فبعض الناس في هذا الباب يستنكف من السمع والطاعة لحظ نفسه؛ فتجده مثلا يخوض في أعراض الولاة ويطعن فيهم وفي عدالتهم مثلا لأنه لم يجد عملاً أو لم يُعطَ مالاً أو لكونه فقيراً ونحو ذلك من المعاني، فالنبي ﷺ نبَّه على هذا الأمر قال: (وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ) هذه الكلمة لو قيلت لأحد الناس «اسمع وأطع ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك» قال لا والله، وربما أتبعها بسب وشتم، هذا أنفة من قبول الحق، هذا دين؛ الذي قال: «وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»، هو نفسه الذي قال: «اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ

رَبِّكُمْ»[(١)]، فبعض الناس يتقبل الصلاة ويتقبل الزكاة ولا يأنف، وإذا جاء إلى باب السمع والطاعة يستوحش. كُتُب أهل العلم أيضًا وكثيراً ما أضرب المثال بكتاب الإمارة في «صحيح مسلم»، مضمومًا إلى كتب الصلاة، الزكاة، الحج الإمارة، فبعض الناس يقرأ كتاب الصلاة وكتاب الحج ولا يستوحش وأما كتاب الإمارة يستوحش منه!! لأنه مليء بالأحاديث: (اسمع وأطع، اسمع وأطع) ونفسه فيها هوى منعه من قبول ذلك فلا يسمع ولا يطيع، ولهذا جاءت التأكيدات عنه ﷺ في قضية السمع والطاعة لمن ولي أمر المسلمين مراعاةً لمكانة ومنزلة من ولي الأمر، وحفظًا لجماعة المسلمين واجتماع كلمتهم واتحاد صفهم وبقاء هيبتهم في نفوس الأعداء.

وهنا ينبغي أن يلاحظ أن العدو لا يريد للمسلمين اجتماع الكلمة، ولهذا ربما غرس فيهم من بني جلدتهم وممن يتكلمون بألسنتهم من يفُتُّ في الاجتماع ويخلخل الاجتماع فيتكلم من الداخل، لأنه لو تكلم العدو الخارجي لما قُبِل منه، فربما زرع فيهم من داخلهم من يتكلم بألسنتهم وهو من جلدتهم من يفُتُّ في هذا الاجتماع ويخلخل هذا الاجتماع من داخله من أجل انهيار الكيان الإسلامي والكلمة الإسلامية واجتماع المسلمين.

وهذا من كيد الأعداء ومكرهم بأهل الإسلام؛ فلهذا ينبغي أن يلاحظ المسلم هذا الأمر العظيم وأن يكون محل اهتمامه وعنايته عملاً بوصية النبي

---

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٦٧).

ﷺ، وانظر في قيمة هذه الوصية حيث ضمها إلى تقوى الله قال: **(أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ﷻ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ)** أي: أوصيكم بالتقوى وأوصيكم بالسمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم.

ونبّه هنا ﷺ بل حذّر من الاستنكاف والاستكبار، ولاحظ تنبيهه وتحذيره من الاستنكاف والاستكبار بقوله: **(وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد)** لأن النفس قد يدخلها استكبار، بعضهم يقول: (ومَن يكون!! لا أسمع ولا كرامة) يستكبر ولا ينظر إلى مصلحة الأمة واجتماع المسلمين وإنما ينظر إلى أنفةٍ جاهلية كانت معهودة في أهل الجاهلية، بل من أعظم خصال الجاهلية وأبرزها ثلاث خصال: الشرك، والفرقة فليسوا جماعة، وعدم السمع؛ الأنفة من السمع والطاعة لمن ولي الأمر، ولهذا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لما ألّف كتاب «مسائل الجاهلية»[1] بدأها بهذه الأمور الثلاثة، وقال ﷺ: «ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ» وذكر هذه الأمور الثلاثة، يعني لا يجد فيها غل؛ قلبه نظيف تجاهها: (ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلاَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[2]، قلب المسلم

(١) وقد صدر «شرح مسائل الجاهلية» لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في مجلد لطيف ولله الحمد.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني (صحيح لغيره) في «صحيح التَّرغيب» (٤).

=

نظيف تجاه هذه الأمور الثلاثة.

قال: (وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد) بل أيضا زاد في الأوصاف في بعض الأحاديث قال: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»(١)؛ عبد، وحبشي، ورأسه كأنه زبيبة، وأيضا اسمع وأطع؛ هذا كله تنبيه وتحذير من قضية الأنفة والكبر التي قد توجد في قلوب بعض الناس لأي مبرر كان، فكأنه ﷺ يقول لا تأنف ولا تستكبر من السمع والطاعة مهما كان الأمر.

هل قوله ﷺ: (وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد) تحديد أو ضرب مثال؟ ضرب مثال(٢)؛ يعني اسمع وأطع هذه مصلحة للأمة، مصلحة للمسلمين، اجتماع لكلمة المسلمين، «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ» وبإجماع أهل العلم أن العبد ليس أهلاً للولاية، لكن إن تأمّر وغَلَب(٣) وأصبحت له ولاية بالغلبة واستتب له الأمر وأصبحت الولاية بيده قال: «اسمع وَأطع وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد حبشي».

---

ولشيخنا العلَّامة عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر حَفِظَهُ اللهُ بحث قيِّم حول هذا الحديث بعنوان: «دراسة حديث نضَّر الله امرءا سمع مقالتي..رواية ودراية» وهو ضمن «كتب ورسائل عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر» (٣/ ٢٩٧).

(١) رواه البخاري (٦٩٣).

(٢) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: «وقد قيل: إن هَذَا بَاب ضرب المثل لطاعة الأمراء عَلَى كل حال» «فتح الباري» (٤/ ١٧٦).

(٣) قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «وأما لو تغلب عبد حقيقة بطريق الشوكة فإن طاعته تجب إخمادا للفتنة ما لم يأمر بمعصية» «فتح الباري» (١٣/ ١٢٢).

﴿ بعض أهل العلم قالوا: أن قوله (**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**) هذا مبالغة أريد بها التأكيد على قضية السمع والطاعة في كل الأحوال.

﴿ ومن أهل العلم من قال: بل حتى ولو حصل هذا الأمر له بالغلبة، وقد يفيد في هذا المعنى قوله: (**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ**)؛ يعني إن حصلت له ولاية عليكم بالغلبة، تغلّب عليكم وأصبح له غلبة وأصبح له ولاية واستقر له الأمر، قال: (**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عبد**).

الشاهد أن هذا فيه تأكيد عظيم جداً على قضية السمع والطاعة والتحذير من نزع اليد من الطاعة والخروج على الولاة الذي لا يترتب عليه إلا الشرور وإراقة الدماء.

(اجتمع فقهاء بغداد إلى أبي عبد الله في ولاية الواثق وشاوروه في ترك الرضا بإمرته وسلطانه فقال: لهم عليكم بالنكرة في قلوبكم، ولا تخلعوا يدا من طاعة ولا تشقوا عصا المسلمين ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين وذكر الحديث عن النبي ﷺ: «إن ضربك فاصبر» أمر بالصبر)[(١)].

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: «منهاج السنة النبوية» استقرأ قصص من كان منهم خروج على الولاة من أجل إنكار المنكر وخرج من ذلك بخلاصة قال: «فما أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا»[(٢)]؛ يعني هؤلاء الذين خرجوا خلاصة أمرهم أنهم ما أقاموا دينا الذي زعموا أنهم سيقيمونه، ولا بقيت دنيا الناس لأن الدماء

---

(١) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٤٣).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٣١٤).

أريقت والأموال انتهبت والأعراض انتهكت والفوضى عمّت إلى غير ذلك، وهذا كله يأتي بسبب تضييع السنة والأنفة من فعل ما أوصى به النبي ﷺ.

فعهد إليهم ﷺ هنا بالسمع والطاعة قال: (**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ**) وفي رواية: «حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ» كما سبق.

ثم قال: (**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)؛ لاحظ بعد أمره بالتقوى والسمع والطاعة لولي الأمر أشار إلى أنه سيوجد فيما بعد اختلاف كثير؛ وهذا علَم من أعلام نبوته ﷺ، يخبِر بأمورٍ تقع في المستقبل يخبره الله ﷻ بها وينبؤه بها وتقع طبقًا لما أخبر ﷺ، فقال للصحابة الذين حوله: (**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)؛ من يعش منكم: أي من يطول عمره من الصحابة ويمتد به العمر فسيرى اختلافا، أما من يموت قريبًا فلا يرى ذلك، ولهذا في آخر عهد الصحابة بدأت بذور البدع وأصول البدع الكبار وأنكروها واحدةً واحدة، فوُجدت بدعة القدر ووُجد أيضا البدع التي تتعلق بالإيمان والتكفير، وجدت أيضًا بدع السبابة الذين يطعنون في الصحابة ﷺ، وأصول البدع وجدت وأنكرها الصحابة رضي الله عنهم، وكل من كان من الصحابة قد أدرك تلك البدع أعلن إنكاره لها وبراءته منها، لما نُقل -كما في «صحيح مسلم»- لابن عمر رضي الله عنه بدعة القدرية قال: «فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، ولَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»(١) ثم ساق الحديث الطويل حديث

---

(١) رواه مسلم (٨).

جبريل عليه السلام، فالصحابة رضي الله عنهم من تأخر أو طال به العمر أدرك بدايات البدع وبدايات خروجها وأنكروا ذلك. وهنا ﷺ أشار إلى هذا قال: (**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**).

ثم إن تساؤلاً يأتي هنا في قلب الناصح المحب للخير الطالب للفوز والنجاة، إذا سمع (**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**) سيرِد في ذهنه السؤال التالي: ما هو الحل؟ وما هو المخرج؟ وكيف النجاة؟ هذا كما يقولون: سؤال يطرح نفسه، وقد أجاب ﷺ عن هذا السؤال دون أن يُسأل؛ فذكر الاختلاف وذكر المخرج فقال ﷺ: (**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)، وفي بعض الروايات: «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

المخرج عند وجود الاختلاف الكثير يتلخص في أمرين لا نجاة إلا بهما ولا سلامة إلا بتحقيقهما:

- **الأمر الأول**: لزوم سنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؛ قال (**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**)، والخلفاء الراشدون المهديون من بعده المعنيون بهذا الحديث هم أربع ليس

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧١٤٤)، أبو داود (٤٦٠٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

لهم خامس، وقد قال ﷺ: «خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً»(١) وهي مدة خلافة هؤلاء الأربعة الكرام: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنه وهم خير الصحابة رضي الله عنهم.

فأوصى هنا بلزوم سنتهم، وسنتهم ليست أمراً جديداً خلاف ما كان عليه ﷺ؛ بل هو توطيد وتثبيت لسنة النبي ﷺ، فليس منهم من يأتي بشيء من قِبل نفسه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قال: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» - وهي كلمة كم تعلق بها من يُحدِثون في الدين - هي من هذا الباب توطيد السنة وتثبيتها، لأنه لما جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح وأعجبه هذا الاجتماع قال: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ»، هل هذا إحداثٌ في الدين أو تثبيت وتوطيد لسنة النبي الكريم ﷺ؟ ثبت أنه ﷺ صلى بالناس التراويح واجتمعوا خلفه جماعةً في المسجد وتوقف عن ذلك ولما سألوه قال: (خَشِيتُ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ)؛ هذا هو الذي منعه، إذاً هي سنة ثابتة وتوقف عنها ﷺ خشية أن تُفرض رحمةً بأمته، وهل هذه الخشية - خشية أن تفترض عليكم - موجودة في زمن عمر رضي الله عنه؟ انتفت؛ فجمع الناس، إذاً هذا توطيد للسنة. وقوله: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» هذه بدعة لغوية ليست بدعة شرعية؛ لم يُحدِث في الدين ما ليس منه، لم يخالف قول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، ثم يأتي أقوام بأمور لا أصل لها في الدين ويقولون هذه بدعة حسنة!! قد مر معنا قريبًا قول ابن عمر

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٦٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

رضي الله عنهما: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة»(١)، يعني لا يشفع لهم ذلك.

ثم لاحظ في الحديث وصف النبي ﷺ لهؤلاء الخلفاء بوصفين؛ قال: (**الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**) وصفهم بهاتين الصفتين: الرشاد والهداية؛ وهما وصفان وصف بهما رب العالمين نبيه ﷺ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم:٢]، فنفي الضلال يقتضي ثبوت ضده وهو الهداية، ونفي الغواية يقتضي ثبوت ضدها وهو الرشاد، والضلال: فساد العمل، والغواية: فساد العلم، وإثبات الرشاد والهداية يعني صلاح العلم والعمل.

فهنا قال عليه الصلاة والسلام: (**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**) خص هاتين الصفتين بالذكر منبهًا بذلك إلى صلاح علم الخلفاء وصلاح عمل الخلفاء، فهم في باب العلم والعمل قدوة؛ علمهم صالح وعملهم صالح، فهم في العلم أهل علم نافع، وفي العمل أهل العمل الصالح، فأمَر بلزوم سنتهم والتمسك بها.

وقوله: (**الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**) هذا فيه تنبيه إلى ما أشرت إليه وهو: أن صاحبها وصفه بالراشد والمهدي، سنته تثبيت وتوطيد ليس عنده شيء من قِبل نفسه، فالراشد المهدي: هو من صلُح علمه وعمله بالسنة والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فسنتهم من سنته وهديهم من هديه وطريقتهم من طريقته عليه الصلاة والسلام، وهم أبعد الناس عن البدع والأهواء وعن الوقوع فيها، فأكد عليه الصلاة والسلام على لزوم سنتهم.

---

(١) رواه ابن نصر المرزوي في «السنة» (ص٢٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١٢٦).

قال: (**وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**)

قال بعض العلماء: إن مثل الإنسان في الفتن والبدع مثل شخص سقط في بحر لجي متلاطم الأمواج ووجد في هذه الأمواج الجارفة حبلا، ومن شدة حرصه على الخلاص فإنه لا يكتفي بمسك الحبل بيده، بل ربما يمسكه بيديه فترتخي وتنفلت منه، فتجده من شدة حرصه يعض عليه بنواجذه، يُدخل الحبل في ناجذه في أضراسه ويعض عليه بقوة إضافةً إلى إمساكه بيديه، وليته أيضا يسلم، يخشى من الغرق.

فهذا يوضح لنا ضرورة وحاجة الإنسان الشديدة في خضم الفتن والبدع والأهواء إلى الاعتصام بالسنة والتمسك بها والتعويل عليها وأن تكون هي قائد الإنسان وهي أميره يؤمّرها على نفسه.

(**عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**)؛ وإذا كان ﷺ أوصى في هذا الحديث بسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ولم يتهيأ للإنسان لقيا هؤلاء الخلفاء، ولم يعطِ نفسه أيضا وقتًا لمعرفة سيَر هؤلاء الخلفاء فكيف يعَضّ بالنواجذ؟ وإذا كان جُلّ اهتمام الإنسان في قراءاته اليومية فيما يسمى بالثقافة العامة ولا يقرأ سيَر هؤلاء وأخبارهم فكيف يعض بالنواجذ؟ وفاقد الشيء لا يعطيه.

فهذا فيه تنبيه على أهمية معرفة سيَر هؤلاء الأجلاء النبلاء الأفاضل وتكرار مدارسة أخبارهم وأخبار غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، فإنه بمثل هذه القراءة ومثل

هذه المعرفة لسيَر وأخبار هؤلاء يتيسر للإنسان العض عليها بالنواجذ، وإلا كيف يتسنى لشخص أن يعض بناجذيه على سنة الخلفاء الراشدين وهو ما عنده منها خبر! وليس لديه بها معرفة! ولا قرأ عنهم يومًا حرفًا!! بل يوجد في بعض المسلمين من قيل له من هم الخلفاء الراشدون الأربع؟ قال: ما أدري! وربما غلط في أسمائهم، مثل أن يقول بعضهم: عمر بن عفان، أو يقول الآخر عثمان بن الخطاب يحصل هذا، يعني حتى أسماءهم ما يعرفها، وربما لو سُئل عن بعض التافهين من البشر وحثالات الناس لكان عنده معرفة تفصيلية بأسمائهم وتفاصيل حياتهم، فكيف يتسنى للإنسان الاستنان بسنة الخلفاء الراشدين وهو ما عنده منهم خبر ولا قرأ لهم سيرة ولا وقف لهم على أثر!! فهذا فيه تنبيه على أهمية النظر في سير هؤلاء وأخبارهم وهديهم وسلوكهم ومنهجهم وطريقتهم ومجاهدة النفس على الاقتداء بهم، هذا معنى قوله: (**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**) هذا الذي به النجاة (**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**)، هذا الأمر الأول.

- **الأمر الثاني**: (**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**): والحديث كما سبق دل على أن المخرج من الاختلاف الكثير بأمرين: الأول لزوم السنة، والثاني: مجانبة البدعة؛ وذلك في قوله: (**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)؛ «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ» إياكم والأمور المحدثة التي أحدثها الناس، أوجدوها من باب التدين والتقرب إلى الله ﷻ، أو أوجدوها من باب النصرة

للدين، أو أوجدوها من باب ذكر الله والتقرب إلى الله.

**(إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)**؛ والمراد بالأمو: أي الأمور التي أحدثت في دين الله مما ليس عليه أمر رسول الله ﷺ كما يوضح ذلك قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١).

وقوله: **(إِيَّاكُمْ)** هذا تحذير، كما أن قوله السابق: **(عَلَيْكُمْ)** هذا ترغيب، فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الباب بين الترغيب والترهيب، رغّب في السنن وحذّر من البدع؛ قال في السنن «عليكم بها» أي: الزموها، وقال في البدع: «إياكم وإياها» أي: احذروها.

**(إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)** أي: إياكم وكل أمرٍ أُحدِث في دين الله لا أصل له ولا دليل عليه في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فكل ما كان من هذا القبيل احذروه، تريدون النجاة كونوا من كل أمر أحدِث في دين الله لا دليل عليه من كتاب الله ولا من سنة النبي ﷺ على حذ، حتى وإن أعجبك، حتى وإن رأيته حسنا، حتى وإن زُيِّن في عينك، حتى وإن مضيتَ عليه سنوات، حتى وإن مضيت عليه عمرك؛ دعه.

**(إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)**؛ وقوله: (فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ) هذه قاعدة وأصل كلي جامع لا يخرمه شيء ولا يستثنى منه شيء، والنبي ﷺ في مثل هذه الكليات الجوامع إذا كان فيها استثناء يستثني هو عليه الصلاة والسلام

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

نصحًا للعباد، وقد مر معنى قوله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، لما كان في هذا العموم استثناء استثنى عليه الصلاة والسلام، فهنا قوله: (كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ) لا يستثنى منه بدعة، حتى ما كان من البدع ما يراه الناس حسنًا جميلاً جيداً نافعـًا مفيداً إلى غير ذلك فهو ضلالة، ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله كلمته العظيمة التي أوردها الشاطبي رحمه الله في كتابه «الاعتصام» قال: «مَن ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمداً خان الرسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فما لَم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»[1]، فالبدع كلها ضلالات حتى وإن استحسنها الناس، حتى وإن قال صاحبها: (ما أردت إلا الخير)، وكم من بدعة فُعلت وأصحابها لم يريدوا بها إلا الخير، لكن هذا لا يكفي؛ لابد مع إرادة الخير من موافقة السنة ولزومها والتمسك بها، فمن أراد النجاة فليحذر من البدع.

◈◈◈◈◈

(١) «الاعتصام» (١/ ٢٨).

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

**وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلا تعبَّدوها؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالا، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم» رواه أبو داود[1].**

## الشرح

ثم أورد هذا الأثر عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه أنه قال: (**كل عبادةٍ لا يتعبدها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلا تعبّدوها**) يعني كل عبادة لم تكن موجودة عند الصحابة وبين الصحابة فلا تعبّدوها؛ لأنها ليست من دين الله، دين الله جل وعلا هو الدين الذي بلّغه النبي صلى الله عليه وسلم ومات وترك الصحابة عليه، ولعلك تلاحظ هذا المعنى في قوله: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا»، أما الدين فهو الدين الذي ترك النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة عليه، وكانت توجد بعض الأخطاء من بعض الأفراد فينبه عليه الصلاة والسلام على الخطأ في حينه ويُترك، فالدين هو الدين الذي كان عليه الصحابة.

وما نشأ بعدُ مما لم يكن عليه الصحابة فهذا ليس من دين الله، ولهذا سيأتي إنكار ابن مسعود رضي الله عنه البدع التي وجدها في بعض مساجد الكوفة؛ أنكر عليهم

---

(١) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١١٩)، و«البدع والنهي عنها» (١٠)، وأصله في «صحيح البخاري» (٧٢٨٢) بلفظ: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالاً، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا».

بأن هذا العمل ليس معهوداً بين الصحابة فقال لهم: «لقد جئتم ببدعة ظلما أو فُقْتُم أصحاب محمدٍ عِلْما» يعني بلغتم في العلم موصلاً ودرجة لم يبلغها الصحابة.

فالدين هو ما كان عليه الصحابة، ولهذا جاءت هذه الوصية من حذيفة ﵁ قال: (**كل عبادةٍ لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها**)؛ يعني كل عبادة لا يوجد عليها عمل الصحابة لا تعبّدوها، وهذا فيه إشارة إلى الطريقة، والآن بسبب كثرة المحدثات تسمع هنا وهناك: (أنا طريقتي كذا، وأنا طريقتي كذا، وأنا طريقتي كذا) من الطرق المحدثة، وتحت كل طريقة من تلك الطرق المحدثة -طرق المتصوفة- تحت كل طريقة ركام هائل من البدع وزخم كبير من الضلالات لا حد لها ولا عد، وكلٌّ مفتخر بطريقته، وكلٌّ منتسب إلى طريقته بما فيها من ذاك الركام الكبير من الضلالات والبدع، بدءً من الشرك وانتهاءً إلى أنواع كثيرة من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فالطريقة هي طريقة الصحابة ﵃.

**ما الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم؟**

قال ﵁: (**كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبدوها**)؛ أي: لتكون طريقتكم طريقتهم ومسلككم مسلكهم.

ولم يرضَ هذا أقوام، ولهذا بعضهم يقسِّم أمره؛ في الاعتقاد يعتقد عقيدة أحد مؤسسي البدع، وفي العمل يذهب مذهب بعض أهل الخرافة والضلال

وهو في بُعدٍ تام عن هدي الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم.

فهذه وصية عظيمة أوصى بها حذيفة بن اليمان ﷺ قال: (**كل عبادة لا يتعبّدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبّدوها**)؛ وهذه قاعدة عظيمة في هذا الباب، يعني كل عبادة لم يكن لها وجود في زمن الصحابة فلا تعبَّدوها، ولهذا وجدنا أهل العلم لما أنكروا بدعة المولد ماذا قالوا في الإنكار؟ طرحوا سؤالاً لم يجب عنه أصحاب المولد، قالوا لهم هل أنتم أحرص على الدين وأحرص على النبي ﷺ وأبلغ في حبه من الصحابة؟ هل أنتم أفضل في محبة النبي ﷺ من أبي بكر ومن عمر ومن عثمان ومن علي ﷺ؟ هل درجة المحبة التي عندكم أبلغ من درجة هؤلاء وأكبر؟ الجواب: لا؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة مع شدة حرصهم وعظيم حبهم للنبي ﷺ ما منهم واحدٌ احتفل، لم يحتفلوا لا بمولد ولا برجبية ولا شعبانية ولا ولا.. إلى غير ذلك، هذه وجدت من بعد في القرن الثالث: (**فكل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**).

فإذا جاءك شخص وقال: (هذا من باب كذا ومن باب كذا وهذا أمر حسن وهذا أمر عظيم)، قل له: قال ابن عمر ﷺ: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة»(١)، والهدي القويم والصراط المستقيم هو ما كان عليه الصحابة، يقول

---

(١) رواه ابن نصر المرزوي في «السنة» (ص٢٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١٢٦).

من يحيون المولد: (نظهِر حب نبينا ﷺ)، هل ندَّ هذا الإظهار عن أبي بكر وعمر وهم أحرص منك وغاب عنهم!! هل هو خيرٌ حجبه الله ﷻ عن الصحابة وادَّخره لك!! لو كان خيرًا لسبقوا إليه، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ممتدحًا ومثنيًا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، هؤلاء أهل الثناء؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، أما الذين أحدثوا هؤلاء شأنهم آخر ليسوا من أهل هذا الثناء، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ وهذا يؤكد لنا وصية حذيفة هذه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يعني اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، أما شخص لا يقنع بطريقتهم ولا يرضى سلوكهم ويخترع وينشئ ويُحدث ويعمل أعمالا ليست من هديهم ولا من طريقتهم فهذا خاسر، والربح إنما يكون باتباعهم بإحسان، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ هذا معنى قول حذيفة رضي الله عنه: «**فكل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**».

(**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)؛ وهذا حق، هل تُرك لنا شيء من الحق والهدى لم يبيَّن في الصدر الأول؟! ولم يتبين في الزمن الأول! لم يدع لقائل مقالا؛ ولهذا كل مقال لا يكون قائما على الكتاب والسنة ليس منطلقًا من الكتاب والسنة ليس مؤسسًا على الكتاب والسنة فهو ضلال، ولا مانع أن يتحدث العالِم على ضوء الكتاب والسنة موضحا ومبينا؛ موضحا المعاني، مبينا الدلالات، رابطًا بين النصوص، متكلمًا في هذا الباب بعلم وفهم وأصل ودرايةٍ

من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فلا مانع من ذلك، أما أن يُترك الكتاب والسنة ثم يتكلم الإنسان في باب العبادات من خلال الذوق، أو يتكلم في باب العبادات من خلال التصور، أو من خلال الفكر، أو من خلال الرأي، أو من خلال النظريات العقلية أو من خلال التجارب أو إلخ.. هذا كله ضلال، والعياذ بالله.

(**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)؛ وكل مقال لم يؤسَّس على ما كان عليه الأول ولم يُبنَ على ما كان عليه الرعيل الأول فهو ضلال؛ هذا معنى قوله: (**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**).

(**فاتقوا الله يا معشر القراء**)؛ و«القراء» عندما تطلق في هذا الزمان لا يراد بها حفظة حروف القرآن ومن يجوِّدونه ويحسنون مخارجه؛ المراد بالقرَّاء: العلماء الذين جمعوا في قراءة القرآن بين العلم والعمل، لأن الجادة التي كان عليها الصحابة في تعلم القرآن: الجمع بين العلم والفهم والعمل، بعضهم يمكث في ﴿سورة البقرة﴾ سبع سنوات، والآن في زماننا تُعقد منافسات ويحفظ القرآن في ستة شهور!! ما الذي يحفظ في ستة شهور؟ حروف القرآن، عبد الله بن عمر رضي الله عنه «مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا»(١)، حفظ وفهم وتدبر وعمل، فالقراء المراد بهم: من اعتنوا بالقرآن علما وعملا.

وقد ذم النبي ﷺ من كان حظه من القرآن مجرد القراءة دون عناية بفهم القرآن ودون عناية بالعمل بالقرآن، بل ذكر ﷺ من حال الخوارج أنهم يقرؤون

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٦٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٦).

القرآن قراءةً يحقر الصحابة قراءتهم مع قراءتهم، ويصلّون صلاةً يحقر الصحابة صلاتهم مع صلاتهم، ووصفهم مع ذلك كله بقوله: «يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»، يعني ما يتعدى حظه من القرآن الحنجرة؛ يعني صوت جميل رائع، مخارج جميلة، قراءة حسنة عظيمة لكن ما يجاوز هذا الحد، حظه من القرآن الصوت الذي يخرج من الحنجرة هذا معنى قوله: «لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»، يعني لا يتجاوز حظه من القرآن الصوت الذي يخرج من الحنجرة، فإذا قرأ قيل ما أجمل صوته! ما أحسن صوته! أما فهم القرآن والعمل به والعناية به فهذا شأنه أمر آخر.

فقال: (**اتقوا الله يا معشر القراء**)؛ والقراء يخصون بالوصية بالتقوى لأنهم أصبحوا بذلك موضع قدوة للناس، فإذا كان من قرأ القرآن وحفِظه مضيعًا مقصراً متهاونًا مفرطًا فكيف بمن سواه!! وإذا كانت قراءة القرآن مجرد منافسة في باب حفظ القرآن فقط دون عمل فهذا فيه خطر على الناس، قد جاء عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ذكر جماعة من القراء في زمانه قال: «حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، ما ترى القرآن له من خلق ولا عمل»[1]، يعني أنني قرأته من أوله إلى آخره بدون لحن بدون أي خطأ؛ لا في المخارج ولا في المدود ولا الخ، «وقد أسقطه والله كله، لا يُرى عليه القرآن لا في خُلقٍ ولا في عمل» يعني إن نظرت إلى أخلاقه لا تجد فيه

(١) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٣٩).

الأخلاق الموجودة في القرآن، وإذا نظرت إلى أعماله لا ترى فيه الأعمال التي يدعو إليها القرآن، ثم قال ﵀: « والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء»؛ هذا في زمن الحسن البصري ﵀ زمن التابعين!!.

فالقراء هم أهل العلم بالقرآن والعمل بالقرآن ومجاهدة النفس على القيام بما جاء في القرآن.

والآن تجد في زماننا من يشتهر بقراءة القرآن وبصوته الجميل ثم إذا رأيت أعماله تُصدم والله المستعان، يعني تجد المعاصي المعروفة والمتقررة والواضحة في الكتاب والسنة ما يبالي بها؛ وتجد فيهم من هو حليق لحيته، وتجد فيهم من هو مدخن وتجد فيهم من هو مسبل ثيابه، وتجد فيهم من هو أعظم من ذلك متهاون في صلاته ينام عن صلاة الفجر وينام الخ، بل وجد في فترة الماضية أحد مشاهير القراء افتتح أغنية لإحدى المغنيات الكبار بآيات قرأها بين يدي الأغنية!! يا سبحان الله أي حال هذه وأي أمر هذا!! وعبارة الحسن ﵀ التي قالها في زمانه خفيفة في مثل هؤلاء، وبعضهم أخذ أيضا يطوِّع القرآن وصوته بالقرآن إلى إيقاعات معيّنة تُعرف عند أهل الموسيقى وذهب بالقرآن مذهباً آخر؛ وهذا كله عبث، وكله من عدم معرفة قدر القرآن ومكانة القرآن –تنزَّهَ كلام الله ﷻ–، وقد قيل: «فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»؛ فهذا كلام رب العالمين ﷻ.

فأوصى حذيفة رضي الله عنه هذه الوصية العظيمة قال: **(فاتقوا الله يا معشر القراء)**؛ خصهم بالوصية مع أن التقوى يوصى بها الجميع لأن القراء في موضع القدوة، فلما ينظر الناس إلى أحد المشاهير الذين عُرفوا بالصوت الجميل وتأثر بصوته وقراءته ثم لما رأى عمله ماذا سيقول من رآه؟ يقول إذا كان هذا بهذه الصفة فأنا من باب أوْلى، فكم يكون على أيديهم من خطر على أعمال الناس وعلى سلوكهم، والقرآن كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله بقوله: «إنما أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملا»[١]، وإذا أردت أن تعرف معنى قوله: «أنزل ليُعمل به» اقرأ حديث عائشة رضي الله عنها لما سُئلت عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ الْقُرْآنَ»[٢].

قال: **(اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم)**؛ يعني يا معشر القراء إذا أردتم النهج السديد والمسلك القويم فخذوا طريق من كان قبلكم، يعني انظروا في طريقة الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا من الحسنات الطيبة والجميلة أن مدارس القرآن ومدارس التحفيظ تسمى بأسماء مشاهير القراء من الصحابة، هذه دعوة للطلاب أن ينظروا إلى هؤلاء القدوات من الصحابة الأعلام قراء

---

(١) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (٣٤).

قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «أي: أصبح حظ كثير من الناس مجرد قراءة حروف القرآن، لا الفهم له، ولا العمل به»«التبيان شرح أخلاق حملة القرآن» (ص١٢٩).

(٢) رواه مسلم (٧٤٦).

القرآن حفظة كتاب الله الذين جمعوا بين العلم والعمل، وهذا فيه تنبيه من حذيفة إلى أن من أكرمه الله ﷻ بالقرآن وقراءته والجلوس لحفظه عليه أن يأخذ بطريقة الصحابة وينظر في هدي الصحابة ونهج الصحابة مع كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

## المتن

قال المؤلف رحمه الله:

وقال الدارمي: أَخْبَرَنَا الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ، أَنْبَأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لاَ، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفًا أَمْراً أَنْكَرْتُهُ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً، قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ، قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً. قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ. قَالَ: أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء. ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟

قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ، هَؤُلاَءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ. قَالُوا: وَاللهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلاَّ الْخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَمْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَأَيْمُ اللهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ. ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ رضي الله عنه: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ[1].

والله المستعان وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

## الشرح

قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في خاتمة كتابه هذا العظيم «فضل الإسلام» تحت باب التحذير من البدع: **(قال الدارمي)** أي: الإمام المعروف صاحب كتاب «السنن»، وهذا الأثر ساقه الإمام الدارمي رحمه الله في سننه بسند ثابت عن رسول الله ﷺ، وفيه قول النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج: «إِنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»؛ وهو حديث متواتر عن النبي عليه الصلاة والسلام رواه عنه جمعٌ من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» (٢١٠)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٠٥).

والمصنف ﵀ سبق أن ساق هذا الحديث بلفظٍ آخر في موضعٍ من كتابه «فضل الإسلام»، لكنه أعاد هذا الحديث هنا لقصة ابن مسعود ﵁ مع أصحاب تلك الحِلَق المحدثة في دين الله ﷻ؛ لينبه المصنف ﵀ بذلك إلى خطورة البدع حتى وإن صغُرت البدعة في عين الإنسان، فالبدعة أيـًا كانت خطيرة، والبدعة الصغيرة تولِّد البدع الكبار؛ كما حصل لأصحاب هذه الحِلق الذين لما رآهم ابن مسعود ﵁ على تلك الحال أورد حديث النبي ﷺ في ذم الخوارج والتحذير منهم ثم قال: «وَأَيْمُ اللهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنكُمْ»؛ مشيراً بذلك ﵁ إلى خطورة أن يفتح الإنسان على نفسه باب الحدث في دين الله واتباع الهوى ولو كان في أمرٍ صغير في عينه، لأنه إذا فُتح الباب دخل الإنسان، والبدعة أول ما تبدأ تكون شبراً، ثم تكون ذراعـًا، ثم تمتد إلى ما شاء الله، فلا يفتح المرء العاقل لنفسه البدايات؛ لأنه إذا فتح لنفسه بدايات البدع جرّته إلى بدع أخرى، فالبدعة تولِّد البدعة، كما أن السنة تنادي أختها، إذا عمل المرء بالسنة وحافظ عليها نادت السنة السنن الأخرى وأصبح يرغب في السنن، بينما إذا فتح على نفسه باب الهوى وباب البدعة فالبدعة تجُرّ إلى البدعة وتدفع صاحبها إلى بدع أخرى، والبدع الصغار تولِّد بدعـًا كباراً وينفتح على الإنسان الباب ويصبح رجوعه إلى السنة من الأمور الصعبة، وهذا معنى الحديث المتقدم: (إن الله احتجر التوبة عن صاحب البدعة حتى يدع بدعته)[1]، ولهذا كانت البدعة أحب

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٥٦)، والضياء في «المختارة» (٢٠٥٤)، وابن أبي عاصم =

إلى الشيطان من المعصية؛ لأن البدعة صغُرت أو كبُرت يفعلها من يفعلها تديّنًا وتقربًا واعتقاداً لصحتها.

فالشاهد؛ المصنف رحمه الله أعاد حديث ذم الخوارج هنا مع أنه سبق أن أورده من أجل هذه القصة العظيمة قصة ابن مسعود رضي الله عنه مع أصحاب تلك الحِلَق الذين اجتمعوا في المسجد واجتمعوا لأجل ذكر الله، والذكر الذي كانوا يذكرون الله به هو الكلمات التي يحبها الله؛ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وهذا أحب الكلام إلى الله، ولكن كانت الصفة ليست صفةً معهودة ولا معروفة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام بل صفة محدثة؛ أن يجتمع جماعة ويتحلّقون ويقوم عليهم رجل ويضعون بين أيديهم حصى ثم يقول: (سبِّحوا مئة) فيبدأ الجميع جماعةً يعدّون الحصى مئة تسبيحة، فإذا انتهوا قال: (هللوا مئة) وهكذا، فهؤلاء الذي جمَعهم هو ذكر الله؛ أرادوا ذكر الله سبحانه وتعالى، أرادوا خيراً، لكن النهج الذي سلكوه في إرادة الخير ليس نهجًا مشروعًا وليست جادةً مسلوكة في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

ساق المصنف رحمه الله هنا ما رواه الدارمي عن عمرو بن يحيى قال: (**سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ**)؛ قبل صلاة الغداة: يعني قبل صلاة الفجر، يجلسون عند باب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ العالم الفقيه الإمام من علماء الصحابة وفقهائهم، فكانوا يجلسون

---

في «السنة» (٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٩٩).

عند بابه أي: ينتظرون خروجه إلى المسجد، والقصد من هذا الجلوس: الاستفادة من الوقت الذي يكون بين المسجد والبيت في سؤاله والتفقه عليه وأخذ العلم عنه، وهذا يدل على أمرين في حق هؤلاء:

❖ **الأمر الأول**: الحرص الشديد على العلم وتحصيله والمكابدة والصبر على ذلك، وهذا واضح جداً؛ يأتون قبل صلاة الفجر ويجلسون عند بابه ينتظرون أن يخرج لصلاة الفجر فيمشون معه إذا خرج فيستفيدون علماً، أو يستفسرون عن حكمٍ، أو يستفتون في أمرٍ، أو نحو ذلك، فهذا أمر واضح في جلوس هؤلاء الصحابة وهؤلاء الأفاضل عند بيته.

❖ **الأمر الثاني**: وهو مستفاد من جلوسهم؛ أدبهم في العلم وتحصيله، وأدبهم في صحبة العلماء، وهذا أمر واضح، يعني ينتظر خروجه، ويبكر إلى مجلس العلم أو إلى مكان العالم، ويصحب العالم بأدب، ويسأله بأدب، ويستفيد من علمه؛ فهذه صفات كانوا عليها.

وكلما عظُم أدب الإنسان في طلب العلم وتحصيله وأدبه مع أهله وحملته عظُم نصيبه وحظه منه، وإذا فقد طالب العلم الأدب مع كتاب العلم ومع حملة العلم ضعُف حظه من العلم ونصيبه منه، فهذا فيه جِدّ الصحابة في الطلب وأدبهم فيه، فيهم من هو من الصحابة وفيهم كذلك من هو من التابعين.

قال: (**كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **قَبْلَ صَلاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ**)؛ وهذا يشير إلى أن هذه عادة لهم متكررة

للاستفادة من ابن مسعود ﵁، ومن كان عرض له استفتاء أو أمر معيّن أيضًا يتحرى هذا الوقت مثل ما حصل من أبي موسى الأشعري ﵁.

قال: (**فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ** ﵁ **فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لاَ**) وأبو موسى الأشعري في ذاك الوقت كان أمير الكوفة، ورأى أمراً منكراً فجاء إلى أحد كبار فقهاء الصحابة وعلماء الصحابة ليعرض عليه هذا الأمر المنكر الذي رآه ينتظر رأيه، فجاء إلى هؤلاء وهم جلوس عند بيت ابن مسعود ﵁ وعن الصحابة أجمين ينتظرون خروجه فقال: أخرج إليكم بعد؟ قالوا لا؛ فجلس معهم ينتظر خروج ابن مسعود ﵁.

(**فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ آنِفًا فِي الْمَسْجِدِ أَمْراً أَنْكَرْتُهُ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**)؛ ولنتأمل عرض أبي موسى الأشعري ﵁ للأمر الذي رآه وأدبه أيضًا مع ابن مسعود ﵁: (**يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفًا أَمْراً أَنْكَرْتُهُ**) لاحظ تعبيره بـ«أنكرته» ولم يقل إني رأيت أمراً منكراً؛ جزما منه بأن الأمر منكر، وإنما قال: «أنكرته» يعني رأيت أو ظهر لي أو تبين لي أنه منكر.

(**وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**)؛ يعني الشيء الذي أنكرته هو في ظاهره خير؛ ذكر لله ﷻ وتسبيح وتحميد وتهليل.

(**قَالَ: فَمَا هُوَ؟**) يعني ما هو هذا الأمر الذي رأيته وأنكرته؟

(**فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ**)؛ يعني إن كتب الله ﷻ لك حياة فسترى هذا الأمر،

ولعله هنا يرِد قول الناظم:

اللهُ أخَّــــرَ مَـــوْتَتِي فَتَــــأَخَّرَتْ

حَتَّـى رَأَيْـتُ مِـنَ الزَّمَـانِ عَجَائِبَـا

فيقول: أنت إن كتب الله لك حياة فسترى هذا الأمر الذي أنكرتُه وستقف عليه في المسجد كما وقفتُ عليه.

وقول أبو موسى ﷺ هنا «سَتَرَاهُ» يدل على أن هذا الأمر أصبح متكرراً في المسجد بحيث أنه جزم بأنه سيراه لأنه أمر متكرر.

**(قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً)**؛ فهذه الأمور جعلت أبا موسى الأشعري يقول: «**وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**»:

- الجلوس في المسجد؛ هذا أمر.
- انتظار الصلاة؛ هذا أمر آخر.
- ذكر الله ﷻ بألفاظ شرعها، بل يحبها ﷻ، بل هي أحب الكلام إليه كما قال ﷺ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»[١]، وقال ﷺ: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ

(١) رواه مسلم (٢١٣٧).

أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[١]، وفي هؤلاء الكلمات ورد أحاديث كثيرة تدل على عظم فضلها ورفعة مكانتها وعظم ثوابها عند الله[٢].

فَهُم في المسجد، وفي انتظار الصلاة، وفي ذكرٍ لله ﷻ بألفاظ يحبها الله ﷻ بل هي أحب الكلام إليه ﷻ، ولكنَّ طريقة الذكر والصفة التي اجتمعوا عليها بحيث يقوم عليهم رجل، وبحيث أيضا يأتون بهذه الأذكار جماعةً بصوت واحد، وأيضًا باستخدام الحصى للعد كلما فرغوا من مئة عدوا مئة أخرى بالحصى؛ هذه أمور لم تكن موجودة بين الصحابة ﷺ.

وأخذ يمارسها هؤلاء في المسجد والصحابة متوافرون، وعبد الله بن مسعود ﷺ كانت وفاته في سنة اثنين وثلاثين، وكان أكثر أعيان الصحابة موجودون في ذاك الوقت، وعدد من المبشرين بالجنة كانوا موجودين في ذلك الوقت، وعدد من فقهاء الصحابة كانوا موجودين كذلك؛ ومع ذلك انشغل هؤلاء بهذا الأمر الذي لا أصل له بهذه الصفة في دين الله ﷻ، والذي دفعهم إليه هو حب الخير والرغبة في الخير ولكن بدون رجوعٍ إلى أهل العلم وحملته، وبدون فقهٍ وبصيرة في دين الله ﷻ.

**أيضا لاحظ هنا**: أنها حِلق وليست حلقة واحدة؛ وهذا يدل أن البدعة تجُرّ

---

(١) رواه مسلم (٢٢٦٩٥).

(٢) ولشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة لطيف بعنوان «فضائل الكلمات الأربع»، وطبعت كذلك ضمن «الجامع للمؤلفات والرسائل» (١٤/ ١٠٧).

إلى البدعة، وفتح الباب على الناس في البدعة يجعل الجهال ومن لا علم لهم بدين الله ﷻ يدخلون في البدعة وينغمسون فيها، وهذا أمر معروف من حيث الواقع؛ أن الناس كثير منهم يوجد عنده رغبة في الخير وأيُّ أمرٍ يُذكر له أنه خير ينشره ويعمل به دون تمحيص، ولعلكم تلاحظون الآن يكثر في زماننا إما أوراق مكتوبة أو عبر رسائل الجوال تُذكر أعمال ويُذكر ترغيب فيها والعمل لا أصل له والترغيب لا أصل له ولا دليل عليه، وتجد الناس ينشرونها، وإذا قيل لأحدٍ هذا لا أصل له قال: (والله ما أردنا إلا الخير، نريد أن ننتشر الأعمال الصالحة، وأن ننشر الخير بين الناس)، فكثير من الناس رغبته الشديدة في الخير وفي الوقت نفسه قلة بصيرته وعلمه بالدين تجعله إما يمارس البدعة، أو يدعو إلى البدعة، أو يكون من أنصار البدعة؛ وينفتح عليه باب الإحداث والابتداع في دين الله ﷻ واتباع الأهواء. فهي ليست حلقة واحدة وإنما عدة حِلق في المسجد، لكنها يقيناً بدأت بحلقة واحدة، وهذه الحلقة وعليهم رجل سبِّحوا مئة، يدخل الناس المسجد ويرون جماعة ويسبحون ويهللون ويكونوا ناس لا علم لهم يقولون: لماذا لا نكون مثل هؤلاء أهل الجد والاجتهاد في الذكر والمواظبة على ذكر الله ليسوا غافلين، لماذا لا نفعل مثلهم؟ فتبدأ حلقة ثانية، والحلقة الثانية تنادي الحلقة الثالثة، والثالثة تنادي الرابعة وهكذا، فنشأت الفرق والبدع والجماعات هذه بداياتها، حتى الآن الفرق المحدثة تنشأ فرقة ثم يُعجب بها أفراد من الناس جهلة بدين الله فأيضاً يختطُّون لأنفسهم فرقةً أخرى فتكثر الضلالات والأهواء

في الناس ويذهب عنهم العلم والدراية بسنة النبي ﷺ.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: **(قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟)**؛ يعني لما رأيتهم على هذه الحال ماذا قلت لهم؟

**(قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ)** يعني انتظار ما تأمر به أو ما توجِّه إليه، وهذا أيضًا واجب الناس مع أهل العلم والفقهاء؛ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عنده علم وعنده فقه ولكن ابن مسعود رضي الله عنه منزلته في الفقه ومكانته فيه معروفة، ولهذا لم يكتفِ بإنكاره هو لذلك - وإنكاره لذلك كان عن فقهٍ ولكنه دون مكانة ابن مسعود رضي الله عنه في الفقه - فانتظر حتى يلقى ابن مسعود رضي الله عنه ويعرض عليه الأمر.

قال رضي الله عنه: **(انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ)**: أي توجيهك في هذا الأمر.

**(قَالَ: أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء؟)**؛ يعني أفلا قلت لهم عدّوا سيئاتكم، لأن العمل الذي يقومون به عمل غير مشروع؛ حتى وإن كانوا يسبِّحون ويهللون ويحمدون، العمل الذي يقومون به غير مشروع في دين الله، والله سبحانه وتعالى لا يقبل العمل إلا إذا كان مشروعًا مأمورًا به أمر استحبابٍ أو أمر إيجاب، أما التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالعمل الغير مشروع هذا من موجبات رد العمل وعدم قبوله كما قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه، ولهذا قال: **(أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ**

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

**أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء).**

(**ثُمَّ مَضَى**)؛ يعني بعد أن قال لأبي موسى رضي الله عنه هذا الكلام.

(**ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟**) والاستفهام هنا استفهام إنكار، فهو يستنكر هذا الأمر الذي هم عليه، ما هذا الأمر الذي أنتم تصنعون؟ قوله «**مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟**» هذا استفهام إنكار؛ هو لا يسألهم هنا عن هذا العمل هل أنتم تصنعون عملاً مشروعا؟ هل عندكم دليل عليه؟ هو لا يسألهم عن ذلك، وإنما ينكر هذا الفعل الذي يصنعونه، وفهموا من كلامه أنه يسألهم عن صفة العمل؛ ما صفته؟ وصفته ظاهرة له، سمع بها ورآهم عليها، ففهموا أنه يسألهم عن صفة العمل أو طبيعة العمل الذي هم عليه فأخذوا يشرحون له عملهم: (**قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ**).

(**قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ**)؛ عدّوا سيئاتكم لأن العمل هذا الذي تعملونه ليس من شرع الله ولا دليل عليه في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، ولم يكن يعمله الصحابة الذين هم قدوة للناس، ومر معنا ثناء الله سبحانه وتعالى على أتباع الصحابة بإحسان ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهذا الذي عليه هؤلاء أصحاب تلك الحِلق ليس من الاتباع في شيء بل هو من الإحداث في دين الله سبحانه وتعالى؛ فلهذا قال لهم: (**عُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ**).

**لاحظ هنا ملاحظة مهمة**: القوم يذكرون الله، وابن مسعود ﷺ يقول لهم: (عدوا سيئاتكم)!! وأعظم من ذلك: يذكرون الله ﷻ بأفضل الذكر الذي هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وابن مسعود ﷺ يقول: (عدوا سيئاتكم)!! فإذا كان ابن مسعودٍ قال هذا الكلام في حق من اجتمعوا في المسجد انتظاراً للصلاة مسبّحين مهللين حامدين مكبرين وقال في حقهم هذا الكلام؛ فكيف بمن اجتمعوا على غير دين الله لا في الصفة ولا في الذكر ولا في الهيئة إلى غير ذلك!! مثل من يجتمعون في المسجد يُنشدون الأناشيد بصوت واحد، وإذا كان أنكر ابن مسعود من يسبح ويهلل ويكبر جماعةً بهذه الصفة فكيف بمن يجتمعون للأناشيد أو خرافات أهل الفرق الباطلة وضلالاتهم أو أذكارهم المحدَثة، فالأمر ولا شك أعظم وأفظع.

(**وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ**) يعني ما أسرع سيْركم إلى طريق الهلكة، ما أسرع ذهابكم إلى طريق الهلكة.

و«ويح»: هذه كلمة يؤتى بها للتقريع والزجر ونهر الإنسان عن الأفعال القبيحة الذميمة المنكرة، (ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم) يعني: ما أسرع سيْركم إلى الهلكة.

(**هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ**)؛ يعني موجودون.

وهذه الكلمة؛ قوله: (هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون) تشير إلى أن أصحاب تلك الحِلق ليسوا من الصحابة وإنما من المسلمين الذين هداهم الله ﷻ إلى

الإسلام وعرفوه من طريق الصحابة ثم اجتهدوا في فعل أعمالٍ في الإسلام يتقربون بها إلى الله لم يروا عليها الصحابة، وطريق الإسلام إليهم جاء من طريق الصحابة، فأخذوا يعملون أعمالاً ليست من هدي الصحابة ولا من طريقتهم ولا من سبيلهم، ولهذا قال: (صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ) مشيراً بذلك إلى قاعدة عظيمة مهمة في الباب قررها الإمام مالك رحمه الله: «..فما لَم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»[(١)]، بل قررها حذيفة رضي الله عنه كما تقدم قريبا عندما قال: «كل عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها».

فهذا مراد ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: (صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ) منبهًا إلى هذه القاعدة: أن كل عمل يتقرب إلى الله به ليس عليه عمل الصحابة وليس معروفًا عند الصحابة فهو بدعة، ولهذا جرت عادة أهل العلم في إنكار الأمور المحدثات بالتنبيه إلى أن هذه لم تكن موجودة عند الصحابة رضي الله عنهم، فهل يكون هذا الأمر الذي يعمله هؤلاء خيرٌ حجبه الله عن الصحابة وحرم الصحابة منه وادّخره لهؤلاء؟! قل هذه الكلمة لأصحاب الموالد وأصحاب الاحتفالات؛ قل لهم: هذا العمل الذي تمارسونه الآن وتدّعون أنه إظهار لمحبة النبي ﷺ هل هو خير ادَّخره الله لكم وحجبه عن أبي بكر، وحجبه عن عمر، وحجبه عن عثمان، وحجبه عن علي رضي الله عنهم؟ حجبه عن هذا الصدر المبارك! حُرموا منه وفزتم به!! حُجب عنهم وادّخر لكم؟ أيمكن ذلك؟

(١) «الاعتصام» (١/ ٢٨).

من كان عنده أدنى تأمل وأدنى فهم في هذا الأمر لأبصر ما عليه هؤلاء من ضلالة ومخالفة للهدي القويم والصراط المستقيم، لأننا نجزم يقيناً أن هذا الأمر لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم السبّاقون، ولاحظ هنا هذه اللفتة الكريمة في الآية؛ الله ﷻ وصفهم بالسبق وجعل فرضنا في هذا الباب اتباعه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ ولهذا حظنا من الخير بحسب اتباعنا لهم، أما السبق إلى الخير من جميع أبوابه فهو حظهم، فكل خيرٍ لم يوجد عندهم أو بينهم أو فيهم فليس خيراً وليس من دين الله، لأنهم السبّاقون لكل خير، بل كل خيرٍ وصل إلى الأمة بعدهم وصل إليها من طريقهم هم نقلته، نقلة الخير إلى الأمة، سمعوه من النبي عليه الصلاة والسلام وتحملوه بأمانةٍ وصدق وبلّغوه الأمة.

فهذا أصل في هذا الباب من فقِهه سلِم من البدع، من روّض نفسه عليه سلِم من البدع.

«**أيُّ عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**»: وهذا الأثر يفتح لك أيضا بابًا عظيما في فهم هذا الأصل؛ وهو أن تقول: إذا كان هذا الأمر الذي حدث حدَث في زمن الصحابة، وأعيان الصحابة موجودون ومتوافرون، ومع ذلك وُجد والصحابة بين أيديهم؛ فلأن توجد محدثات أكثر بعد زمانهم من باب أحرى وأولى.

وهذا أيضا يفتح لك بابًا آخر في الفهم وهو: أن لا تستصغر في عينك بدعةً،

فالبدعة أيًا كانت عظيمة وخطيرة وتجر صاحبها إلى مخاطر عظام جداً، فلا تستصغر بدعةً ولا تقالّها؛ بل إياك وإياها؛ احذرها حذرا شديدا.

قال: (**وَهَذِهِ ثِيَابُهُ** -أي النبي ﷺ- **لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ**)؛ مشيراً إلى أن موته ﷺ مبلّغا الدين كاملاً غير منقوص كان عهده قريب، كم بينهم وبين وفاة النبي ﷺ؟ ربما لا يزيد على عشرين سنة، إذا قلنا ابن مسعود رضي الله عنه توفي في السنة الثانية والثلاثين فيكون بينهم وبين وفاة النبي ﷺ في حدود عشرين سنة، يعني وقت قريب.

(**ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ**) ثم تذهبون تفتتحون هذا الباب في الإحداث في الدين والصحابة لا يزالون بينكم؟! فإذا كان هذا وُجد في ذاك الوقت فما بالكم بالأوقات المتأخرة؟!

ثم قال: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلالَةٍ**) وجاء في بعض الروايات: (لَقَدْ جِئْتُمْ بِبِدْعَةٍ ظُلْمًا، أَوْ لَقَدْ فَضَلْتُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ عِلْمًا)[(١)]، لأن هذا العلم الذي عندكم والعمل الذي تمارسونه لا وجود له بين الصحابة، وهنا يقول: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلالَةٍ**) كأنه يقول لهم: أمامكم خياران ليس لهم ثالث؛ الخيار الأول: أنكم على ملة خير من ملة محمد ﷺ،

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٤٠٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٠).

وتأمل هذا الكلام القوي الذي أطلقه ابن مسعود ﷺ في حقهم، مع أنهم كانوا يمارسون نوعًا من الذكر المشروع بصفة غير مشروعة فقال: (أنتم على ملة هي خير من ملة محمد ﷺ، أو مفتتحوا باب ضلالة) وانظر أيضا متأملاً قوله: «أو مفتتحوا باب ضلالة» ففي هذا تنبيه إلى أن الدخول في البدع الصغار يجر إلى بدع كبار. وقوله: (**مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلالَةٍ**) تشمل أمرين:

١- فتحتم باب ضلالة على أنفسكم؛ بحيث تتوسعون في البدع وتكبر فيكم البدع وهذا سيأتي شاهده من الحديث.

٢- وأيضًا تحتمل معنى آخر: مفتتحوا باب ضلالة على الناس؛ فتستمر هذه البدعة ونظائرها وأمثالها وينطبق عليكم الحديث: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)[1]، وليس من شرط الإنسان أن يسن السنة بقوله بل بفعله، مثل ما حصل من هؤلاء في سن هذه الطريقة في الذكر.

فجاء منهم الاعتذار: (**قَالُوا: وَاللهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلاَّ الْخَيْرَ**) يعني لم نُرِد بهذا العمل إلا الخير، ما أردنا شراً، ما قصدْنا إحداثًا في الدين، وما قصدْنا افتتاح باب ضلالة، ما أردنا إلا الخير.

وهذا لسان حال كثيرين ممن يعبدون الله ﷻ بغير بصيرة وبغير هدى من دين الله، إذا سُئلوا عن الأمر الذي يعملونه أحيانا يقولون: (ما أردنا إلا الخير)،

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

وأحيانا يسمّون أمراً يدل على أنهم ما أرادوا إلا الخير، يعني مثلا من يقيمون الموالد يقيمونها بزعمهم لإظهار محبة النبي ﷺ، إظهار محبته خير أرادوه لكن المسلك الذي سلكوه غير مشروع ولا دليل عليه في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ ولا في عمل الصحابة الأخيار رضي الله عنهم وأرضاهم، ولو كان فيه خير لسبقنا إليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأعيان الصحابة الذين هم أشد الناس حبًا للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: (**وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ**)؛ يعني كم من إنسان أراد الخير ولكنه لا يصيب الخير، إذاً إذا كان ليس كل من أراد الخير أصابه من الذي يصيب الخير؟ من وُفق للسنة ولزومها والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ والحذر من المحدثات؛ من كان بهذه الصفة أصاب الخير، أما الذي يفتتح لنفسه ولغيره أبواب العمل والتقرب إلى الله تبارك وتعالى بغير ما شرع الله سبحانه وتعالى فهذا أمرٌ في غاية الخطورة.

ثم ساق ابن مسعود رضي الله عنه لهم حديث النبي ﷺ في شأن الخوارج قال: (**وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَ أَنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**)؛ لاحظ إيراد حديث الخوارج هنا وهو أن من يفتتح باب البدعة على الأمة ليس من لازم افتتاحه باب البدعة أن يأتي بأمرٍ لا أصل له مطلقًا من الدين؛ بل يأتي بأعمال مشروعة ثم يضيف لها إضافات فتخرج عن حيِّز السنة، فهنا يأتي بالذكر ولكن يضيف له بعض الصفات بحيث يخرج به عن السنة وعن

الدين عن هدي النبي الكريم ﷺ. فأورد هذا الحديث لينبه على هذا الأمر، يعني أن البدعة تكون أحيانًا في الإتيان بالأمر المشروع ثم يضاف إليه إضافة غير مشروعة، فهنا هؤلاء في بداية أمرهم أتوا بالذكر وأضافوا إليه ما ليس منه، ثم انتقلوا إلى أمر آخر وهو أنهم جاءوا بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أرادوا إنكار المنكر وأضافوا إليه حمل السيف على الأمة، ثم إنكار المنكر الذي هو بزعمهم منكر، وهو في حقيقة الأمر ليس منكراً وإنما هو منكر بزعمهم؛ لأنهم جهلة في دين الله.

فلاحظ كيف يرتقي بهم الضلال!! ينفصلون عن أهل العلم وعن الرجوع إلى العلماء ويستقلون بآرائهم مع جهلهم بدين الله تبارك وتعالى، ثم يحصل منهم رفع السيف زعمًا منهم أنهم يريدون إنكار المنكر، يرفعون السيف على الأمراء وعلى العلماء وعلى أفراد المجتمع لأنهم على ضلال بزعم هؤلاء.

قال: **(وَأَيْمُ اللهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ)**؛ يعني كأنه توسم فيهم ورأى من حالهم أو علم من حال من فتح على نفسه باب الضلالة أنه تجرّه إلى ضلالات أكبر فقال رضي الله عنه: **(لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ)**.

**(ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ)**؛ يعني ذهب وتركهم.

**(فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ رضي الله عنه: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ)**؛ رأينا عامة هؤلاء: يعني جُلّ هؤلاء، ويكون معنى هذا أن بعضهم اهتدى ورجع وترك، وعامتهم يقول عمرو بن سلمة رأيناهم «**يُطَاعِنُونَا يَوْمَ**

**النَّهْـرَوَانِ**»: والنهروان: هي المعركة التي دارت بين علي ﷺ وبين الخوارج وقَتل ﷺ منهم خلْقاً عظيما بعد أن اجتهد في مناصحتهم وأرسل لهم ابن عباس ﷺ وناظرهم ورجع منهم من رجع ثم امتنع منهم من امتنع وقاتلهم رضي الله عنه وأرضاه.

فيقول عمرو بن سلمة: (**رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ**)؛ وهذا كما قدّمت فيه فائدة عظيمة في خطورة البدع والتحذير منها من جهة أن الإنسان لا ينبغي أن يتقالّ بدعة أيًا كانت، بل يحذر من البدع، فالبدع تجر إلى بدع، والبدع الصغار تجر إلى بدع كبار والأمر جد خطير.

والواجب على الإنسان أن يحفظ إسلامه؛ ومن حفظ الإسلام: الحذر من البدع، ومن أبواب نيل فضائل الإسلام: البعد عن البدع، لأن البدعة تضر بالإنسان وتضر بعمله وتسبب رد العمل وعدم قبوله وعدم نيل فضائل الإسلام.

فتوَّج المصنف ﷺ كتابه «فضل الإسلام» بالتحذير من البدع مع أنه سبق أن عقد أبواباً متعددة في التحذير منها، لكن هذا التكرار وهذه المعاودة للبيان كله تنبيهٌ على خطورة البدع وشدة ضررها على أصحابها في البُعد عن الإسلام وهديه القويم وسَننه المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم ختم ﷺ كتابه بقوله: (**والله المستعان وعليه التكلان**)؛ أي أن العون من الله والتوكل على الله، فكأنه ينبهك هنا قائلا: يا من عرفت الحق الزم الحق واستعن

على لزومه بالله ﷻ وتوكل عليه، منبهًا بذلك إلى قول النبي ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[١]، فما ينفعك بسطَه لك في هذا الكتيب «فضل الإسلام» وعرفته؛ فاطلب من الله ﷻ العون، وتوكل على الله ﷻ بحفظ هذا الأمر والمحافظة عليه والثبات عليه، **(والله المستعان وعليه التكلان)** لأن الأمر بيده ﷻ.

ثم ختم بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قائلا: **(وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين)**، وبهذا انتهى هذا الكتاب.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا بما علّمنا، وأن يجعل ما تعلمناه حجة لنا لا علينا، وأن يغفر لمؤلفه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وأن يجزيه خير الجزاء على هذا الكتاب العظيم وعلى كتبه الأخرى العظيمة النافعة التي ترتب عليها خيرٌ عظيم ونفعٌ عميم وفوائد جليلة لأمة الإسلام؛ فجزاه الله عن أمة الإسلام خير الجزاء وأوفره، إنه ﷻ سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

# فهرس الموضوعات


مقدمة المعتني........................................ ٥

مقدمة الشارح........................................ ٩

**الباب الأول**: باب فضل الإسلام........................................ ١٣

**الباب الثاني**: باب وجوب الدخول في الإسلام........................ ٦٧

**الباب الثالث**: باب تفسير الإسلام........................................ ١٢٠

**الباب الرابع**: باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾........................................ ١٤٨

**الباب الخامس**: باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه ١٦٠

**السادس**: باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام ........... ١٧٧

**الباب السابع**: باب وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه..... ٢٠٢

**الباب الثامن**: باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر.................. ٢٣٤

**الباب التاسع**: باب ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة.... ٢٥٩

**الباب العاشر**: باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ٢٧٧

**الباب الحادي عشر**: باب قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ٣٠٣

**الباب الثاني عشر**: باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء......... ٤٣٤

**الباب الثالث عشر**: باب ما جاء في التحذير من البدع................. ٤٦٦

فهرس الموضوعات........................................ ٥١٩

# صدر للمؤلف

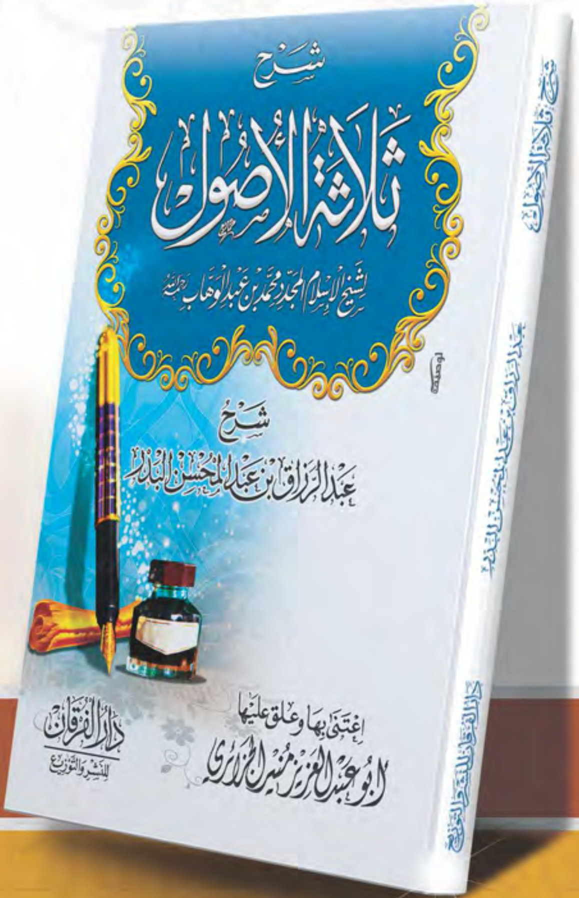


ISBN 978-9931-616-53-5